مقرر تدريس هذا الكتاب بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية

الأدب العربي وتاريخه

في

عصري صدر الإسلام والدولة الأموية

الجزء الأول

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

الطبعة الثانية

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحا لغويا بلاغيا]

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / ٧٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على محمد الذى بعثه الله فى تلك الأمة الأمية ، هاديًا للحقّ وإلى صراط مستقيم ، قاضياً على العصبية الهادمة ، والأوهام الشائنة ، ناشراً الدّين ولغته فى مشارق الأرض ومغاربها ، معجزاً بالقرآن ، متحدّثاً بأحسن بيان .

وبعد : فإنى أستعين الله وأسأله السداد فيما أقدمه لقرّاء العربية عامة ، ولطلبة السنة الثانية من كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية خاصة، من دروس فى تاريخ الأدب العربى ، تنتظم عصرين من أزهى عصوره ، وهما : عصر صدر الإسلام ، وعصر الدولة الأموية ، متبعاً فى ذلك طريقة الفصل بينهما ، إذ كانت لكلٍّ ميزاتٌ ظاهرة تجعله جديراً بالاستقلال فى مناحى الحكم .

وكنت قد أخرجت هذا الكتاب منذ خمس سنوات ، وما زلت منذ ذلك الحين أتناوله بالتنقيح والتحقيق ، حتى استطعت بعون الله أن أظهر طبعته هذه على وجه يرضينى . ورجائى إلى الله أن ينفع بهذا العمل ، فإنى لم أرد به إلا وجهه ، وكفانى ذلك شرف مقصد ؟

محمود مصطفى

مدرس الأدب فى تخصص المادة

بالجامعة الأزهرية

عصر صدر الإسلام

هو العصر الثانى من عصور اللغة العربية . يبتدئ بقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام بمكة ، وينتهى بانقضاء أيام الخلافة ، وانتقال الولاية إلى ملك عضوض على يد ملوك بنى أمية سنة (٤١) إحدى وأربعين من الهجرة النبوية .

ومدة هذا العصر (٥٣) ثلاث وخمسون سنة . فقد مكث رسول الله بمكة يدعو إلى الإسلام اثنتى عشرة سنة قبل الهجرة ، وقامت الدولة الأموية سنة ٤١ منها ، فمجموع ما قبل الهجرة وما بعدها إلى قيام هذه الدولة هو ٥٣ سنة .

وإذ كنت تعرف أن لكلّ عصر عوامل وأسبابًا أثرت فيه ، فتراءت صورتها فى اللغة ، وتجلت فى الفكر والخيال ، فاعلم أن هاتيك الأسباب كانت فى هذا العصر قوية غالبة ، سالبة واهبة ، فكانت نتائجها واضحة لا خفاء فيها .

العرب بين الجاهلية والإسلام

يسمى العصر من مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى قيام الدولة الأموية « عصر صدر الإسلام » كما يسمى العصر الذى قبله « العصر الجاهلى » .

والمطلع على أحوال العرب فى قديم أيامهم يعرف أن الطيش والخفة إلى الشرّ ، والغرام بالانتقام ، واستباحة المحارم ، كانت ألصق بهم من الجهل وعدم المعرفة ، وأدلّ عليهم من الأمية وإهمال التثقيف ، لذلك اشتقّ الإسلام لهم لفظ الجاهلية ، من الجهل بمعنى الطيش والخفة إلى الشرّ ، وسمى القرآن ما كانوا فيه حمّية الجاهلية ، لأنهم كانوا جهلاء غير حلماء ، وشراراً غير خيار ، ومهاجمين غير موادعين .

ولم يكن لفظ يصلح لوصفهم ، وقد بدلوا من الطيش وقاراً ، ومن الاستباحة استنكاراً ، ومن الظلم نصفة ، ومن الوثوب مهادنة . إلا كلمة « إسلام » ، لأنها أخت

السلام والمسالمة، وهما ضد الحرب، ومن مستلزمات هذا المعنى الطاعة والانقياد، حتى جرى الاصطلاح الدينى على تعريف الإسلام بأنه الانقياد لأوامر الله وطاعته بأداء مايرضيه.

أثر الإسلام فى العقول

ليس أدلّ على الغباء وضعف العقل من عبادة صنم أو وثن[1] لا ينفع ولا يضرّ، ولايُحلى ولا يُمر. ينحته اليوم من الصخر ناحته، أو يتخذه من المعدن صانعه، ثم يكب فى الغد أمامه عابداً مبتهلا، داعياً عند الملمّ، مستشيراً فى المهمّ، ولم يكن جميع العرب عبدة أوثان، بل لقد انبثت فى صحرائهم هذه جميع أنواع العبادات المعروفة فى العالم لوقتهم، ومرجع ذلك إلى أن هؤلاء القوم كانوا يخالطون الأمم بالتجارة والرحلة، وكان كثير من الناس يطرءون على بلادهم فاتحين أوفارّين من وجه الظلم، فكلّ ذلك جعل البلاد مباءة المجوسية والوثنية واليهودية والنصرانية، كما أن ديانة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت لها بقايا وشعائر احتفظ بها قوم من العرب، وقد جاء فى كتاب طبقات الأمم، لصاعد الأندلسى فى الكلام عن ديانات العرب ما يأتى:

«وكانت دياناتهم مختلفة، فكانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدَّبَران ولخم وجُذام المشترى، وطيئ سُهَيْلا، وقيس الشِّعْرَى العَبُور، وأسد عُطارداً، وكانت ثقيف وإياد تعبدان شيئاً بأعلى نخلة يقال له: «اللات»، وكان لحنيفة صنم من حَيْس، فلحقتهم مجاعة فى بعض السنين فأكلوه. قال بعض الشعراء:

أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّهَا عَامَ التَّقَحُّمِ والمجاعهْ
لم يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِـمْ سُوءَ العَوَاقِبِ وَالتَّبَاعَهْ»

---

(١) الصنم: التمثال على صورة إنسان من حجر أو غيره، والوثن: الحجر الغفل من الصنعة، واسمهما العام: الأنصاب، فإن اتخذ المعبود من خشب فهو البعيم، فإن كان من صمغ أو رخام أو عاج، فهو الدمية.

هكذا كان العرب فى الجاهلية إلا من ارتقى فكره ، فنبذ هذه الآلهة ، واستدلّ بالكون وما فيه من آيات على وجود مدبر له ، لايحده العقل البشرى .

كذلك كانوا مغمورين بأوهام لا حدّ لها: من زجر الطير[١] ، والطَّرْق بالحصَى ، والكِهانة ، والعِرافة[٢] ، إلى الهامة ، واستهواء الجن ، وتعليق الحلى على الملدوغ[٣] ، وأن دم الرئيس يشفى من الكلب والجنون[٤] ، إلى غير ذلك . فجاء الإسلام قاضياً على كلّ هذا ، داعياً إلى عبادة إله «لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» ، وأفهمهم أن « عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ، وقضى على كلّ هذه الترهات ، بدعوتهم إلى النظر فى الأسباب وتحكيم العقل .

أثره فى الحياة الاجتماعية

كان العرب فى جاهليتهم على أخلاق لا تضمها آصرة واحدة ، ولا يجمعها أصل ثابت ، فحماية للمستجير ، واعتداء على الآمن الوادع ، وجود على الضيف ، واستلاب لعابر السبيل . ودفاع عن الحرم ، وانتهاك لها ، وجنون بالعصبية ، ومحاربة لابن العمّ ؛

(١) كانوا يتفاءلون بالسانح ، وهو الذى يمرّ من جهة اليمين ، ويتشاءمون بالبارح وهو المارّ من جهة اليسار .

(٢) قيل هما بمعنى واحد ، وهو استطلاع الغيب ، وقيل الكهانة استطلاع المستقبل ، والعرافة الاخبار بالماضى .

(٣) يقول الشاعر يصف لديغ حية :

يُسَهَّدُ فِى لَيْلِ التَّمامِ سَليمُهَا ... لِحَلْىِ النِّسَاء فى يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

(٤) فى الأوّل قول الشاعر :

بُنَاةُ مَكَارِمٍ وَأُساةُ حِلْمٍ ... دِمَاؤُهُمُ مِنَ الْكَلَبِ الشِّفَاءُ

وفى الثانى قول الآخر :

وَدَاوَيْتُهُ مِمَّا بِهِ مِنْ مجَنَّةٍ ... دَمَ ابْنِ كُهَالٍ وَالنِّطَاسِىُّ وَاقِفُ

هذا إلى تعامل مبنى على الغبن فى الربا الفاحش ، والمقامرة المُدْقِعة ، والخمر المبيدة . فجاء الإسلام فاستلّ من نفوسهم سخائم الجاهلية ، وأبطل نُعَرتها ، وقضى على العصبية ، فشمل المسلمين إخاء ومودة ، وصاروا بعد التنابذ والتقاطع كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » ، ثم قال فى الامتنان على العرب بتأليف قلوبهم : « وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » ، وقد عمل النبيّ على محو هذه السوءات الجاهلية ، فشرع للناس التساوى بقول الله : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى » ، وقوله : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ » كما أزرى على من جنح إلى النزعات الجاهلية بقوله لأبى ذرّ وقد عيّر رجلا بأمه : (إنك امرؤ فيك جاهليّة) ، وقوله فى الحديث الشريف : « مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ[1] يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقُتِلَ ، قُتِلَ قِتْلَةً جَاهِلِيَّةً » .

كذلك أوجب الإسلام مراعاة الحقوق ، وأداء الديون ، ووفاء الكيل والميزان ، وأمّن الضعيف ، وأذلّ العاتى ، وحرّم الخمر والميسر . فبطلت الأحقاد ، وهدأت ثورة النفوس .

فهل كان لقوّة غير الإسلام أن تغير ما وطّده فى النفوس مضىّ العهد وضرورة البيئة ؟ وهل كان العائش فى الجاهلية يستسيغ فى خياله أن يرى العربى بعد ذلك وهو يساكن الفارسى أو الرومى ، والعربى فى السلاح ، وصاحبه أعزل مغلوب على أمره ، ثم هو آمن على نفسه وعياله ؟ كلا ! ولكنه هُدَى الله يهدى به من يشاء من عباده .

وليس أدلّ على الفرق بين الحالين حال الجاهلية والإسلام مما رواه جعفر بن أبى طالب (وكان أحد الذين هاجروا إلى الحبشة) قال للنجاشىّ وقد سألهم عن حال

(١) جهل وضلالة .

المهاجرين إلى بلاده : « كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميْتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوىّ منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، فصدقناه وآمنا به . . . . . »

أثره فى اللغة

لسنا فى مقام الادلاء بكلّ ما أحدثه الإسلام من أثر فى اللغة العربية فإننا سنوزع الكلام على ذلك فى أبواب الشعر والنثر والخطابة . ولكننا بصدد تصوير عام لهذا الأثر يشمل فى إجماله هذا الروح الذى سرى فى مناحى العربية حتى أبرزها فى ثوب تخالف به ما كانت عليه فى عهدها السابق .

ولست أعزو ما حدث للغة من التغيير إلا إلى شيء واحد هو القرآن الكريم وحديث النبىّ ، لأن العرب إلى بدء الدولة الأموية لم يكونوا اختلطوا بأهل البلاد المفتوحة ، من فرس وروم ، ذلك الاختلاط الذى يظهر أثره فى لغتهم ، فالعرب ما زالوا إلى آخر هذا العصر جنوداً يحملون سلاحهم ، ويتنقلون من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، لايستقرّ بهم المقام ، وإن استقرّ فهم فى الأغلب الشائع مرابطون فى حصونهم ، لا يخالط جمهورهم أهل البلاد التى يحلون بها .

وإلى عهد عثمان لم يكن أولاد السبايا قد بلغوا الحُلُم ، ولم يكن الأعاجم قد قرءوا القرآن . ثم إن العرب كانوا منصرفين عن زخرف المدنية ، لجدّة الإسلام فى نفوسهم

وغلبة التقوى على مشاعرهم ، فهم غير جديرين أن يتأثروا بما رأوا من حال الفرس والروم ، لأنهم عنها مشغولون .

فكلّ ما حدث للغة فإنما مرجعه إلى القرآن الكريم وحديث النبى ، ومظهر ذلك استواء الحجة ، ووضوحُ المحجة ، وهجرُ الحُوشىّ ، والعدولُ عن سجع الكهان مع الزراية عليه ، والتوسعُ فى أساليب الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والتحسين والتقبيح فى وصف الجنة والنار ، والإكثارُ من سَوْق الحكمة ، وضرب المثل ، والاستشهادُ بأحوال السابقين ، والأدبُ فى الخطاب ، ولطفُ الكناية ، وحسنُ البدء والختام ، وتمامُ الربط ، وتجنبُ الإملال فى الحديث المعاد .

ولما كانت الأسباب التى صحبت هذا العصر قوية غالبة أحدثت زيادة فى مادة اللغة بألفاظ نشأت ولم يكن العرب يعرفونها ، وأخرى عرفت بمعان فجدّت لها أخرى ، فمن ذلك: الصلاة، والصيام، والزكاة، والركوع، والسجود، والمؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق ، فقد كانت الصلاة فى لغة الجاهلية مطلق الدعاء ، وكان الركوع طأطأة الرأس ، ولا يفرقون بين الركوع والسجود ، والصيام كان معناه الإمساك مطلقا ، والحج لم يعرف إلا بمعنى القصد . ثم زادت الشريعة فى كلّ ذلك ما هو معروف له من المعانى فى أبواب الفقه . ومثل ذلك هذه المصطلحات : الايلاء ، الظِّهار ، العدّة ، الحضانة ، النفقة ، العتق ، اللقيط ، الآبق ، الوديعة ، العارية ، الشفعة .

أما المؤمن فقد كان معروفاً من الإيمان وهو التصديق ، وكذلك الإسلام كان معناه تسليم الشىء ، والكفر لم يفهموه إلا بمعنى التغطية والستر ، والمنافق لفظ اشتقه الإسلام لمن أبطن خلاف ما يظهر ، أخذوه من نافقاء اليربوع (جحره) ، كما اشتقوا لفظ فاسق من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، ثم عرفت كلّ هذه الألفاظ فى الإسلام بالمعانى التى تعرفها لها . وكذلك لفظ « الجاهلية » لم يكن معروفا عندهم ، ثم أحدثه الإسلام للزمن الذى كان قبل بعثة النبى . ويقولون إن أبا بكر الصديق هو أول من أطلق لفظ «مصحف» على القرآن ، بعد أن جمع فى الأوراق على عهده .

نعم إن مثل هـذا النقل بطريق المجاز كان حاصلا فى العصر الجاهلى ، لأنه من عوامل نموّ اللغة ، لـكنه لم ينقل إلينا فيا نقل من تاريخ الجاهلية ما يدلنا على الزمن الذى انتقلت فيه ألفاظ من معانيها الحقيقية إلى المجازية ، ولا نسبة ذلك إلى من أحدثه من رجالهم ، اللهم إلا ما قيل من أن امرأ القيس أول من شبه المرأة بالبيضة فى قوله :

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

وأن النابغة أوّل من سمى الأرض التى لم تحفر قط ولم تحرث إذا فعل بها ذلك «مظلومة» ، فتبعه العرب فى هذا . « ذكر ذلك الجاحظ فى كتابه الحيوان(١) » .

وهناك ألفاظ أبطل الإسلام مسمياتها فبطلت تبعاً لها ، أو عدل عنها لدلالتها على ما أبغضه من أمور الجاهلية ، أو أبدل بها غيرها مما يناسب ما جاء به الإسلام من خير .

ومما أبطله الإسلام فبطلت ألفاظه قولهم : المِرْبَاع والنَّشِيطة والفُضُول . فالمرباع كان عندهم ربع الغنيمة ، وهو نصيب الرئيس فى الحرب ، وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل الخمس لله ولرسوله . قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » ؛ والنشيطة من الغنيمة ما أصابه الجيش فى الطريق ، قبل أن يصل إلى قصده ، وكان للرئيس مع الربع؛ والفضول ما فضل من القسمة ، مما لا يمكن تقسيمه ، كأسير أو سيف ، قال عبد الله ابن غتمة يخاطب بِسْطَامَ بن قَيْس :

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ(٢)

ومما أبغضه الإسلام فماتت ألفاظه قولهم فى مخاطبة العظيم : (أَبَيْتَ اللَّعْنَ) ، وقول العبد لسيده : (يَا رَبِّى) ، وقولهم للذى لم يحج ، أو لم يتزوج تبتلاً : (صَرُورَة) .

---

(١) ص ١٦١ ج ١ .

(٢) الصفايا : جمع صفىّ ، وهو ما كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة بأخذه قبل القسمة ، وقد اصطفى رسول الله ثم بطل بعده الاصطفاء فمات لفظه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا صَرُورَةَ فى الإِسْلَامِ » ؛ ومنه أيضاً قولهم : « حِجْرًا مَحْجُورًا » ، وله معنيان ردّ السائل بالخيبة ، أو التعوّذ من مخوف ، وتفسيره : حرام محرم .

ومما أبدل به الإسلام غيره قولهم : عِمِ أو أنْعِمْ صباحاً ، وعم أو أنعم مَساء ، فقد استعمل بدلها السلام والرحمة .

القرآن الكريم

«ذلك الكتاب ، لا ريب فيه هدى للمتقين» . أنزله الله على نبيه ، ليكون برهان نبوّته ، ودليل رسالته ، وشرع به سياسة الدين والدنيا ، وضمن السعادة لمن اتبع سبيله ، واهتدى بنوره . حكم بالغة ، وأمثال بمجامع القلوب آخذة ، وحجة تخرس المنطيق ، وتأخذ على الباطل الطريق . قد صاغ من تلك الأمة المفككة العُرى ، المقطوعة الأواصر شعباً يجتمع على كلمة واحدة ، فيغير من نفسه ومن نفوس الشعوب الأخرى مالم تقو على تغييره الأيام ، ولم تطمع فى تحقيقه الأحلام .

وذلك هو القرآن الذى عبد به الله فى كلّ مكان ، وذلّ له كلّ سلطان ، وحاربت باسمه الجيوش ، وثلت به أقوى العروش . وهو القرآن الذى يتغير كلّ شيء وهو محفوظ ، وتدرس كلّ شريعة وشريعته قائمة الصُّوَى والأعلام ، ولا تزال الأيام تمدّنا بالحجة على أنه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد» .

نزوله

وقد نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام ، جاءه به الروح الأمين ، منجماً بحسب الحوادث والمقتضيات ، فاستغرق نزوله بضعاً وعشرين سنة بين مكة والمدينة ،

وكان أكثر ما نزل منه بمكة ، نزل بها ثنتان وتسعون سورة ، ونزل بالمدينة اثنتان وعشرون (تبلغ ثلث القرآن) ، وهى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، والقتال ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصفّ ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والتحريم ، والعصر ، وماعدا ذلك فهو مكى .

ومع ذلك فالاختلاف فى عدّ السورة مكية أو مدنية كثير جدًّا ، حتى إن المجمع عليه من ذلك قليل ، فالرعد مختلف فيها ، وكذلك الفاتحة ، وإن كان الأكثر أنها مكية ، ومما اختلف فيه أيضاً تحديد معنى المكى والمدنى ، وأحسن الآراء أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء أكان بمكة أم المدينة ، وتسمى السورة مكية إذا كان معظم آياتها قد نزل بمكة ، مثل الأنعام تعدّ مكية ، ومنها ثلاث آيات مدنية تبتدئ بقوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ... » الآيات . ومثل سورة الشعراء تعدّ مكية ، مع أن بها خمس آيات مدنية ، تبتدئ من قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » ، وقيل فى التفرقة التقريبية بين المكى والمدنى : إن كلّ مابدئ بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكى ، وما بدئ بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، فهو مدنى ، وكلّ سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية إلا العنكبوت .

والآيات المكية فى الغالب كانت فى التوحيد ، وذمّ الأوثان ، والزراية على عبادتها ، والتوسل بها ، وفى إثبات يوم آخر ، والترغيب فى ثوابه ، والتخويف من عقابه ، وما يتبع ذلك من وصف الجنة والنار والميزان والصراط والحشر .

كذلك تشمل الآيات المكية قصص الأنبياء لتكون سلوة للنبىّ فى وقت عزّ فيه الناصر ، واشتدّ الأذى ، وضاق الذرع . وفى مكة نزلت بعض الآيات فى بيان الآداب التى لا غنى للمرء عنها فى حياته واتصاله بمعاشريه ، كالعفو فى قوله تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » ، وكالمسالمة فى قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وكبرّ الوالدين فى قوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً . . » الآيات . وآخر ما نزل بمكة الإذن للنبىّ بالقتال حين صار مستطيعاً له ، بعد تعهد أهل المدينة بنصره .

وإن التالى للآيات المكية ليجد فيها شدّة وأسراً لا يجدهما فى الآيات المدنية ، ذلك لأن النبىّ كان بمكة مضطهداً ، قليل الناصر ، فكان بحاجة إلى ما يشدّ عضده ، ويربط على قلبه ، فجعل الله له فى قوّة التبليغ ما يجعله يؤمن كلّ الإيمان بفوز حقه على باطلهم ، وقهر دينه لوثنيتهم . ومن أمثلة هذه الآيات قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » ، وقوله : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ، وقوله : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » ، وقوله : « قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

وأما الآيات المدنية فقد كانت فى قصّ حوادث الغزوات واستخلاص العبرة منها للمسلمين كما كانت فى بيان العبادات والمعاملات من صلاة الجمعة ، (وقد شرعت الصلاة العامة بمكة) ، وصلاة الخوف ، والصيام ، والحجّ ، والزكاة ، والقصاص ، والزواج ، والميراث ، والتنبيه على آداب اجتماعية كآداب الاستئذان ، وردّ التحية ، والنهى عن إبداء الزينة ، إلى غيرها من الآداب التى لايصلح الاجتماع بدونها .

جمع القرآن وترتيبه

كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآيات من القرآن إرشاداً للمسلمين فى أمر من أمور دينهم ، أو تجلية لغامض من شئونهم ، أو إجابة لسائل ، أو بشرى بنصر ، أو تعزيراً لمقصر ، أو صفحاً عن مذنب ، أو فضيحة لمنافق ، أو براءة لمتهم ، إلى غير ذلك من أغراضه الشريفة . فإذا كان النبىّ بين أصحابه تلا عليهم ما نزل عليه لساعته ، وإذا نزل عليه فى غير محضر القوم خرج إليهم فتلقنوه منه ، وحفظوه عنه ، يرويه عليه الصلاة والسلام باللهجات المختلفة ، ليسهل على كلّ تلاوته .

وذلك سبب الاختلاف فى قراءاته ، على درجات فى قوّة السند وضعفه ، وكان حول النبىّ كثير يبلغون نيفاً وأربعين من الصحابة، الذين كانوا يعرفون الكتابة منذ الجاهلية، أو من أبنائهم الذين تعلموها بعد غزوة بدر ، حين قبل النبىّ من الأسير الكاتب أن يفتدى نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين . وكان من كتّاب النبىّ : علىّ ، ومعاوية ، وعثمان ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث وغيرهم ، فكانوا يكتبون ما نزل من الآيات فى عُسُبِ النخل أو اللّخاف[١] ، أو الأكتاف ، أوقطع الخزف ، أو الجلود ، والنبىّ يرشدهم إلى موضع الآية من السورة ، فقد ورد فى صحيح البخارى : أن جبريل عليه السلام كان يعارض[٢] النبىّ بالقرآن ، وقد عارضه به فى السنة التى توفى فيها مرتين .

جمع الآيات وترتيبها فى السور متفق على أنه كان أيام النبىّ ، بتوقيف من جبريل عليه السلام ، بدليل أن النبى كان يقرأ سوراً كاملة ، كالبقرة وآل عمران والنساء ، وفى البخارى : أنه قرأ الأعراف فى المغرب ، و (قد أفلح المؤمنون) فى الصبح ، و (هل أتى) فى صبح الجمعة أو خطبتها .

أما ترتيب السور على ما هى عليه فى المصحف ، فقد اختلفوا فيه : أكان فى أيام النبىّ ، أم حصل باجتهاد الصحابة حين جمع القرآن ، ماعدا السبع الطوال ، وآل حاميم فإنها كانت مرتبة على أيام النبىّ ؟

ومات النبىّ والقرآن مكتوب ومحفوظ فى الصدور ، ولكنه لم يكن مجموعاً فى مكان واحد ، إذ كان الصحابة يتنافسون فى اقتناء ما يصلون إليه منه ، وينسخون لأنفسهم سوراً وآيات ، وكان ولاة الأمور مطمئنين لشدّة عناية الصحابة بحفظ القرآن ومدارسته ، ولكن لما قتل من حفظته سبعون فى وقعة اليمامة بين المسلمين ومسيلمة المتنبى، خيف أن يستحرّ القتل فى سائر المواطن ، فيذهب كثير من القرآن بذهاب حفاظه ففزع إلى أبى بكر فى شأن القرآن ، فاتفق الرأى على جمعه فى صحف ، وصيانتها بمأمن ،

(١) حجارة بيض رقاق : واحدها لخفة (بالفتح فالسكون) .
(٢) يتلوه عليه مرتباً ليتلو مثل تلاوته .

(وسمى أبو بكر مجموعه مصحفاً) ، وبقيت هذه الصحف عند أبى بكر مدة حياته ، ثم صارت إلى عمر مدّة خلافته ، وبقيت بعدها عند ابنته حَفْصَة .

وفى أيام عثمان لما اتسعت الفتوح، وتباعدت المواطن ، واختلفت القراءات ، خيف أن تحدث الفتنة من تخطئة القرّاء بعضهم لبعض[1] ، فرأى عثمان دَرْءا لهذا الشرّ أن يكتب عدّة نسخ من المصحف ، ووكل ذلك إلى أربعة من الصحابة ، وهم : عبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث ، وزيد بن ثابت ، الذى يقال إنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن ، قبل وفاة النبيّ . وهو الذى وكل إليه أبو بكر جمع القرآن فى الصحف أوّلا .

كتب عثمان من المصاحف ستة ، أرسل منها أربعة إلى الكوفة والبصرة ومكة والشام ، وأبقى واحداً لأهل المدينة ، وآخر لنفسه ، وهو الذى كان يقرأ فيه حين قتل .

وسمى عثمان مصحفه إماماً ، لأنه قام خطيباً فقال : أنتم عندى تختلفون وتلحنون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشدّ اختلافاً وأشدّ لحناً ، فاجتمعوا يا أصحاب محمد، فاكتبوا للناس إماماً .

ثم أمر عثمان بجمع ما كان قبل ذلك فى الصحف وإحراقه ، وقد اقتصر فى كتابة المصاحف على لغة قريش ، لنزول القرآن بها .

والناس يسمون عمل عثمان رضى الله عنه جمعاً للقرآن ، فعلى ذلك يكون للقرآن جمعان : أحدهما على أيام أبى بكر ، والثانى على أيام عثمان ، فاسمع فى الفرق بين الجمعين قول الإمام السيوطى فى الإتقان : « الفرق بين جمع أبى بكر وبين جمع عثمان ، أن جمع أبى بكر كان خشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع واحد ، فجمعه فى صحائف مرتباً لآيات سوره ، على ما وقفهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع عثمان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءات حين

---

(١) حضر حذيفة بن اليمان غزوة أرمينية وأذربيجان ، فرأى فى سفره اختلافاً بين المسلمين فى القرآن حتى سمع أحدهم يقول للآخر : قراءتى خير من قراءتك ، فلما رجع للمدينة أنذر عثمان بسوء العاقبة إذا لم يتلاف هذا الأمر .

قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك ، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجا بأنه نزل بلغتهم » .

قراءات القرآن

المعروف الآن للقرآن أربع عشرة قراءة : سبع منها مروية بالتواتر ، وبقية العشر آحاد ، وما عداها شاذّ . وقد كانت هناك قراءات أكثر من ذلك لم تدوّن وإن كان قراؤها من الصحابة .

وإنما كان تعدّد القراءات رحمة من الله للعرب ، فإن فيهم الشيخ الذى لايستقيم لسانه إلا بلهجته ، فتحويله عنها وإرادته على غيرها مشقة لم يردها الله بهم ، لذلك قيل إن جبريل نزل على النبىّ بالقراءات المختلفة ، فكان النبىّ يقرئ كلاًّ بلهجته ، فيمدّ بقدر الألف أو الألفين أو الثلاثة لمن لغته كذلك ، ويفخم ويرقق ويُميل ويُشمّ لمن تقتضى لغته ذلك، وكلّ هذا بلغة قريش ومن حولها ، لا يتعدّاها إلى غيرها ، لأن العرب كانت قد سبقت، فأجمعت على لغة قريش قبيل الإسلام ، وخطب بها الخطباء ، وأنشد الشعراء .

واللغات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش هى لغة بنى سعد ، وثقيف ، وخُزاعة، وهُذَيل ، وكِنانة ، وأسد ، وضَبّة ، ثم قيس وأكنافها ، وهم يسكنون وسط الجزيرة .

وقد اختلف العلماء فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ » اختلافاً كبيراً جدًّا ، حتى لقد عدّ السيوطى فى الإتقان أربعين رأيا فى كلمة أحرف ، وقد رجح المرحوم فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى أن المراد من الأحرف السبعة «أنها أوجه سبعة ترجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وتختلف بسببها تأدية تلك الألفاظ ، وقد بنى ترجيحه لهذا المراد على مارواه من

الأسباب التي دعت إلى نطق رسول الله بهذا الحديث ، فهى لا شكّ تحدّد معنى كلمة حرف ، وقد روى تلك الأسباب من طرق عدّة ، منها أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فإذا هو يقرأ على حروف لم يتلقها عمر من رسول الله ، قال فكدت أساوره فى الصلاة ، وتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فسمع منى ، وسمع منه ، وقال لكلٍّ منا: كذلك أنزلت ، « إِنَّ هٰذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » .

وابن قتيبة يعدد هذه الأحرف السبعة ، فيقول :

١ — ما تتغير حركته ولا يزول معناه ، ولا صورته ، نحو : « وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ » (بفتح الراء وضمها) .

٢ — ما يتغير فيه الفعل ، مثل : بَعُدَ وبَاعِدْ ، بلفظ الماضى والطلب .

٣ — ما يتغير بالنقط ، مثل : نُنْشِرُهَا وَنُنْشِزُهَا .

٤ — ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج ، مثل : طَلْحٍ وَطَلْعٍ .

٥ — ما يتغير بالتقديم والتأخير ، مثل : وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ وَسَكْرَةُ الحَقِّ بِالْمَوْتِ .

٦ — ما يتغير بزيادة ونقصان ، مثل: «والذكرِ والأنثى» ، «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى»

٧ — ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى ، مثل : كالعِهْنِ المَنْفُوشِ ، و « كَالصُّوفِ المَنْفُوشِ» .

ولما كثرت وجوه الاختلاف فى القراءة أيام عثمان رضى الله عنه وخشى الفتنة ، جمع الناس على مصحفه ، ولوحظ فى كتابته أن يجمع ما اشتهر من لغات القراءة ، فكتبوا الصراط مثلا فى قوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ » (بالصاد) المبدلة من السين التى هى الأصل ، لتكون قراءة السين (السراط) وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل اللغوى المعروف فيعتدلان ، وكتبوا الصلاة (الصلوة) لتقبل التفخيم

للام وهو بعض القراءات ، وكتبوا : (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ليدلوا على اللغة التى لا تبدل الهـاء من تاء التأنيث ، وهكذا .

أما القرّاء السبعة ، فهم : نافع بن أبى نعيم ، وعبد الله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم بن بهدلة الأسدى ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسائى .

بلاغة القرآن

لا خلاف بين أهل العلم ونقدة الكلام فى أن القرآن لا يدانيه فى بلاغته كلام عربىّ مهما ارتقت درجته ، وعلت ذروته ، ولكنهم اختلفوا ، فقيل : كلّ آياته بمثابة واحدة من التناهى فى البلاغة ، وأن ما يبدو لنا من التفاوت يرجع إلى اختلاف الحسّ ، وقيل : بل تتفاوت مراتب آياته بين الفصيح والأفصح ، ليكون فى مظهره مشبهاً كلام الناس ، وإلا ما صحّ التحدىّ به . وردّ عليه بأنهم لو شعروا بدنوّه من مرتبة كلامهم لحاولوا معارضته ، ولكنهم لم يفعلوا ، فثبت أن سموّه على كلام العرب ليس بقدر معتاد ، فهو لذلك معجز .

والكثير الغالب من أهل العلم اليوم إنما يدركون بلاغة القرآن بالتوقيف ، واتباع آراء السلف فى تعرّف وجوه الكمال فيه ، لأن لمعرفة ذلك وسائل لا تتمّ لنا : أولها السليقة والطبع القوى : وأين نحن من الوليد بن المغيرة الذى سمع من النبى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، فرقّ له وقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر ! !

وأين نحن من ذلك الأعرابى الذى سمع قارئاً يقرأ : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، ومن الآخر الذى سمع : « فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » ،

فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . وحديث إسلام عمر ، (وكان من أشدّ الكفار على النبيّ) حين دخل على أخته وزوجها وهما يقرءان سورة طه ، فرقّ قلبه ، وأتى النبيّ لساعته فأسلم . وإن كلاما يلين قسوة كقسوة عمر فى كفره (وقد ضاق به النبى ذرعا) لا عهد للناس بمثله فى شدّة التأثير ، وإذا أردنا أن نحد وجوه البلاغة فى القرآن ، فإننا لا نتجاوز ما قاله عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز : إن المزية هى لتأليف الكلام ، وضمّ بعض أجزائه إلى بعض ، وتخير كلماته ، وحسن مقاطعه ، مراعى فى ذلك كلّ مقتضيات الأحوال .

وإذا أضفنا إلى ذلك جلال الغرض ، وسموّ المعانى ، وصفاء الحكمة ، وتمام مطابقة المثل ، علمنا أن القرآن جمع الحسن من أقطاره ، فصار نسيج وحده فى البلاغة .

حكم القرآن وأمثاله

فى القرآن كثير من الآيات جرت مجرى الأمثال ، مثل قوله تعالى : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » ، وقوله : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » ، وقوله : « ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ، وقوله : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ، وقوله : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » ، وقوله : « تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » ، وقوله : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » . قيل للحسن بن الفضل : هل تجد فى كتاب الله : «خير الأمور الوسط» . فقال نعم ، فى أربعة مواضع : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » ، و « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » ، و « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » ، و « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » . قيل فهل تجد من جهل شيئاً عاداه ؟ قال : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » . قيل : فهل تجد ليس الخبر كالعيان ؟ قال : « قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » .

هذا إلى الأمثال المضروبة التى لا ترى كوقعها وحسن انطباقها مثل قوله تعالى : « يـأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » ، وقوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » وقوله : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » ، وقوله : « يـأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ، وقوله : « يـأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » .

الايجاز فى القرآن

إن الإيجاز فى الكلام من أدق مسائله ، وبه يتفاضل البلغاء وفيه يتنافسون ، وللقرآن فيه الغاية التى لا تلحق ، شأنه فى جميع مناحى القول . فمن ذلك قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . . » ، فاستقاموا كلمة واحدة تفصح عن

الطاعات كلها فى الائتمار والانزجار ، ولو أن إنسانا عَبَدَ اللهَ مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة . ومنه قوله تعالى : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ، فقد أدرج فيه ذكر كلّ محبوب ، وزوال كلّ مكروه ، ولا شىء أضرّ بالإنسان من الخوف والحزن ، لأن الحزن يتولد من مكروه ماض أو حاضر ، والخوف يتولد من مكروه مستقبل ؛ وليس بعد ذلك من أنواع المكروه شىء ، ومنه : «أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » ، فالأمن كلمة واحدة تنبئ عن خلوص سرورهم من الشوائب، لأن الأمن هو السلامة من الخوف، و إذا قالوا الأمن بالإطلاق ارتفع الخوف عنهم ، ومنه قوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، فهما كلمتان جمعتا ما عقده الله على نفسه لخلقه، وما تعاقده الناس فيما بينهم. وقوله تعالى: « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » ، فلم يبق مفزع لأحد إلا تضمنته هاتان الكلمتان ، وقوله تعالى : « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » ، فهذه الكلمات تجمع من أصناف التجارات وأنواع المرافق فى ركوب السفن ما لايبلغه الإحصاء ، ومنه قوله تعالى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها وحلالها وحرامها ، مع القوّة فى الأمر بقوله اصدع ، ومايشعره لفظ الصدع من الأثر الشديد الذى يحدثه النبى فى نفوس العرب عند التبليغ . ومنه قوله تعالى فى وصف خمر الجنة : « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ » ، فهما كلمتان قد أتتا على جميع معايب الخمر ، ويشمل قوله : ولا يُنزِفون عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب ، ومنه قوله تعالى : «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقد كان للعرب كلمة يعجبون بها و يعدونها من أوابد كلامهم ، وهى قولهم : «القتل أنفى للقتل» ، فلما نزلت آية القرآن تضاءلت أمامها حكمة العرب ، وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق ، فإن الآية كلمتان ، وهما القصاص حياة ، وكلمة العرب أربع ، والآية برئت من التكرار الحاصل فى كلمة العرب ، وفى الآية ترغيب فى القصاص بذكر الحياة المحبوبة وجعلها نتيجة له ، وفى الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص

وأن القتل ليس تشفيا ، وفى الآية تنكير لكلمة الحياة وهو للتعظيم ، والحكمة خطأ إذ ليس كل قتل أنفى للقتل فإن ذلك يشمل الاعتداء والذى ينفى القتل هو القصاص . .

ومن أمثلة الإيجاز فى القرآن قوله تعالى « فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم وما يوردون عليه من ذكر الحادث . ومنه قوله تعالى « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولا يستطيع بليغ مهما بلغ من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذه الألفاظ ، حتى يصل مقطوعها ويبسط مجموعها ويظهر مستورها ، فيقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة فخفت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك نقضت ماشرطت لهم وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض سواء . ومنه قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » جمع فيه جميع مكارم الأخلاق ، لأن فى العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وغض الطرف عن الحرمات ، والتبرؤ من كل قبيح ، لأنه لايجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيئاً من المنكر . وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يوتغ (١) الدين ، ويسقط القدرة .

الكنايات فى القرآن

ومقام الكناية فى التعبير مشهور واضح ، فهى أبلغ من الحقيقة والمجاز ، ثم لها فوق ذلك مرتبة معروفة ، وهى الاقتصار فيها بالمحة ، والاستغناء باللمعة ، والتحرز عن ذكر الفواحش ، مما ينبو عنه الطبع ، ويمجه السمع ، وقد ورد فى القرآن منها ما لايتعلق بغباره بليغ ، فمن ذلك قوله تعالى فى صفة المسيح عليه السلام وأمه : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » فكنى بأكل الطعام عن التغوط والتبول ، لأنهما بسبب منه . إذ لابد للآكل منهما . ومنها أيضاً قوله تعالى :

---

(١) يوتغ : يفسد .

«وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» أى لفروجهم . وقال تعالى : «أَوْلَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ» فكنى بالملامسة عن الجماع إذ لايخلو منها غالباً . وقال تعالى عن المهر : «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» فكنى بالإفضاء عن الدخول كما كنى عن الجماع بالسر فى قوله تعالى : «وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا» وقوله أيضاً «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» ومن كنايات القرآن قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» فقد نفى المثلية عن المثل ، فانتفت بالتبع عن الله ، وهذا طريق أبلغ من النفى المباشر ، لأنه كما يقولون : كدعوى الشىء ببينة .

ومن كنايات القرآن قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» كناية عن آدم . والغرض منها الدلالة على عظم القدرة . وقوله تعالى «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ» كنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب فى ذلك . ولذلك لم يذكر القرآن امرأة باسمها ، فكنى عن زليخا بامرأة العزيز . وإنما ذكر مريم باسمها تأكيداً لأن عيسى بلا أب ، وإلا لنسب إليه ، ومن كناياته أيضاً قوله تعالى : «أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» كناية عن النساء بأنهن ينشأن فى الترفه والتزين الشاغل عن النظر فى الأمور ودقيق المعانى ، ولوأتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك . ومنها قوله تعالى : «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» كناية عن سعة جوده وكرمه جداً ، ومثلها فى هذا كل ماورد منسوبا إلى الله مما لايصح نسبته إليه كقوله تعالى: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» وقوله : «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» وقوله : «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» .

أما التعريض الذى يلابس الكناية ويؤدى مؤداها فى المبالغة ، فقد وقع كثيراً فى القرآن . ومنه قوله تعالى : «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» ، فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه معلوم، بل إفادة مايشير إليه ، وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا . ومنه أيضاً قوله تعالى : «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة ، كأنه

غضب أن تعبد الصغار معه تلويحاً لعابديها بأنها لاتصلح أن تكون آلهة ، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل، والإله لا يكون عاجزاً . ومنه قوله تعالى : « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » أى محمداً صلى الله عليه وسلم إعلاء لقدره ، أى إنه العَلَم الذى لاخفاء له . ومما ورد منه تلطفا واحترازا عن المخاشنة قوله تعالى : « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » أى وما لكم لا تعبدون بدليل قوله : « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ومن هذا أيضاً قوله تعالى : « أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً » وكذلك قوله : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » خوطب النبي وأريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعا ، وكذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » تعريض بذمّ الكفار ، وأنهم فى حكم البهائم التى لاتتذكر .

والتعريض والكناية نادران فى كلام العرب ، لدقة استعمالهما ، ونفاسة قدرهما ، ولكنهما كما رأيت فى القرآن كثير ، مع ارتقاء النوع إلى الحدّ الذى لا يجارى .

ونكتفى من بيان أسرار القرآن بما ذكرنا ، فإن همة مهما علت وتوفرت لا تقوى على الإحاطة بذلك . وحسبنا أن العلماء ألفوا ولا يزالون يؤلفون ، ثم هم بعد لايدّعون الوقوف على جميع أسرار القرآن ، وهذه آية باقية من إعجازه .

إعجاز القرآن

شاءت رحمة الله بعباده حين يرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى طاعته أن يهيئ لهم أسباب الإيمان به ، لأنه تعالى يعلم مقدار إلف النفوس لما اعتادت ، وحرصها على ما وجدت عليه آباءها من قبل ، فهو سبحانه وتعالى يشدّ أزر النبى بالبرهان الساطع على نبوّته ، والحجة الدامغة على رسالته ، حتى يسهل على النفوس ، وقد طغا عليها الشرك ، وأعمى بصيرتها الضلال ، أن تهجر ما ألفت ، وتقلع عما اعتادت ، يشدّ الله أزر نبيه بتمكينه من العلم الذى نبغ فيه قومه ، أو الصناعة التى برزوا فيها ، حتى يعلموا أن هذا التأييد إلهى ، وأن هذه القدرة من مواهبه تعالى لمن اختصه برسالته .

ولما كانت الأمة العربية التى بزغ منها نور النبوّة المحمدية أمة أمية خرقاء ، لا تعرف علماً ولا صناعة ، ولا تملك إلا مَلَكة البيان تتصرّف فيه ، وتجيد الضرب فى نواحيه، والتحليق فى سمائه ، وكانت أمة لا تعرف الفضل لرجالها إلا فى شعر يجيدون حبكه، أوخطب يرمون بطوالها وقصارها ، لما كان ذلك ، ناسب أن تكون حجة محمد عليهم هى البيان ، أوتكون وسيلته إليهم هى البلاغة ، لأنها هى التى آمنوا بها فيما بينهم ، وعرفوا قدرها فى نفوسهم .

أنزل الله على رسوله القرآن ، فكان حجته الدامغة ، وقوّته وعدّته ، على حين لا قوّة له ولا عدّة ، فكم صعقوا ، وكم زلزلوا ، وكم أُخذوا ، وكم أذعنوا حين سمعوا آياته الكريمة. فهذا عمر (وما كان أشدّ عناده للنبىّ وأذاه المسلمين!) أسلم حين سمع من أخته وزوجها سورة طه . وهذا الوليد بن المغيرة جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له . فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال: يا عمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتى محمداً لتعرض لما قاله ، فردّ عليه الوليد قائلا : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له . قال وماذا أقول ؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يأثِره عن غيره .

فمن هذه الأحاديث وأشباهها نعلم يقيناً أن القرآن قد بهر القوم نوره ، وأعشاهم ضوؤه ، وعقل ألسنتهم بيانه ، واستبدّ بقواهم صوغه وإحكامه .

ولقد كانوا مع ذلك يناهضون النبىّ ولا يذعنون ، ويكابرون ولا يؤمنون ، يقول بعضهم : إنه سحر ، وآخر إنه شعر ، وغيرهم يقولون : إنه افتراء ، فتحدّاهم إذ ذاك ربّ العالمين بأن يأتوا بمثله إن كانوا قادرين ، فلما عجزوا تحدّاهم بعشر سور ، فلما

انكشفوا طالبهم بسورة واحدة ، فملكهم البهر ، وانقطع بهم الجدل ، ولم يجدوا بعدُ إلا الإذعان وإلا الإيمان ، فما الذى ياترى أذعنوا له وآمنوا من أجله ؟

فى القرآن أسرار كثيرة أوقوى هائلة ، كل شىء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس وتخضع لحكمه :

١ — فمن ذلك ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، مما لم يكن قبل إخبار القرآن به ، فوقع كما أخبر ، وأتى وَفق ماوصف ، كقوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » ، وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » ، وقوله : « غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ » ، وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وقوله تعالى فى شأن أهل بدر ، وقد نزلت الآية بمكة قبل الوقعة بسبع سنين : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » ، وقوله : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ، وقوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . ولما نزلت بشّر النبىّ أصحابه بذلك ، وكان المستهزئون نفراً بمكة ، ينفّرون الناس عنه ، ويؤذونه فهلكوا ، وقوله : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ، فكان ذلك على كثرة من رام ضرّه ، وقصد قتله .

٢ — ومن ذلك ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة ، والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم القصة الواحدة منه إلا الفذّ من أحبار أهل الكتاب ، الذى قطع عمره فى تعلم ذلك ، فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه ، وقد علم العرب أن الرسول أمىّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثاقفة[1] ، ومن هذه الأخبار كلّ ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء . وكان اليهود والنصارى كثيراً ما يعنتونه بالسؤال عن أخبار أنبيائهم ، وما ورد فى توراتهم وإنجيلهم ، فيأتيهم بالجواب الحقّ ، الذى لا يستطيعون معه معارضة ولا مناقضة ، فكان من أثر ذلك أن

(١) ثافنه : وجالسه ولازمه .

أكثرهم صرّح بصحة نبوّته ، وصدق مقالته ، واعترف بعناده وحسده إياه . ومن باهت فى ذلك ، وادّعى كذب محمد فيما جاء به من أخبارهم قيل له « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ، فكان ذلك أعظم تقريع وتوبيخ له . قال تعالى : « يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

٣ — ومن ذلك حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وتخير ألفاظه ، وحسن مقاطعه ومطابقة هذا النظام لمقتضيات الأحوال ، مضموماً إلى ذلك جلال الغرض وسمو المعانى ، وصفاء الحكمة ، وانطباق المثل .

وإن البحث فى هذا ، وتفصيل القول فى فصاحة القرآن ، وسلامة تأليفه من الاضطراب ، هو الذى شغل علماء البلاغة ، فظلوا أجيالا طويلة يكشفون عن هذه الأسرار ، فما انتهوا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض السرّ الذى ينطوى عليه هذا النظم العجيب . فما أشبه القرآن فى ذلك : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » بالشمس يسطع نورها ، فيجد فيها السالك هداه ، والخصر دفئه ، والمستوقد ناره ، والزارع حاجة زرعه إلى النماء ، إلى ما لا نكاد نعدّه من فضائل هذه الشمس ، فهذا مثل آى القرآن الكريم لا يزال العلماء يجدّون فى الكشف عن أسرارها ، وكلما انتهوا إلى غاية تسامت عنهم غيرها وغيرها ، فهم مع حسن بلائهم ، وعظيم حيلتهم ، وواسع بيانهم ، مقرون بالعجز ، مقصرون عن الغاية ، وكم تكلموا فأطالوا فى قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » ، وقوله : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

وانظر إلى قوله تعالى فى وصف أهل النار : « فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي

بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » ، وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ، وقوله تعالى فى وصف النار : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، وإلى قوله تعالى فى وصف أهل الجنة : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » ، وانظر إلى قوله تعالى : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ » ، وقوله : « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » .

وهناك أسلوب شاع فى القرآن ، ولم يكن العرب يعرفونه ، وهو عرض الكلام فى معرض الشكّ حتى يكون ذلك استدراجًا للخصم ، وتخفيفاً من شدّة عناده ، كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، وقوله : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » ، و قوله : « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، وقوله : « لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقوله : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ » .

وهذا مقام لا يسعنا فيه إلا نقل القرآن برمته للاحتجاج به ، فهو جميعه سبيكة واحدة فى جمال الرونق ، وكمال البيان ، وإحكام الصنعة . فنحن نحيلك على المصحف تقلب صفحاته ، لترى الحكمة كيف سيقت ، والمثل كيف ضرب ، والحجة كيف دمغت ، والصفة كيف تمثلت ووضحت ؟ .

وقد عرضنا لك هذه المزايا الظاهرة فى القرآن ، ولم نفاضل بعد بينها ، ولا رجحنا

بعضها على بعض . فلو قيل لنا : أى هذه المزايا أحقّ بالتقديم وأولى بالاعتبار ، فإننا ما نتردد فى هذه الميزة الثالثة ، وهى الفصاحة وقوّة البيان ، لأن هذا الوصف هو الذى يحسن فى التحدّى للعرب الذين عرفوا باللسن ، واشتهروا بقوّة البيان ، ثم هو الوصف الباقى مع القرآن ما بقى الزمان ، لأن التنبؤ بما لم يكن، لم تكن له قيمته إلا قبل حدوثه، فأما بعد ذلك فقد زالت روعته ، وصار لمنكره سبيل إلى الإنكار ، لولا مانحتجّ به من أنه سبق الوقوع وتقدّمه ، فتكون الحجة فيه محتاجة إلى حجة ، والبرهان متوقفاً على غيره . هذا إلى أن العرب كانوا مولعين باستطلاع الغيب ، وكان فيهم من يدّعى علم ذلك ، من الكهنة الذين كانوا يلقون القول على عواهنه ، فيصدق منه بعض ويكذب بعض . فلو كان التحدّى من النبىّ بذلك لوجد من هؤلاء من يقول أنا أخبرت بكذا ، فكان كما قلت . وهذا ضعف فى الحجة لا نقبله فى القرآن ، والاستدلالِ به على هذا الأمر العظيم ، وهو صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الإخبار بالأمور التى وقعت منذ العهود البعيدة ، وأخبر بها النبىّ من قصص الأنبياء ، وحادث أهل الكهف ، أو شأن ذى القرنين ، فإن هذه أخبار كانت معلومة أيام النبىّ ، و إن كان علمها مقصوراً على أهل الكتاب ، فلو شاء معارض أن يقول : إن محمداً قد استطاع الوصول إلى ذلك بإحدى الوسائل مهما كانت السبيل دونه وعرة ، فإن هذا القول بفت فى حجته ، وليس من شأن حجج الأنبياء أن ينالها الوهن من إحدى نواحيها ، فلم يبق إلا أن الإعجاز كان بهذا السرّ الباقى على الأيام ، وهو البلاغة التى تسطع حجتها فى كلّ حين .

وقد بقى من الآراء فى إعجاز القرآن قول منسوب إلى أحد شيوخ المعتزلة وهو إبراهيم النَّظَّام . وهذا هو القول بالصّرْفة ، ومعناه : أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن . ولكنّ الله صرفهم عن ذلك ، وأبطل مقدرتهم عليه . وذلك فيما يرى النَّظَّام أدلّ على التأييد من الله لرسوله ، إذ كان العجز مع القدرة ، واستحالة الممكن أدلّ على إرادة الله لنصرة نبيه ، وهذا قول باطل لا يليق الأخذ به ، ففيه اعتراف

من قائله بأن القرآن فى ذاته ممكن المعارضة ، لا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ، وأن تقصيرهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته ، موقوت بالمدّة التى شاءت القدرة الإلٰهية أن تحد من عزم العرب عن معارضته ، وهـذا كله نقص ينزه القرآن عنـه . على أنه لو كان الواقع ما ادّعاه النظّام ما استعظم العرب فصاحة القرآن ، وتعجبوا من سـبكه ، وعلوّ كلمه ، بل كان تعجبهم من عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها .

وقد رأينا من الباحثين فى هـذا الموضوع من يقول : إن إعجاز القرآن فى معناه يريد بذلك أن علوّ حكمته ، ودقة تشريعه ، وشمول الفكرة فيه لما لم يكن العرب يفكرون فيه ، ولا يتناولونه ببحثهم ، هو الوجه الظاهر فى الإعجاز ، وهذا الوجه لانراه يستطيع النهوض وحده ، إذ يكون التحدّى به تحدّيا بما لم تجر به العادة فى التحدّى ، فإن العرب لم يكونوا أمة علم ، ولا ادعوا الفوْق فى التشريع ، حتى يحاجوا وينازعوا فى هـذا الباب . على أن المنقول عن العرب أن الذى راعهم إنما هو السبك وقوّة البيان ، فهذا قوله تعالى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » لم يصعق له سامعه إلا من ناحية الصوغ و براعة التأليف وهكذا ، وإذا نظرنا إلى حكمهم بأن القرآن شعر أو سحر عرفنا الناحية التى راعتهم منه ، وهى ناحية التأثير لا ناحية دقة المعنى و بعد المراد .

كذلك رأينا من يقول : إن وجه الإعجاز الذى يجب أن يكون فى مقدّمة الاستدلال على علوّ كعب القرآن ليس هو الصياغة الفنية وحدها ، و إنما الذى أعجز العرب مع هذه الصياغة وجوه أخرى ، تلك هى الأسلوب المنطقى والأسلوب العلمى ..الخ

وقد فصل صاحب هذا الرأى قوله فى الأسلوب المنطقى والعلمى فذكر أن العرب لم يكونوا يعرفونهما ، وأنهم إنما اعتادوا الأسلوب الخطابى . والواقع أن الأسلوب المنطقى حاصل فى كلّ كلام ، لأن الكلام بيان واستدلال وترجيح وتفضيل ، ولا تكون

هذه الأمور إلا بهذا الأسلوب ، فالقول بجهل العرب لهذين الأسلوبين ، وعدم وجودهما فى كلامهم ، لايمكن الإيمان به ، والشعر والنثر الجاهليان يفيضان بهذا .

وإن من سبق له الاطلاع على أدب الجاهليين ليكفينا مئونة الاستدلال على أن العرب قد وقع لهم فى كلامهم الأسلوبان : (العلمى ، والمنطق) ، وإلا فأين حكمهم وأمثالهم ؟ وكلها ناطقة بتجربتهم ، مثبتة لقويم استدلالهم

ولا بأس أن نطلعك على هذا الحوار المتين ، والجدل القوىّ الذى تقرع فيه الحجة بالحجة ، ويوزن الدليل بالدليل ، لتعرف أن هؤلاء العرب كانوا إلى جانب قوتهم الخطابية، حصفاء يتلطفون للإقناع ويتأتون له . هذا الحوار هو ما جرى بين أمرئ القيس ابن حُجْر ، وأشياخ بنى أسد فى العفو عن دم أبيه :

قال قَبِيصة بن نُعيم يخاطب أمرأ القيس :

إنك فى المحل والقدر، من المعرفة بتصرّف الدهر، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرّب ، ولك من سودد منصبك ، وشرف أعراقك[1] ، وكرم أصلك فى العرب ، مَحْتِدٌ[2] يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعتْ إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ما يطوّل رغباتها ، ويستغرق طَلِباتها[3] ، وقد كان الذى كان من الخطب الذى عَمَّت رزيَّتُه نِزاراً واليمن، ولم تخصص به كِنْدة دوننا ، للشرف البارع الذى كان لحُجْر . ولو كان يُفدى هالكٌ بالأنفس الباقية بعده ، لما بخلت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه بأدناه . فأحمد الحالات عندك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا فقدناه إليك بنِسْعة[4] تذهب مع شَفَرات حسامك بباقى قَصَرته[5] ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز ، فلم يستلّ سخيمته[6] إلا تمكينه من

(١) أنسابك . (٢) أصل . (٣) جمع طلبة (كفرحة) وهى الطلب .
(٤) قطعة من جلد . (٥) رقبته . (٦) يستلّ سخيمته : ينتزع ضغنه .

الانتقام ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعَمها ، وهى ألوف تجاوز الحِسْبة . فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب [1] إلى أجفانها لم يردّدها تسليط الإحن [2] على البرآء ، وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل ، فتسدل الأُزُر ، وتُعقد الخُمُر فوق الرايات .

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لقد علمت العرب أن لا كفء لحُجر فى دم ، وأنى لن أعتاض به ناقة أو جملا ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد ، وفتّ العضد ، وأما النَّظِرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة تحمل فى القلوب حنقاً ، وفوق الأسنة عَلَقاً [3] :

إذا جالت الْحَرْبُ فى مَأْزِق   تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوإ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذيّة ، وحرب وبليّة ، ثم نهضوا عنه ، وقبيصة يتمثل :

لعلك أن تستوخم الوِرْدَ إنْ غدت   كتائبنا فى مَأْزِق الحرب تُمْطِر [4]

فقال امرؤ القيس : لا والله ولكن أستعذبه ، فرويداً ينفرج لك دجاها عن فُرسان كندة وكتائب حِمْير ، ولقد كان ذكر غير هذا أولى بى إذ كنت نازلا بربعى ، ولكنك قلت فأوجبت .

***

وختام القول أن العرب لو كانوا حقا يجهلون الأسلوبين العلمى والمنطقى ولم يألفوا القول فيهما ، ما كان لهما وقع فى نفوسهم ، لأنهم يكونون جاهلين بهما ، وغير متذوّقين لهما ، ومن جهل شيئاً لم يأبه له ، ولا اعتد به ، وإنما يملك إعجاب المرء كلّ شىء حاوله فكان له فيه بلاء لم يبلغ غاية الكمال ، فهو لا يزال محاولا لها طامعاً فيها حتى إذا

---

(١) قضب : جمع قضيب وهو السيف . (٢) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد .
(٣) دما . (٤) استوخم الشىء : وجده سيئ العاقبة .

رآها تمت على يد غيره ، أسرع بالإقرار له بالفضل إن كان منصفاً ، أو اضطرّ أخيراً إلى الإذعان حين يبهره جمال الفنّ الذى تعشقه وتعلق به ، ثم يكمل إلى مثله الأعلى .

أثر القرآن فى اللغة

لا يؤثر شيء فى لغة قوم حتى يكون قد غير ما بأنفسهم ، لأن اللغة طابع الأمة وغِرَار ثقافتها . وقد علمت ما أحدث القرآن فى نفوس العرب من هداية ، وما كشف عنهم من عَمَاية ، وما هذب من خلقهم ، وبدل من جهلهم ، وأنه قلبهم من رعاة جفاة غلاظ الأكباد ، إلى سادة يدين العالم لعدلهم ، ويتسابق الناس إلى اعتناق دينهم ، والدخول فى زمرتهم .

وإذا علمت سرعة هذه الطفرة فى خُلُقهم وحياتهم ، فاعلم أنها كانت كذلك فى لغتهم ، فإن العرب لم يسمعوا القرآن حتى خضعوا لسطانه ، وتسابقوا إلى حفظه ، وتذوّقوا من حلاوته ، وتعبدوا بتلاوته ، وهان عليهم بإزائه ما تطاولوا به من حكمهم وأمثالهم ، وما ملئوا به أشداقهم من نثرهم ونظمهم ، فكان من أثر ذلك أن هجر بعض فحولهم عادته فى قول الشعر ، وعكف على القرآن يستوحيه الحكمة ، ويستمده الهداية . وبعضهم استمرّ منبهراً منقطعاً ، مقصراً عن الغاية التى عرفت له فى أيام الجاهلية . ولم يلبث العرب حتى صار القرآن نورهم الذى يهتدون به ، فاتبع الشعراء والخطباء أسلوبه ، وعمدوا إلى سهولته وانسجامه ينسجون على منوالهما ، هاجرين (كما هجر) حوشى اللفظ ، ومعقد القول ، وكثرت من المعانى ثروتهم ، وتدفقت بالقول ألسنتهم ، يقتبسون من القرآن (وهو البحر الخضمّ) أساليب متنوّعة ، ومعانى فى كلّ غرض ، وحكمة ، ومثلا ، فى أحسن مساق ، وأليق موضع .

ونتج من حرص العرب على القرآن أن تقدموا بخطا واسعة إلى المدنية ، فإنهم من

أجله وضعوا علم النحو ولم يمض عليهم فى الإسلام ثلاثون سنة ، ثم أتبعوه بعلوم التفسير، واللغة ، والتاريخ ، والبلاغة وغيرها ، مبالغة فى الذود عنه ، والحرص عليه .

أما هو فقد أتى بمعجزة أخرى غير معجزته فى نفسه ، وهى بقاء العربية ناقضة طبيعة اللغات ، فى عدم الثبات .

البلاغــة النبوية

لقد بعث الله محمداً فى تلك الأمة العربية التى تعتزّ ببيانها ، وتباهى بفصاحتها ، ولا يشغلها إلا القول تدبجه ، والبيان تحبره ، فلم يكن يستطيع أن يظهر عليهم إلا ابسلاحهم . فأيده الله بالقرآن الكريم ، فبهرهم حسنه ، وغلبهم أسره ، وذلوا أمامه ، ساجدين لعظمته . ثم لم يكن من المستطاع أن يجرى القرآن على لسان النبىّ ، وهو بعد بين القوم كأحدهم ، لا فضيلة له عليهم فى خاصّ كلامه ، ومعتاد حديثه ، وهو محتاج إلى التأثير ، وشدّة الأخذ ، ودعوتهم إلى الدّين ، وتأديبهم بأدبه ، ودفعهم لمحاربة أعدائه . فكان من الله أن أيده بمعجزة أخرى ، هى بلاغة لسانه ، وقوّة بيانه . فقد كان صلى الله عليه وسلم فى هـذا على غير ما يعهد العرب فى فصحائهم ، وما يألفون من مناطيقهم ، حتى لقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : لقد طفت فى العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك (علّمك) ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » .

وكما أعدّ الله رسوله للنبوّة منذ قدرها له ، فأنبته نباتاً حسناً ، وطهره من أرجاس العرب ، فما سجد لصنم ولا لابس منكرا ، كذلك أعدّه للفصاحة ، فجعله من قريش ، وهى فى الذروة من الفصاحة ، واختاره من خير بيوتها نسباً وصهراً ، ثم كانت رضاعته فى بنى سعد ، وهم من أفصح القبائل ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ » .

ولم تقف عناية الله برسوله إلى حدّ المولد والنشأة ، بل لقد علمه الله لغات العرب كلها ، فكان يخاطب كلّ قبيل بلغته فيبزُّهم فيها . ومثل ذلك لا يكون إلا بتعليم وتلقين ، والنبي لم يعلم عنه أنه تنقل فى تلك القبائل قبل البعثة حتى يحذق لغاتها ، ويكون فيها أفصح من فصحائها . ولقد قال له علىّ رضى الله عنه حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه ، فأجابه رسول الله بما أجاب به أبا بكر آنفاً .

ومن أمثلة هذه اللغات التى كان النبىّ يعرفها دون قريش كتابه لوائل بن حجر الكندى أحد أقيال حضرموت ، ومنه[1] :

إلى الأقيال العباهلة ، والأرواع المشابيب .

ومنه : وفى التِّيعة شاة ، لامُقَوَّرة الألياط ولاضِنَاك ، وأَنْطُوا الثَّبَجة ، وفى السُّيوب الخُمُس ، ومن زنى مم بكر فاصْقَعوه مائة ، واستوفضوه عاما ، ومن زنى مم ثيب فضرِّجوه بالأضاميم ، ولا توصيم فى الدّين ، ولا غُمَّة فى فرائض الله تعالى ، وكلّ مسكر حرام ، ووائل بن حجر يَتَرَفَّل على الأقيال .

لم تقف الدهشة من أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم عند معرفته لغات العرب ، ولكنها كانت أعظم حين يخاطب قومه بما لم يعهدوه فى لغتهم ، ولم يأثروه عن بلغائهم من جوامع الكلم التى رويت عنه ، كقوله فى الحرب يوم حُنين : « الآنَ حَمِىَ الْوَطِيسُ » ، والوطيس : التنور ومجتمع النيران ، استعاره رسول الله لشدّة الحرب . وقوله لأبى تَمِيمة الجُهَيْمى : « إِيَّاكَ وَالمَخِيلَة » ، فقال يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟

---

(١) التفسير لألفاظ الكتاب بترتيبها : الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك من ملوك حمير وحضرموت. العباهلة : المقرون فى ملكهم ، الأرواع : الذين يروعون بالهيبة والجمال ، المشابيب : جمع مشبوب وهو الجميل الزاهى اللون ، التيعة : أربعون شاة ، المقورة : المسترخية ، الضناك : الموثقة الخلق السمينة، أنطوا الثبجة: أعطوا الوسط ، السيوب: جمع سيب وهو العطية، والمراد به الركاز وهو دفين الجاهلية ، الصقع : الضرب ، الاستيفاض : النفى والتغريب ، الأضاميم : الحجارة الصغار ، التوصيم : الفترة والتوانى ، يترفل : يترأس .

فقال عليه السلام : « سَبْلُ الأَزَارِ » ، يريد الكبر . وقوله : « هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ » ، والدخن : دخان النار ، يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلح لم يذهب بالأحقاد جملة، كما يبقى شيء من النار تحت الرماد ، فيستدلّ عليه بما يتصاعد عنه من دخان . ومن ذلك قوله : لأنجشة حادى إبله وفيها النساء: « رِفقاً بالقَوارِيرِ(١) » ، وهى كناية عن النساء ليس بعد جمالها جمال . وقوله : « بُعِثْتُ فِي نَفَسِ السَّاعَةِ » ، أى قريباً منها ، أحسها كما يحسّ المرء أنفاس من يدانيه . وقوله : « يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي » ، وقوله : « كُلُّ أَرْضٍ بِسِماتِهَا » ، وقوله : « لاَ يَنْتَطِحُ فِيهِ عَنْزَانِ » ، وقوله يوم بدر : « هٰذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ » ، وقوله : « لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » ، ويروى : لا يلسع ، والمعنى واحد ، وهذا القول قاله النبىّ لأبى عَزَّةَ الشاعر ، أسره يوم بدر ، ثم منّ عليه ، وأتاه يوم أحد فأسره ، فقال مُنّ علىّ ، فقال عليه الصلاة والسلام الحديث السابق : (أى لو كنت مؤمناً لم تعاود قتالنا) ، وقوله : « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ » ، قيل له : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء ، شبهها بالشجرة الناضرة فى دمنة البعر ، وأكلها مؤذ .

ومن بليغ كلامه عليه الصلاة والسلام قوله : «عَلِّقْ سَوْطَكَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُكَ» ، وقوله : « النَّاسُ بِأَزْمَانِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِآبَائِهِمْ » ، وقوله : « مَا هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ » وقوله : « لاَ تَجْنِ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ » ، وقوله للأنصار : « إِنَّكُمْ لَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ وَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ » ، وقوله : « النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ المُشْطِ » ، وقوله : « المَرْءُ كَثِيرٌ بِإِخْوَانِهِ » ، وقوله : « لاَ خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لاَ يَرَى لَكَ مَا يَرَى لِنَفْسِهِ » ، وقوله فى الخيل : « بُطُونُهَا كَنْزٌ ، وَظُهُورُهَا

---

(١) فى كتاب الكنايات للجرجانى: أن المعنى أن رسول الله لما رأى حسن صوت أنجشة ، وأنه قد يسبي النساء ، قال له فى ذلك ليقلل من ترقيق صوته حتى لا يستميلهنّ .

حِرْزٌ » ، وقوله : « النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً » ، وقوله : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ » ، أى لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودفنه .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » ، (يريد الموت) ، وقوله : « مَلْعُونٌ من هدم بُنيان الله » ، (يريد قتل النفس) ، وقوله : « قَدْ جَدَعَ الحَلَالُ أَنْفَ الْغَيْرَةِ » ، وقوله : « وَعْدُ الْمُؤْمِنِ كَأَخْذٍ بِالْيَدِ » .

هذا إلى جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام التى اشتملت على الحكمة الرائعة ، وجرت مجرى المثل ، كقوله : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » ، وقوله : « الرَّغْبَةُ فِى الدُّنْيَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ ، وَالْبَطَالَةُ تُقَسِّى الْقَلْبَ » ، وقوله : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ، وقوله : « الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى » ، وقوله : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » ، وقوله : « تَرْكُ الشَّرِّ صَدَقَةٌ » ، وقوله : « حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى وَيُصِمُّ » .

⁂

ودليلنا على أن شأن النبىّ فى اللغة إنما كان إلهاماً من الله ، يقوّى به جانبه ، ويشدّ أزره ، أنه عليه الصلاة والسلام زاد فى اللغة ألفاظاً ، وأجرى فيها اشتقاقات ، وتوسع فى معانى بعض ألفاظها بما لم يعهد قبله ، فكان للغة منه مادة جديدة ، زادت فى ثروتها ، فمن ذلك تسميته : « صفرا الأول » محرّما ، وذلك حين أبطل الإسلام النسىء ، وحتم تحريم القتال . وكذلك وصفه عليه السلام لفرس ركبه بأنه بحر ، أى لا ينقطع جريه ، كما لا ينقطع تيار البحر . وكذلك كلمة الصير بمعنى الشقّ فى قوله : « من اطلع من صِيرِ بابٍ فقد دَمَرَ » ، قال أبو عبيد : لم يسمع هذا الحرف إلا فى هذا الحديث . وصير الباب : خرقه . ودمر : دخل . كذلك وصفه للزانية بالزمارة فى حديث أبى هريرة : « إن النبىّ نهى عن كسب الزَّمَّارَةِ » ، قال ثعلب : الزمارة الزانية

لأنها تشيع أمرها ، كأنها تنفخ فى بوق ، وهذا الحرف لم يسمع إلا فى هذا الحديث هذا إلى ألفاظ كثيرة جرت على لسانه فى بيان الشريعة ولم ترد فى القرآن .

كذلك ورد فى القاموس المحيط : أن كلمة « مَهْرُورَة » لم تسمع إلا فى قوله عليه الصلاة والسلام فى المسيح : « ينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق فى مَهْرُورتين » ، أى بين ممصرتين ، وتروى مهرودتين بالدال ، ومعنى قول صاحب القاموس ممصرتين : مصبوغتان بالمصر ، وهو الطين الأحمر .

النبي وقول الشعر

صرف الله النبيّ عن قول الشعر ، فلم يؤثر عنه أنه أنشأ شيئاً منه وهو القادر عليه ، اللهم إلا ما وقع له من غير قصد ، كقوله يوم أحد :

أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله وقد دميت إصبعه :

هل أنتِ إلاّ إصبعٌ دَميتِ وفى سبيل الله ما لَقيتِ

وإنما اتفق له ذلك كما يتفق لكلّ متكلم أن يجيء كلامه على وزن وهو لا يتعمده .

قال الجاحظ : ولو قال بائع : (من يشترى باذنجان) لكان شعراً ، لأنه مستفعلن مفعولان ، وهو كما تعلم من منهوك المنسرح ذى العروض الموقوفة ، كذلك يروى الجاحظ أنه سمع ابن صديق له سق بطنه وهو يقول: «اذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى» وهو كما ترى من الخفيف .

كما ورد فى القرآن مثل قوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » ، وقوله : «وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » ، فأنهما يوافقان الرمل [1] وقوله تعالى :

(١) وزن هذا البحر فاعلاتن فاعلاتن فاعلن (مرتين) الآية الأولى من مجزوئه ، وقد دخل ضربه التسبيغ ، وهو زيادة حرف ساكن على السبب الخفيف ، والآية الثانية من مجزوئه أيضاً لكنه صحيح العروض والضرب .

« .. مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ » ، فإنه يوافق الخفيف[١] ، وقوله تعالى « ..دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً » فإنه يوافق الرجز[٢] ، وقوله تعالى : « وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » ، فإنه يوافق الوافر[٣] وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » ، وزنه مستفعلن متفعلن ، وهو رجز ، وقوله تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ، من بحر الخبب ، ووزنه : فَعْلن فَعْلن . . . وفى كتاب إعجاز القرآن للباقلانى أمثلة كثيرة ، لما ورد فى القرآن من شعر غير مقصود ، فارجع إليه .

ومثل هذا يقع فى كلام الناس كثيراً من غير قصد ، على أن ما وقع للنبىّ إنما كان من الرجز الذى هو أبسط أوزان الشعر ، وأقربها إلى النثر ، حتى نفى بعضهم أن يكون شعراً خصوصاً إذا كان من منهوكه أو مشطوره ، فإنه أشبه بفقرات السجع منه بالشعر .

كذلك لم يكن النبىّ يقيم وزن بيت يرويه أو يتمثل به ، كما فعل ببيت طرفة ، فإنه رواه هكذا :

سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأَخْبَارِ

وأصله : ويأتيك بالأخبار من لم تزود .

وكما فعل ببيت العباس بن مرداس وهو :

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْـــدِ بَيْنَ الأَقْرَعِ وَعُيَيْنَـــةَ

وأصله : بين عيينة والأقرع .

---

(١) وزن هذا البحر فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن (مرتين) والآية من مجزوئه .

(٢) وزن هذا البحر مستفعلن ست مرات .

(٣) وزن هذا البحر مفاعلتن ست مرات ، والآية منه مقطوف العروض ، والضرب : (القطف صيرورة مفاعلتن إلى فعولن) أى باسقاط السبب الخفيف الأخير وإسكان الحرف الخامس .

وأكثر ما كان يتمثل بأنصاف الأبيات حتى لا يتحقق كونها شعراً كما فعل ببيت لبيد حين قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللهَ بَاطِلُ *

فأتى بالشطر صحيحاً ولكنه سكت عن إكمال البيت .

ولم يكن إعراض النبيّ عن قول الشعر وروايته إغماضاً لشأنه أو صرفاً للعرب عنه ، فإن المعروف أنه كان يقبل على الشعراء ، ويحسن الاستماع لقولهم ، ويثيب من يمدحه منهم ، فقد خلع على كعب بن زهير بردته التى اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء بعده ، يلبسونها فى الجمع والأعياد ، وكان يكثر من استنشاد الخنساء فى رثاء أخيها صخر ، ويقول : « هِيهِ يا خُنَاسُ » ، بل لقد كان يدعو إلى قول الشعر ، ويستعين به فى نشر دعوته ، وهو الذى اتخذ حسان شاعره ، وأمره أن يهجو كفار قريش ، وكان يقول له : « شُنَّ الْغَارَةَ عَلَى بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ ، فَوَاللهِ لَشِعْرُكَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ فى غَبَشِ الظَّلاَمِ » ، وكان يثيبه ويدعو له . وهذه قُتَيْلة أخت النَّضْر بن الحرث الذى كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ، ويلقن فتيان قريش الشعر فى هجائهم ، أسره النبى فى بدر وقتله ، فجاءته أخته وأنشدته :

يَا رَاكِباً إِنَّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ (١)
أَبْلِغْ بِهِ مَيْتاً بِأَنَّ تَحِيَّةً مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تَخْفِقُ (٢)
مِنِّى إِلَيْكَ وَعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ (٣)
هَلْ يَسْمَعَنِّى النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لاَ يَنْطِقُ (٤)
ظَلَّتْ سُيُوفُ بَنِى أَبِيهِ تَنُوشُهُ لِلّٰهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ (٥)

(١) الأثيل : واد قرب بدر ، وهو الموضع الذى دفن به أخوها .
(٢) كيضرب : تسرع .
(٣) وكف المطر والدمع : سال .
(٤) أم للإضراب : أى بل إنه لا يسمع لأنه لاينطق .
(٥) ناشه : تناوله .

صَبْرًا يُقَادُ إِلَى الْمَنِيَّةِ مُتْعَبًا   رَسْفَ الْمُقَيَّدِ وَهْوَ عَانٍ مُوثَقُ(١)
أَمُحَمَّدٌ وَلَدَتْكَ خَيْرُ نَجِيبَةٍ   فِى قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ(٢)
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا   مَنَّ الْفَتَى وَهْوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ(٣)
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ قَتَلْتَ قَرَابَةً   وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ
لَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتُهُ   بِأَعَزِّ مَا يُغْلِى بِهِ مَنْ يُنْفِقُ(٤)

فقال رسول الله : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .

ومن تمام الحجة فى رسالة النبىّ أن صرفه الله عن الشعر ، لا يقوله ولا يحسن روايته ، لأنه لو قاله لوجب أن يبرز فيه ، ولا يبرز حتى يسير فى نهج الشعراء ، من الهجاء والفخر والتشبيب والهيام فى كلّ واد من الكذب والضلال ، وما تلك سبيله فى الهداية وتأديب الخلق . ولو كان شاعراً لنسب العرب فضيلة النبىّ وحجته البالغة إلى تأثير الشعر ، وقد طالما رأوا من بينهم شعراء يثيرون الحروب ، ويؤرثون نيران العداوة ، فيصبح النبىّ فى نظرهم صعلوكا من صعاليكهم ، الذين كانوا فى كلّ واد يهيمون ، ومثل هؤلاء لا يُتبعون فى الأمر العظيم الذى دعا إليه النبىّ ، فدخل فيه العرب على بكرة أبيهم ، وكان منهم ما كان من سيادة العالم ، قال تعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

---

(١) يقال قتله صبراً : إذا أقامه للقتل . العانى : الأسير . الموثق : المقيد بالوثاق (بالفتح) .
(٢) الفحل : كناية عن الأب . معرق : أصيل .
(٣) المحنق : المغتاظ ، من أحنقه إذ غاظه .
(٤) غلى بالشىء وغالى به : طلب فيه ثمناً غالياً ، أو اشتراه كذلك .

وصف بلاغة النبي

كان رسول الله يوجز غالباً ليعقل عنه ما يقال ، ولأن الإيجاز أليق بعظمته ، وقد نهى عن الثرثرة والتفيهق ، ولذلك جاءت أحاديثه كلمات جوامع ، وحكما بالغة ، وهو القائل : « إنا معشر الأنبياء بكاء » : (قليلو الكلام) ولم يكن ذلك بمانعه من الإطالة حين يقتضى المقام ، كما روى أبو سَعيد الخُدْرِىّ أنه خطب بعد صلاة العصر فقال : « ألا إن الدنيا خَضِرة حُلْوة ، ألا و إنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها ، فناظرٌ كيف تعملون » . قال أبو سعيد : وما زال يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف . وكانت ألفاظه عليه الصلاة والسلام لا تعثر فيها باللفظ المستكره ، ولا بالتركيب المغلق ، بل كلّ قوله إسجاح وسهولة فى لفظ أنيق ، وتركيب منسجم ، ينطويان على المعانى العالية ، والرأى الناضج ، والإلهام الذى اختصه الله به .

ولقد كان موضوع حديثه عليه الصلاة والسلام أشرف الموضوعات ، فهو بيان أغراض القرآن ، وتفسير مشكله ، و إيضاح مبهمه ، وتخصيص مطلقه من كلّ ما يتعلق بأدب ، أو عبادة ، أوتعامل ، فالقرآن مثلا لم يبين تفاصيل الصلاة ، ولم يشرح كيفياتها وحرّم الخمر بقوله : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » ، ولم يبين المراد من الخمر ، ولا مقدار ما يحرم منها ، فكان عمل النبىّ كشف الغامض فى كلّ ذلك .

ولقد تجنب النبىّ فى قوله ذلك السجع الذى كان يلتزمه الكهان ليملكوا به النفوس ، و يستهووا الألباب ، فأزرى عليهم ، وحذر من فعلهم ، فقال : « إياكم وسجع الكهان » ، فجاء كلامه عليه الصلاة والسلام نقىّ اللفظ ، واضح الأسلوب ، حسن الإيجاز ، حسن الإطناب ، خالياً من السجع المستكره ، مشتملا على المعانى السامية ، فهو جدير أن يجمع الفضل من أقطاره . لذلك كان أبلغ كلام عرفه الناس بعد القرآن .

النثر فى هذا العصر

لقد كان فى كلام الله وحديث نبيه سيل منهمر من المعانى ، ومادّة واسعة من الأساليب ، وسمط منظوم من الألفاظ ، فكان كلّ ذلك قدوة للعرب حسنة ، هجروا به حُوشيّهم من اللفظ ، ومعقّدهم من الأساليب ، وسَفْسافهم من المعانى .

ولقد كان جلّ عنايتهم فى جاهليتهم بالشعر يحفظونه ويروونه ، لذلك لم يؤثر عنهم من نثرهم إلا قطرة من بحر إذا قيس بالقرآن وحديث النبى .

فلما جاء الإسلام صارت الدولة للنثر ، لأنه هو الموافق للجدّ الذى أخذ العرب فى سبيله ، فدعا به النبىّ قومه إلى الإسلام ، وراسل به الملوك ، وكتب به العهود ، وشرح به الدّين ، وكذلك فعل أصحابه من بعده فى خطبهم حين الاستخلاف ، وفى كتبهم بتولية عهودهم ، وأوامرهم إلى قوادهم ووصاياهم لولاتهم ، وإرشادهم لقضاتهم ، وحثهم على اجتماع الكلمة ، والتئام الشعب ، وتزهيدهم فى الدنيا ، ودعوتهم إلى الاستشهاد فى سبيل الله . ثم كثر فى أواخر هذا العصر القول فى توهين حجة الخصم ، والنقاش فى العقيدة، كالذى كان واقعاً بين علىّ والخوارج ، كما كثر القول فى ثلب الولاة والاعتلال عليهم ، وتنقص الخلفاء ، وإظهار معايبهم ، كالذى حدث فى فتنة عثمان رضى الله عنه ، وأخيه الوليد بن عُقْبَة[٢] ، الذى كان يلى له الكوفة ، واتهمه الناس بشرب الخمر ، وطلبوا إقامة الحدّ عليه .

تلك هى أغراض النثر فى هذا العهد ، وهى أغراض لم تعهد له فى الجاهلية ، ولذلك علا شأنه فى هذا العصر ، وتطامنت له قَصَرة[١] الشعر ، وطوى بساطه .

ولقد كانت كلّ هذه الأغراض تؤدّى بأيسر طرق التأدية ، بالألفاظ التى اختارها

---

(١) عنق . (٢) كان الوليد أخا عثمان من الرضاع .

لهم القرآن والحديث، وهى القرشية الناصعة، التى ازورّتْ عن عَنْعَنَةِ[١] تميم، وترفعت عن عَجْعَجَةِ[٢] قُضاعة، وطُمْطُمانِيَّة[٣] حمير .

أما الأسلوب فهو كذلك ما علمهم القرآن والحديث من الانسجام، والقصد إلى الغرض قُدُماً، مع هجر السجع، وإلغاء التعمل، ومساوقة الطبع، ولقد زخر كلامهم بالمعانى السامة التى امتلأت بها قلوبهم، وثقفت أفكارهم، وصحت معرفتهم، واقتبسوها من القرآن الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فمن علاقة الرجل بزوجه، إلى حقوق أولاده عليه، وحقوقه عليهم، إلى علاقة العبد بسيده، والوالى برعيته، إلى تدبير المعاش، والسعى فى طلب الرزق، وحسن القصد فى النفقة، إلى علاقة المرء بربه، إلى دعوته للنظر فى ملكوت السموات والأرض، إلى ما لانستطيع عدّه، لأن الله يقول: «مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ» .

هـذه هى المعانى التى كانت مادتهم فى قولهم، فحصفت[٤] بها آراؤهم، واتسعت مَلكاتهم، وحلّت فى نفوسهم محلّ أوهام الجاهلية وأباطيلها، فصار قولهم صادراً عن ذهن خصيب، وفكر مرتب، فلم نر لهم ذلك الكلام المقطع، الذى تتنافر أغراضه، ولا تلتئم معانيه، ولا عثرنا لهم على باطل من القول، ولا محال من الفكر، كما كنا نجد ذلك لأسلافهم من أهل الجاهلية .

الخطابة فى هذا العصر

تعتمد الخطابة على ثلاثة أسباب، إذا تمت لها بلغت من السموّ كلّ كمال: فأما أوّلها فهو حرية الرأى، يظهر بها المرء مايختلج فى نفسه، ويدور بخلده، لا يخشى

(١) هى إبدال العين من الهمزة المبدوء بها، فيقولون فى أن عن

(٢) هى تحويل الياء جيما إذ وقعت بعد العين، فيقولون: الراعج فى الراعى

(٣) هى إبدال أم من أل، فيقولون: طاب امهواء، فى طاب الهواء

(٤) قويت واستحكمت .

سلطانا يسيطر عليه ، ويعقل لسانه ، وأنت تعرف أن هذا السبب قد تمّ للعرب فى جاهليتها ، فما عرفت أمة مثلهم بالصراحة وانطلاق الفكر . وجاء الإسلام فبنى على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وجعل الشورى أصلا فى سياسة الناس . وهذه حياة عمر بن الخطاب تدلنا على أنه لم يكن يقطع أمراً دون المسلمين حتى يخطبهم ، ويطلب رأى عامتهم وخاصتهم فيه ، وكان يقبل الرأى الصائب مهما كان مصدره ، وهو الذى كان يخطب فى أمر المهور ، ومغالاة الناس بها ، وقد عزم أن يجعل لها حدًّا ، فصاحت به امرأة من أقصى المسجد تقول : كيف وقد قال الله تعالى : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » ؟ فعدل عن رأيه ، وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

أما ثانى أسباب الخطابة ، فهو قوّة البيان ، والاقتدار على الارتجال ، ونصيب العرب من ذلك معروف مشهور ، خصوصاً فى الإسلام ، بعد أن زادت ثروتهم اللغوية بآداب القرآن والحديث .

ولا يقدح فى قوّة بيانهم فى هذا العصر ما روى عن المرتج عليهم مثل يزيد ابن أبى سفيان ، فقد ورد فى الكامل للمبرّد : أن أبا بكر ولاه ربعاً من أرباع الشام ، فرقى المنبر ، فتكلم فأرتج عليه ، فقطع الخطبة وقال : سَيَجْعَلُ ٱللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ، وبعد عِيٍّ بياناً ، وأنتم إلى أمير فعّال ، أحوج منكم إلى أمير قوّال .

فظهرت بلاغته فى هذا الاعتذار ، حتى إن عمرو بن العاص لما سمع هذه القصة قال عن هذه الكلمات التى فاه بها يزيد : « هُنَّ مُخْرِجَاتِى من الشام » استحساناً لها .

أما الإرتاج فباب آخر قد يكون منشؤه الفكرة المشتتة ، والحوادث الشاغلة ، والذهن المكدود ، لأن من نطق بمثل عبارة يزيد هذا لاتعوزه العبارة ولاينقصه البيان .

وثالث الأسباب : قيام الدواعى الحافزة للخطابة ، وقد توافرت فى هذا العصر من دعوة إلى الدين ، وإعلان للسياسة ، وحض على لزوم الطاعة ، وتشجيع على قتال ، أو دفاع عن رأى ، أو خوض فى فتنة .

تمت هذه الأسباب للخطابة فى عصر صدر الإسلام والعصر الذى وليه ، لأن الأسباب بقيت فيه مجتمعة متوافرة ، فبلغت الأوج من عزّها ، وأحصى للعرب من الخطب ما لم يحص لغيرهم من الأمم ، وبلغت فى كثرتها ما بلغه الشعر فى العصر الجاهلى. وهذا على كرّم الله وجهه تروى له خطبه فى كتاب ضخم، هو «نهج البلاغة» . وإذا صحّ ما قيل من أن فيها مدسوساً عليه ، فإن سلامة نصفها له أو أقلّ ليجعله مقطوع النظير فيمن عرفنا قديما من خطباء الدنيا . فهذا ديموستنيس خطيب اليونان المشهور قديما لم يعدوا له أكثر من ستين خطبة ، لا شكّ أن فيها مدسوساً عليه ، شأن كلّ عظيم يحاول قومه تفخيم أمره .

وبقيت للخطابة عاداتها القديمة ، من اعتجار العمامة ، والاشتمال بالرداء ، واختصار المِخْصرة ، والقيام على شَرَفٍ من الأرض ، أو منبر ، وكان رسول الله يعتمد على قوس فى الحرب ، وعلى عصاً فى السّلم قبل أن يتخذ له المنبر .

وكان شأنهم فى ألفاظها وأسلوبها هو الشأن العام فى نثرهم من سهولة اللفظ ، وانسجام الأسلوب ، وهجران السجع ، وترك التكلف . وكانوا يبدءونها بالحمد لله ، والصلاة على رسوله ، ويكثرون فيها من اقتباس الآيات القرآنية ، فقد كان رسول الله يتلو فى كلّ جمعة إذا خطب الناس سورة : « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » حتى لقد اشترط بعض الأئمة اشتمال خطبة الجمعة على شىء من القرآن .

وقد جروا فيها على طرفى الإيجاز والإطناب اتباعا للدواعى ، فقد خطب رسول الله من لدن صلاة العصر حتى دنت الشمس المغيب ، كما ذُكر أن عمر لما بويع وقف على المنبر ، فلم يزد على قوله بعد الحمد لله : إنما مَثَلُ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ جَمَلٍ أَنِفٍ (١) أُتْبِعَ قَائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ أَيْنَ يَقُودُهُ ؟ أَمَّا أَنَا فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحْمِلَنَّكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ .

ومن إيجازهم فى الخطابة ما رواه المبرّد فى الكامل قال : ومما يؤثر من هذه

---

(١) هو الذى إن قيد انقاد ، أو هو الذى يأنف من الزجر والضرب ، فيعطى ما عنده بلا طلب.

الآداب ، ويقدّم قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أوّل خطبة خطبها حدثنا العُتْبِىّ قال: لم أر أقلّ منها فى اللفظ، ولا أكثر فى المعنى . حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناسُ إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخُذَ الحقّ له ، ولا أضعف عندى من القوىّ حتى آخذ الحقّ منه ، ثم نزل . قال أبو الحسن (يريد الأخفش) : قد روينا هذه الخطبة التى عزاها إلى عمر ، عن أبى بكر ، وهو الصحيح .

ومن خطباء هذا العصر رسول الله وخلفاؤه ومعاوية وسحبان وائل وزياد .

نماذج من خطابة هذا العصر

أوّل خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعا قومه بمكة .

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الرّائِدَ[1] لا يَكْذِبُ أَهْلَه . والله لو كَذَبْتُ الناسَ ما كَذَبْتُكُمْ ولو غَرَرْتُ[2] الناسَ مَا غَرَرْتُكُمْ ، والله الذى لا إله إلا هو إنّى لَرَسُولُ الله إليكم حقًّا وإلى الناس كافّةً . والله لتَمُوتُنَّ كما تَنَامُون ، وَلَتُبْعَثُنَّ كما تَسْتَيْقِظُونَ ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بما تَعْمَلون ، وَلَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لَلْجَنَّةُ أبداً ، أو النارُ أبداً ، وإنكم لَأَوّلُ من أُنْذِرَ بين يدى عذاب شديد[3] .

ومن خطبه أنه قال بعد الحمد لله والثناء عليه : أيها الناسُ كأنَّ الموت فى الدنيا على غيرنا كُتِب ، وكأن الحقّ على غيرنا وجب ، وكأنّ الذين نُشَيّع من الأموات سَفْرٌ

---

(١) الرائد : الذى يرسل فى التماس النجعة وطلب الكلأ .

(٢) غرّه غرّا وغروراً ، فهو مغرور وغرير : خدعه .

(٣) أى أوّل من أنذر قريباً من عذاب شديد : أى من يوم القيامة الذى يكون فيه العذاب الشديد لأهل الكفر والضلالة .

عما قليل إلينا راجعون ، نُبوّئهم أجداثهم ، ونأكل تُراثهم كأننا مُخلَّدون بعدهم . قد نَسِينا كلَّ واعظة ، وأمِنا كلَّ جائحة ، طُوبَى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، ورحم أهل الذل ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، طُوبى لمن أذلَّ نَفْسَهُ ، وحَسُنَتْ خليقتُه ، وصَحَّتْ سريرتُه ، وعزل عن الناس شرَّه ، وأنفق الفضلَ من ماله ، وأمْسَكَ الفضل من قوله ، ووَسِعَتْهُ السنة ، ولم يَعْدُها إلى البدعة .

وخطب يوماً فقال : أيها الناس ، إن لكم معالم(١) ، فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية ، فانتهوا إلى نهايتكم ، وإن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لايدرى ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة(٢) قبل الكَبْرة(٣) ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذى نفس محمد بيده مابعد الموت من مستَعْتَب ، ولابعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار(٤) .

وخطب حين دخل مكة ، فبعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته ، وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة ، وقف على باب الكعبة وقال : لاإله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة(٥) أو دم(٦) أو مال يدعى به ، فهو تحت قدمىَّ هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ثم قال : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة(٧) الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس

---

(١) المعلم : العلامة ، ومنه معلم الطريق مايوضع ليستدلَّ به عليه .

(٢) شبَّ من باب ضرب شباباً وشبيبة ، وذلك ما كان بين الفتاء والكهولة .

(٣) الكَبْرة : كأنها مرَّة من الكبر ، وهو الطعن فى السنّ ، والفعل كفرح بهذا المعنى ، ومن باب كرم بمعنى عظم .

(٤) رواية « نقد النثر » لقدامة ، فقفوا عند نهايتكم ، و « إن المؤمن » بلا واو ، « بين أجل قد مضى ، وبين أجل قد بقى » ، و « فليأخذ امرؤ » ، و « من الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت » .

(٥) أى مفخرة موروثة عن الآباء .

(٦) ثأر .

(٧) كبر وعظمة .

من آدم ، وآدم من تراب . ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[(١)] ، ثم ردّ مفتاح الكعبة إلى سادنها ، فهى فى عقبه إلى اليوم .

ومن خطبه عليه الصلاة والسلام خطبته فى حَجّة الوداع[(٢)] ، وهى التى لم يحجّ بعدها ، بعد أن علّم الناس سنن الحج وأراهم مناسكه[(٣)] ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعَلّى لا أَلْقاكُمْ بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تَلْقَوْا ربكم ، كَحُرْمَةِ يومكم هذا ، وَكَحُرْمَةِ شهركم هذا ، وإنكم ستَلْقَوْنَ ربكم فيَسْألُكُمْ عن أعمالكم . وقد بَلّغْتُ ، فمن كانت عنده أمانةٌ فليُؤدّها إلى من ائْتَمَنَهُ عليها . وإنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ[(٤)] ، ولكنْ لكم رءوسُ أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ . وإنَّ كُلَّ دَمٍ فى الجاهلية موضوعٌ ، وإن أوّل دمائكم أَضَعُ دَمُ ابن ربيعة بن الحارث[(٥)] ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أمّا بعدُ : فإن الشيطانَ قَدْ يَئِسَ أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبداً . ولكنّهُ إنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذلك فقد رَضِىَ به مما تَحْقِرُون من أعمالكم ، فاحْذَرُوهُ على دينكم . أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهنّ عليكم حقا . لكمْ عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشكم[(٦)] أحداً تكرهونه ، وعليهنّ ألا يَأْتِينَ بفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ[(٧)] ، فإن فعلنَ فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ فى المضاجع ، وتضربوهنّ ضرباً غير

---

(١) جمع طليق ، وهو الممنون عليه بفكّ الاسار .

(٢) كانت سنة عشر ، وسميت بالوداع ، لأن النبيّ ودّع الناس فيها بالوصية ، وأكد الوداع بالاشهاد ، فما عرف وداعه حتى توفى .

(٣) المناسك : جمع منسك (كمجلس ومقعد) وهو ما يتعبد به ، والنسك (مثلثة) العبادة

(٤) ويروى : وإن أوّل ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب .

(٥) وفى رواية : دم عامر بن ربيعة بن عبد المطلب . وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتله هذيل .

(٦) الفرش مصدر واسم للمفروش . ويصح ضبط الكلمة فرش (ككتب) فتكون جمعاً لفراش .

(٧) هى النشوز أو البذاء .

مبرح ، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكِسْوتهنّ(١) بالمعروف ، واستَوْصُوا بالنساء خيراً . فإنهنّ عندكم عَوانٍ لايملكن لأنفسهن شيئاً . أيها الناس : اسمعوا قولى واعْقِلُوه تَعلَمُنّ أن كُلّ مُسْلِمٍ أخٌ المسلم ، فلا يحلّ(٢) لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طِيبِ نَفْسٍ منه ، فلا تَظْلِمُنّ أنفُسَكم . اللهم قد بَلّغْتُ ، اللهم اشْهَدْ .

❊

من خطبة أبى بكر(٣) يوم بويع :

حمدالله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنى وَلِيتُ عليكم ولستُ بخيركم(٤) . ولكنْ نَزَلَ القرآنُ ، وَسَنّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وعَلّمْنا فَعَلِمنا ، واعلموا أنّ أ كْيَسَ الكَيْسِ(٥) التُقَى ، وأن أحْمَقَ الحُمْقِ الفُجُورُ، وأن أقوا كم عندى الضعيفُ حتى آخذَ له الحقّ، وأن أضعفَكم عندى القويُّ حتى آخُذَ منه الحقّ . أيها الناس : إنما أنا مُتّبِعٌ ولست بِمُبْتَدِعٍ ، فإن رأيتمونى على حَقّ فأَعِينُونى ، وإن رأيتمونى على باطل فَرُدُّونِى ، أَطِيعُونى ما أطَعْتُ الله فيكم ، فإذا عَصَيْتُه(٦) فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) بالضم والكسر فى المفرد ، أما الجمع فهو بالضم لا غير (كسا) .

(٢) حل من الحلال كضرب . وبمعنى فك العقدة أو نزل بالمكان كنصر .

(٣) هو عبد الله بن أبى قحافة يجتمع مع رسول الله فى مرة بن كعب . ولد بعد سنتين من مولد رسول الله وكان صاحبه قبل النبوة وهو أول من أسلم من الرجال ولذلك سمى الصدّيق وقد لزم النبى فى أحرج المواقف: أقام معه فى الغار وصحبه فى الهجرة . نشأ من أ كرم قريش خلقاً وأرجحهم حلماً وكان أعلمهم بالأنساب وقد كان ذا مال أنفقه فى معاضدة النبى . ثم كان له الفضل على الإسلام بمحاربته المرتدين حتى ردهم إلى حظيرة الإسلام ورأب صدعه بهم . ثم لم يلبث أن جرد الجيوش لفتح ممالك كسرى وقيصر ففضله على الإسلام عظيم أولا وآخرا. وكانت مدته فى الخلافة سنتين وثلاثة أشهر تولى سنة احدى عشرة للهجرة وتوفى سنة ثلاث عشرة .

(٤) خير أفعل تفضيل وأصله أخير أوهو صفة مشبهة . وكذلك شر وقد استعملا بصيغة أفعل على الأصل . ويقال لقيته بأخى الشر أى بالخير وبأخى الخير أى بالشر .

(٥) ضد الحمق .

(٦) عصى (كضرب) ضد أطاع ، ومنه العصا وجمعها عصىّ كقسى وأعصاء . وشق العصا المخالفة ، وعبيد العصا . أى الذين يضربون بها.

ومن خطبه خطبته التي يُرَشِّح(١) فيها عمر للخلافة ، فإنه جمع الناس وهو مريض فأمر بمن يحمله على المنبر ، ثم خطب آخر خطبة له ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناسُ ، احْذَرُوا الدنيا ولا تَثِقُوا بها ، فإنها غرَّارَةٌ(٢) ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبُّوها ، فَبِحُبِّ كُلٍّ واحدةٍ منهما تُبْغَضُ(٣) الأخرى ، وإن هـذا الأمرَ الذى هو أمْلَكُ بنا(٤) ، لا يَصْلُحُ آخره إلا بما صَلَحَ بِهِ أوَّلُهُ ، ولا يَتَحَمَّلُهُ إلاَّ أفضَلُكُمْ مَقْدِرَةً وَأمْلَكُكُمْ لنفسه ، وأشدُّكم فى حالِ الشِّدةِ(٥) ، وأسْلَسُكُمْ فى حالِ اللِّينِ ، وأعلَمُكُمْ برأى ذوى الرأىِ ، لا يتشاغل بما لا يَعْنيه(٦) ، ولا يَحْزَنُ لما يَنْزِلُ به ، ولا يَسْتَحِى من التعلم ، ولا يَتَحَيَّرُ عند البَدِيهَةِ(٧) ، قَوِىٌّ على الأمور ، لا يَجُوزُ لشىء منها حَدَّهُ بِعُدْوَانٍ ولا تَقْصِيرٍ ، يُرْصِدُ(٨) لما هو آتٍ عتادَهُ(٩) من الحَذَرِ والطاعة ، وهو عمر بن الخطاب .

***

ومن كلام عمر بن الخطاب(١٠) :

---

(١) من معانى الترشيح : التقوية . والمعنى هنا يبين قوته على احتمالها .

(٢) خداعة .

(٣) الكثير فى هذا الفعل أبغض والقليل بغض (كنصر) ويقال بغض فلان (ككرم) أى صار بغيضاً مكروهاً .

(٤) ألصق بنا ، يقال ملك الخشف أمه إذا قوى وقدر أن يتبعها ، والمراد بالأمر الخلافة .

(٥) الشدة : صعوبة الزمن ، والجمع شدد بكسر الشين . أما الشدائد فجمع شديدة بنفس المعنى أو جمع شاذ لشدة .

(٦) عناه الأمر عنياً : شغله فهو معنىٌّ به .

(٧) البديهة : مايفجأ الانسان من أمر ، والجمع بدائه .

(٨) رصد الشىء (كنصر) ترقبه . ويرصد هنا من أرصد بمعنى أعدّ .

(٩) الحاضر من الأمر ، يقال عتد الأمر حضر فهو عتد وعتيد .

(١٠) هو أبو حفص عمر بن الخطاب . أول من تسمى من الخلفاء بأمير المؤمنين وأول من أرخ بالتاريخ الهجرى ومصر الأمصار (بنيت البصرة والكوفة بأمره) ودوّن الدواوين للجيش والخراج ، ولد بعد مولد رسول الله بثلاث عشرة سنة . وكان بين قريش من زعمائها . وكانت له السفارة بينها وبين القبائل

أيها الناسُ: اتقُوا الله فى سَرِيرَتِكُمْ وعَلانِيَتِكُمْ، وَأْمُرُوا بالمعروف، وانْهَوْا عن المُنْكَر، ولا تَكُونُوا مِثْلَ قومٍ كانوا فى سفينة، فأقبل أحدهم على موضعه يَخْرِقُه فنظر إليه أصحابه فَمَنَعُوه، فقال هو مَوْضِعِى وَلِىَ أن أَحْكُمَ فيه، فإن أخذوا على يده سَلِمَ وَسَلِمُوا، وإن تركوه هَلَكَ وَهَلَكُوا معه، وهذا مثل ضربته لكم، رحمنا الله وإياكم.

ومن خطبه قوله بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناسُ، إنى دَاعٍ فَأَمِّنُوا. اللهم إنِّى غَلِيظٌ فَلَيِّنِّى لأهل طاعتك بموافقة الحقّ ابتغاء وجهك والدارِ الآخرةِ، وارْزُقْنِى الْغِلظَةَ والشدّةَ على أعدائك وأهل الدَّعَارَة[1] والنِّفاق، من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم. اللهم إنى شَحِيحٌ فَسَخِّنِى فى نوائب[2] المعروف قَصْدًا من غير سَرَفٍ ولا تبذير[3] ولا رِياء ولا سُمْعَةٍ، واجعلنى أَبْتَغِى بذلك وجهك والدار الآخرة. اللهم ارزقنى خَفْضَ الجَناح ولِين الجانب للمؤمنين. اللهمّ إنى كثير الغَفْلة والنِّسيان، فأَلْهِمْنِى ذِكْرَكَ على كلّ حالٍ، وذِكْرَ الموت فى كلّ حين. اللهم إنى ضعيفٌ عن العمل بطاعتك، فارزقنى النَّشاط فيها والقوّةَ عليها، بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعِزَّتِكَ وتوفيقك، اللهم ثَبِّتْنِى باليقين والبرّ والتقوى، وذِكْرِ المقام بين يديك، والحياء منك، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى، والمحاسبةَ لنفسى، وإصلاحَ الساعات، والحَذَرَ من

= فى الحروب والمفاخرات، ثم كان فى بدء الدعوة من أشد الكفار على النبي والمسلمين حتى أعز الله به الدين، فلقبه النبي بالفاروق يوم إسلامه بفرقه بين الحق والباطل، وحضر مع النبي جميع غزواته ونال الخلافة بعهد من أبى بكر فكان لحزمه وعزمه أثر كبير فى تقدم الفتوح وحسن طاعة العرب، وكان لا يعمل عملا بلا استشارة يجمع لها أهل الرأى.

(١) الخبث والفجور.

(٢) النوائب: جمع نائبة وهى المصيبة فلما أضيفت إلى المعروف صار معناها المصائب التى تحتاج إلى المعروف لتلافيها.

(٣) القصد: التوسط فى الأمور، والسرف ضده فهو أعم من أن يكون فى المال أو غيره وبالافراط أو التفريط. التبذير: الإنفاق فى غير طاعة الله وهو الإسراف. وينبغى حمل السرف هنا على التقتير حتى يكون عطف التبذير عليه للمغايرة.

الشُّبُهَاتِ ، اللهم ارزقنى التفكيرَ والتدبرَ لما يَتْلُوه لسانى من كتابك ، والفهمَ له ، والمعرفةَ بمعانيه ، والنظرَ فى عجائبه ، والعملَ بذلك مابقيت ، إنك على كلِّ شيء قدير .

⁂

ومن خطبه لما بلغه أن قوما يفضلونه على أبى بكر الصديق رحمه الله ، فوثب مغضباً حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أيها الناسُ : إنِّى سأُخبرُكُمْ عنى وعن أبى بكر : إنه لما تُوُفِّيَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ارتَدَّتِ العربُ ، وَمَنعَتْ شاتَها وَبعيرَها[1] ، فأَجْمعَ رَأْيُنَا كُلُّنَا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم أَنْ قُلْنَا له : ياخليفةَ رسول الله ، إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يقاتلُ العربَ بالوَحْيِ والملائكةِ ، يُمِدُّهُ اللهُ بهم وقد انقطع ذلك اليومَ ، فالْزَمْ بيتكَ ومسجدكَ ، فإنه لا طاقةَ لك بقتالِ العرب ، فقال أبو بكر الصِّدِّيقُ : أَوَكلُّكُمْ رأْيُهُ على هذا ؟ فقلنا نعَمْ ، فقال والله لأَنْ أخِرَّ[2] من السماء ، فتخطفنى الطيرُ أحبُّ إليَّ من أنْ يكون هذا رأْيِي . ثم صعِدَ المنبر ، فحمِدَ اللهَ وكَبَّرَهُ ، وصلَّى على نبيه صلَّى الله عليه وسلم ، ثم أَقْبَلَ على الناسِ ، فقال : أيها الناسُ من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ . أيها الناسُ : أَنْ كثُرَ أعداؤكم ، وقلَّ عددُكم رَكِبَ الشيطانُ منكم هذا المَرْكَبَ ؟ ! ! والله لَيُظْهِرَنَّ اللهُ هذا الدينَ على الأَدْيَانِ كلِّها ولو كرِهِ المشركون . قولُه الحقُّ ، وَوَعْدُه الصدقُ . بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدْمَغُهُ[3] فإذا هو زاهقٌ[4] . وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ، والله يأيها الناسُ لو أُفْرِدْتُ من جميعكُمْ لجاهدتُهُمْ فى الله حَقَّ جِهَادِهِ حتى أُبْلِيَ بنفسى عذراً[5] أو أُقتلَ قتلا . والله أيها

---

(١) أى منعت زكاتهما . (٢) أسقط .
(٣) دمغه : أصاب دماغه . (٤) زهق الشيء : هلك ، والباطل : اضمحل .
(٥) يقال أبلاه عذراً : قدمه إليه فقبله . والمعنى هنا فعل ما يعذر معه أى لم يقصر .

النَّاسُ لو مَنعونى عِقالاً لجاهدتهم عليه ، واستعنت الله عليهم وهو خير مُعِينٍ ، ثم نزل : فجاهد فى الله حقَّ جهاده حتى أَذْعَنَتِ العربُ بالحق .

قال المبرِّد فى قوله : لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه الصحيح أن المُصَدِّق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها ، قيل أخذ عقالا . و إذا أخذ الثمن ، قيل أخذ نقداً . قال الشاعر :

أتانا أبو الخَطَّابِ يَضْرِبُ طَبْلَهُ   فَرُدَّ وَلَمْ يَأْخُذْ عِقالاً ولا نَقْدَا

(وكانت الأمراء إذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول) . والذى تقوله العامة : لو منعونى ما يساوى عقالا فضلا عن غيره . وهذا وجه والصحيح الأول لأنه ليس عليهم عقال يعقل به البعير فيمنعه .

***

ومن خطب عثمان(١) :

إنَّ لِكُلِّ شَىْءٍ آفَةً(٢) ، وَإنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ عَاهَةً . وَإنَّ آفَةَ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، وَعَاهَةَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ عَيَّابُونَ طَعَّانُونَ يُظْهِرُونَ لَكُمْ مَا تُحِبُّونَ . وَيُسِرُّونَ مَا تَكْرَهُونَ .

---

(١) هو عثمان بن عفان الأموى القرشى . ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله وشب على الأخلاق الكريمة فكان حيا عفيفاً . ولما بعث رسول الله كان من السابقين الأولين إلى الإسلام وهو أحد المهاجرين إلى الحبشة خرج إليها مع السيدة رقية بنت الرسول وكان النبى قد زوجها إياه وحضر مع النبى جميع مواقعه إلا بدرا استبقاه الرسول ليقوم بتمريض رقية فى مرض موتها وبعدها زوجه النبى ابنته السيدة أم كلثوم وأنفق كثيراً من ماله فى إصلاح حال المسلمين وجهز جيش العسرة إلى تبوك وكان من كتبة الوحى . وكان أحد الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة فانتخب من بينهم . وتولى الخلافة من سنة ٢٤ من الهجرة إلى أن قتل سنة ٣٥ هـ فمدته احدى عشرة سنة لم يسلم له منها إلا الست الأولى ثم توالى عليه الشغب من أهل الأمصار بحجة أنه يؤثر أقرباءه بالأعمال ولولا لينه الشديد بعد شدة عمر البالغة ما حدثت هذه الثلمة التى حدثت بقتله واجترأ بها الناس على الخلفاء . قتل رحمه الله بداره وهو يقرأ القرآن .

(٢) الآفة والعاهة : مايفسد الشىء ، والأولى من أيف الشىء فهو مئوف ومئيف . والثانية من عاه يعيه فهو معيوه .

يَقُولُونَ لَكُمْ وَتَقُولُونَ . طَغَامٌ(١) مِثْلُ النَّعَامِ(٢) يَتْبَعُونَ أَوَّلَ نَاعِقٍ . أَحَبُّ مَوَارِدِهِمْ إِلَيْهِمُ النَّازِحُ(٣) . لَقَدْ أَقْرَرْتُمْ لِابْنِ الخَطَّابِ بِأَكْثَرَ مِمَّا نَقَمْتُمْ(٤) عَلَيَّ وَلَكِنْ وَقَمَكُمْ(٥) وَقَمَعَكُمْ وَزَجَرَكُمْ زَجْرَ النَّعَامِ المُخَزَّمَةِ(٦) . وَاللهِ إِنِّي لَأَقْرَبُ نَاصِرًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَأَقْمَنُ(٧) إِذَا قُلْتُ هَلُمَّ(٨) أَنْ تُجَابَ دَعْوَتِي مِنْ عُمَرَ . هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ حُقُوقِكُمْ شَيْئًا ؟ فَمَالِي لا أَفْعَلُ فِي الحَقِّ مَا أَشَاءُ إِذًا ، فَلِمَ كُنْتُ إِمَامًا ! !

ومن خطبه فى الوعظ قال بعد حمد الله والثناء عليه :

إِنَّكُمْ فِي دَارِ قُلْعَةٍ(٩) وَفِي بَقِيَّةِ أَعْمَارٍ . فَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِخَيْرِ مَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فَلَقَدْ أُتِيتُمْ : صُبِّحْتُمْ أَوْ مُسِّيتُمْ . أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا طُوِيَتْ عَلَى الغُرُورِ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ(١٠) . اعْتَبِرُوا بِمَنْ مَضَى ثُمَّ جِدُّوا وَلَا تَغْفُلُوا فَإِنَّهُ لَا يُغْفَلُ عنكم . أين أبناء الدنيا وَإِخْوَانُهَا الذين أثاروها وعَمَرُوها(١١) ومُتِّعُوا بها طَوِيلًا ؟ أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ ؟ ارْمُوا الدُّنْيَا حَيْثُ رَمَى بِهَا اللهُ ، واطْلُبُوا الآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا

---

(١) الطغام : أوغاد الناس واحدها طغامة . والطغامة أيضاً الأحمق .

(٢) النعام : اسم جمع للنعامة وهى طائر أحمق . (٣) القليل الماء .

(٤) نقم منه (كضرب وعلم) انتقم ، ونقم منه وعليه الشيء : عابه .

(٥) وقم (كوعد) نهر ورد أقبح رد . (٦) خزم البعير (كضرب) جعل فى جانب أنفه الخزامة تخزمه . (٧) أقمن : أجدر . ويقال هو قمِن وقَمَن كحذر وقمن كبطل والأخير لايجمع ولايثنى لأن أصله المصدر وصف به كعدل .

(٨) هلم أصلها لمّ بمعنى ضم واجمع كأن المنادى يقول ضم نفسك والهاء للتنبيه . والحجازيون يستعملونه بلفظ الواحد له ولغيره ، وأهل نجد تلحق به الضمائر ويستعمل لازما ومتعديا : هلم الينا . وهلم شركاءكم . (٩) لادوام لها .

(١٠) الغرور (بالفتح) الدنيا أو ما غرك أو يخص بالشيطان وهو أيضاً ما يتغرغر به . وبالضم مصدر غر أو جمع غار . (١١) عمر الرجل المكان (كنصر) أقام به . والعمارة (بالكسر) ما يعمر به المكان وبالضم أجرة الإقامة به وبالفتح كل ما يلبس على الرأس .

تَذْرُوهُ(١) الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً . المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً » .

ومن خطبه :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الآخِرَةَ ، وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا . إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنَى وَالآخِرَةَ تَبْقَى ، فَلَا تُبْطِرَنَّكُمُ(٢) الْفَانِيَةُ وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى ، إِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ ، وَإِنَّ المَصِيرَ إِلَى اللهِ . اتَّقُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ وَوَسِيلَةٌ عِنْدَهُ ، وَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ الْغِيَرَ(٣) ، وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ أَلَّا تَصِيرُوا أَحْزَابًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

❊

ومن كلام عليٍّ(٤) فى التحريض على القتال لما أغار سفيان(٥) بن عَوْفٍ الأسَدِيّ على الأَنْبَارِ(٦) وقتل عامل عليّ عليها :

حَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ ، وصلّى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أَمَّا بَعْدُ ،

---

(١) ذراه (كضرب) فرقه فى الهواء .

(٢) البطر : كفر النعمة .

(٣) أى أحداثه التى تغير حال الشىء، قيل هو مفرد وجمعه أغيار، وقيل جمع غيرة كعنب جمع عنبة.

(٤) على بن أبى طالب، هو ابن عم رسول الله وأحد كتاب وحيه وزوج ابنته فاطمة ولد بعد مولد النبي باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أول من آمن من الصبيان وشهد جميع الغزوات مع النبي إلا غزوة تبوك . وقد بايعه الحجاز وامتنع عليه معاوية بالشام معتلا بالمطالبة بدم عثمان مقدما لها على تنصيب الخليفة نقضى عليّ أيامه كلها فى محاربته لمعاوية حتى اغتاله أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ وهو أفصح الناس بعد رسول الله وأكثرهم علماً وزهداً وقد خرج عليه جماعة من جنده يخطئونه فى التحكيم ويطالبونه بأن يقر على نفسه بالكفر ثم يتوب فيتابعوه ، فلم ينزل على رأيهم لاعتقاده أنه على الحق .

(٥) هو أحد بنى غامد ، وهى قبيلة باليمن وقد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق .

(٦) بلدة على الشاطئ الشرقى للفرات .

فإنَّ الجهادَ بابٌ من أبوابِ الجنّةِ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عنه[١] أَلْبَسَهُ اللهُ الذُّلَّ ، وَسِيماء[٢] الْخَسْفِ[٣] وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ[٤] . وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى حَرْبِ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهاراً ، وَسِرًّا وَإِعْلاَناً ، وَقُلْتُ لَكُمْ اُغْزُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَغْزُوكُمْ ، فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا غُزِىَ قَوْمٌ قَطُّ فى عُقْرِ[٥] دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا ، فَتَخَاذَلْتُمْ وَتَوَاكَلْتُمْ ، وَثَقُلَ عَلَيْكُمْ قَوْلِى ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ[٦] .

هذا أخو غامدٍ قَدْ بَلَغَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَتَلَ حَسَّانَ الْبَكْرِىَّ ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا[٧] وَقَتَلَ مِنْكُمْ رِجَالاً صَالِحِينَ . وَقَدْ بَلَغَنِى أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ ، وَالْأُخْرَى الْمُعَاهَدَةِ ، فَيَنْزِعُ حِجْلَها وقُلْبَها وَرِعَاثَهَا[٨] ، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَوْفُورِينَ[٩] ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ[١٠] ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ . فَلَوْ أَنَّ رَجُلاً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ دُونِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ عِنْدِى فِيهِ مَلُوماً ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِى جَدِيرًا . يَا عَجَباً كُلَّ الْعَجَبِ !! عَجَبٌ يُمِيتُ الْقَلْبَ ، وَيَشْغَلُ الْفَهْمَ ، وَيُكْثِرُ الْأَحْزَانَ ، مِنْ تَضَافُرِ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ حَتَّى أَصْبَحْتُمْ غَرَضاً تُرْمَوْنَ وَلاَ تَرْمُونَ ، وَيُغَارُ عليكم ولا تُغِيرُونَ ، وَيُعْصَى اللهُ فيكم

---

(١) رغب (كفرح) فيه أراده . وعنه كرهه . وإليه ابتهل . ورغب (ككرم) اشتد نهمه

(٢) علامة . (٣) الذل . (٤) ديث : وصم ، والصغار : الذل .

(٥) عقر : وسط .

(٦) قال المبرد : قوله شنت عليكم الغارات يقول صبت . يقال شننت الماء على رأسه أى صببته وكذلك يفسرها صاحب القاموس المحيط . والظاهر أن كلمة الغارة فى قول الشاعر :

فَلَيْتَ لِى بِهِمُ قوماً إذا ركبوا　　شنوا الإغارة رُكباناً وَفُرْسَانا

مفعول به بدليل أنها وقعت نائب فاعل فى قول سيدنا على لما حذف الفاعل . فأما قول الشيخ الخضرى فى حاشيته على ابن عقيل إن مفعول شن محذوف والإغارة مفعول لأجله فلا داعى له .

(٧) جمع مسلحة وهى الثغر حيث يخشى طروق العدو .

(٨) الحجل : الخلخال . القلب . السوار . الرعاث جمع رعثة وهى القرط .

(٩) تامين لم ينقص منهم أحد . (١٠) جرح.

وَتَرْضَوْنَ . إذَا قُلْتُ أَغْزُوهُمْ فى الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هذا أوان قُرٍّ وَصِرٍّ[١] ، وَإنْ قُلْتُ لَـكُمُ أُغْزُوهُمْ فى الصَّيْفِ قُلْتُمْ هٰذِهِ حَمَارَّةُ[٢] القَيْظِ . أَنْظِرْنَا يَنْصَرِمِ الحَرُّ عَنَّا ، فَإذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ تفرُّونَ ، فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أفَرُّ ، يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ، وَيَا طَغَامَ[٣] الأَحْلَامِ ، وَيَا عُقُولَ رَبَّاتِ الحِجَالِ[٤] ، وَاللهِ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظاً حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ : ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلٰكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِى الحَرْبِ . لِلّهِ دَرُّهُمْ[٥] !! وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهَا مِنِّي وَأَشَدَّ لَهَا مِرَاساً ، فَوَاللهِ لَقَدْ نَهَضْتُ فيها وما بَلَغْتُ العشرين ، ولقد نَيَّفْتُ اليومَ على السِّتين ، ولـكنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ (يقولها ثلاثاً) ، فقام إليه رجل ومعه أخوه ، فقال يا أمير المؤمنين : أنا وأخى هذا كما قال الله تعالى : « رَبِّ إنِّى لَا أَمْلِكُ إلَّا نَفْسِي وَأَخِي » فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ ، فوالله لَنَنْتَهِيَنَّ إِلَيْهِ وَلَوْ حَالَ دُونَهُ جَمْرُ الغَضَى وَشَوْكُ القَتَادِ ، فدعا لهما بخير ، ثم قال لهما : وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ .

ومن خطبه كرّم الله وجهه حين استنفر أهل الـكوفة لحرب الجمل قال :

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلَّى اللهُ عَلَى سيدنا محمدٍ خاتَم النبيين ، وآخر المرسَلين . أمَّا بعدُ : فإن اللهَ بعَثَ محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الثَّقَلَيْنِ كافَّةً ، والناسُ فى اختلافٍ ، والعربُ بِشَرِّ المنازل مُضْبِنُونَ للشنآن[٦] بعضُهم على بعض . فرأَبَ به اللهُ

---

(١) القر بالضم : البرد ، ويوم قر بالفتح وليلة قرة كذلك باردة والقرة بالـكسر البرد والرجل مقرور . والصر : الريح الشديدة كالصرصر .

(٢) حمارّة القيظ شدته ومثلها صبارة الشتاء.

(٣) الطغام: السفلة من الناس والواحد طغامة .

(٤) الحجال جمع حجلة وهى الستر :أى ذوات الخدور كناية عن النساء أو جمع حجل بكسر فسكون وهو الخلخال .

(٥) الدر : النفس ، واللبن ، والعمل ، والمراد من نسبة الدر إلى الله بأحد هذه المعانى هو تعظيمه لأن الشىء إذا نسب إلى العظيم كان عظيما.

(٦) يقال : أضبن الشىء إذا جعله فى ضبنه ، والضبن بكسر فسكون:الإبط ومايليه.

الثَّأْىَ[(١)] ، ولأم به الصَّدْع ، ورتق به الفَتْقَ[(٢)] ، وأمَّنَ السبل ، وحَقَنَ به الدّماء ، وقطَعَ به المداوة المُوغِرَةَ للقلوب[(٣)] ، والضغائنَ المُخَشِّنَةَ للصدور ثم قبضهُ اللهُ عزّ وجلّ مشكوراً سَعْيُهُ ، رضِيًّا عملُه ، مغفوراً ذنبه ، كريما عند ربه نُزُلُه[(٤)] ، فيالها مصيبةً عَمَّتِ المسلمين ، وخصّت الأقربين ، وَوَلِيَ أبو بكر ، فسار بسيرة رَضِيَهَا المسلمون . ثم وَلِيَ عُمَرُ ، فسار بسيرة أبى بكر رضى الله عنهما ، ثم ولِي عثمانُ فنال منكم ونِلْتُم منه ، حتى إذا كان من أمره ما كان أتيتموه فقتلتموه . ثم أتيتمونى فقلتم لى بايعْنا . فقلت لكم لا أفعل ، وَقَبَضْتُ يدى فبسطتموها ، ونازعتم كفِّى فجذبتموها[(٥)] وقلتم لا نرضى إلاَّ بك ، ولا نجتمع إلاَّ عليك وتداككتم[(٦)] علىّ تَدَاكُكَ الإبل الهِيمِ[(٧)] على حياضها يوم ورودها، حتى ظننتُ أنكم قاتِلِيَّ، وأن بعضكم قَاتِلُ بَعْضٍ ، فبايعتمونى وبايعنى طَلْحَةُ والزُّبيرُ[(٨)] . ثم ما لبثا أن استأذنانى للعُمْرَة ، فسارا إلى البصرة[(٩)] فَقَتَلا بها المسلمين وفعلا الأفاعيل ، وهما يَعْلَمَانِ : والله أنى لست بدون واحد ممن مضى . ولو أشاء أنْ أقول لقلت . اللهم إنهما قطعا قرابتى ، ونكثا بيعتى ، وألّبا علىّ عدوّى . اللهم فلا تُحْكِمْ لهما ما أبْرَما ، وَأَرِهما المساءة فيما عَمِلا وأَمَّلا .

---

(١) رأب : أصلح . الثأى بفتحتين أو فتح فسكون : الفساد .

(٢) لأم (كمنع) أصلح . رتق (كقتل) سدّ .

(٣) وغر (كتعب أو وعد) صدره : امتلأ غيظا .

(٤) النزل بضمتين : ما يهيأ للضيف .

(٥) الكف مؤنث

(٦) فى اللسان . تداكّ عليه القوم إذا ازدحموا عليه .

(٧) الهيم : الابل العطاش واحدها أهيم والأنثى هيماء ووزن هيم فعل (كقفل) وإنما كسرت الهاء لمناسبة الياء

(٨) هما اثنان من العشرة المبشرين بالجنة والستة أهل الشورى وكلاهما قتل سنة ستة وثلاثين من الهجرة الأول فى وقعة الجمل والثانى عند منصرفه منها

(٩) البصرة : بالفتح أو الكسر أو التحريك أو فتح الباء مع كسر الصاد ففيها أربع لغات وليس فى النسب اليها إلا الفتح أو الكسر مع سكون الصاد .

بلاغات النساء فى هذا العصر

للمرأة كما تعلم منزلة بين العرب بقيت لها إلى ما بعد الإسلام ، ولقد أثارت الحوادث التى جرت بعد رسول الله كوامن البلاغة فيهن ، فكم ترى لهن من قول ألهب القلوب حمية يوم القتال ، وفصلَ الخطابَ يوم الخصام . و إنه ليروعك منهن جهارة الرأى وصدق اليقين حين ترى المتشيعات أو العلويات يجبهن معاوية ، وهو على سرير ملكه ، والحراس من حوله بالقول الجارح ، والتهمة الشنيعة ، ويذكرنه بما كان منه من خروج على الجماعة ، ونبذ للطاعة . ولقد فعلن من ذلك ما لم يفعله كثير من الرجال الذين انقلبوا إلى معاوية بعد موت على التماساً للدنيا ، واستدراراً للعطاء . أما هن فإذا اتفق لإحداهن أن تطلب حاجة فإنما تطلبها فى عزة وأنفة ، باسم الحق المغتصب ، والوديعة المحتجنة ، و إذا أردت أن ترتع من روض هذا الكلام فى أحسن مرتع ، فعليك بكتاب بلاغات النساء لابن طيفور ، فقد جمع من ذلك رى الصادى . وإنما ننقل من ذلك أمثلة فنقول :

من كلام عائشة أم المؤمنين

بلغها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت إلى أزْفَلَةٍ[1] من الناس فلما حضروا أسدلت أستارها وعَلَتْ وسادها ، ثم قالت :

أبى وما أَبِيَهْ ! ! أبى والله لا تَعْطُوهُ[2] الأَيْدى . ذلك طَوْدٌ مُنيف ، وظِلٌّ مَدِيد ، هيهاتَ كذبتِ الظنون ، أَنْجَحَ إذ أَكْدَيْتُم[3] ، وسَبَقَ إذْ وَنَيْتُمْ « سَبْقَ الجواد إذا اسْتولَى على الأَمَدِ » فتى قريش ناشئاً ، وكَهْفُها كَهْلا ، يَفُكُّ عانِيَها ،

---

(١) الجماعة . (٢) لاتتناوله . (٣) جبنتم .

وَيَرِيشُ[1] مُمْلِقها ، وَيَرْأَبُ شَعْبَهَا[2] ، وَيَلُمُّ شَعَثَهَا ، حتى حَلِيَتْهُ قلوبُهَا ، ثم استشْرَتْهُ[3] فى دين الله ، فما برحت شَكِيمتُه[4] فى ذات الله عزّ وجلّ حتى اتّخذ بفِنائه مسجداً يحيى فيه ما أمات المُبْطلون . وكان رحمهُ الله غَزِيرَ الدمعة ، وَقِيذَ[5] الجوانح شَجِيَّ النَّشِيج[6] ، فانعطفت إليه نِسْوانُ مكة ووِلْدانها يسخرون منه ويستهزئون به « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » فأكبرتْ ذلك رجالات قريش ، فحنتْ قِسِيَّهَا ، وفوّقتْ سهامها ، وامتثلوه[7] غَرَضاً ، فما فَلُّوا له صَفاة ، ولا قصفوا له قناةً ، ومرّ على سِيسَائِهِ[8] حتى إذا ضرب الدين بجِرانه[9] ، وألقى بَرْكَهُ ، ورستْ أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجًا ، ومن كلّ فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم نَصَبَ الشيطان رِواقَه ، ومَدَّ طُنُبه ، ونَصَبَ حبائله ، وَأَجْلَبَ بخيله ورَجْله ، واضطرب حبل الإسلام ، ومَرِج[10] عهدُه ، وماج أهله ، وبُغِيَ الغوائل ، وَظَنَّتْ رجال أن قد أَكْثَبَ نَهْزُها[11] ، ولات حين الذى يَرْجُون ، وَأَنَّى والصدّيق بين أَظْهُرِهم ؟ فقام حاسراً مُشَمِّرًا ، فجمع حاشيته ، ورفع قُطْرَيه ، فردّ رَسَنَ الإسلام على غَرْبه ، وَلَمَّ شَعَثَهُ بِطِبِّه ، وأقام أَوَدَه بثِقَافِه ، فابذعرّ النفاق بِوَطْئِه ، وانتاشَ الدينَ فنَعَشَهُ[13] ، فلما أراحَ الحق على أهله ، وقرّر الرءوسَ على كواهلها ، وحقن الدماء فى أُهُبها ، أَتَتْهُ منيّتُه ، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمَعْدَلة ، ذاك ابن الخطاب

---

(١) يعطى ويفضل من راش السهم إذا جعل فيه ريشا ليكون أسدّ له وكذلك المحسن يقوى الفقير على الحياة .

(٢) الشعب : الصدع . (٣) جدّ واجتهد . (٤) أنفته وحميته . (٥) عليل .

(٦) الشجىّ الحزين . النشيج : صوت البكاء .

(٧) نصبوه . (٨) شدته . والسيساء : عظم الظهر ، والعرب تضربه مثلا للشدة .

(٩) الجران : الصدر وكذلك البرك . (١٠) اختلط .

(١١) أكثب : قرب . النهز : اختلاس الشيء والظفر به مبادرة . (١٣) رفعه .

لله أمٌّ حَفَلَتْ له ، ودرّتْ عليه ! ! لقد أوحدت به ، فنفخ الكفرة وَدَبَخَها[١] ، وشرّد الشرك شَذَر مَذَر ، وَبَعج الأرض وَبَخعها[٢] . فقاءتْ أكلها ، ولفظت جنينها ، ترأمه ويَصْدِف عنها ، وتصدّى له ويأباها ، ثم وزّع فيها فيئها وودّعها كما صحبها . فأرونى ما ترتابون ، وأىّ يومى أبى تنقِمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ، أم يوم ظَعْنه وقد نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : أَنْشُدُكم الله ، هل أنكرتم مما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا .

من كلام أم الخير بنت الحَرِيش البارقية

وفدت على معاوية ، فقال لها كيف كان كلامك يوم قتل عمّار بن ياسر ؟ قالت لم أكن والله زوّرته[٣] قبل ولا رَوّيْتُه بعد . وإنما كانت كلماتٌ نفثهن لسانى حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت . قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ قال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد . قال : هاته . قال نعم ، كأنى بها تقول : « يا أيها الناس اتقوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ » إن الله قد أوضح الحقّ ، وأبان الدليلَ ، ونوّر السبيلَ ، ورفع العَلَم ، فلم يَدَعْكم فى عمياء مُبْهَمة ولا سوداء مدلهِمّة . فأنّى تريدون رحمكم الله ، أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزَّحْفِ ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحقّ ؟ أما سمعتُمُ الله عزّ وجلّ يقول : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » . ثم

---

(١) صغرها . (٢) بعج الأرض وبخعها : شقها . (٣) أعددته .

رفعت رأسها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم قد عِيل الصبر ، وضَعُف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يا ربّ أزمّة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألّف القلوب على الهدى ، ورُدّ الحقّ إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوَصىّ الوفىّ ، والصدّيق الأكبر . إنها إحَنٌ بَدْرِيّة[١] ، وأحقادٌ جاهلية ، وضغائنُ أُحُديّة ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليُدرك بها ثارات بنى عبد شمس . ثم قالت :

« قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » صبراً معشر المهاجرين والأنصار . قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم . وكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة ، فرّت من قَسْورة[٢] ، لا تَدْرى أين يُسلك بها من فِجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، و « عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ » حتى تَحِلّ بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة . إنه والله من ضلّ عن الحقّ وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار . . . فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى ، والله لو قتلتُك ما حَرِجْتُ[٣] فى ذلك. قالت : والله ما يسوءنى يا بن هند أن يجرى الله ذلك على يدى من يسعدنى اللهُ بشقائه[٤] . قال : هيهات يا كثيرة الفضول ، ما تقولين فى عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عَسَيْتُ أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون ؛ فقال : إيهاً[٥] يا أم الخير ، هذا والله أصلك الذى تَبْنِين عليه ، قالت: لكن الله يشهد « وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا » ما أردت بعثمان نقصاً ، ولقد كان سباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجات ، ومازال يسألها عن رجال وتجيبه ، ثم قال لها : قد أعفيتك وردّها مُكرّمة إلى بلدها .

---

(١) إحن : جمع إحنة وهى الضغن . وبدرية نسبة إلى بدر أى إنها تولدت من هذه الموقعة وكذا قولها بعد ذلك ضغائن أحدية . (٢) القسورة : الأسد .

(٣) حرج : ارتكب حرجا : أى إثما .

(٤) تريد بقولها من يسعدنى الله بشقائه ، معاوية، وفى الكلام التفات لأنه مبنى أوّلا على الخطاب ، ثم صار إلى الغيبة . (٥) أمر بالسكوت .

كلام أرْوَى بنت الحارث بن عبد المطلب

دخلت رحمها الله على معاوية بالمَوْسم وهى عجوز كبيرة ، فلما رآها قال : مرحباً بك ياعمة . قالت : كيف أنت يابن أخى ؟ لقد كفرت بعدى بالنعمة ، وأسأت لابن عمك الصحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك فى الإسلام . ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعس الله منكم الجدود[1] ، وأصْعَر[2] الخدود ، حتى ردّ الله الحقّ إلى أهله ، وكانت كلمة الله هى العليا ، ونبينا محمد هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون . فكنا أهل البيت أعظم الناس فى الدّين حظا ونصيباً وقدراً ، حتى قبَض الله نبيه صلى الله عليه وسلم مغفوراً ذنبُه ، مرفوعا درجتُه ، شريفاً عند الله مرضياً . فصرنا أهلَ البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون أبناءهم ، و يستحيون نساءهم . وصار ابن عمّ سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : "يا بن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى" ، ولم يجمع بعد رسول الله لنا شَمْل ، ولم يسهل لنا وَعْر ، وغايتنا الجنة ، وغايتكم النار . قال عمرو بن العاص : أيتها العجوز الضالة أقصرى من قولك وغُضِّى من طَرْفك . قالت ومن أنت لا أم لك ؟ قال . عمرو بن العاص . قالت يابن اللَّخْناء النابغة[3] أتكلمنى ؟ اربَع على ظَلْعك[4] ، واعْنَ بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادّعاك ستةٌ من

---

(١) الجدود : جمع جدّ ، وهو الحظ .

(٢) أصعر الخدود : جعلها تميل عن الناس كبراً . والمعنى : أن الكبر غلبهم ، فلم يسلموا فتعس حظهم .

(٣) اللخناء : التى لم تخفض . النابغة : البغىّ .

(٤) أى أقم على ما فيك من ضعف وأبصر عجزك واسكت على ما فيك من عيب . وقد يسهل أخذ هذا المعنى إذا لوحظ أن الظلع التهمة والظالع المتهم ، ويقال : ارق على ظلعك ، أى لاتتكلف إلا ماتطيق كما يصعد الظالع على سلم ، فيكون ذلك على قدر عرجه .

قريش كلهم يزعم أنه أبوك[1] . ثم كلمها مَرْوان بن الحَكَم بمثل كلام عمرو ، فردت عليه بمثل ما ردّتْ به على عمرو ، فقال لها معاوية : يا عمة ، اقْصِدى قَصْدَ حاجتك ، فقالت حاجتى أن تأمر لى بألفى دينار ، وألفى دينار ، وألفى دينار ، فقال : ما تصنعين بها ؟ قالت أشترى بألفين عيناً خَرّارة فى أرض خَوّارة تكون لولد الحْرِث بن عبد المطلب ، و بألفين أزوّج فتيان المطلب من أكفائهم ، و بألفين أستعين على عسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام . فقال نعم الموضع وضعتها ، وأمر لها بستة آلاف دينار ، وقال لها ياعمة ! أنفقى هذه فيا تحبين ، فإذا احتجت فا كتبى إلى ابن أخيك يحسن صَفَدكِ ومعونتك إن شاء الله .

نهـــج البلاغة

تحقيق نسبته إلى علىّ كرّم الله وجهه

جمع الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ما نسب إلى علىّ كرّم الله وجهه من خطب وكتب وحكم ، فى كتاب سماه : « نهج البلاغة » وفى هذا القول ضربان من الشك : أولهما هل الجامع لذلك هو الرضى كما قدمنا أو أخوه المرتضى ؟ قال ابن خلكان فى ترجمة المرتضى : وقد اختلف الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أهو جمعه أم جمع أخيه الرضى ؟ وقد قيل إنه ليس من كلام علىّ ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه والله أعلم ، كما نصّ الحافظ الذهبى فى كتاب ميزان الاعتدال على أنه مكذوب عليه جزماً .

---

(١) كانت أم عمرو بن العاص من العواهر اللاتى يغشاهنّ الرجال ، وكنّ إذا ولدت إحداهنّ ولداً نسب إلى من هو أدنى شبها به من هؤلاء الذين يغشونها ، فلما ولد عمرو نسب إلى العاصى لشبهه به .

أما أسباب الشكّ فى نسبة هذا الكلام إلى علىّ فترجع إلى ما يأتى :

١ — خلوّ الكتب الأدبية والتاريخية التى ظهرت قبل الشريف الرضى من كثير مما فى نهج البلاغة .

٢ — ما ورد فيه من فكرة عويصة ونظرة دقيقة مما لا يصحّ نسبته إلى عصر علىّ .

٣ — إطالة الكلام إلى الحدّ الذى لم يؤلف إذ ذاك كما فى عهد الأشتر النَّخَعِىّ .

٤ — ما فى النهج من قول جارح وشتم صريح للصحابة من مثل ما ورد فى الشقشقية مما لا يصحّ قبوله من مثل علىّ فى الصحابة رضى الله عنهم .

٥ — الأسلوب الصوفى والعبارات التى لم تعهد إلا فى أزمان متأخرة عن زمن الإمام جرت على ألسنة المتكلمين ، ومنها ما هو خطأ لغوى لا يصح نسبته إلى عصر الإمام.

ردّ هـــذه الشبه

أما الشبهة الأولى : فنقول فى شأنها : إن جمع كلام بليغ من البلغاء فى كتاب واحد لم تجر به العادة قبل عصر الشريف الرضى إلا فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، أما من عداه فقد كان كلامهم يرد فى المناسبات مفرقاً فى كتب التاريخ وغيرها . ولقد كان كلام علىّ مع ذلك مذكوراً معروفا بالكثرة ، فقد قال المسعودى فى مروج الذهب: « والذى حفظ الناس من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس عنه ذلك قولا وعملا » .

ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين بعد أن أورد خطبة قال إنها لمعاوية فى نفر من قريش تباشروا بموته : « وفى هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذى من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب فى تصنيف الناس ، وفى الاخبار عنهم ، وعما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية

والخوف أشبه بكلام علىّ و بمعانيه وحاله منه بحال معاوية . . . و إنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار و بكثير منهم » .

وهذه الخطبة ذكرها الشريف فى النهج : (ج ١ ص ٨٥) ، ومنها :

« أيُّها الناسُ : إنا قد أصبحْنا فى دهرٍ عَنُودٍ (١) ، وزمنٍ كَنُودٍ (٢) ، يُعَدُّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم عُتُوًّا ، ولا ننتفع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوّف قارعة حتى تَحُلَّ بنا ، فالناسُ على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعهم الفسادَ إلا مَهانَةُ نفسِهِ ، وكَلالَةُ (٣) حدّه ، ونَضِيضُ وَفْرِه (٤) . ومنهم المُصْلِتُ لسيفه ، والمعلنُ بشرّه ، والمُجْلِبُ بخيله ورَجْله ، قد أشرط نَفْسَهُ (٥) ، وَأَوْبَقَ (٦) دِينه ، لِحُطامٍ ينتهزه ، أو مِقْنَبٍ (٧) يقوده ، أو منبرٍ يَفْرَعُه ، ولبئس المَتْجَرُ أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ، ومما لك عند الله عوضاً ، ومنهم . . . » .

ثم قال الشريف : « أقول وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية ، وهى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا يشكّ فيه ، وأين الذهب من الرّغام ، والعذب من الأجاج . وقد دلّ على ذلك الدليل الخِرّيت ، ونقده الناقد البصير عمرو ابن بحر الجاحظ » .

أما الشبهة الثانية : وهى استكثار هذه الحكمة ، والنظرة الدقيقة على علىّ كرّم الله وجهه فإنها مردودة إذا عرفنا ما كان عليه من حصافة الرأى التى استفادها عن عشرته لرسول الله ، وهو مشرق النور الإلهى ، ولا يستبعد ذلك من عرف عشرة علىّ لرسول الله منذ الصغر ، وملازمته له ، حتى إنه لم يتخلف عنه فى غزوة من غزواته إلا غزوة تَبُوك ، فقد خلفه رسول الله على أهله وقد عرف علىّ بين الصحابة بالذكاء ،

---

(١) جائر . (٢) كافر . (٣) ضعف . (٤) قلة ماله .
(٥) أشرط نفسه لكذا : أعدها ، والمراد هنا للشر . (٦) أهلك .
(٧) الطائفة من الخيل .

ونفاذ البصيرة ، حتى كانوا يصدرون عن رأيه ، وهو الذى قال فى شأنه عمر : « لولا علىّ لهلك عمر » ، وقال : « لا يُفتِيَنَّ أحد فى المسجد وعلىّ حاضر » ، وقبل ذلك قال رسول الله : « أقضاكم علىٌّ » ، ودعا له حين بعثه إلى اليمن قاضياً فقال : « اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه » .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما استفاده من التجارب أيام خلافته وما درس من طباع الناس وأحوالهم ، حكمنا بأنه جدير بأن يكون بالمثابة التى أضافوها إليه من بعد النظر وقوّة الفراسة ، وكيف نستبعد على علىّ أن يكون كما وصفنا ، وهذا عمر بن الخطاب قد دوّخ الممالك بسياسته التى كانت موضع عجب المؤرّخين .

أما الشبهة الثالثة : شبهة الطول فى عهده للأشتر النَّخَعِىّ الذى بلغ ٢٧٥ سطراً وفى خطبته المسماة بالقاصعة البالغة ٢١٧ سطراً ، وخطبة الأشباح البالغة ١٧٠ سطراً ، والتى يدلّ كلام الشريف الرضى فيها أنه لم يوردها كلها ، إذ يقول فى ثناياها . . . ومنها . . ومنها . .

فالذى نقوله على الجملة : إن الطول ليس مستبعداً على فصاحة علىّ التى صارت مضرب الأمثال ، وإذا وهب المرء ملكة البيان سهل عليه القول ، فإذا اتجهت نفسه إلى القول أفاض فيه ، وإذا أضفنا إلى ذلك زهد علىّ وانصرافه عن زخارف الدنيا ، واهتمامه بصلاح الناس ، وإقامة عمود الدّين ، سهل علينا إدراك الداعى إلى هذه الكثرة فى كلامه والطول فيه ، فإذا أطال علىّ فى خطبه ، فلأن الوعظ أحبّ الأمور إلى نفسه لأنه يعظ نفسه حين يعظ الناس ، ويحرّك قلبه حين يحرّك القلوب ، ثم هو يرى من العبادة لله أن يهدى الناس إلى الحقّ بعد ما بدا منهم الانصراف عن الدّين ، فهو يرى فى ذلك نوعا من الجهاد الذى وقف حياته عليه ، فليجاهد بلسانه حين يستريح من الجهاد بيمينه ، وليخلط ذلك بذلك حين يحتاج إلى التذكير فى مواطن القتال . فلو أن علياً ظلّ متكلماً فى هذا النوع الذى كثر المروىّ عنه فيه ما كان ذلك كثيراً من مثله .

وشبهة الناس فى عهد علىّ للأشتر خاصة أن الإمام عهد قبل ذلك إلى غير الأشتر فلم يطل ، وأضافوا إلى ذلك أن الأشتر كان من أصحاب علىّ الملازمين له ، وكان ساعده الأيمن فى صِفِّين ، فكأنه كان فى غنى عن هذه النصائح الطويلة ، ولكنا نقول : إن العهد إلى الأشتر لا يقصد به وحده ، بل إنه يتناول جميع من معه من عماله وأعوانه ، والكتاب بعد ذلك يعدّ دستوراً للعمل فى القضاء والجباية وغيرهما . وأما أن علياً لم يعهد لغير الأشتر بمثل هذا الطول ، فلعلّ ذلك قد ضاع فيما ضاع من آثار علىّ الكثيرة ، أو لعلّ الناس لما رأوا العهود متقاربة المعنى ، احتفظوا بمثال منها لعله أجمع لمعانيها .

ولا نستبعد مع ذلك أن يكون الشيعة نسبوا لعلىّ هذا العهد ليدلوا على فضله ، وأنه لم يفته فى عصره الأول ما تنبه الناس إليه فى عصور متأخرة كما فعل طاهر ابن الحسين فى عهده لابنه عبد الله حين ولاّه المأمون الرَّقّة ومصر وما يليهما ، فلما اشتهر هذا العهد شهرة عظيمة حرّك ذلك من رغبة الشيعة فى نسبة مثله إلى مثالهم الأعلى فى الفصاحة والتدبير .

أما الشبهة الرابعة : وهى ما فى النهج من سبّ صريح للصحابة، فنقول فى شأنها : إنه قد انحصر ما ورد من سبّ علىّ لعمر وعثمان و بعض الصحابة فى خطبته المعروفة بالشِّقْشِقِيَّة (ج ١ ص ٣٤) وورد ذمه لمعاوية وعمرو بن العاص فى كتب أرسل بها إليهما ، وفى بعض خطبه يعرّض بهما أو بأحدهما .

والكلام فى نحل الشِّقْشِقِيَّة أو تحقيق نسبتها إلى علىّ قد تحدّث به المتقدّمون ، فقد روى ابن أبى الحديد ما يؤيد نسبتها إليه فى كلام طويل أثبت إليه أنها مرويّة فى كتب أخرى قبل أن يولد الرضى ، ولكن نفيه لاختراع الشريف لها لا ينفى أنها مدسوسة على علىّ قبل ذلك .

أما نحن فنعرض عليك المقام الذى قيلت فيه هذه الخطبة . قالها علىّ عليه السلام بعد أن بايعه الناس فأقبلوا إليه كعرف الضَّبُع (كما يقول) حتى وُطِئ الحسنان ، وشُقّ عِطفه من كثرة الزّحام ، فلما نهض بالأمر يريد إصلاح الفاسد ولمّ الشَّعَثِ لم

يجد من القلوب ثباتا معه على الحقّ ، فبلغ منه اليأس كلّ مبلغ ، وهمّ بخلع نفسه لولا لزوم البيعة فى عنقه ، وذلك إذ يقول : « أَمَا وَالَّذِى فَلَقَ الحَبَّة ، وَبَرَأَ النَّسَمَة ، لولا حضور الحاضر ، وقيامُ الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ اللهُ على العلماء ألاّ يُقَارُّوا على كِظَّةِ ظالم ، ولا سغَب مظلوم ، لألقيتُ حبلها على غاربِها »

فجدير بك أن تعتبر هذه الخطبة نَفْثَة مصدور ، وأنّة مَكْلوم ، طال عناؤه فيما يحاول من ردّ الكيد ، وخُدَع الحرب .

تنبنى الخطبة على معنى عام ، هو أن الخلافة فاتت عليًا فى أوّل أمرها ، فلما صارت إليه كانت الأمور قد اضطربت ، والنفوس قد تدابرت ، فلم يتحقق غرضه من الإصلاح ، وحسن القيام على هذا التراث المستخلف عن رسول الله . وينبغى أن تؤمن يقينا أن طلب هؤلاء الصحابة الكرام للخلافة وحرصهم عليها ، لم يكن لغرض دنيوى ، وإنما طلبوها ليقيموا عمود الدين ، ويحققوا العدالة بين الناس . وفى سيرهم جميعاً مايدلّ على أنهم بذلوا ثروتهم ، وأفنوا جهدهم ، وخالطوا الناس نهارهم ، وعَسُّوا عليهم ليلهم التماساً لتحقيق العدالة وإرضاء لله .

لذلك لا نستبعد أن يكون علىّ قد أسف على حرمانه من الخلافة أيام كان يستطيع أن ينفع ويثمر خيراً للإسلام ، فنستبيح له أن يقول فى أوّل هذه الخطبة : أما والله لقد تقمّصها فلان (يريد أبا بكر) ، وإنه ليعلم أن محلى منها محلّ القطب من الرحى » ، وفى تأخر علىّ عن مبايعة أبى بكر (كما يحدّثنا التاريخ) مايساعد على أن عليا يستجيز أن يقول هذه الكلمة .

ثم هو يقول فى الخطبة أيضاً : « حتى مضى الأول لسبيله ، فأدْلى بها إلى فلان بعده (يريد عمر) .

شَتَّانَ مَا يَوْمِى عَلَى كُورِها ويوم حَيَّانَ أخى جَابِرِ (١)

---

(١) حيان : سيد من بنى حنيفة كانت له حظوة عند ملوك الفرس ونعمة واسعة وكان الأعشى ميمون بن قيس قائل هذا البيت ينادمه . ومعنى البيت : أن فرقا كبيرا بين يومه وهو مسافر يعانى متاعب السفر ، وبين يوم حيان فى رفاهيته ونعمته

فياعجباً ! بينا هو يَسْتَقِيلها فى حياته ، إذْ عَقَدَها لآخر بعد وفاته ! لَشَدَّ ما تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا فصيّرها فى حوزة خشناء يغلظ كُلامها وَيَخْشُن مَسُّهَا » .

ولا يستوقفنا من هذه الفقرة إلا قوله : « لَشَدَّ ما تشطَّرا ضَرْعيها » ، فهى كلمة صريحة فى أن الخليفتين قد تقاسما النفع فى تولى أمر المسلمين ، فجعلا الخلافة ناقة ، أخذ كلٌّ شطراً من ضرعها . ورأيى أن هذه الجملة مقحمة بين الكلام بدليل أن ما بعدها معطوف بالفاء على ما قبلها ، وهى لا تسمح بمثل هذا الاعتراض ، وإذاً يكون علىّ بريئاً من هذه التهمة التى لا يستسيغ إيمانه وعدالته أن يلصقها بالإمامين . وأما تعجبه من جمع أبى بكر بين الاستقالة منها أوّل توليه ، وحرصه على اختيار عمر لها بعد وفاته ، فتلك حقيقة لا ينكرها أحد . وأما قوله : فصيرها فى حوزة خشناء ، فذلك أمر مشهور متعالم ، فإن عمر كان شديداً ، وقد أعلن ذلك فى خطبه ، وفى الخطبة بعد ذلك أقوال لا شكّ أنها مدسوسة على علىّ كقوله فى وصف عمر : « فَمُنِىَ الناسُ بخَبْطٍ وَشِماسٍ ، وتلوُّن واعتراض » ، وقوله فى حديث الشورى : « فصَغَى رجل منهم لضغنه ، ومال الآخر لِصْهرِهِ » يعنى بالأول طلحة ، وبالثانى عبد الرحمن بن عوف ، وكان طلحة قد وهب حقه لعبد الرحمن بن عوف لانحرافه عن علىّ ، وكان عبد الرحمن صهراً لعثمان ، لأن زوجته أخت عثمان من أمه .

أما ما كان من علىّ فى شأن معاوية ، وعمرو بن العاص من كلام يعرض فيه بهما ، أو بأحدهما ، أو كتاب يوجهه إلى أحدهما ، فذلك نقبله من علىّ فيهما ، ونقرّ أنه يقوله ولا حرج عليه فى ذلك ، لأن عليًّا كان يعتبرهما شاقين لطاعة المسلمين ، خارجين على جماعتهم ، مريقين للدماء فى غير حقّ ، ومن كان مثلهما يعتبر كافراً محاربًا لله ورسوله ، فكيف يُستكثر من علىّ شتم أو ذمّ أو لعن لأحدهما ، وقد ثبت أنه هو الذى بدأ بلعن معاوية على المنابر بعد مكيدة التحكيم ، ففعل مثله معاوية ، وصارت بدعة فى جميع خلفاء بنى أمية حتى أبطلها عمر بن عبد العزيز .

ومن كلام علىّ فيهما قوله فى ردّ كتاب محمد بن أبى بكر حين أخبره بنزول عمرو بن العاص قريباً من مصر :

« وقد قرأت كتاب الفاجر بن الفاجر معاوية ، والفاجر بن الكافر عمرو ، المتحابين فى عمل المعصية ، والمتوافقين المرتشيين فى الحكومة » .

وأما الشبهة الخامسة : وهى العبارات التى لم تعهد إلا فى أزمان متأخرة عن زمن علىّ ، فهى شبهة قويّة ، إذ نرى بين كلامه قوله : « ولا حَدَّهُ من كَيّفه » فإنه لم يعهد إلى أيام علىّ اشتقاق فعل من كلمة كيف الجامدة، وكذلك قوله : « كلّ قائم فى سواه معلول » ، قال صاحب القاموس : « وأعله الله فهو مُعَلٌّ وعليل ، ولا تقل معلول ، والمتكلمون يستعملونها ولست منها على ثَلَج » ، وقوله : « لا يجرى عليه السكون والحركة ، وكيف يجرى عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه إذاً لتفاوتَتْ ذاته ، ولتجزّأ كُنْهُهُ ، ولامتنع من الأزل معناه » ، وكلمة الأزل غير عربية . قال فى شفاء الغليل : « أزلى والأزل وأزليته كله خطأ لا أصل له فى كلام العرب ، وإنما يريدون المعنى الذى فى قولهم لم يزل عالما ، ولا يصحّ ذلك فى اشتقاق ولم يسمع ، وإن أولع به أهل الكلام » وكذلك قوله فى القاصعة : «الذى نازع الله رداء الجبريّة » قال فى المصباح : « الجبر خلاف القدر ، وهو القول بأن الله يجبر عباده على فعل المعاصى وهو فاسد ، وتعرف أدلته من علم الكلام ، وينسب إليه على لفظه ، وإذا قيل قَدَرية وجَبَرّية جاز التحريك للازدواج » ، وظاهر من المصباح أن الجبر من اصطلاح المتكلمين .

ونحن أمام هذه الشبهة لا نستطيع إنكار أن كلام علىّ تناولته الأقلام على مرور الأيام بالزيادة حتى دخلت هذه التعابير إن لم تكن خلقت أيام علىّ ، وهذا شأن كلّ كلام نال إعجاب الناس كما جرى لكتاب كليلة ودمنة مثلا ، فإن عبارات فيه وأبوابًا برمتها زيدت على توالى العصور حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، ولا يمنع هذا أن يكون نهج البلاغة فى جملته هو كلام علىّ الذى لاشكّ فيه .

الكتابة فى هذا العصر

عرفت فى دروس السنة الماضية تاريخ الخط العربى ، وأنه صار إلى مكة من طريق الحيرة والأنبار على يد حرب بن أمية ، وقد تعلمه من بشر بن عبد الملك ، الذى قدم معه إلى مكة وتزوج ابنته الصهباء . فجاء الإسلام وفى أهل مكة كتاب ولكنهم بضعة عشر رجلا ، وأغلبهم ممن كانوا أصحاب رسول الله فى الإسلام .

كان الكتاب بمكة لما جاء الإسلام سبعة عشر رجلا ، منهم : عمر ، وعلىّ ، وعثمان ، وأبو سفيان ، وابناه معاوية ويزيد وغيرهم . وكان من النساء قليل ، كحفصة ، وأم كلثوم ، وكانت عائشة تقرأ ولا تكتب .

وكان بالمدينة أوّل عهد الإسلام أحد عشر كاتباً ، منهم زيد بن ثابت وقد تعلّم فيما بعد كتابة اليهود بأمر رسول الله كما تعلّم السريانية بأمره أيضاً فى سبعة عشر يوما .

وما زال عدد الكتاب يكثر بحثّ رسول الله حتى صار كتابه عليه الصلاة والسلام نيفاً وأربعين .

وكان كتاب رسول الله نوعين : كتاب وحى ، وكتاب أعمال ؛ ومن كتاب الأعمال كما رواه القُضاعى فى كتابه عيون المعارف : الزُّبير بن العوّام ، وجَهْم بن الصَّلْت ، وكانا يكتبان الصدقات ، وحُذَيفة بن اليمان وكان يكتب خَرْص النخل ، والمُغيرة ابن شُعْبة والحُصَين بن نُمير ، وكانا يكتبان التداين والمعاملات .

وبعد غزوة بدر كثر الكتاب من المسلمين بالمدينة ، لأن النبى قبل فى فداء الأسير من قريش إذا كان كاتباً تعليم عشرة من أولاد المسلمين ، وبذلك حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمية كما كان يحارب الوثنية . وصار هؤلاء الكتاب ذخر الدولة ، فقد كتبوا القرآن ، واستخدمهم الخلفاء فى رسائلهم إلى العمال والقوّاد ، وفى وصاياهم إلى قضاتهم ، ومناشيرهم إلى عامة المسلمين من أهل الأمصار ، وفى مصالحتهم لأهل البلاد

المفتوحة . وقد اجتمع من هذه الرسائل القدر الجمّ ، لأن نشاط المسلمين فى الفتح استوجب ذلك .

وبقيت الكتابة عمل الخليفة أو العامل يكتب أحدهما بيده ، أو يختار من جلسائه من يملى عليه ، فلم تصر صناعة يؤجر عليها الكاتب ، أو يستوزر من أجلها كما صار الأمر كذلك فيما بعد . ويتجلى فى رسائل هذا العصر طابعها السهل ، وقصدها إلى الغرض ، وبعدها من التكلف ، وميلها للإيجاز ، وخلوّها من عبارات التفخيم ، فما عرفوا ضمير الجمع إلا له ، فيقولون أنت وأنا ، ويكتب الوالى أو القائد إلى الخليفة ، فيقدم اسمه عليه ، فيقولون مثلا : من سعد بن أبى وَقّاص إلى أمير المؤمنين عمر .

ومن أمثلة إيجازها عهد أبى بكر إلى عمر: بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد أبو بكر إلى المسلمين ، أما بعد : فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً). حتى لقد كان من رسائلهم مالم يتجاوز جملة واحدة ، ككتاب خالد بن الوليد إلى عِياض ابن غَنّام ، وكان قد استنجده وهو محاصر بدُومة الجَنْدل .

من خالد بن الوليد إلى عياض :

« إيّاك أريد » .

وهو أخصر كتاب عرف فى الأدب العربى .

وكان النبىّ قبل نزول القرآن يبدأ رسائله بقوله : باسمك اللهم ، على حين كانت قريش تقول : باسم اللات أو اسم العُزّى ، فلما نزل القرآن صار المسلمون يبدءون رسائلهم بالبسملة ، ثم بقولهم : من فلان إلى فلان ، ثم يعقبون ذلك غالباً بقولهم : « السلام عليكم ، أو السلام على من اتبع الهدى » ، ثم يثنون بالحمد فى قولهم : « إنى أحمد الله إليك » ، ثم يتخلص الكاتب إلى غرضه بذكر أمابعد أو بدونها ، ويختمون الرسالة غالباً بإحدى صيغتى السلام السابقتين ، وقد يتركون شيئاً من هذه اللوازم ، والمثال الذى يجمعها كلها كتابه عليه الصلاة والسلام إلى خالد بن الوليد ، وكان قد بعثه إلى بنى الحرث فأجابوه إلى الإسلام ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد : سلام عليك ، فإنّى أَحْمَدُ إليك[(١)] الله الذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ كتابك جاءنى مع رسولك يُخْبِرُنى أن بَنِى الْحٰرِثِ قَدْ أَسْلَمُوا قَبْلَ أَنْ تقَاتِلَهُمْ ، وَأَجَابُوا إِلَى مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَشَهِدُوا أَنْ لَا إله إلا الله ، وأَنّ محمداً عبده ورسوله ، وأَنْ قَدْ هَدَاهُمُ اللهُ بِهَدْيِهِ ، فَبَشِّرْهم وأَنْذِرْهُمْ ، وَأَقْبِلْ وَلْيُقْبِلْ معك وَفْدُهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

نماذج من كتابة هذا العصر

من وصاياهم إلى أولياء عهدهم وصية أبى بكر الصديق لعمر بن الخطاب :

«إنى مُسْتَخْلِفُكَ من بعدى ، ومُوصِيكَ بتقوى الله ، إنّ لله عملا بالليل لا يَقْبَلُه بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يَقْبَله بالليل ، وإنه لا تُقبلُ نافلةٌ حتى تُؤَدَّى الفريضةُ ، فإنما ثَقُلَتْ موازينُ من ثَقُلَتْ موازِينُه يومَ القيامةِ باتّباعهم الحقَّ فى الدنيا وثِقَلِهِ عليهم ، وَحُقَّ[(٢)] لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الحقُّ أن يكون ثقيلا ، وإنما خَفَّتْ موازينُ من خَفَّتْ موازينُه يومَ القيامة باتّباعهم الباطلَ وَخِفَّتِهِ عليهم ، وَحُقَّ لميزانٍ لا يُوضَعُ فيه إلا الباطلُ أَنْ يكون خفيفاً ، إنّ الله ذَكَرَ أهلَ الجنةِ فَذَكَرَهُمْ بِأَحْسَنِ أعمالهم ، وَتجاوزَ عن سَيِّئَاتِهِمْ ، فَإذا ذَكَرْتُهُمْ قلت : إنى أخاف ألاَّ أكونَ من هؤلاء ؛ وذَكَرَ أهل النار فَذَكَرَهُمْ بأسوإ أعمالهم ولم يَذْكُرْ حسناتِهم ، فإذَا ذَكَرْتُهُمْ قلتُ : إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وَذَكَرَ آيةَ الرحمةِ مع آية العذاب ليكون العبدُ راغباً راهباً ،

---

(١) أى أحمد الله معك أى أنت تحمد وأنا أحمد أو أحمد الله حمدا أشهدك عليه أو أوجهه إليه فى مقابلتك .

(٢) يقال حق علىّ أن أفعل كذا (بالبناء للفاعل) وحق لى أن أفعل كذا (بالبناء للمفعول) .

ولا يَتمنَّى على الله غيرَ الحقّ ، ولا يُلقى بيده إلى التَّهْلُكَةِ . فإذا حفظتَ وصيتى هذه فلا يكُنْ غائبٌ أحبَّ إليك من الموت وهو آتِيك ، وإنْ ضيّعتَ وصيّتى فلا يكُنْ غائبٌ أبغض إليك من الموت . ولستَ بِمُعْجزِ اللهِ » .

ومن إرشادهم لقضاتهم كتاب عُمَرَ إلى أبى موسى الأشعرى وقد ولاه القضاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قَيْس ، سلام عليك ، أما بعد : فإنَّ القضاء فريضةٌ مُحْكَمَةٌ ، وسُنَّةٌ مُتَّبعَةٌ (١) . فافْهَمْ (٢) إذا أُدْلِىَ إليك ، فإنه لا ينفع تَكَلُّمٌ بحقٍّ لا نَفاذَ له ، آس (٣) بين الناس فى وجهك ، وعدلك ، ومجلِسِك ، حتى لا يطمع شريفٌ فى حَيْفك (٤) ، ولا يَيْأسَ ضعيفٌ من عَدْلِك ، البَيِّنَةُ على مَنِ ادَّعَى ، واليمينُ على من أنْكَرَ ، والصلح (٥) جائز بين المسلمين إلا صُلْحاً أحلَّ حراما ، أو حرَّمَ حلالا . لا يَمْنَعَنَّكَ (٦) قضاء قَضَيْته اليومَ فراجَعتَ نفْسَك ، وهُدِيتَ فيه لِرُشْدِك ، أن ترْجِعَ إلى الحقّ ، فإنَّ الحقَّ قديمٌ . ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ مِنَ التمادِى فى الباطِل . الفهمَ الفهمَ (٧) فيما يَتَلَجْلَجُ (٨) فى صدرِك ممّا لَيْسَ فى كتابٍ ولا سُنَّةٍ . ثم اعْرفِ الأشباهَ والأمثالَ فَقِسْ الأمورَ عِنْدَ ذلكَ ،

---

(١) يريد بالفريضة المحكمة ماحده الله فى كتابه . وبالسنة المتبعة مابينه الرسول وسار عليه .

(٢) يريد أن من يدلى بحجته لايغنيه قوله مهما كان مصيبا إذا لم يتنبه له القاضى ويعقل مايقوله حتى يحسن الحكم ويرد الحق إلى صاحبه .

(٣) أى سوّ بين الناس ، وهو أمر من آسى على وزن فاعل (٤) الحيف : الظلم .

(٥) اتفقت القوانين على أنه لاقيمة للصلح إذا خالف القانون فإنها لم توضع إلا لأنها الصالح العام فإذا خولفت اضطرب الأمر .

(٦) يريد أن القاضى لاينبغى أن يتقيد بحكم حكمه فاذا ظهر له خطؤه كان عليه أن يحكم بما تجدد فى نفسه من رأى . وقد حدث أن عمر حكم فى حادثة بحكم ثم حكم فى غيرها بغيره ولم يغير السابق وقال ذاك على ماقضينا وهذا على ما نقضى .

(٧) هذا أصل ثالث من أصول الحكم وهو القياس ، ومن هنا اشترطوا قديما فى القاضى أن يكون مجتهدا لا مقلدا .

(٨) اللجلجة كالتلجلج : التردد .

واعمدْ إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحقّ، واجعل[١] لمن ادّعى حقاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهى إليه. فإن أحضر بينة وإلا استحللت عليه القضية فإنّه أنفى للشكّ وأجلى للعمى. والمسلمون عدولٌ بعضهم على بعضٍ إلا مجلوداً فى حدٍّ، أو مجرَّباً عليه شهادةُ زورٍ، أو ظنيناً فى ولاءٍ أو نسبٍ، فإنّ الله تولّى منكم السرائرَ ودرأ بالبيّناتِ والأيمانِ. إيّاك والغلقَ[٢] والضجرَ والتأذّىَ بالخصوم والتنكّرَ عند الخصوماتِ، فإن الحقّ فى مواطن الحقّ يُعظّمُ الله به الأجرَ، ويُحسّنُ الذُّخْرَ. فمن صحّتْ نيّتُهُ وأقبلَ على نفسه كفاه الله ما بينَهُ وبين الناس. ومن تخلّق للناس بما يعلم الله أنّهُ ليس من نفسه شانَهُ الله. فما ظنُّكَ بثواب الله فى عاجل رزقه، وخزائن رحمته؟ والسلام».

ومن رسائلهم إلى أمراء الأمصار ما كتبه عثمان إلى عماله حين ولى الخلافة:

أما بعد: فإنّ الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعاةً ولم يتقدّمْ إليهم[٣] أن يكونوا جُباةً. وإنّ صدْرَ هذه الأمةِ خُلقوا رُعاةً ولم يُخلقوا جُباةً، وليُوشِكَنَّ أئمّتُكُمْ أن يصيرُوا جُباةً ولا يصيروا رُعاةً. فإذا عادوا كذلك انقطعَ الحياء والأمانةُ والوفاء. ألا وإنّ أعدلَ السيرة أنْ تنظرُوا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطُوهُمْ ما لَهُمْ، وتأخذُوهم بما عليهم. ثم تعتنُوا بالذمّةِ[٤] فتعطُوهُمْ الذى لهم وتأخُذُوهُمْ بالذى عليهم. ثمّ العدوُّ الذى تنتابون فاستفتحُوا[٥] عليهم بالوفاء.

ومن مناشيرهم إلى عامة المسلمين ما كتبه عثمان: أمّا بعدُ، فإنّما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتّباع فلا تلفتنّكُمُ الدُّنيا عن أمرِكُمْ. فإنّ أمْرَ هذه الأمةِ صائرٌ إلى

---

(١) يشير إلى جواز تأجيل الحكم لمن طلب ذلك من الخصوم لسبب معقول كنية الشهود مثلا.

(٢) هكذا رواها المبرد ولم يروها بالقاف (الفلق) وقال فى معناها يقال فى سوء الخلق رجل غلق (كحذر) وأصل ذلك من قولهم أغلق عليه الأمر إذا لم يتضح ولم ينفتح. اه. ولا شك أن سوء الخلق من ضيق الفطن وانعدام الروية والفهم الصحيح للأمور.

(٣) تقدم إليه: أمره. (٤) أى أهل الذمة.

(٥) استفتح عليه: استقوى واستعان.

الابتداع بعد اجتماع ثلاثٍ فيكم : تكامل النعمِ ، وبلوغ أولادِ السبايا ، وقراءةِ الأعرابِ والأعاجمِ القرآن[١] . فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : الكفرُ فى العُجْمةِ[٢] . فإذا استعجمَ عليهم أمرٌ تكلّفوا وابتدعوا .

ومن مصالحاتهم لأهل البلاد المفتوحة ما كتبه عمر إلى أهل إيلياء « بيت المقدس » .

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياءَ من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسِهمْ ، وأموالِهمْ ، ولكنائسهم ، وصُلبانِهمْ ، وسقيمِها و بريئِها ، وسائرِ ملّتِها ، أنّه لا تُسكَنُ كنائسُهُمْ ولا تُهْدَمُ ولا يُنْقَصُ منها ولا مِنْ حيِّزِها ، ولا مِنْ صَليبِهِمْ ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكْرَهُونَ على دينِهِمْ ، ولا يُضَارُّ أحدٌ منهم ، ولا يَسْكُنُ إيلياءَ معهُمْ أحدٌ من اليهود ، وعلى أهل إيلياءَ أن يُعْطُوا الجزْية كما يُعْطِى أهل المدائن ، وعليهم أن يُخْرِجُوا منها الرُّومَ ، فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسِه ومالِه حتى يَبْلُغُوا مأمَنَهُمْ . ومَنْ أقامَ منهم فهو آمنٌ وعليه مِثْلُ ما على أهل إيلياءَ من الجزْيَةِ . ومن أحبَّ من أهل إيلياءَ أن يسير بنفسه وماله مع الرُّومِ ، وَيُخْلِىَ بِيَعَهُمْ وَصُلْبانَهُمْ ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعِهِمْ وصُلْبانهم حتى يَبْلُغُوا مأمَنَهُمْ .

عمر بن الخطاب

[مولده ونسبه] : قال عمر عن نفسه : ولدت قبل حرب الفِجار الأعظم بأربع سنين . فيكون قد ولد قبل مبعث النبىّ بعشرين سنة ، لأن حرب الفِجار كانت قبل

---

(١) المراد بقراءة هؤلاء القرآن : انتشار الاسلام فانهم لايقرءونه حتى يكون الإسلام قد انتشر .

(٢) العجمة : عدم الافصاح . والأعجم والأعجمى : من لايفصح . والعجم بالضم والعجم بالتحريك : خلاف العرب من أى جنس كانوا .

البعثة بنحو ست عشرة سنة ، وهو ابن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزّى بن رَبَاح . ويجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى كعب وهو الأب الثامن للنبى .

وأمه حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة ، وليست بنت هشام بن المغيرة إذ يتبع هذا أن يكون أبو جهل خاله وليس كذلك .

[خَلقه وَخُلُقهُ] : كان عمر رجلا طُوالا جسيما أبيض ، شديد حمرة العينين ، أصلع ، فى عارضيه خفة ، كثير شعر السَبَلة ، أعسر يسراً ، « أضبط » ، شديد الوطء إذا مشى، جهير الصوت إذا تكلم ، وكان قليل الضحك، مقبلا على شأنه ، شجاعا حازما أيّداً ، شديد العارضة ، مهيب الجانب ، ذ كى الفؤاد .

[حياته فى الجاهلية] : كان فى بدء أمره يرعى غنماً لأبيه ، ثم اشتغل بالتجارة ، وهى عمل الأشراف من قريش .

ولقد عرفت له قريش فى الجاهلية شدّة عارضته ، وشجاعة قلبه ، وذ كاءه ، وحسن بيانه ، فجعلته السفير بينها و بين قبائل العرب فى المفاخرات والمنافرات والمصالحات والحروب . وذلك شرف عظيم لا يناله إلا من كان كابن الخطاب .

ولقد جاء الإسلام فلقى النبىّ وأصحابه عنتاً شديداً من عمر ، ومن كلّ من كان على نحو صفاته ، كأبى جهل من رؤساء قريش ، فقد جاءت بعثة النبىّ مؤذنة بزوال سطوتهم ، وتطامن مكانتهم ، حتى لقد روى عن النبىّ أنه كان يقول : اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل ، فأجاب الله دعاءه بدخول عمر فى الإسلام ، فكان أحبّ الرجلين إلى الله تعالى .

[إسلامه] : حدّث عمر رضى الله عنه عن أول وقوع الإسلام فى قلبه قال : خرجت أتعرّض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب بتأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ » ، فقلت كاهن ، فقرأ : « وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ

مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » قال فكان ذلك أول وقوع الإسلام بقلبي .

خرج عمر متقلداً سيفه ليقتل محمداً الذى سبّ آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، وعاب دينهم ، وفرّق جماعتهم ، فقابله رجل من بنى زُهْرة ، فقال له : ألا أدلك على العجب يا عمر ؟ إن أختك وختنك قد صبوا ، فمشى عمر دامراً[1] حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب حسّ عمر توارى فى البيت فدخل عمر ، فقال لأخته وختَنه[2] ما هذه الهينمة التى أسمعها عندكم ؟ (وكانوا حين مجيئه يقرءون طه) ،فجعلا يخفيان أمرهما ، ثم أظهرا إسلامهما ، وطلب عمر الصحيفة التى فيها طه فقرأها ثم قال : دلونى على محمد ، فذكروا له أنه فى دار بنى الأرقم عند الصفا ، فقصد إليه عمر فأسلم ، ثم قال يا رسول الله : ألسنا على الحقّ ففيم الاختفاء ؟ فكان ذلك أول إعلان الرسالة ، فسماه رسول الله الفاروق لفرقه بين الحقّ والباطل ، وكان إسلامه رضى الله عنه فى السنة السادسة من البعثة .

وكان كفار قريش إذا رأوا رجلا دخل فى الإسلام يقولون : قد صبأ فلان ، وإذا عثروا به أكثروا ضربه وأذاه ، وهكذا فعلوا بعمر حتى خاف عليه خاله العاص بن وائل ، فقال : عمر فى جوارى ، فامتنع الناس عنه ، ولكن عمر كان يلتذّ بالأذى فى سبيل الله فردّ على خاله جواره ، فكان يُضْرَب ويَضرب ، ومن شجاعته أنه حين خرج مهاجراً لم يخف هجرته كما فعل غيره ، بل تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً ، ومضى قِبَل الكعبة ، والملأ من قريش بفِنَائها ، فطاف بالبيت متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم وقف بالحلق واحدة واحدة ، فقال لهم : شاهَت[3] هذه الوجوهُ ، لايُرْغِمِ اللهُ إلاهذه المعاطسَ . من أراد أن تَثْكَلَ[4] أمه أو يَيْتَمَ[5] طفله

---

(١) من دمر : بمعنى دخل بغير إذن وهجم هجوم الشر .
(٢) الختن : الصهر ، وكل ما كان من ناحية المرأة كأبيها وأخوتها.
(٣) قبحت . (٤) ثكلت المرأة (كفرح) فقدت ولدها .
(٥) يتم (كضرب وعلم) فقد أباه دون الرشد .

أو يُرْمِلَ[١] زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ، ثم خرج ، فلم يتبعه أحد .

[تشريف النبى له] : كان من تشريف النبى له أن لقبه بالفاروق يوم إسلامه ، وكناه بأبى حفص لما رأى من شجاعته ، وناداه بيا أخى حين استأذنه فى العمرة ، فقال له : يا أخى لا تنسانا من دعائك ، تزوّج النبى ابنته حَفْصة بعد موت زوجها ، ووصفه بأنه محدَّثٌ أو مُفهَم أو مُلهَمٌ ، فقال كما جاء فى الصحيحين : إنه كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدّثون ، وإنه إن كان فى أمتى هذه أحد فإنه عمر بن الخطاب ، وذلك لما كان يأتى به الوحى من تأييده كما حدث فيما يأتى :

١ — لما أراد النبىّ أن يصلى على عبد الله بن أُبىّ قال له عمر : أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين ؟ فقال النبى أنا بين خِيرتين . قال تعالى : « اُسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ » ، ثم صلى عليه فنزل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » .

٢ — أسر النبىّ فى بدر سبعين رجلا ، فاستشار فيهم أبا بكر فقال : قومك وعشيرتك فخلّ سبيلهم ، وقال عمر : اقتلهم ، ففاداهم النبىّ ، فعتب الله عليه بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »[٢] ، فقال رسول الله : لقد كاد يصيبنا فى خلافك شرّ يا عمر .

٣ — وكانت نساء النبىّ يظهرن للناس ، فكان عمر يغار عليهنّ ، ويرى من

---

(١) أرملت المرأة : فقدت زوجها .

(٢) معنى الآية : أنه مايستقيم للنبي أن يكون له أسرى ويتغلب على أعدائه حتى يكثر القتل فيكون ذلك ذلا للكفر وإضعافا ، وعزا للاسلام . ولما كثر المسلمون بعد ذلك قال الله « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » .

اللائق بشرفهن أن يحتجبن وكلم النبىّ فى ذلك ، فنزل قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » الآية.

٤ — عاتب النبىّ بعض نسائه ، فجعل عمر يمرّ عليهنّ واحدة واحدة ، وهو يقول : لئن انتهيتنّ و إلا ليبدلنّ اللهُ رسولَه منكنّ خيراً ، فنزل قوله تعالى : « عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » .

إلى غير ذلك حتى قيل : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر .

ومن مزايا عمر : صواب رأيه ، واجتهاده فيما لم يرد فيه نصّ من كتاب الله ، ولا سنة نبيه حتى يقول الفقهاء فى باب الاجتهاد : إن عمر عمدة هذا الباب ، ومن أمثلة اجتهاده : أن رجلا قتلته امرأة أبيه وخليلها ، فتردّد عمر ، هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال له علىّ : لو أن جماعة سرقوا جزوراً ، فأخذ هذا عضواً ، وذاك عضواً ، أكنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك . فكتب عمر رأيه إلى عامله : أن اقتلهما ولو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم .

وسئل فى شارب الخمر فقال : من شرب فقد هذَى ، ومن هذى فقد افترى ، فأرى عليه حدّ المفترى «القاذف» .

وكان يفهم روح التشريع فيجعل للملابسات دخلا فى فهم المراد ، ومن أمثلة ذلك : أن النبىّ كان قد تألف أبا سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعُيَيْنَة بن حِصْن ، وصَفوان ابن أمية ، وأعطى كلاً مائة من الإبل ، فجاء عيينة والأقرع إلى أبى بكر يطلبان أرضاً فكتب لهما بها ، ثم حضر عمر فمزّق الكتاب وقال : إن الله أعزّ الإسلام وأغنى عنكم فإن ثبتم عليه ، و إلا فالسيف بيننا و بينكم .

وفى مرّة لم يقطع فى السرقة ، وذلك أنه فى عام المجاعة سرق غلمة لِحَاطِبِ بن أبى بَلْتعة جزوراً ، وأقرّوا على أنفسهم ، فبعد أن أمر عمر بقطع أيديهم أعادهم ، وقال

لابن حاطب : أما والله لولا أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل الميتة حلّ له ، لقطعت أيديهم ، وايم الله إذ لم أفعل لأغرمنّك غرامة توجعك .

وكان طلاق الثلاث على عهد رسول الله وأبى بكر ، وسنتين من عهد عمر يقع واحدة حتى قال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه وجعله يقع ثلاثا تأديباً للناس .

خلافتـــه

عهد أبو بكر إليه بالخلافة بعد أن استشار الصحابة فى أمره ، وكان بدء خلافته سنة ١٣ هـ ، وقتل سنة ٢٣ هـ ، فكانت خلافته عشر سنوات . وقد قتله رجل من السبايا يسمى فَيْروز ، ويكنى أبا لؤلؤة ، وهو غلام المُغيرة بن شُعْبة ، وقد فرض عليه المغيرة درهمين فى اليوم ، فشكا الغلام ذلك إلى عمر وهو يطوف فى السوق . فقال له : ما صناعتك ؟ قال : نجار حداد نقاش . قال عمر : فما أرى خراجك كثيراً ، فاضطغن عليه الغلام ، وقتله بعد ثلاثة أيام ، وهو يريد صلاة الفجر ، وحمد الله عمر حين عَلِم أن قاتله غير مسلم .

[أعماله فى خلافته] : أما فتوحه التى لم يعرف مثلها لغيره من الخلفاء وملوك الإسلام كافة ، فإن التاريخ العام كفيل بشرحها ، و بيان مساحة رقعتها وسرعة حدوثها وإحكام أمرها ، فلعمر فى ذلك الأمر حديث عجب ، فلقد كان يرسل للقائد بوصف البلاد التى سيقدم عليها ، و بيان أخلاق أهلها ، وطريقة محاربتهم ، فيكون فى العمل برأيه النصر المؤزر . ويكفى أن نروى لك كتابه إلى سعد بن أبى وَقَّاصٍ فى حرب القادسية قال :

أما بعد : فسر من سِيرَافَ نحو فارسَ بمن معك من المسلمين ، وتوكَّلْ على الله ، واستعِنْ به على كلّ أمرك . واعْلَمَ أنك تَقْدَمُ على أمة عددهم كثيرٌ ، وَعُدَّتُهُمْ فاضلة ،

وبأسُهم[١] شديدٌ ، وعلى بلدٍ منيعٍ وإن كان سهلا ، كَؤُودٍ[٢] : لبحوره ، وفُيُوضِهِ وَدَآدِئِهِ[٣] . إلا أن توافقوا غَيضاً[٤] من فَيْضٍ ، وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهُمْ الضَّرْبَ . وإياكم والمناظرة[٥] لجموعهم ، ولا يَخْدَعُنَّكُمْ فإنهم خُدَعَةٌ[٦] مَكَرَةٌ ، أَمْرُهُمْ غيرُ أَمْرِكُمْ إلا أن يجادوكم ، وإذا انتهيتَ إلى القادسيةِ ، والقادسيةُ بابُ فارس فى الجاهلية . وهى أجمع تلك الأبواب لمادّتهم ، تكون مَسَالِحُكَ[٧] على أنقَابِهَا[٨] ويَكُونُ الناسُ بين الحَجَرِ والمَدَرِ ، على حافّات الحجر وحافات المدر ، والجِرَاعُ[٩] بينهما . ثم الزم مكانك فلا تَبْرَحْهُ فإنهم إذا أحسوك أَنْغَضْتَهُمْ[١٠] رَمَوكَ بجَمْعِهِمْ الذى يأتى بخيلهم ورَجْلِهم وحَدّهم وجِدهم فإن أنتم صَبَرْتُمْ لعدوكم واحْتَسَبْتُمْ[١١] لقتاله وَنَوَيْتُمْ الأمانةَ رَجَوْتُ أَنْ تُنْصَرُوا عليهم ، ثم لا يَجْتَمِعُ لكم مِثْلُهُمْ أبداً إلا أن يَتَجَمَّعُوا وليستْ معهم قُلُوبُهُم . وإنْ تكنِ الأخرى كان الحَجَرُ مِنْ أرضكم ثم كنتم عليها أَجْرَأَ وبها أَعْلَمَ ، وكانوا عنها أَجْبَنَ ، وبها أَجْهَلَ ، حتى يأتى الله بالفتح ويَرُدَّ لكم الكَرَّةَ عليهم .

⁂

وأما سيرته فى رعيته فقد بناها على أسين عظيمين من سياسة الأمم ، فأطاعته العرب والعجم أحسن طاعة . وجرت له الأمور على أَذْلالها[١٢] .

فأحد أسى سياسته هو الشدّة فى العدالة ، وعدم الهوادة فى حدود الله ، وذلك هو

---

(١) البأس : الشدة فى الحرب . (٢) صعب .
(٣) أودية المتسعة . (٤) الغيض : النقصان .
(٥) الانتظار والامهال .
(٦) يقال هو خدعة بضم ففتح : أى كثير الخداع ، فان سكنت الدال صار معناها كثير الانخداع .
(٧) المسالح الثغور . (٨) الأنقاب : جمع نقب بالفتح أو الضم ، وهو الطريق فى الجبل .
(٩) الأراضى الرملية . (١٠) تحركت إليهم .
(١١) رجوتم ثواب الله .
(١٢) جمع لا مفرد له أو المفرد ذل ، والمعنى جرت على وجهها وطبيعتها .

خلق عمر منذ جاهليته . ولكنه كان فى الجاهلية صرامة وغلظة كبد وحمية جاهلية . ثم صار فى الإسلام تحريا لرضاء الله ، وتنفيذاً لأوامره ، وحرصاً على حبل الإسلام أن يضطرب .

ومن أمثلة ذلك : أنه كان إذا شكى إليه عامل مهما عظم قدره دعاه للمثول بين يديه ، فإن ظهرت إدانته أقام عليه الحدّ ، وإن شكّ فى أمره عزله . وقد شكا إليه رجل أبا موسى الأشعرى وذكر أنه ضربه ، فكتب إليه : إن كنت ضربت فلاناً على ملأ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له فى ملأ من الناس حتى يقتصّ منك ، وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتصّ منك . ولولا عفو الرجل بعد أن قعد له أبو موسى الأشعرى للقصاص ، لجرى القصاص على أبى موسى وهو هو سابقةً فى الإسلام وبلاء ، ومثل ذلك جرى لعمرو بن العاص .

وقد استحضر عمر سعد بن أبى وقّاص فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة والبصرة . وكان قد شكاه أهل عمله بالكوفة ، فجمع بينه وبينهم ، فوجده بريئاً . وكان للوصول إلى العدالة يأمر عماله أن يوافوه فى موسم الحجّ ليجمع بينهم وبين الشاكين منهم .

ولقد كان له عامل يقتصّ آثار العمال فيرسله فى كلّ شكوى ليحققها فى البلد الذى جرت فيه ، وهذا العامل هو محمد بن سلَمة ، وكان يثق به ثقة تامة .

⁂

وكان عمر يرى أن العدالة تقتضى سهره على الرعية واستطلاعه لأحوالها ، فكان يعسّ بالمدينة ليلا ، وقد روى عن عسه قصص تمثل حرصه التامّ على منع الظلم عن رعيته .

فمن ذلك أن قدمت رُفقة من التجار ، فنزلوا بمسجد المدينة ، فقال عمر لعبد الرحمن ابن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة من السرق ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ، فسمع عمر بكاء صبىّ ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك . ثم عاد ،

فسمع بكاءه ثانية وثالثة ، ثم قال لها : إنى لأراك أم سَوْء[1] ! مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ! فقالت : إنى أريغه على الفطام فيأبى ، قال ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض إلا لفطيم ، فقال وكم عمره ؟ فقالت كذا شهراً ، فصلى عمر الفجر ما يستبين الناس قراءته من البكاء . فلما أتمّ صلاته قال : يا بؤساً لعمر . كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر منادياً ينادى : ألا لا تعجلوا عن الفطام ، فإنا نفرض لكلّ مولود فى الإسلام .

قال أسلم : مررت مع عمر فى عسه ، فرأى ناراً فدنا ، فإذا امرأة معها صبيانٌ يَتضَاغَوْنَ[2] جُوعًا ، فقال : ما بال الصبية ؟ فقالت الجوع . قال فأىّ شىء فى القدر ؟ فقالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . فقال : أى رحمك الله وما يدرى عمر بكم ؟ قالت يتولى أمرنا ثم يغفل عنا . فقال عمر لأسلم : انطلق بنا حتى أتيا الدقيق ، فأخرج عِدلا منه ، وكُبة من شحم ، فقال : احمله علىّ ، قال أسلم : أحمله عنك . قال عمر : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ ! فانطلق عمر به يهرول حتى ألقاه عندها ، ثم أخرج شيئاً من الدقيق ، فجعل يقول لها : ذرى علىّ وأنا أحرّك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، فكان الدخان يخرج من خلال لحيته ، ثم أنزلها وقال لها : ابغينى شيئاً ، فأتته بصحفة فأفرغها فيها . ثم جعل يقول لها : أعطيهم وأنا أسطح لهم ، فلم يزل حتى شبعوا . ثم قام فقالت المرأة : جزاك الله خيراً كنت أولى بهذا الأمر من عمر ، فيقول لها قولى خيراً . إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تركها وجعل يرقب الصبية حتى رآهم يصطرعون ، ثم ناموا ، فقال يا أسلم : إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت .

ومن أمثلة عدله : أنه بينما كان يمشى بسكة من سكك المدينة إذا هو بصبية تطيش على وجه الأرض تقوم مرّة وتقع أخرى ، فقال : يا ويحها ! يابؤسها ! من يعرف هذه منكم ؟ فقال عبد الله بن عمر : هى إحدى بناتك . قال : وأىّ بناتى هى ؟ قال :

---

(١) أى أماً قبيحة ، ولايقال إلا بفتح السين من سوء مع إضافة ماقبلها اليها وتنكيرها .

(٢) يصيحون ويتلوون .

هى ابنتى . قال : ويحك ! ما صيرها إلى ما أرى ؟ قال منعك ما عندك . قال : ومنعى ما عندى منعك أن تطلب لها ما يكسب الأقوياء لبناتهم ، إنه والله مالك عندى غير سهمك فى المسلمين وسعك أو عجز عنك ، هذا كتاب الله بينى و بينك .

⁂

وثانى أُسّىْ سياسته : أنه كان يبنى أمره على الاستشارة ، فكان يستشير الناس على مراتب ، فيأخذ رأى العامة أولا ، ثم رأى الخاصة . فقد فعل ذلك عند زيارته للشام سنة ١٧ هـ حتى إذا كان بسَرْغَ [١] لقيه أمراء الأجناد ، فأخبروه أن بالشام طاعونا ، فجمع الناس ، فرأى خاصتهم أنه يجب أن يرجع ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ فقال : أفرّ من قدر الله إلى قدر الله .

ولقد كان ينزل على رأى المحقّ مهما صغر ، فقد بدا له ، وقد رأى مغالاة الناس بالمهور أن يخطب فى منع الناس من ذلك ، فقالت له امرأة من أقصى المسجد : كيف ؟ والله يقول : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً » ، فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ رجل . كلّ الناس أفقه منك يا عمر . وقد تمثل ميله للاستشارة فى اختياره خليفته ، فقد جعله أحد ستة هم خير المسلمين حينئذ ، وقد شهد لهم رسول الله بأنهم من أهل الجنة ، وهم : عثمان ، وعلىّ ، وعبد الرحمن بن عوفٍ ، وَسَعْدٌ ، وَالزُّبَيْرُ ابن العوّام ، وَطَلْحَة ، ولم يقطع رأيا فى ذلك دون المؤمنين .

⁂

وأما غير ذلك من أعماله فى خلافته ، فهى أنه أول من أرّخ بالتاريخ الهجرى لما رأى من اضطراب الأمر فى تواريخ الكتب ، فقد رفع إليه صك محله شعبان ، فقال أىّ شعبان هو ؟ الذى مضى ، أو الذى هو آت ، أو الذى نحن فيه ؟ وقيل إن سعد

---

(١) موضع بالشام .

ابن أبي وقاص شكا إليه أنه تأتيه كتبه ولا يعرف السابق منها من اللاحق . فاستشار أهل الرأى فى ذلك ، فاجتمع رأيهم على جعل الهجرة مبدأ التاريخ للمسلمين ، وكان العمل به فى ربيع الأول سنة ست عشرة من الهجرة ، وقيل سنة ثمانى عشرة ، أو تسع عشرة .

وهو أوّل من مَصَّر الأمصار ، وأوّل من دوّن الدواوين ، وأوّل من استقضى القضاة فى الأمصار ، وأوّل من وضع الخراج على الأرض ، وكان العرب يريدون قسمة السواد كما فعل رسول الله بخيبر ، فقال لهم : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وهو أوّل من سمى أمير المؤمنين ، دخل عليه عمرو بن العاص ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له : ما بدا لك من هذا الاسم ؟ لتخرجنّ مما قلت ، قال نعم . قدم لَبِيدُ بن رَبِيعَة ، وعَدِىُّ بن حاتِم ، فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت : أنتما والله أصبتما اسمه ، إنه لأمير ونحن المؤمنون ، فجرى عليه هذا اللقب وعلى من بعده من الخلفاء .

الأدب فى حياة عمر

ذكرنا عن عمر أنه كان يقوم بالسفارة لقريش . وتلك منزلة لا يسمو إليها إلا كلّ مِدْرَهٍ جزل البيان ، قوىّ العارضة ، وهكذا كان عمر ، فقد تجلّت فيه نزعة لغوية جليلة الشأن ، فلقد كان يعرف قدر الشعر ، ويدعو الناس إلى تعلّمه ، وهو الذى يقول : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول : مُرْ من قبلك يتعلم الشعر ، فإنه يدلّ على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب . وهو الذى يقول : تعلّموا العربية ، فإنها تثبت العقول وتزيد المروءة .

وكان يحب سماع الشعر ، وقد أثاب عليه بقميصه الذى لم يجد ما يعطيه غيره ،

وهو الذى قال لبعض ولد هرم ، وقد أنشده قول زهير فى أبيه ، إنه كان ليُحسن فيكم القول ، فقال له : ونحن كنا نحسن له العطاء ، قال : ذهب ماأعطيتموه وبقى ماأعطاكم.

كذلك كان يأخذ الناس بأدب الخطاب ، ويرشدهم إلى مواضع الصواب فى القول ، فقد رُوِىَ أنه لما حضر خَراج العراق ، خرج مع مولى له يَعد الإبل ، وهى تفوق الحَصْر ، فقال له الغلام : هذا من فضل الله ورحمته ، فقال له عمر : كذبت ليس هذا هو الذى يقول الله فيه : « قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » يقول بالهدى وبالسنة والقرآن فبذلك فليفرحوا : « هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » .

وأثنى أمامه رجل على رجل فى وجهه ، فقال له : عَقَرْتَ الرجلَ عَقَرَكَ اللهُ .

وسمع رجلا يقول : إنى أُنفق مالى ونفسى فى سبيل الله ، فقال عمر : أولا يسكت أحدكم ، فإن ابتُلِىَ صبر ، وإن عُوفِىَ شكر .

وأراد أن يستعين برجل فى عمل ، فسأله عن اسمه ، فقال : ظالم بن سَرّاق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ، ولم يستعن به .

وكان عمر فى حديثه مع الناس يحاسب نفسه على اللفظ ، ويتجنب مآخذ القول ، فلقد أقبل على قوم يوقدون ناراً ، فقال السلام عليكم يأهل الضوء ، وكره أن يقول : يأهل النار .

⁂

ولعمر غير خطبه كلمات سامية ، وعبارات تدلّ على سموّ خياله ، فقد قال : لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر شيئاً ، إن فاتنى ربحه ، لم يفتنى ريحه .

وسمع سائلا يقول : من يعشى السائل ، فقال عمر : عشوا السائل ، ثم سمعه ثانية ، فقال : ألم أقل لكم عشوا السائل ؟ فقالوا : قد فعلنا ، فأرسل إليه ، فإذا جرابه مملوء خبزاً ، فقال له : لست سائلا ، بل أنت تاجر .

وسمع نادبة تنوح فضربها وقال : إنها لا تبكى بشجوكم ، ولكنها تُهريق دمعها

لأخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم ، وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه .

وكان إذا سمع رجلا يتلجلج فى كلامه قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

ومرّ بِدَير راهب فناداه فأشرف عليه ، فجعل عمر يبكى و يقول : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً » .

ورأى رجلا يحمل ابناً له ، فقال : ما رأيت غرابًا أشبه بغراب من هذا بهذا .

ومن كلامه قوله : ثلاث يثبتن لك المودة فى صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه .

وقوله : كفى بالمرء غيًّا أن تكون فيه خَلّةٌ من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يَعْنيه .

ورؤى وهو يهنأ بعيراً من إبل الصدقة ، فقيل له : هلا قام بذلك عبد من عبيد الصدقة ، فقال : وأىّ عبد هو أعبد منى ! !

ومرّ عمر ببنيان يبنى بآجُرّ وجِصّ ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل لعاملك على البحرين ، فقال : أبَتِ الدراهمُ إلا أن تُخْرِجَ أعناقها .

⁂

ومن حكمه قوله للأحنف بن قيس : من كثر ضحكه قلّت هيبته ، ومن مَزَحَ استُخِفّ به ، ومن أكثر من شىء عُرِف به ، ومن كثر كلامه كثر سَقَطه ، ومن كثر سَقَطه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ وَرَعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه .

ومن حكمه : من عرّض نفسه للتُّهَمَة فلاَ يَلُومَنّ من أساء به الظن . من كتم سرّه كان الخيار بيده . كفى بالمرء سَرَفًا أن يأكل كُلّ ما اشتهاه . الطمع فقر واليأس غِنًى . أعقل

الناس أعْذَرُهُمْ للناس . أشقى الوِلاةِ مَنْ شَقِيَتْ به رعيته . لا تُؤَخِّرْ عمل يومك لِغَدِكَ . من لم يعرف الشَّرَّ كان جديراً أن يَقعَ فيه .

***

ومن آثار عمر الأدبية شعر يرويه بعض الناس له وينكره آخرون ، فمن قوله يوم فتح مكة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَرَ دِينَهُ ... عَلَى كُلِّ دِينٍ قَبْلَ ذَلِكَ حَائِدِ
وَأَسْلَبَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَ مَا ... تَدَاعَوْا إِلى أَمْرٍ مِنَ الْغَيِّ فَاسِدِ
غَدَاةَ أَجَالَ الْخَيْلَ فى عَرَصَاتِهَا ... مُسَوَّمَةً بَيْنَ الزُّبَيْرِ وَخَالِدِ
فَأَمْسَى رَسُولُ اللهِ قَدْ عَزَّ نَصْرُهُ ... وَأَمْسَى عِدَاهُ مِنْ قَتِيلٍ وَشَارِدِ

وإن فاته قول الشعر لم يفته التمثل به فى كلِّ مقام ، فقد قال الأصمعى ما قطع عمر رضى الله عنه أمراً إلا تمثل فيه ببيت من الشعر .

قيل خرج عمر وعليه حُلَّة قطن ، فنظر الناس إليه نظراً شديداً ، فتمثل :

لَا شَىْءَ مِمَّا يُرَى تبقى بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَى الْإِلٰهُ وَيُودِى الْمَالُ وَالْوَلَدُ

***

أما ترسله فهو فى الكثرة يجارى فتوح عمر ، فقد كان من حرصه على فوز جنوده لا يكاد يتركها من غير نصيحة بتعبئة أو هجوم أو توقف ، كما كان يطالب قوّاده وعُمّاله بموافاته بالأخبار ، وما تمّ من أمورهم أوّلا فأوّلا ، فكانت الكتب لا تنقطع بينه وبينهم .

كذلك لم يكن يُغِبّ الناس خطابة ، فكان يقوم بها فى مواعيد الصلاة وغيرها كلما بدت له عظة يريد النفع بها ، أو رأى بدعة يريد حمل الناس على تركها ، أو أتاه خبر عن فتح يريد إعلانه للقوم .

ونرى أنه إذا أحصى كلّ ذلك ، وجمع شتيته من كتب الأدب والسير كان منه أثر جليل القدر ينتفع الناس بتداوله .

وسننقل هنا شيئاً من رسائله وخطبه التي لم يسبق لنا إيرادها آنفاً .

خطب عمر فقال : أيها النَّاسُ : إنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إذْ بَيْنَ أظْهرِنَا رَسُولُ اللهِ ، وَإذْ يَنْزِلُ الْوَحْىُ وَيُنَبِّئُنَا اللهُ مِنْ أخْبَارِكُمْ . فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ، وانقطع الْوَحْىُ . وإنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا أقُولُ لَكُم : مَنْ أظْهرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ ، ومن أظهرَ منكم شرًّا ظَنَنَّا به شرًّا وَأبْغَضْنَاهُ عليه . سَرَائِرُكُم بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ . ألا وَإنَّهُ قَدْ أتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأنَا أرَى أنَّهُ مَنْ قَرَأ الْقُرْآنَ إنَّمَا يُرِيدُ اللهَ وَمَا عِنْدَهُ ، وَقَدْ خُيِّلَ إلَيَّ بِأخَرَةٍ(١) أنَّ رِجَالاً يَقْرَءُونَ القرآنَ يُرِيدُون بِهِ ما عِنْدَ الناسِ . فَأرِيدُوا اللهَ بقراءتكم وَعَمَلِكُمْ .

وشكى إليه جماعة من عماله فأمرهم أن يوافوه بالموسم ، فلما حضروا قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيتها الرَّعِيَّة ، إنَّ لنا عليكم حُسْنَ النصيحة بالغيب ، والمعاونةَ على الخير ، أيتها الرُّعَاةُ : إنَّ للرَّعِيَّةِ عليكم حقًّا . اعلموا أنَّهُ لا حِلْمَ أحبُّ إلى اللهِ تعالى ولا أعَمَّ من حلم إمَامٍ ورِفْقِه ، وإنه ليس جَهْلٌ أبغضَ إلى الله ولا أعمّ من جهل إمامٍ وخُرْقِه . اعلموا أن مَنْ يَأْخُذْ بالعافيةِ(٢) فيمن بين ظَهْرَيْهِ(٣) يُرْزَقِ العافيةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ .

وكان إذا بعث أمراء الجيش أوصاهم بتقوى الله ثم قال عند عقد الألوية : باسم الله ، وعلى عون الله ، وامْضوا بتأييد الله والنصرِ ، ولزومِ الحقّ والصبر ، وقاتلوا فى سبيل الله مَنْ كَفَرَ بالله ولا تعتدُوا إنَّ اللهَ لا يحبّ المعتدين . ثم لا تجْبُنوا عند

---

(١) أى أخيرا .

(٢) العافية : دفاع الله عن المرء . والمعنى فى قوله يأخذ بالعافيـة أن يترك لله حقوقه عند الناس يتولاها جل شأنه .

(٣) تثنية ظهر على القياس ، وقد يقال هو بين ظهرانيهم أو أظهرهم والمراد بينهم .

اللقاء ، ولا تمثلوا(١) عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور(٢) ، ولا تنكلوا(٣) عند الجهاد ، ولا تقتلوا امرأة ولا هرمًا ولا وليدًا ، وتوقَّوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، ولا تغلُّوا عند الغنائم ، ونزِّهوا الجهاد عن عرض الدنيا . وأبشروا بالأرباح(٤) في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

ومن رسائله ما كتبه إلى معاوية عامله على الشام : أما بعد ، فالزم الحق ينزلك الحقُّ منازلَ أهلِ الحق يوم لا يُقضى إلا الحقّ ، والسلام .

ومنها وصيته للخليفة من بعده ، قال ابن عمر : رفع إليّ أبي كتابًا ، فقال : إذا اجتمع الناس بعدي على رجل ، فارفع إليه هذا الكتاب وأقرئه مني السلام .

أُوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله ، وأُوصيه بالمهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله ، أنْ يعرفَ حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأُوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوءوا(٥) الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجةً(٦) مما أُوتوا . إلى قوله : المفلحون ، أنْ يقبلَ من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأنْ يشركوا في الأمر ، وأُوصيه بذمة الله وذمّة محمد صلى الله عليه وسلم أنْ يُوفيَ بعهدهم ، ولا يُكلَّفوا فوق طاقتهم وأن يُقاتلَ من ورائهم .

---

(١) التمثيل : التشويه . (٢) الظهور : الغلبة .
(٣) نكل (كنصر وعلم) نكص وجبن . (٤) الأرباح : جمع ربح .
(٥) تبوءوا الدار : أي سكنوا وتوطنوا المدينة وعطف الايمان على الدار على معنى وأخلصوا الايمان كقول الشاعر * علفتها تبنا وماء باردا * أي وسقيتها ، أو المعنى دار الهجرة ودار الايمان وتكون أل قد قامت مقام المضاف إليه في دار الهجرة ويكون المضاف اليه قد قام مقام المضاف في دار الإيمان .
(٦) أي شيئا من حسد وحقد وقيل حاجة بمعنى محتاج اليه : أي ولا يجدون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون .

*

وبعد : فرسائله وخطبه وحكمه وكلّ ماعرف له من قول يتجلى فيه خشية الله والإخلاص له ، والعمل على رضائه ، ثم هو بعد من الجهة اللغوية ، نقيّ اللفظ ، سامي الغرض ، لا تكلف فيه ، ولا محاولة للمباهاة به ، أو المساماة بفصاحته ، وذلك شأن رجال هذا العصر لم يستوقفهم اللفظ فيتأنقوا فى اختياره ، ولا شغلهم شيء غير إفهام المخاطب حكمتهم التى كانت ذوب قلوبهم .

الشعر فى هـــذا العصر

كان الشعر فى الجاهلية سمة العرب التى بها يعرفون ، وهِجِّيرَاهم التى بها يَلْهَجُون ، وكان حجتهم على الفضل ، ودليلهم على النبل . وسِجِلّ أيامهم المشهورة ، وأعمالهم المأثورة . وكان الفراغ وخلوّ البال والانطلاق من قيود الدّين تجعلهم يهيمون به فى كل واد : فمن غزل لا يتحرّزون فيه من ذكر الغافلات المقصورات فى خدورهنّ إلى هجاء ومدح مبناهما المبالغة والكذب . كذلك كانت العصبية تسيطر فى الشعر على جملة أغراضه ، فهى التى كانت تهيج الفخر والمباهاة ، وتحمل على إثارة الضغائن وتأريث العداوات والتحريض على القتال . حتى كانت الجزيرة العربية تَنُّورا ينفخ فيه الشعراء ويَحْضَئون بمقاولهم نيرانه . ومن هذا نستطيع أن ندرك مقدار حرص القبيلة على أن يكون لها شاعر ينافح عنها ويسجل مفاخرها ، وأنها كانت لاتزال متطامنة منكسة الرأس حتى ينبغ فيها شاعر ، فيتباشر أهلها ، ويأتيها المهنئون بنبوغه .

جاء الإسلام بالجدّ الذى لم يعرفه العرب فى العمل للدنيا والآخرة ، فامتلأت أوقاتهم بالمساعى النافعة فى تحصيل الدّين أو نشر كلمته ، جاء بإبطال كثير من أمور الجاهلية . وأولها العصبية التى كانت قاضية على اجتماعاتهم ، مبددة لشملهم ، وكذلك قيدهم بالحدود لايتعدّونها فى دين أو أدب ، فحرم عليهم الكذب وحاسبهم على الهمز

واللمز . وإشاعة الفاحشة فى الناس ، وقذف المحصنات . فكانوا جديرين أن تتعطل آلاتهم فى الشعر ريثما يصلحون أوتارها . ويغيرون نغمتها . فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من نخوة الجاهلية ، وفخرها الكاذب ، والوقوع فى الأعراض ، وذكر العورات ، وتأريث العداوات . لذلك ترى الشعر فى بدء هذا العصر قد فترت حركته لبطلان أغراضه القديمة لديهم ، ولما رأوا من بلاغة القرآن الذى حقر فى نظرهم بلاغتهم وضاءل فصاحتهم . وإن من شعرائهم من وصل به الانبهار من بلاغة القرآن ، والعكوف على تذوّقها وتزويد النفس من محاسنها ، أن انقطع عن قول الشعر كلبيد (وهو من المجلّين بين شعراء الجاهلية) ، فلم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :

الْحَمْدُ لله إِذْ لَمْ يَأْتِنِى أَجَلِى ... حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالَا

ومن حديث لبيد أن عمر أرسل إلى عامله على البصرة أن سَلْ لبيداً والأغلب ما أحدثا فى الإسلام ؟ فقال الأغلب :

أرجزاً سألت أم قصيدا ... فقد سألت هيناً موجودا

وقال لبيد : قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر فى عطائه فبلغ به ألفين ، فلما وُلّى معاوية قال يا أبا عقيل : عطاؤك وعطائى واحد ، لاأرانى إلاسأحطّك قال : أو تدعنى قليلا ثم تضمّ عطائى إلى عطائك ، فتأخذ العطاءين جميعاً .

وأمّا من لم ينقطع منهم عن قول الشعر فقد تركت فيه مفاجأة القرآن أثراً من الضعف جليًّا أجمع النقدة للشعر على لَمْسِه وإحساسه ، ومن هؤلاء حسّان بن ثابت الذى كان فى إسلامه تامّ الخضوع لأوامر الدّين ، فلم يَهْجُ إلا أعداء الإسلام ، ولم يفخر إلا بالمقدار المباح ، ومن الشعراء من أسلم ولكنه كان رقيق الإسلام فلم يتقيد بقيوده ، ولم يتحرّج عن منهياته كالحُطَيئة فإنه ظلّ يهجو ويُشَبِّبُ ، ولعله لم يكن يَحْفِلِ بالاستماع للقرآن كثيراً حتى يتأثر بأدبه وأسلوبه . لذلك ترى شعره فى الإسلام بمثابته فى الجاهلية ، ولقد بلغ من تمسك الحطيئة بجاهليته أن استمرّ يهجو حتى حبسه عمر ابن الخطاب لهجائه للزّبْرقان بن بدر، ثم أحضره لقطع لسانه ، فلم يُنْجِه إلا شفاعة الشفعاء

وتوبته وأخذه العهد على نفسه ألا يعود إلى هجاء أحد ، فأعفاه عمر من قطع اللسان ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

وممن هجا فأفحش فى هذا العصر غير الحطيئة فحبس مثله ، ضابئ بن الحارث البُرْجُمِىّ ، فإنه كان قد استعار كلباً من بعض بنى جَرْوَل بن نَهْشَل ، فطال مكثه عنده، فلما طلبوه امتنع عليهم ، فعرضوا له وأخذوه منه فغضب ، ورمى أمهم بالكلب وقال :

تَجَشَّمَ نحوى وفدُ قُرحان شُقَّة ... تَظَلُّ بها (الوجناء) وهى حسير

فأردفتُهم كلباً فراحوا كأنما ... حباهم بتاج الهُرْمُزان أميرُ

وقلدتهم ما لو رميت مُتالعاً ... به وهو مُغْـبَرٌّ لكان يطير

فيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلّغن ... أمامـــة عنى والأمور تدور

فإنك كلب قد ضريت بما ترى ... سميع لما فوق الفراش بصير

إذا عثنت من آخر الليل دُخْنة ... يبيت لها فوق الفراش هرير

فاستعدوا عليه عثمان فحبسه وقال : لو أن رسول الله حىّ لأحسبته نزل فيك قرآن . وما رأيت أحدا رمى قوما بكلب قبلك . ومثل هذا قول زهير وقد رمى قوما بفحل إبل حبسوه عنه فقال :

ولولا عســبه لرددتموه ... وشرّ منيحة اير مُعار

إذا طمحت نساؤكمو إليه ... أشظّ كأنه مَســدٌ مُغار

*

ولا يدورنّ بخلد أن إهمال النبىّ لإقامة وزن الشعر ، وقول الله تعالى : « والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » قد كان لهما أثر فى هذه الفترة التى حدثت فى الشعر أوّل هذا العصر ، فقد عرفت سببها كما عرفت أن النبىّ وإن لم يقم وزن الشعر كان يحسن استماعه ، ويعجب به ، ويثيب على قوله ، ويدعو لقائله ، وأنه القائل : « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » ، وهؤلاء خلفاؤه ومتبعو سنته لهم من الشعر أقوال مأثورة ،

وطالما دعوا إلى العناية به ، وحملوا على الحرص عليه ، وأخذ النشء من أولاد العرب بأدبه ، فهذا عمر بن الخطاب يقول : « رَوُّوا أولادكم ما سار من المثل وحَسُنَ من الشعر » ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : « مُرْ مَنْ قِبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدلّ على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب » ، ويروى عن السيدة عائشة أنها كانت تحفظ جميع شعرلبيد ، وكانت تقول «رَوُّوا أولادكم الشعر تَعْذُبُ ألسنتهم» .

ولم يكونوا يحرصون على الشعر ويدعون إليه لمحض اللهو به ولما فيه من تأديب للنفس فحسب . بل لقد كانوا يجدون تعلمه ضروريًّا لفهم القرآن . فقد قال ابن عباس : « إذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب » .

⁂

نقول في لفظ الشعر وأسلوبه ما قلناه في الكتابة والخطابة ، من هجر الحوشي ، وعذوبة اللفظ ، وحسن السبك ، وإذا كان فرق بين النثر والشعر في شيء من هذا ، فهو الفرق بين البديهة والروية ، لأن الخطيب منهم لم يكن في غالب أمره يحفل بإعداد العبارة لخطابته ، وكذلك المترسل يكتب أو يملي على كاتبه من غير تخير للفظ ، أما الشعر فإنه غالباً يهيأ قبل إلقائه ، فلذلك ترى فيه دائماً أثر العناية وسيما التنوّق .

ونستطيع أن ندلك على بعض أمثلة كان الشعراء فيها متأثرين أسلوب القرآن ، سالكين نهجه ، فهذا حسان يقول في الرّدّ على أبي سفيان حين هجا النبيّ :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

فإنه ينظر إلى قوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

ويقول في رثاء النبيّ :

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى ... حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

فهو من قول الله تعالى : « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، وقوله :

وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمًى وَهُـداةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِي

واستعمال هل يستوى أسلوب تكرّر فى القرآن كثيراً .

ويقول النابغة الجَعْدِىّ :

الحَمْدُ لِلّهِ لاَ شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقُلْهَا فَنَفْسَـهُ ظَلَمَا
المُولِجِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْـلِ نَهَارًا يُفَرِّجُ الظُّلَمَا

نقل ألفاظ البيتين من القرآن كما يعرف ذلك حُفَّاظه .

(ويقول مَعْنُ بْنُ أَوْسٍ :

فَمَا زِلْتُ فِى لِينِى لَهُ وَتَعَطُّفِى عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
وَخَفْضٍ لَهُ مِنِّى الجَنَاحَ تَأَلُّفاً لِتُدْنِيَهُ مِنِّى الْقَرَابَةُ وَالرَّحْمُ

فهذا الشعر من قوله تعالى : « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » .

⁂

ولقد زاد الإسلام فى أغراض الشعر ونقص . فأما الذى زاده فهو الإكثار من الحكمة وضرب المثل لكثرة ماورد من هذين فى القرآن وللحصافة التى صار عليها عقل العربى من دراسة الدّين . وللتجاريب التى استفادها فى حياته العملية الناشطة . كلّ أولئك أجرى لسانه بالحكمة وأحضر أمامها صورة المثل .

ومما قاله شعراء هذا العصر من ذلك قول الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

وقول حسان :

وَإِنَّ امْرَأً يُمْسِى وَيُصْبِحُ سَالِمًا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ مَا جَنَى لَسَعِيدُ

رُبَّ حِلْمٍ أضاعَهُ عدمُ المَا ... لِ وَجَهْلٍ غطّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ

وقول كَعْبِ بن زهير :

مَقَالَةُ السُّوءِ إلى أَهْلِهَا ... أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرٍ سائِلِ

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ ... ذَمُّوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

وقول النابغة الْجَعْدِيّ :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إذا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا(١)

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إذا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا(٢)

كذلك زاد فى الشعر حديث الورع وتقوى الله ، والتزهيد فى الدنيا ، وذكر البعث والجنة والنار .

يقول بجير أخو كعب بن زهير :

إلى الله (لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ) وَحْدَهُ ... فَتَنْجُو إذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ

لَدَى يَوْمِ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ ... مِنَ النَّارِ إلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

فَدِينُ زُهَيْرٍ (وَهْوَ لَا شَيْءَ) بَاطِلٌ ... وَدِينُ أَبِي سُلْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

ويقول أبو ذؤيب الهذلىّ :

أَبَا عُبَيْدٍ رُفِعَ الْكِتَابُ ... وَاقْتَرَبَ الْمَوْعِدُ وَالْحِسَابُ

وتلك هى مادة علم العربى التى أفادها من الإسلام .

ولقد بان فى شعر هذا العصر فهم الشعراء لحقائق كانوا يسيئون فهمها ، فأدركوا حقيقة القضاء والقدر ، وأن الآجال محدودة ، لا يستقدم المرء ساعة ولا يستأخر ، ولو كان فى برج مشيد .

---

(١) البوادر : جمع بادرة وهى ما يبدر من الغضب والحدة .

(٢) أورد الإبل أتى بها الماء ، وأصدرها : أعادها بعد الشرب .

وهذا قول زهير بن أبى سلمى على كونه من أعقل العرب ومع شهادة النبيّ له بأن حكمته من كلام النبوّة يقول :

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

ويقول حسان :

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي ... سَعْيُ الْفَتَى وَهْوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ

يَسْعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا ... فَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مُنْتَشِرُ (١)

وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مَحْدُودٌ لَهُ أَجَلٌ ... لَا يَنْتَهِي الْعُمْرُ حَتَّى يَنْتَهِي الْأَثَرُ (٢)

أما ما نقص من الأغراض فهو ما أبطله الإسلام من وصف الخمر لأنه حرّم شربها وفى وصفها دعوة إليها . كذلك الغزل الفاحش الذى يتناول اسم محبوبة بذاتها و يصف لقاءها والخلوة بها مما لا يبيحه الشارع إلا فى زواج شرعى .

وقد ورد فى كتاب : [طبقات الشعراء] أن كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود شبب بنساء النبيّ والمسلمين ورثا قتلى بدر من الكفار ، فأمر رسول الله ، محمد ابن مسلمة ورهطاً من الأنصار أن يقتلوه ففعلوا .

لذلك ترى حساناً وكعب بن زهير وغيرهما أنشدوا النبيّ والخلفاء غزلا ، ولكنه عفيف ليس فيه قصد إلى امرأة بعينها حتى يكون ذلك قذفا لها . ثم هو بعدُ خالٍ من كلّ ما ينكره الدّين ، وليس فيه إلا وصف للخلق ، أو جمال الأعضاء الظاهرة التى لا تحرم رؤيتها :

قال كعب بن زهير :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ (٣)

---

(١) متفرق .

(٢) الأثر من كل شىء : بقيته . والمعنى لايموت المرء حتى تنتهى كل بقية من عمره .

(٣) تبله الحب : ذهب بعقله . وتامت المرأة قلب الرجل وتيمته : عبدته وذللته ، كبله : قيده .

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ(١)

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً ... لَا يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنْهَا وَلَا طُولُ

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ(٢)

إِخَالُهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ ... مَوْعُودَهَا أَوْ لَوَ انَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا ... كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ

وَلَا تَمَسَّكُ بِالْوَعْدِ الَّذِي زَعَمَتْ ... إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ

فَلَا يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ ... إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ(٣)

ويسمى الشاعر الذى شهد عصرى الجاهلية والإسلام مخضرما (إذا كان شعره قد تأثر بالإسلام) .

فحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، ومعنُ بن أوس مخضرمون لظهور أثر الإسلام فى قولهم .

ولكن لبيداً والخنساء غير مخضرمين لامتناع الأول من القول فى الإسلام ولبقاء صبغة الجاهلية فى شعر الخنساء لأنها لم تقل فى غير الفخر والرثاء قبل الإسلام و بعده .

وكلمة مخضرم من الألفاظ التى استعملها الإسلام هذا الاستعمال ، وأصلها على رأى الأخفش من قولهم ماء خِضْرِم : أى متناه فى السعة والكثرة ، فمنه سمى الذى شهد الجاهلية والإسلام مُخضرِمًا كأنه استوفى الأمرين . وهى فى رأى الأصمعى من الخضرمة أى قطع آذان الإبل فى موضع غير الذى كانت تقطع منه فى الجاهلية ليكون ذلك علامة إسلامهم ، فسمى كلّ من أدرك العصرين مُخضْرَما ، ثم خصّ اللفظ بالشعراء أو هى من خضرم عطيته إذا قطعها ، فسمى الشعراء مخضرمين لأن مرتبتهم فى الشعر

(١) الأغنّ : الظبى ، لأنه يخرج صوته من خيشومه وتلك هى الغنة . غضيض الطرف : فاتر النظر ، كحل العين (كمنع ونصر) وكحلت العين (كفرح) اسودت منابت أهدابها خلقة .

(٢) العارض : السن فى مقدم الفم . الظلم : بريق الأسنان .

(٣) عرقوب : رجل من العماليق يضرب مثلا فى خلف الوعد .

نقصت فى الإسلام ، وبعضهم يجعلها مُخضْرِمًا (بالخاء) من الخضرمة وهى الخلط لأن الشاعر خلط الجاهلية بالإسلام .

ومن هؤلاء : حَسَّانُ بن ثابتٍ . وَكَعْبُ بن زُهَيْرٍ . وَمَعْنُ بْنُ أوْسٍ، وأَبُو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيُّ ، والنَّمِرُ بن تَوْلَبٍ ، والنابغة الْجَعْدِيُّ .

وسنثبت لك بعض تراجم هؤلاء الشعراء بين إجمال وتفصيل :

أبو ذؤيب الهذلى

[اسمه ونسبه] هو خُوَيْلِد بن خالد بن مُحَرِّث بن مَخْزُومٍ . ينتهى نسبه إلى نزار .

[حياته] : عاش جاهليته وصدراً من إسلامه بالبادية . وقد أسلم ولم يرَ النبىّ، حتى إذا سمع أنه عليل قدم المدينة وقد مات رسول الله ، فحضر مبايعة أبى بكر فى السقيفة ، ثم شهد الصلاة على النبىّ ودفنه . ثم عاد إلى قومه ولبث بالبادية حتى خلافة عمر ، فقدم عليه ، ورغب فى الجهاد ، فأغزاه عمر حتى مات وجيش المسلمين عائد من فتح إفريقية فى خلافة عثمان سنة ٢٦ هجرية .

وكان له خمسة بنين هاجروا قبل ذلك إلى مصر ، فأصيبوا فى عام واحد بالطاعون، فرثاهم بقصيدته المشهورة :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ   وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

[منزلته فى الشعر] : سئل حسان من أشعر الناس ؟ فقال حيًّا أم رجلا ؟ قالوا : حيًّا ، فقال : هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب .

كان فصيحاً كثير الغريب . للزومه البادية ، وقصيدته العينية فى بنيه الخمسة ، جليلة القدر ، تبلغ ثمانية وستين بيتاً ، وهى قديمة الشهرة . يقال : إن المنصور لما انصرف من دفن جعفر ابنه قال للربيع : ابغنى من أهلى من ينشدنى : أمن المنون . .

حتى أتسلى عن مصيبتى فلم يجد الربيع فيهم أحداً يحفظها ، فعاد إليه ، فقال المنصور : والله لمصيبتى بأهل بيتى لا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب أعظم من مصيبتى بابنى ، ثم قال : انظر ، هل فى القوّاد أو العوامّ من يحفظها ؟ فوجد شيخاً مؤدبًا يحفظها ، فجاء به ، فلما قال : (وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ) . قال صدق والله . أنشدنى هذا الشطر مائة مرّة ، وما زال الرجل ينشده حتى شفى نفسه وأذهب منه حزنه .

ومن شهرتها : أن عبد الله بن عباس استأذن على معاوية فى مرض موته ليعوده ، فأمر معاوية أن يُقْعَد ويُسْنَد ، وقال : ائذنوا له ليسلم قائمًا وينصرف ، فلما سلم عليه وولّى أنشد معاوية قول الهذلى :

وَتَجَــلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

فأجابه ابن عباس عَلَى الْفَوْرِ :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

فما خرج من الدار حتى سمع الناعية عليه .

وفى هذه القصيدة وصف أبو ذؤيب حاله بعد موت أبنائه ، ثم وصف الحمار الوحشى وطيب عيشه ، وتباعده عن كثير من الآفات بشديد نفاره ، وكثير حذاره وبعد مراتعه ، ثم هو مع ذلك إلى الفناء ، ثم وصف ثور الوحش ، وأن مصيره إلى الموت ، ثم الكمى الذى ضاعف الدروع ، واستلأم فى الحديد ، ثم نازل القرن على غاية من الاستعداد والحذر ، فلم ينجه ذلك من الموت .

مختار شــعره

أول قصيدته العينية :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ (١)

(١) يقول الأخفش : المنون جمع لاواحد له ، ويقول الأصمعى : واحد لا جمع له ، وهو

قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً ... مُنْذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ (١)

أَمْ مَا لِجَنْبِكَ لَا يُلَائِمُ مَضْجَعاً ... إِلَّا أَقَضَّ عَلَيْهِ ذَاكَ الْمَضْجَعُ (٢)

فَأَجَبْتُهَا أَنْ مَا لِجِسْمِي أَنَّهُ ... أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا (٣)

أَوْدَى بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً مَا تُقْلِعُ

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ (٤)

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ ... وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ (٥)

وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُو ... وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ جُفُونَهَا ... سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهْيَ عَوْرَا تَدْمَعُ (٦)

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ ... بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ (٧)

لَا بُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُقِيمٍ فَانْتَظِرْ ... أَبِأَرْضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى الْمَضْجَعُ

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ ... وَلَسَوْفَ يُولَعُ بِالْبُكَا مَنْ يُفْجَعُ

يذكر ويؤنث ، وسمى الموت منونا ، لأنه يمنّ المرء : أى ينقصه . ريب المنون : ما يأتى به من الفواجع . الإعتاب : فعل ما يرضى العاتب .

(١) ابتذل الرجل (بالبناء للفاعل) : عمل عمله بنفسه . وقوله : ومثل مالك ينفع أى فى شراء العبيد وقيامهم بالعمل بدلك .

(٢) أقضّ عليه المضجع : أى امتلأ قضيضا (حصى) والمراد أنه أرق ولم يهدأ .

(٣) أن هنا مخففة من الثقيلة ، أى أجبتها أن الذى حصل لجسمى أن أولادى هلكوا . وتركونى

(٤) أصل هوىّ هواى (لغة هذيل تقلب ألف المقصور فى هذه الحالة ياء وتدغمها فى ياء المتكلم) أعنقوا : ساروا سيرا فسيحا سريعا ، والمراد أنهم ماتوا فى مقتبل العمر فوصلوا إلى الغاية قبل غيرهم . تخرموا : أخذوا واحدا بعد واحد .

(٥) غبرت : بقيت . مستتبع : لاحق ، من قولك : استتبعنى فلان ، أى جعلنى أتبعه .

(٦) ويروى كأن حداقها وذلك مناسب لقوله سملت : أى فقئت وعورا مقصور عوراء .

(٧) المروة : القطعة من أصلب الحجارة . الصفا : جمع صفاة ، وهى الحجر الصلد الضخم . المشقر : حصن بالبحرين .

وَلَتَأْتِيَنَّ عَلَيْـــكَ يَوْمٌ مَرَّةً ... يُبْكَى عَلَيْكَ مُقَنَّعًا لاَ تَسْمَعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَـــةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيـــلٍ تَقْنَعُ
كَمْ مِنْ جَمِيعِي الشَّمْلِ مُلْتَئِمِي الْهَوَى ... كَانُوا بِعَيْشٍ نَاعِمٍ فَتَصَدَّعُوا
فَلَئِنْ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ ... إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفَجَّـــعُ
وَالدَّهْرُ لاَ يَبْقَى عَلَى حِـــدْثَانِهِ ... جَوْنُ السَّرَاةِ له جَدَائِدُ أَرْبَعُ(١)
أَكَلَ الْجَمِيمَ وَطَاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ ... مِثْلُ الْقَنَاةِ وَأَزْعَلَتْهُ الأَمْرُعُ(٢)
والدهرُ لا يبقى على حِـــدثانه ... شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكلاب مُرَوَّعُ(٣)
شَعَفَ الكلابُ الضاريات فؤاده ... فإذا يَرَى الصُّبْحَ المصدّقَ يَفْزَعُ
والدهرُ لا يبقى على حدثانه ... مُسْتَشْـــعِر حلق الحديد مقنع
حميت عليه الدرع حتى وجهه ... من حرّها يوم الكريهة أسفع

وقال فى موت النبىّ :

كُسِفَتْ لِمَصْرَعِهِ النُّجُومُ وَبَدْرُهَا ... وَتَضَعْضَعَتْ أَرْكَانُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
وَتَزَعْزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلُّهَا ... وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبٍ مُفْدِحِ(٤)

النابغة الجعـــدى

[اسمه ونسبه] : هو حسان بن قيس بن عبد الله الجعدى العامرى ، ويكنى أبا ليلى ويلقب بالنابغة ، لأنه قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أجبل حيناً . قيل ثلاثين سنة ثم نبغ فيه فى الإسلام كما ذكر حماد الراوية .

(١) جون السراة : أسود الظهر . جدائد : أتن جافة الثدى .
(٢) الجميم : النبات الطويل . السمحج : الأتان الطويلة . أزعلته : نشطته . الأمرع : جمع مرع وهو المكان الخصب .
(٣) الشبب : الثور المسن . أفزته : استخفته وأفزعته .
(٤) يقال أفدح الرجل الأمر إذا وجده فادحا .

[حياته] : نشأ فى الجاهلية ، وهو أقدم من النابغة الذبيانى ، لأنه أدرك المنذر ابن مُحرِّق ، ولم يدرك النابغة الذبيانى إلا ابنه النعمان وفى ذلك يقول الجعدى :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قد مَضَى لِسَبِيلِهِ ... وَمِنْ عَادَةِ المَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدامَایَ عِنْدَ المُنْــذِرِ بن مُحرِّقٍ ... أَرَى اليَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الأَرْضِ مُقْفِرَا (١)
كُهُولٌ وَفِتْيَانٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ ... دَنَانِيرُ مِمَّا سِيقَ فِى أَرْضِ قَيْصَرَا

وكان فى جاهليته قد حرّم الخمر على نفسه ، وهجر الأوثان ، ووحّد الله وعبده على دين إبراهيم . ولما جاء الإسلام وفد على النبى فأسلم وأنشده ، فاستحسن شعره ودعا له .

وقد وفد على عمر فأنشده :

لَبِسْتُ أُنَاساً فَأَفْنَيْتُهُمْ ... وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاسَا
ثَلاثَةَ أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ ... وَكَانَ الإِلٰهُ هُوَ المُسْتَآسَا (٢)

فقال له عمر : فكم لبثت فى كلّ أهل ؟ قال : ستين سنة . وإذا علمنا أنه مات فى خلافة عبد الملك صحّ ما ذكره ابن قتيبة من أنه عاش مائتين وعشرين سنة ، إذ المدّة بين عمر وخلافة عبد الملك تتم هذا المقدار فيكون قد أدرك ثلاثة عصور .

ولقد كانت ضلع الجعدى مع علىّ ، فحارب معه فى صفين ، وأعانه بلسانه ، ونال من معاوية . فلما صار الأمر إليه خشى لسانه ، فلم يعاقبه على ما كان منه ورد إليه ما كان بدأ بأخذه منه من مال وولد وذلك على معاوية وإنشاده :

فَإِنْ تَأْخُذُوا أَهْلِى وَمَالِى بِظِنَّةٍ ... فَإِنِّى لَحَرَّابُ الرِّجَالِ مُجَرَّبُ (٣)
صَبُورٌ عَلَى مَا يَكْرَهُ المَرْءُ كُلِّهِ ... سِوَى الظُّلْمِ إِنِّى إِنْ ظُلِمْتُ سَأَغْضَبُ

وقد شايع بعد ذلك ابن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك .

---

(١) الندمان : يطلق على الأسيف كالنادم وعلى النديم كالمنادم وجمعه فيهما ندامى .

(٢) المستآس : المستعاض من الأوس ، وهو العطية عوضا .

(٣) حربه : سلبه وحراب صيغة مبالغة .

وقد مات بأصبهان فى رحلته إلى الأمصار المفتتحة بعد ما عمر ما عمر .

[شعره] : لم يعرف عنه أنه كان يهذب شعره فى جاهلية ولا إسلام بل كان يقوله عفو الخاطر لذلك كان منه الجيد والردىء والمتوسط حتى قال الأصمعى : (وكان معجباً به لذلك) عنده مطرف[١] بآلاف . وخمار بواف[٢] . فخالف بذلك زهيراً والحطيئة ، ووافق الذبيانى الذى كان مثله لا ينظر فى شعره حتى يسمعه من المغنيات فيدرك ما فيه من إقواء[٣] وغيره فيصلحه .

وقد ذكروا أنه كان مغلباً ما هاجى أحداً ولا نافره إلا غلب . هاجى أوس ابن مغراء . وكعب بن جعيل . وليلى الأخيلية فغلبوه جميعاً .

ونرى أن السبب فى ذلك ما كان فى طبعه من كرم وإسجاح . يتجلى ذلك فى ميله إلى التوحيد أيام الجاهلية وإطلاقه عنان الشعر لا يتكلف له ، فلم يستطع مجاراة من غلب على نفسهم الشرّ ، واشتعلت صدورهم بالأحقاد ، ولقد كان إذا عرف أن منافره أربى عليه أسرع بالاعتراف بالهزيمة ، لايكابر ولا يمارى ، فإنه سمع قول أوس ابن مغراء فى منافرته :

لَعَمْرُكَ مَا تَبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ   مِنَ اللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

فقال : لقد غلب أوسٌ .

ولقد أجاد فى الفخر والرثاء والهجاء والمدح ووصف الخيل . وكان أحد ثلاثة أجادوا وصفها وهم : طفيل الغنوى ، وأبو داود ، والنابغة الجعدى .

---

(١) المطرف (مثلثة الميم) : ثوب من خز مربع ذو أعلام .

(٢) لواف : هو الدرهم قدر درهم وثلث .

(٣) هو اختلاف حركة الروى المطلق بالكسر والضم مثل قول حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر   جسم البغال وأحلام العصافيرِ

كأنهم قصبٌ جفتْ أسافله   مثقّبٌ نفخت فيه الأعاصيرُ

شعره :

لعل أشرف شعره قصيدته التي مدح بها رسول الله ، وهي طويلة تبلغ مائتي بيت :

خَلِيلَيَّ عُوجَا سَاعَةً وَتَهَجَّرَا ... وَلُومَا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا (١)
وَلاَ تَجْزَعَا إِنَّ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ ... فَخِفَّا لِرَوْعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قِرَا (٢)
وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لاَ تُطِيقَانِ دَفْعَهُ ... فَلاَ تَجْزَعَا مِمَّا قَضَى اللهُ وَاصْبِرَا
أَلَمْ تَرَيَا أَنَّ الْمَلاَمَةَ نَفْعُهَا ... قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وَلَّى وَأَدْبَرَا
تَهِيجُ الْبُكَاءَ وَالنَّدَامَةَ ثُمَّ لاَ ... تُغَيِّرُ شَيْئاً غَيْرَ مَا كَانَ قُدِّرَا (٣)

❋

أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى ... وَيَتْلُو كِتَاباً كَالْمَجَرَّةِ نَيِّرَا
أُقِيمُ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفِعْلِهَا ... وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحْذَرَا (٤)
خَلِيلَيَّ قَدْ لاَقَيْتُ مَا لَمْ تُلاَقِيَا ... وَسَيَّرْتُ فِي الْأَحْيَاءِ مَا لَمْ تُسَيِّرَا
تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ لِذِي الْهَوَى ... وَمِنْ حَاجَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا

ومنها في الفخر :

وَنُنْكِرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا ... مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسَبُ الْجَوْنَ أَشْقَرَا (٥)
وَنَحْنُ أُنَاسٌ لاَ نُعَوِّدُ خَيْلَنَا ... إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
وَمَا كَانَ مَعْرُوفاً لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا ... صِحَاحاً وَلاَ مُسْتَنْكَراً أَنْ تُعَقَّرَا (٦)

---

(١) تهجر : سكن وقت الهاجرة : والمراد هنا مجرد اللبث .

(٢) قِر بالكسر أمر من وقر (كوعد) بمعنى رزن وبالفتح أمر من قرّ (كمرّ) وخففت بحذف إحدى الراءين وبهما قرئ قوله تعالى : « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ » .

(٣) لايصح المعنى إلا إذا فهم من تغير معنى تحدث .

(٤) أحذر : تفضيل من حذر .

(٥) ننكر : نجهل . الجون هنا الأبيض . أشقر : أحمر .

(٦) المفرد صحيح وصحاح (بالفتح) والجمع صحاح (بالكسر) . العقر : ضرب قوائم الدابة لتمتنع عن الحركة مقدمة لذبحها . فإرادة معنى الذبح من العقر مجاز .

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال له النبيّ : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال الجنة . قال له النبيّ إن شاء الله .

ومنها فى الحكم :

وَلاَ خَيْرَ فى حِلْمٍ إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلاَ خَيْرَ فى جَهْلٍ إذا لم يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

فقال له النبيّ : لا يفضض الله فاك ، فأتت عليه مائة سنة ولم تسقط له سنّ ، ثم كان إذا سقطت له سنّ نبتت غيرها ، وكان فوه يتلألأ و يبرق .

ومن حكمه أيضاً :

المرء يهوى أن يعيش وطول عيش قد يضرّه

وتتابع الأيام حتى ما يرى شيئاً يسرّه

تفنى بشاشته ويبقى من حلو العيش مرّه

كم شامت بى إن هلكت وقائل لله درّه

معن بن أوس

[اسمه ونسبه] : هو معن بن أوس بن نصر بن زيادٍ ينتهى نسبه إلى مُزَيْنَة بنت كَلْب بن دبرة .

[حياته] : عاش بدويا أيام جاهليته و إسلامه ، ووفد على عمر بن الخطاب فى خلافته مستعيناً به فى بعض شأنه ، وخاطبه بقصيدته التى أوّلها :

تَأَوَّبَهُ طَيفٌ بِذَاتِ الجَرَاثِمِ فَنَامَ رَفِيقَاهُ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

ورحل فى بعض أيامه إلى البصرة ليمتار منها و يبيع إبلا له ، فتزوّج امرأة ذات جمال ويسار ، وأقام معها حولا ، ثم حنّ إلى موطنه ، فأذنت له أن يقيم سنة يصلح فيها من

شأنه ويدبر ماله ، فلم يعد بعد العام ، ثم خرجت حاجة فعثرت به فى الطريق ، وقد أضلّ إبلا له ، وحملها على المقام بوطنه فلم تقبل ، فطلقها وندم ، فقال :

فَقُولاَ لِلَيْلَى هَلْ تُعَوِّضُ نَادِمًا   لَهُ رَجْعَةً قَالَ الطَّلَاقَ مُمَازِحَا

وقد كُفّ بصره فى آخر حياته .

منزلته فى الشعر :

كان معاوية يفضل مزينة فى الشعر ويقول : كان أشعر أهل الجاهلية منهم ، وهو زهير ، وأشعر أهل الإسلام منهم ، وهما كعب ابنه ومعن بن أوس .

وقد شهد له بالسبق عبد الملك بن مروان حين كان عنده عدّة من أهل بيته وولده ، فقال : ليقل كلّ منكم أحسن شعر سمع به ، فذكروا لامرئ القيس والأعشى وطرفة فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك أشعرهم الذى يقول :

وَذِى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ   بِحِلْمِى عَنْهُ وَهْوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمُ (١)

قالوا فمن قائلها ؟ قال مَعْنُ بن أَوْسٍ :

وقد حضر مِرْبد البصرة وأنشد فيه ، فمرّ به الفرزدق وهو بالمِرْبَد ، فقال : يامعن ، من القائل :

لَعَمْرُكَ مَا مُزَيْنَةُ رَهْطُ مَعْنٍ   بِأَخْفَافٍ يَطَأْنَ وَلاَ سَنَامِ (٢)

فقال معن : أتعرف يافرزدق الذى يقول :

لَعَمْرُكَ مَا تَمِيمٌ أَهْلُ فَلْجٍ   بِأَدْرَافِ الْمُلُوكِ وَلاَ كِرَامِ (٣)

قال الفرزدق : حسبك أنا جرّبتك . قال قد جرّبت وأنت أعلم ، فانصرف وتركه .

---

(١) الرحم : القرابة : الأظفار : جمع ظفر بضمتين أو ضم فسكون ، وأما كسر الظاء مع سكون الفاء فلغة شاذة .

(٢) أى ليس لهم صفة الأخفاف فى الدوس ولا شرف الأسنمة فى الارتفاع .

(٣) الأرداف : جمع ردف وهو الرديف الذى يكون خلف الراكب على دابة واحدة .

وقد تجلت فى شعر معن عبارة رصينة وقول جزل فى حكمته البارعة ، ومدحه ، وفخره ، وهجائه .

مختار شعره

قال فى صفة ابن عمه :

وَذِى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ ... بِحِلْمِىَ عَنْهُ وَهْوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمُ
يُحَاوِلُ رَغْمِى لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ ... وَكَالْمَوْتِ عِنْدِى أَنْ يَحُلَّ بِهِ الرَّغْمُ(١)
فَإِنْ أَعْفُ عَنْهُ أُغْضِ عَيْناً عَلَى قَذًى ... وَلَيْسَ لَهُ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمُ(٢)
وَإِنْ أَنْتَصِرْ مِنْهُ أَكُنْ مِثْلَ رَائِشٍ ... سِهَامَ عَدُوٍّ يُسْتَهَاضُ بِهَا الْعَظْمُ(٣)
صَبَرْتُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ ... وَمَا تَسْتَوِى حَرْبُ الْأَقَارِبِ وَالسِّلْمُ
وَبَادَرْتُ مِنْهُ النَّأْىَ وَالْمَرْءُ قَادِرٌ ... عَلَى سَهْمِهِ مَا دَامَ فِى كَفِّهِ السَّهْمُ(٤)
وَيَشْتُمُ عِرْضِى فِى الْمُغَيَّبِ جَاهِدًا ... وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِى هَوَانٌ وَلَا شَتْمُ
إِذَا سُمْتُهُ وَصْلَ الْقَرَابَةِ سَامَنِى ... قَطِيعَتَهَا تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ(٥)
وَإِنْ أَدْعُهُ لِلنَّصْفِ يَأْبَ وَيَعْصِنِى ... وَيَدْعُو لِحُكْمٍ جَائِرٍ غَيْرُهُ الْحُكْمُ(٦)
فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللهِ وَالرَّحِمِ الَّتِى ... رِعَايَتُهَا حَقٌّ وَتَعْطِيلُهَا ظُلْمُ
إِذَنْ لَعَلَاهُ بَارِقِى وَخَطَمْتُهُ ... بِوَسْمِ شَنَارٍ لَا يُشَاكِهُهُ وَسْمُ(٧)

---

(١) الرغم : القسر والاذلال .

(٢) أغضى عينه : أطبق جفنها . القذى : مايقع فى العين فيؤذيها .

(٣) راش السهم : وضع فيه الريش ليكون أسدّ له وأصوب . هاض العظم : كسره بعد جبر وذلك أشد وأنكى .

(٤) بادر الشىء : سبق إليه . النأى : البعد .

(٥) سامه الشىء : كلفه إياه .

(٦) النصف مثلثة : العدل ، اسم من الانصاف .

(٧) خطمه : ضرب خطمه (أنفه) .

وَيَسْعَى إِذَا أَبْنِى لِيَهْدِمَ صَالِحِى ... وَلَيْسَ الَّذِى يَبْنِى كَمَنْ شَأْنُهُ الْهَدْمُ
يَوَدُّ لَوَ اَنِّى مُعْدِمٌ ذُو خَصَاصَةٍ ... وَأَكْرَهُ جُهْدِى أَنْ يُخَالِطَهُ الْعُدْمُ(١)
وَيَعْتَدُّ غُنْماً فى الْحَوَادِثِ نَكْبَتِى ... وَمَا إِنْ لَهُ فِيهَا سَنَاءٌ وَلاَ غُنْمُ(٢)
فَمَا زِلْتُ فى لِينِى لَهُ وَتَعَطُّفِى ... عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
وَخَفْضٍ لَهُ مِنِّى الْجَنَاحَ تَأَلُّفاً ... لِتُدْنِيَهُ مِنِّى الْقَرَابَةُ وَالرُّحْمُ(٣)
وَقَوْلِى إِذَا أَخْشَى عَلَيْهِ مُصِيبَةً ... أَلاَ اَسْلَمْ فِدَاكَ الْخَالُ ذُو الْعَقْدِ وَالْعَمُّ(٤)
وَصَبْرِى عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تُرِيبُنِى ... وَكَظْمِى عَلَى غَيْظِى وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ(٥)
لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضِّغْنَ حَتَّى اسْتَلَلْتُهُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيقُ بِهِ الْجِرْمُ(٦)
رَأَيْتُ انْثِلاَمًا بَيْنَنَا فَرَقَعْتُهُ ... بِرِفْقِىَ أَحْيَاناً وَقَدْ يُرْقَعُ الثَّلْمُ
وَأَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدْرِ مِنْهُ تَوَسُّعاً ... بِحِلْمِى كَمَا يَشْفِى بِالْأَدْوِيَةِ الْكَلْمُ
فَدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَنَّ نِفَارُهُ ... فَعُدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمُ(٧)
وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِى وَبَيْنَهُ ... فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهْوَ لَنَا سِلْمُ(٨)

ومن أحكم شعره وأعفه :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّى لِرِيبَةٍ ... وَلاَ حَمَلَتْنِى نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِى
وَلاَ قَادَنِى سَمْعِى وَلاَ بَصَرِى لَهَا ... وَلاَ دَلَّنِى رَأْيِى عَلَيْهَا وَلاَ عَقْلِى

---

(١) الخصاصة : الفقر أو كل خلل أو خرق فى باب أو نحوه . الجهد بالفتح المشقة وبالضم المشقة أو الطاقة .
(٢) السناء : الشرف . وبالقصر الضوء .
(٣) الرحم : بالكسر لغة فى الرحم .
(٤) الفداء بالكسر ممدود ويقصر ، والفدا بالفتح مقصور لاغير فهى فى البيت صالحة لهما وأن تكون أيضا فعلا . العقد : العهد .
(٥) رابنى الأمر وأرابنى : جعل فى قلبى ريبا أى شكا .
(٦) يروى الحلم والحزم وهما ظاهران ، وأما الجرم فمعناه الجسم والحلق .
(٧) ارفأنّ : سكن . صرم : قطيعة .
(٨) سلم : هى هنا بمعنى مسالم .

وَأَعْـلَمُ أَنِّى لَمْ تُصِبْنِى مُصِيبَةٌ   مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتًى قَبْلِى
وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ   مِنَ الْأَمْرِ مَا يَمْشِى إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِى
وَلَا مُؤْثِرًا نَفْسِى عَلَى ذِى قَرَابَتِى   وَأُوثِرُ ضَيْفِى مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِى

ومن أمثاله السّائرة قوله فى ابن أخته :

أُعَلِّمُهُ الرمايةَ كلَّ يوم   فلمّا اسـتدّ ساعده رمانى
وكم علمتُـــه نظمَ القوافى   فلما قال قافيـــة هجانى

الخنساء

[اسمها ونسبها] : هى تُماضِرُ بنت عَمْرِو بن الشَّرِيدِ السُّلَمِىّ من أهل نجد وكنيتها أم عمرو ، ولقبت بالخنساء لجمالها تشبيهاً لها بالبقرة الوحشية ، أو لجمال أنفها ، لأن الخنس(١) من جمال الأنف . وكان أبوها من سادات سُلَيم .

[حياتها] : نشأت الخنساء جميلة تزينها وفرة عقلها ، وتتمتع بشرف أبيها الذى كان أحد سادات العرب العشرة الذين أوفدهم النعمان على كسرى .

وكان لها أخوان : صخر ، ومعاوية . كان أبوهما يأخذ بيديهما فى الموسم ويقول : أنا أبو خيرى مضر ، فمن أنكر فليغير ، فلا يغير ذلك عليه أحد .

وقد رآها دُرَيْدُ بن الصِّمَّة فارسُ هَوَازِنَ تَهْنَأُ بعيراً لها فملكه جمالها ، وخطبها إلى أبيها فلم تقبل ، وآثرت الزواج فى قومها وقد حياها عند رؤيتها بقوله :

حَيُّوا تُمَاضِرَ وَارْبَعُوا صَحْبِى   وَقِفُوا فَإِنَّ وُقُوفَكُمْ حَسْبِى(٢)

---

(١) هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .
(٢) ربع (كمنع) وقف وانتظر .

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ كَالْيَوْمِ طَالِيَ أَيْنُقٍ جُرْبِ (١)
مُتَبَذِّلًا تَبْدُو مَحَاسِنُهُ يَضَعُ الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ (٢)
أَخُنَاسُ قَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِكُمْ وَاعْتَادَهُ دَاءٌ مِنَ الْحُبِّ
فَسَلِيهِمُ عَنِّي خُنَاسُ إِذَا غَصَّ الْجَمِيعُ هُنَاكَ مَا خَطْبِي (٣)

تزوّجت فى قومها، وكان زوجها متلافا، فشاطرها أخوها صخر ماله مرّات، وفى كلّ مرّة يعطيها خير الشطرين: وكان صخر أخاها لأبيها.

كانت الخنساء فى أوّل أمرها تقول البيت أو البيتين، فلما مات أبوها وأخواها هاج الحزن عليهم طبيعة الشعر فى نفسها، فأتت فى رثائهم بما لم يعهد كثرة وجودة.

وقد وفدت مع قومها وهى عجوز على النبىّ، فأسلمت وأعجب النبىّ بشعرها، فكان يستنشدها ويقول: هيه يا خناس! ويومئ بيده.

وكانت مع إسلامها تلبس الصّدار (٤)، وقد كلمتها عائشة رضى الله عنها فيه لأنه منهى عنه فى الإسلام، فقالت: إن سببه أن أخاها شاطرها مرة ماله وخيّرها فيما تأخذ فلامته امرأته وقالت: أما كفاك أن تقسم مالك حتى تخير فقال:

وَاللهِ لَا أَمْنَحُهَا شِرَارَهَا وَهْيَ حَصَانٌ قَدْ كَفَتْنِي عَارَهَا (٥)
وَلَوْ أَمُوتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا وَجَعَلَتْ مِنْ شَعَرٍ صِدَارَهَا

فاتّخذتُ الشّعار تصديقاً له. والله لا أنزعه حتى أموت.

قال لها عمر رضى الله عنه يوما وقد رأى ندوبا فى وجهها: ما هذا يا خنساء؟ فقالت

---

(١) نابة على وزن فعلة بالتحريك، تجمع للقلة على أفعل فيقال أنوق وقد يستثقلون الضمة على الواو فيقدمون الواو فيقولون أونق وقد يعوضون من الواو ياء فيقولون أينق.
(٢) الهناء: القطران. النقب بالفتح أو الضم: الجرب.
(٣) يقال غص المكان (بالبناء للفاعل) إذا امتلأ بالقوم. وقد أسند الفعل هنا لأهل المكان مجازا.
(٤) الصدار: شعر المرأة الحزينة تجزه ثم تلبسه فى صدرها.
(٥) شرار: جمع شرير ككريم وكرام. حصان: عفيفة.

من طول البكاء على أخوى ، فقال لها : أخواك فى النار ، فقالت : ذلك أطول لحزنى وإنى كنت أبكيهما من الثأر . فأنا اليوم أبكيهما من النار .

و بقدر جزعها على أخويها فى الجاهلية كانت رابطة الجأش فى أمر بنيها الأربعة الذين حضرت معهم حرب القادسية ، وحرّضتهم على القتال بقولها :

يا بنىّ : إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين . والله الذى لا إله إلاّ هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة . ماهجّنتْ حسبكم . ولا غيّرتْ نسبكم ، واعلموا أن الدّار الآخرة خير من الفانية . اصْبِروا وصابروا واتّقوا الله لعلكم تفلحون . فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها ، فيمّموا وَطِيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خَمِيسها تَظْفَروا بالغُنْم والكرامة فى دار الخلود والمُقامة(١) .

فقاتل أبناؤها حتى قتلوا جميعاً ، فلما نُعُوا إليها قالت : الحمد لله الذى شرّفنى بموتهم وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقرّ رحمته . وقد أعطاها عمر أرزاق أبنائها طول حياته .

وقد ماتت الخنساء بالبادية فى خلافة معاوية سنة ٥٠ هـ .

[منزلتها فى الشعر] : عرف قدرها فى الشعر جاهلية و إسلامًا ، فقد حضرت سوق عكاظ ، ففضلها النابغة ، (وكان له الحكم فى الشعر) على كلّ من حضر السوق إلا الأعشى ، فهاج ذلك غضب حسان .

وسئل جرير من أشعر الناس ؟ فقال : أنا لولا الخنساء ، وكان بشار يقول : لم تقل امرأة الشعر إلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، وقد فضلها معاوية على الأخطل ، وهو حاضر عنده للإنشاد ، فأقرّ لها الأخطل بالفضل ، و إذا ثبت أن النبىّ قال عنها إنها أشعر الناس فى ردّه على عدىّ ابن حاتم لما وفد عليه وقال : فينا أشعر الناس . وأسخى الناس . وأفرس الناس(٢) . فذلك شرف لها لا يعدله شرف .

---

(١) المقامة بالضم : الاقامة .

(٢) أشعر الناس : امرؤ القيس . وأسخاهم : حاتم . وأفرسهم : عمرو بن معدى كرب .

وأغلب شعر الخنساء فى رثاء أبيها وأخويها ، وما تبع ذلك من فخر بالكرم ، ووصف للشجاعة ، ولشعرها وقع فى القلب ، وهزّة فى النفس ، والنساء أشجى الناس وأشدّهم حزنا على هالك .

ويقول نقدة الشعر : إن شعرها لم تتغير صبغته بعد الإسلام ، ولم تعدل به عن موضوعه القديم من البكاء على أخويها وأبيها . ونرى أن ذلك لأنها امرأة لا تجول مجال الرجال فى تعلم الدّين ، ومخالطة رجاله ، ودراسة القرآن ، وآثار النبىّ ، ثم هى لم تدرك الإسلام إلا عجوزا لا همة فيها لشىء من ذلك .

شعرها :

فضلها جرير على جميع الشعراء بقولها :

إنَّ الزَّمَانَ وَمَا يَفْنَى لَهُ عَجَبٌ ... أَبْقَى لَنَا ذَنَبًا وَاسْتُؤْصِلَ الرَّاسُ
أَبْقَى لَنَا كُلَّ مَجْهُولٍ وَفَجَّعَنَا ... بِالْحَامِلِينَ فَهُمْ هَامٌ وَأَرْمَاسُ(١)
إنَّ الْجَدِيدَيْنِ فى طُولِ اخْتِلَافِهِمَا ... لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

وفضلها النابغة على كلّ من حضر السوق إلا الأعشى لقولها :

قَذًى بِعَيْنَيْكِ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوَّارُ ... أَمْ ذَرَفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ(٢)
كَأَنَّ دَمْعِى لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ ... فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِدْرَارُ
تَبْكِى لِصَخْرٍ هِىَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَلِهَتْ ... وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أَسْتَارُ
تَبْكِى خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحُقَّ لَهَا ... إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

ومنها :

وَإِنَّ صَخْرًا لَكَافِينَا وَسَيِّدُنَا ... وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ

---

(١) الحاملون : الذين يحملون المغارم عن القوم أى الأسياد . هام : جمع هامة ، يقال فلان هامة اليوم أو الغد : أى هو ميت اليوم أو غدا . الأرماس : جمع رمس وهو القبر .

(٢) القذى : مايقع فى العين فيؤذيها . العوّار : كل ما أعل العين .

وَإِنَّ صَخْرًا لَمِقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا ... وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا جَاعُوا لَعَقَّارُ(١)
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِى رَأْسِهِ نَارُ
حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ ... شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ لِلْجَيْشِ جَرَّارُ

ومن قولها فى صخر أيضاً :

أَمِنْ حَدَثِ الْأَيَّامِ عَيْنُكَ تَهْمِلُ ... تُبَكِّى عَلَى صَخْرٍ وَفِى الدَّهْرِ مَذْهَلُ(٢)
أَلَا مَنْ لِعَيْنٍ لَا تَجِفُّ دُمُوعُهَا ... إِذَا قُلْتُ أَفْنَتْ تَسْتَهِلُّ فَتَحْفِلُ(٣)
عَلَى مَاجِدٍ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ بَارِعٍ ... لَهُ سَوْرَةٌ فِى قَوْمِهِ مَا تَحَوَّلُ(٤)
فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ امْرِئٍ مُتَنَاوَلًا ... مِنَ الْمَجْدِ إِلَّا وَالَّذِى نِلْتَ أَطْوَلُ
وَلَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ لِلنَّاسِ مِدْحَةً ... وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا الَّذِى فِيكَ أَفْضَلُ

ومن أجل البيتين الأخيرين فضلها معاوية بمحضر الأخطل ، وأقرّ لها الأخطل بالفضل.

ومن جيد رثائها لصخر :

يُذَكِّرُنِى طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ(٥)
فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِى ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِى
وَلَٰكِنْ لَا أَزَالُ أَرَى عَجُولًا ... وَنَائِحَةً تَنُوحُ لِيَوْمِ نَحْسِ(٦)
هُمَا كِلْتَاهُمَا تَبْكِى أَخَاهَا ... عَشِيَّةَ رُزْئِهِ أَوْ غِبَّ أَمْسِ

---

(١) العقر : ضرب قوائم الدابة لتسقط على الأرض وتمتنع حركتها ، وهو عندهم مقدمة للنحر فاستعماله فى النحر مجاز .

(٢) هملت العين (كضرب) كثر نزول دمعها . المذهل : هنا مصدر ميمى: أى الذهول، والمعنى إن الدهر فى ذهول عنك لايهمه أمرك ولا يردّ لك بالبكاء فائتا .

(٣) استهل المطر : بدأ نزوله . حفلت السماء (كضرب) كثر مطرها .

(٤) الدسيعة : الجفنة . أو المائدة الكريمة . برع : تم فى كل فضل وكمال .

(٥) تقول أذكره فى أول النهار لأنه الوقت الذى كان يخرج فيه للغارة وأذكره فى المساء لأنه الوقت الذى يتجمع فيه الضيفان فى فنائه . كذا ذكره فى الكامل .

(٦) العجول : الثكلى والواله من النساء والابل لعجلتها فى حركتها جزعا .

وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَـٰكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْـــهُ بِالتَّأَسِّي (١)
فَقَدْ وَدَّعْتُ يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ ... أَبِي حَسَّانَ لَذَّاتِي وَأُنْسِي
فَيَالَهْفِي عَلَيْـــهِ وَلَهْفَ أُمِّي ... أَيُصْبِحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي

ومن قولها : وقد تسابق أبوها وأخوها فسبق أبوها ، فقيل لها : لئن مدحت أباك لقد هجوت أخاك ، فقالت : وتخلصت من الموقف أحسن تخلص بجعل سبق أبيها ليس عن عجز أخيها ، ولكنه اعتراف بحقه وتسليم لكبر سنه .

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا ... يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةَ الْحُضْرِ (٢)
حَتَّى إِذَا نَزَتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ ... لُزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ (٣)
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أَيُّهُمَا ... قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ لَا أَدْرِي
بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِ وَالِدِهِ ... وَمَضَى عَلَى غُلَوَائِهِ يَجْرِي (٤)
أَوْلَى فَأَوْلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ ... لَوْلَا جَلَالُ السِّنِّ وَالْكِبْرِ (٥)
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا ... صَقْرَانِ قَدْ حَطَّا إِلَى وَكْرِ

حسان بن ثابت

[اسمه ونسبه] : هو حَسَّان بن ثابت بن الْمُنْذِر بن حَرَام بن زَيْدِ مَنَاةَ بن عَدِيّ ابن عَمْرِو بن مالك بن النجار وينتهي إلى الخَزْرَج .

---

(١) التأسي : اتخاذك الناس أسوة لك (أشباها) في المصيبة .
(٢) الحضر والإحضار : السرعة .
(٣) نزت : تحركت واضطربت . لزه به . ألصقه به . العذر بسكون الذال : الشعر الذي على كاهل الفرس . أو أصلها العذر بضمتين فتكون جمع عذار وهو جانب اللحية أو ماوقع عليه من اللجام .
(٤) الغلواء : الغلو .
(٥) الكبر : الشرف والعظمة .

ويكنى أبا الوليد ، وأبا المضرب ، وأبا الحُسام ، وأبا عبد الرحمن ، وابن الفُرَيْعَة وأمه الفريعة أدركت الإسلام ، فأسلمت .

[حياته] : ولد حسان بالمدينة قبل عام الفيل بثمان سنين (قبل الهجرة بنيف وستين عاما(١)) ، فلما شبّ وحصف عقله انطلق يقول الشعر. وقد اشتهر أمره فى الجاهلية فانتجع بشعره الملوك وقبل عطاياهم . وقد مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة كما مدح الغساسنة ملوك الشام ، وكانت بينه و بين أهل يثرب واشجة نسب ، وأكثر ما كان مدحه لِجَبَلَة بن الأيهم آخر ملوكهم ، حتى اشتهر قوله فيه كما اشتهر عطاء جبلة له ، فقد أقسم جبلة لا يطيف به ذكر حسان إلا أرسل إليه ، ولا يمرّ به غاد أو رائح إلى المدينة إلا بعث معه ما يطرف به حسان .

دخل الإسلام المدينة وعمر حسان قرابة ستين سنة ، فأسرع إلى الإسلام ، وأبلى فيه بلسانه بلاء حسناً ، فقد تصدّى لهجاء قريش وذكر مثالبها ، فكان قوله كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشدّ من وَقع الحسام فى غَبَش الظلام » .

لم يبدأ بهجائهم حتى أتى أبا بكر وهو أعلم العرب بأنساب قريش ، فجعل يدله على عوراتهم ، فيقول له : كفّ عن فلان ، واذكر فلانا ، وكفّ عن فلانة . واذكر فلانة . وذلك لموضع رسول الله من قرابة قريش ، فجعل يقع فى أعراضهم ما شاء غير متعرّض لآل النبىّ ، واستله منهم استلال الشعر من العجين كما يقول .

ومن شعره فى هجاء أبى سفيان وقد تمثل فيه حذقه لنسب قريش بما علمه أبو بكر حتى قالت قريش لقد قال : ابن أبى قحافة الشعر بعدنا ، قوله :

وإنَّ سَنَامَ المَجْدِ مِنَ آلِ هَاشِمٍ ... بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ العَبْدُ(٢)

---

(١) كان عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة وشهرين وثمانية أيام وهو العام الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) بنت مخزوم هى فاطمة بنت عمرو وهى أم عبدالله (جدة رسول الله) . والعبد يريد به الحرث ابن عبد المطلب (أبو أبى سفيان) وكانت أمه أم ولد . وأبناء زهرة يريد آمنة وهالة (أم حمزة وصفية) وهما زهريتان فهما بنتا وهب بن عبد مناف بن زهرة .

وَمَنْ وَلَدَتْ أَبناءُ زُهْرَةَ مِنْكُمُ ... كِرَامٌ ولم يَلْحَقْ عجائزَكَ المَجْدُ
وإنَّ امْرأً كانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ ... وَسَمْرَاءُ مَغْلُوبٌ إذا بَلَغَ الجَهْدُ
وأنتَ هَجِينٌ نِيطَ فى آلِ هاشِمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

ولقد أبلى حسان فى الدفاع عن النبىّ وتعظيم أمر الإسلام والمسلمين ، فلم يترك مقاما إلا قال فيه : فمن هجاء لقريش وتناول لإشرافها، إلى وصف لفوز المسلمين فى الغزوات، إلى مدح للنبىّ وصحابته . ولم تفتر همته فى القول بعد موت النبىّ ، فقد استمرّ يرثيه ويمدح خلفاءه ويؤبنهم .

كان حسان موضع الرضا منذ دخل فى الإسلام . فقد وهب له النبىّ سيرين أخت مارية أم المؤمنين ووالدة إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة السلام . وأعقب حسان من سيرين ابنه عبد الرحمن ، كذلك وهب له رسول الله بَيْرَحَى ، وهو قصر بالمدينة كان لأبى طلحة فتصدّق به على آل النبىّ .

كذلك عرف الخلفاء لحسان فضله ففرضوا له العطاء الكافى من بيت المال .

ولما شاع حديث الإفك كان حسان أحد الذين خاضوا فى عرض السيدة عائشة رضى الله عنها ، وكانوا خمسة : عبد الله بن أبى بن سلول . وزيد ابن رِفاعة وحَسّان . وحَمْنَة بنت جَحْشٍ (١) ، وَمِسْطَح بن أُثاثة وقد تاب حسان فلم يحد ، ونزل فيه قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولا نستبعد حدوث ذلك من حسان، فهو شاعر يسرع إلى تصديق الوهم، ويجرى وراء الخيال ، ويؤيد خوضه فى هذا الحديث ما جرى له من صفوان بن المعطل حين اعترضه فضربه بالسيف . كذلك شعر حسان فى الاعتذار للسيدة عائشة بقوله :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ (٢)

---

(١) حمنة : هى أخت زينب زوج رسول الله .
(٢) حصان : عفيفة . رزان : ملازمة موضعها . تزنّ : تتهم . غرثى : جوعى .

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الّذِى قَدْ زَعَمْتُمُو   فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِى إلىَّ أَنَامِلِى
وَكَيْفَ وَوُدِّى مِنْ قَدِيمٍ وَنُصْرَتِى   لِآلِ رَسُولِ اللهِ زَيْنِ المَحَافِلِ
فَإِنَّ ٱلّذِى قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلاَئِطٍ   وَلٰكِنَّهُ قَوْلُ ٱمْرِئٍ بِى مَاحِلِ (١)

فلما أنشدها السيدة عائشة قالت له : ولكنك يا حسان ما تصبح غَرْثَانَ من لحومهن .

⁂

وقد ذكروا عن حسان الجبن ، لأنه لم يشهد زحفاً ولا غزوة . وكان يقيم مع الأطفال والنساء فى الحصون ، فقد حدّث عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان يوم الخندق ، وكان حسان مع النساء والأطفال فى الحصن ، فمرّ يهودى فجعل يطوف بالحصن ، فخشيت صفية أن يعرف اليهودىّ موضعهم فيدلّ عليهم اليهود وأهل الحصن بحيث لا يغيثهم المسلمون لاشتغالهم عنهم ، فقالت له : انزل فاقتل اليهودى فقال لها : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ! ! ما أنا بصاحب هذا ، فنزلت هى فقتلته ورجعت إلى الحصن ، ثم قالت : يا حسان انزل فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال مالى إلى سلبه حاجة .

ويروى أنه أنشد رسول الله :

لَقَدْ غَدَوْتُ أَمَامَ الْقَوْمِ مُنْتَطِقاً   بِصَارِمٍ مِثْلِ لَوْنِ الْمِلْحِ قَطَّاعِ (٢)
تَحْفِزُ عَنِّى نِجَادَ السَّيْفِ سَابِغَةٌ   فَضْفَاضَةٌ مِثْلُ لَوْنِ النِّهْىِ بِالْقَاعِ (٣)

فتبسّم رسول الله فانكسر حسان لظنه أن تبسم رسول الله لوصفه نفسه بالشجاعة مع جبنه، ونرى أن تهمة الجبن واقعة على حسان لأنه أكثر من الفخر بشجاعته ، ولم تعرف

---

(١) لائط : لائق . ماحل : نمام . يقال محل به إلى السلطان : أى مشى ونمّ .

(٢) منتطقا بصارم : أى حاملا له معلقا فى منطقى .

(٣) تحفز : تدفع . النهى : الغدير .

له مواقع شهدها لا فى جاهلية ولا إسلام، فدلّ ذلك على أنه يستر بالقول عاراً لاحقابه، على أن شهود الغزوات مع النبىّ كان شرفاً كبيراً للصحابة فكانوا يحرصون على شهودها و يتفاضلون بمقدار ما حضروا منها ، فقد حكوا عن عمر أنه حضر مع النبىّ جميع غزواته، وأن عثمان لم يتخلف إلا عن بدر ، وأن علياً شهدها جميعاً إلا تبوك ، فلو أن حسان ليس جباناً وعراعا لشهد ولو واحدة منها . ولقد ذكروا أنه كان يخضب شاربه ومقدم لحيته بالحناء ، فإذا قيل له : لم تفعل ذلك ؟ قال لأكون كأنى أسد والغ فى دم . وما نرى ذلك إلا تضليلا للرأى فيه وتمويهاً لجبنه .

وإن نشأة حسان بالقرى واشتغاله فى جاهليته بزيارة الملوك فى شرق وغرب لتجعله بعيداً عن مواقف الشجاعة التى تقتضيها حياة الخشونة والغارة .

وقد عمّر حسان فى الإسلام ستين سنة أخرى ، فتمّ له مائة وعشرون سنة قضى معظمها موفور الصحة تامّ الحواس ، ثم وهن فى آخر أيامه ، وكفّ بصره ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

منزلته فى الشعر :

قال المبرد فى الكامل : « وأعرق قوم كانوا فى الشعر آل حسان ، فإنهم يعدّون ستة فى نسق ، وكلهم شاعر ، وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر ابن حرام » . فهو إذاً شاعر مطبوع يضرب بعرق بعيد فى الشاعرية . لذلك لم يكن معروفاً بتنقيح شعره . وموقفه من وفد تميم شاهد عدل على قوّة سليقته . فإنه فوجئ بأن طلب منه النبىّ الردّ على الزبرقان بن بدر شاعر الوفد ، فارتجل قصيدته :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ   قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناسِ تُتَّبَعُ

وهى من خير قصائده .

ولقد ذكروا أن حسان كان شاعر الحضر فى الجاهلية . ونحن نعلم أن شعر الحضر دون شعر الوبر . لذلك كانت منزلته وسطاً بين الشعراء ، فلم يسام المجيدين، ولم ينحط إلى درجة المقصرين . وفى القصة الآتية بيان لمكانة حسان بين شعراء الجاهلية .

وفد على عمرو بن الحرث من ملوك غسان ، فوجد عنده النابغة الذبيانى ، وعلقمة ابن عَبَدة ، فقال له عمرو : إنى باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإنى أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتى ، (لأنه يمت إليه بالنسب) ، فقال حسان . لا بدّ من القول ، واستأذن الشاعرين فى الإنشاد ، فأنشد :

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ   بين الجوابى فالبُضَيْعِ فَحَوْمَلِ

فكان شعره دون شعر النابغة وعلقمة ، ولكنه حسن معدود .

وفى الإسلام زمن البعثة ارتفع شأنه ، لأنه لم يكن فى أصحاب رسول الله ، ولا فى أعدائه شاعر مثله ، فصار الشاعر المقدّم عند النبىّ ، وطارت له شهرة عظيمة ، ونال من إكرام النبىّ كثيراً ، فقد قال له : « اهجهم وجبريل معك » ، وقال له أيضاً : « شنّ الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشدّ عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام » ، وكان ينصب له منبراً فى المسجد ويسمع هجاءه لأعدائه .

فهذه الشهرة والشعر الكثير الذى قاله جعلاه بحقّ شاعر اليمانية فى الإسلام . وبقيت منزلته دون منزلة الفحول من المضرية .

[أغراض شعره] : كان موضوع شعره فى الجاهلية التشبيب ووصف الخمر والهجاء والمدح والفخر بنسبه وشجاعته وفصاحته . فلما جاء الإسلام بطل من أغراضه التشبيب ووصف الخمر ، وانصرف هجاؤه إلى أعداء رسول الله ، واقتصر مدحه على النبىّ وأصحابه ، وبقى فخره بنسبه وشجاعته وبلاغته ، وزاد عليه الفخر بالإسلام .

وإن من يقرأ شعره فى العهدين ليرى فرقا ظاهراً فى الأسلوب واللفظ : ففى الجاهلية ، عبارة جزلة ، ولفظ ضخم . وفى الإسلام أسلوب سهل ، ولفظ ليّن . لذلك قال بعض نقدة الشعر إن حسان فى الإسلام دونه فى الجاهلية لما رأى من هذا الفرق ، وهذا القول حقّ واضح وعذر حسان فيه أن معانى الإسلام جديدة عليه . ليست تلك المعانى التى ألفها فى الجاهلية ودرج عليها ، وسمع كثيراً من نماذجها فى شعر فحولها ، ثم

عذره كذلك أنه أدرك الإسلام كبيراً قد زايلته همة الشباب وسورته ، وأنه أكثر من القول ، ومن التعويل على البديهة فى أغلب المواقف ، فبان فى شعره الضعف واللين .

وللقول فى ضعف شعره فى الإسلام تفصيل اهتدينا إليه من كثرة ترديد الطرف فى كل ما قاله فى الإسلام. وذلك أننا نرى أنّ ما قاله فى الدفاع عن النبيّ أقوى وأرصن، وأشدّ قوافى ، وأحسن سبكا مما قاله فى أغراض أخرى ، ولا نرى لذلك من سبب إلا وعد النبيّ له بأن روح القدس يؤيّده ما كافح عنه فى قوله عليه الصلاة والسلام : «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله ورسوله» ، فهو فى هذا كان ملهما مؤيّداً ، فكان لا ينزع عن قوسه ، ولا يرمى من كنانته ، وسترى برهان ما قلنا فيما نعرضه عليك من مختار قوله .

رأى النقاد فى شعر حسان

ننقل لك فى هذا المقام آراء النقاد فى شعر حسان كما وردت مجملة مفرّقة فى كتب الأدب ليكون فى كلّ رأى منها شبه الدليل على منحى من مناحي قولنا الذى فصلناه فى الحكم على شعره .

قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر أهل يثرب فى الجاهلية ، وشاعر النبيّ فى النبوّة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام ، وقال : اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر .

قال الأصمعى : حسان أحد فحول الشعراء ، فقال له أبو حاتم : تأتى له أشعار لينة . قال : تنسب إليه أشياء لا تصحّ عنه[1] ، وقال الأصمعى مرّة : الشعر نَكِدٌ يقوى فى

---

(١) وقد أتى على بعض المنحول لحسان ابن هشام صاحب السيرة النبوية فانه اختصر سيرته من سيرة ابن اسحق وكان هذا ضعيف النقد للشعر فدس عليه أهل المدينة شيئا ونسبوه إلى حسان . فكان ابن هشام إذا أورد شيئا منه نبه على أنه منحول فيقول مرة (وأهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان) أو يقول (وتروى هذه الأبيات لفلان) وهكذا .

الشرّ ويشتدّ ، فإذا دخل فى الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

وقال أبو الفرج الأصبهانى : حسان فحل من فحول الشعراء ، وقال النابغة الذبيانى لحسّان يومًا : إنك لشاعر .

وشهد الأعشى له (وكان صديقه) بالشاعرية ، وقال الحطيئة حين احتضر : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حين يقول :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ   لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

ومن حكم حسان على نفسه أنه قيل له : لانَ شعرك أو هرم فى الإسلام ؟ فقال للقائل : يابن أخى ، إن الإسلام يحجز عن الكذب .

ووقف الحطيئة على حسان وهو ينشد شعراً ، فقال له حسان وهو لا يعرفه : كيف تسمع يا أعرابى ، فقال : ما أرى بأساً ، فقال حسان : اسمعوا لقول الأعرابى ! ! ما كنيتك ؟ قال أبو مُلَيكة ، قال : ما كنت قطّ أهون علىّ منك حين تكنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . قال : فامض بسلام .

مختار قوله :

أنشد حسانُ عَمْرَو بن الحرِثِ بحضرة النابغة وعَلْقَمة بن عَبَدة :

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ   بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضَيْعِ فَحَوْمَلِ

فَالْمَرْجِ مَرْجِ الصُّفَّرَيْنِ فَجَاسِمٍ   فديار سَلْمى دُرَّساً لم تُحْلَلِ

دِمَنٌ تَعَاقَبَهَا الرِّيَاحُ دَوَارِسٌ   وَالْمُدْجِنَاتُ مِنَ السِّمَاكِ الأعزلِ[1]

دارٌ لقومٍ قد أراهم مَرَّةً   فوقَ الأَعِزَّةِ عِزُّهُمْ لم يُنْقَلِ

---

(١) المدجنات : الغيوم المطرة . السماك فى السماء سماكان أحدهما أعزل والثانى رامح ، وسمى الرامح رامحا لأن له شعاعا مستطيلا منه كالرمح . أما الأعزل فلا شعاع له . ومن فى قوله المدجنات من السماك للسببية : أى ممطرات بسبب السماك لأن سقوطه أو طلوعه كان عندهم سبب المطر .

لِلّهِ دَرُّ عِصَـابَةٍ نَادَمْتُهُمْ ... يَوْماً بِجِلِّقَ فى الزمان الأَوَّلِ (١)
يَمْشُونَ فى الحُلَلِ المُضَاعَفِ نَسْجُها ... مَشْىَ الجِمَالِ إلى الجِمَالِ البُزَّلِ (٢)
الضارِبُونَ الـكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ... ضَرْباً يَطِيحُ لَهُ بَنَانُ المَفْصِلِ (٣)
وَالْخالِطُونَ فَقِـيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ ... والمُنْعِمُونَ عَلَى الضَّعِيفِ المُرْمِلِ
أَوْلَادُ جَفْنَـةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمُ ... قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ المُفْضِلِ (٤)
يُغْشَـوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّـوَادِ المُقْبِلِ (٥)
يَسْـقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (٦)
بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ ... شُمُّ الْأُنُوفِ مِنَ الطِّرَازِ الْأَوَّلِ (٧)
فَلَبِثْتُ أَزْمَاناً طِـوَالاً فِيهِمُ ... ثُمَّ ادَّكَرْتُ كَأَنَّنِى لَمْ أَفْعَلِ
أَوَمَا تَرَىْ رَأْسِى تَغَـيَّرَ لَوْنُهُ ... شَمَطاً فَأَصْبَحَ كَالثَّغَامِ المُخْوِلِ (٨)
وَلَقَدْ يَرَانِى مُوْعِدِىَّ كَأَنَّنِى ... فِى قَصْرِ دُومَةَ أَوْ سَوَاءِ الْهَيْكَلِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِى حَانُوتِهَا ... صَهْبَاءَ صَافِيَةً كَطَعْمِ الْفُلْفُلِ (٩)
يَسْـعَى عَلَىَّ بِكَأْسِهَا مُتَنَطِّفٌ ... فَيُعِلُّنِى مِنْهَا وَلَوْ لَمْ أُنْهَلِ (١٠)

---

(١) جلق : دمشق .
(٢) البزل : جمع بازل ، وهو الجمل بلغ تسع سنين .
(٣) الـكبش : سيد القوم . البيض : الخوذة . يطيح : ينفصل بعيدا .
(٤) حول قبر أبيهم ، كناية عن الاستقرار وأنهم دائمو الخصب لا يرتحلون .
(٥) هرير الـكلب : صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد . والمراد هنا مطلق الصوت .
(٦) البريص : فرع من بردى . يصفق : يخلط . الرحيق : الخمر البيضاء .
(٧) الطراز : كلمة فارسية الأصل ، معناها التقدير المستوى . والمعنى هنا من الشكول الجيدة . وشمم الأنف كناية عن السيادة ، إذ كانت الأمة العربية مكونة من صنفين : عبيد وأسياد وميزة العبيد فطس الأنوف وميزة الأحرار شممها .
(٨) وفى رواية: أما ترى، ويرد على الأولى حذف النون من ترى بلا موجب ويرد على الثانية عدم توكيد الفعل مع قرب تأكيده هنا من الوجوب .
(٩) الحانوت : دكان الخمار . صهباء : متخذة من عنب أبيض . كطعم الفلفل : لاذعة .
(١٠) متنطف : لابس النطفة (كهمزة) وهى القرط . النهل : الشرب الأول أو العطش

إن التى نَاوَلْتَنِى فَرَدَدْتَها ... قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِها لم تُقْتَلِ(١)

كلتاهما حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِى ... بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُما لِلمَفْصِلِ(٢)

ولقد تُقَلِّدُنَا العشِيرَةُ أمرها ... وَنَسُودُ يوْمَ النائباتِ وَنَعْتَلِى

وَيَسُودُ سَيِّدُنَا جَحَاجِحَ سَادَةً ... وَيُصِيبُ قَائِلُنَا سَوَاءَ المَفْصِلِ(٣)

وَنُحَاوِلُ الأَمْرَ المُهِمَّ خِطَابَةً ... فِيهِمْ وَنَفْصِلُ كُلَّ أَمْرٍ مُعْضِلِ

وَتَزُورُ أَبْوَابَ المُلُوكِ رِكَابُنَا ... وَمَتَى نُحَكَّمْ فى البَرِيَّةِ نَعْدِلِ

وفد على رسول الله وفد بنى تميم سنة الوفود بعد فتح مكة ودخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله من وراء الحجرات ، فتأذى رسول الله ، ثم خرج إليهم ، فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عُطارد بن حاجب ابن زُرارة ، فأمر رسول الله ثابت بن قيس ، فردّ عليه ، ثم قام الزِّبْرِقان بن بَدْرٍ شاعرهم فقال :

نَحْنُ الكِرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا المُلُوكُ وَفِينَا يُقْسَمُ الرُّبُعُ

وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ القَحْطِ مُطْعَمَنَا ... مِنَ الشِّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ القَزَعُ

ثُمَّ تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَاتُهُمُ ... مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا ثُمَّ نَصْطَنِعُ

وكان حسان غائباً ، فأرسل إليه رسول الله فحضر ، فلما فرغ الزِّبْرِقانُ أمر رسول الله حسان بالرّدّ عليه ، فارتجل حسان :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ(٤)

والمراد هنا الثانى: أى يسقينى منها ولو لم أكن عطشان. علّ (كضرب ونصر) لازم ومتعد بمعنى شرب بعد شرب ، أو سقاه مرة بعد مرة .

(١) قتلت : مزجت بالماء فذهبت سورتها .

(٢) كلاهما : كلا الماء والخمر . والمعنى فى البيت أن الماء والخمر ناتجان عن عصر شىء فالماء عن عصر السحاب والخمر عن عصر العنب .

(٣) جحاجح : جمع جحجح ، وهو السيد . سواء الشىء : وسطه .

(٤) الذوائب : جمع ذؤابة وهى أعلى الشىء . فهر : أصل قريش وهو فهر بن غالب .

يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ … تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِى شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ … أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِى أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا (١)
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ … إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدَعُ (٢)
لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ … عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
إِنْ كَانَ فِى النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ … فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
وَلَا يَضِنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمُ … وَلَا يُصِيبُهُمُ فِى مَطْمَعٍ طَبَعُ (٣)
لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمُ … فِى فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسَعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِى الْحَىِّ عِفَّتُهُمْ … لَا يَطْمَعُونَ وَلَا يُزْرِى بِهِمْ طَمَعُ (٤)
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كَرَامَتَهُ … وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا (٥)
أَعْطَوْا نَبِىَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَتَهُمْ … فَمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
إِنْ قَالَ سِيرُوا أَجَدُّوا السَّيْرَ جُهْدَهُمُ … أَوْ قَالَ عُوجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا (٦)
مَا زَالَ سَيْرُهُمُ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهُمْ … أَهْلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُمْ بِيَعُ (٧)
خُذْ مِنْهُمُ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا … وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرُ الَّذِى مَنَعُوا
فَإِنَّ فِى حَرْبِهِمْ فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ … شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلَعُ (٨)

---

(١) أشياع : جمع شيعة ، وهى للواحد والجمع ، تقول فلان شيعة علىّ وهؤلاء من شيعته .
(٢) الخلائق : جمع خليقة ، وهى الطبع .
(٣) الطبع : الدنس والعيب وكل شين فى دين أو دنيا . وفى الحديث « نعوذ بالله من طمع يهدى إلى طبع » .
(٤) أعفة : جمع عفيف . أزرى به كذا : عابه وألحق به النقص .
(٥) نالوا كرامته : مقلوب عن نال كرامتهم وهذا مايؤيده ويدل عليه السياق . جاهد : مجتهد جدعوا : قطعوا .
(٦) ربع بالمكان : أقام به .
(٧) استقاد (مطاوع قاد) بمعنى ذل وخضع . البيع : جمع بيعة (كشيم جمع شيمة) وهى متعبد النصارى .
(٨) الصاب والسلع : شجران مران .

لا فخرَ إنْ هُمْ أصابوا مِنْ عدوِّهِمُ ... وَإنْ أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا جُزُعُ (١)
كأَنَّهُمْ فِي الوَغَى وَالموتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِبِيشَـةَ فِي أَرْسَاغِهَا فَدَعُ (٢)
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَرَّقَتِ الأَهْوَاءُ وَالشِّيَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدَحِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فِيمَا أَرَادَ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمُ ... إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٣)

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس (أحد رجال الوفد) : والله إن هذا الرجل (يريد محمداً) لَمُؤَتًّى (٤) له ، لَخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولَشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ، فأحسن جوازهم .

ومن قصيدة له أوّلها في الجاهلية وآخرها في الإسلام ، يصف في أولها الخمر ، ويهجو في آخرها أبا سفيان (٥) :

عَفَتْ ذَاتُ الأَصَابِعِ فَالجِوَاءُ ... إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ (٦)
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ (٧)

---

(١) خور : جمع خوّار على غير قياس لأن قياسه أن يكون جمع أخور . وجزع : جمع جزوع .
(٢) مكتنع : قريب دان . بيشة : من أعمال مكة مما يلي اليمن على خمس مراحل منها . وفي وادي بيشة شجر كثير الأسود . الفدع : عوج المفاصل .
(٣) شمعوا : لم يجدوا . والشمع : الطرب والضحك والمزح ، والفعل كمنع .
(٤) فلان مؤتى له : سهل الأمر ، من أتيت الماء : إذا سهلت سبيله .
(٥) وردت هذه القصيدة في سيرة ابن هشام بعنوان أنها قيلت في فتح مكة ، والظاهر أنها قيلت في هذا الشأن قبل حصول الفتح ، بدليل أنها ليس فيها إشارة إلى ماجرى في الفتح ، بل فيها التوعد بدخول مكة عنوة ، وفيها سب لأبي سفيان وكان قد أسلم بعد الفتح فلا داعي لسبه ، وبدليل أن النبي لما رأى النساء يلطمن الخيل قال لأبي بكر ماذا قال حسان؟ يريد قوله في القصيدة :
يظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء .
(٦) ذات الأصابع ، والجواء ، وعذراء : مواضع . ومنزلها ، أي منازلها ، لأن المفرد المضاف يعم .
(٧) الحسحاس : قوم من بني النجار . تعفيها : تمحو آثارها . الرواسم : الرياح التي ترمس الآثار (تسترها) . السماء هنا : المطر .

وكانت لا يَزَالُ بها أَنِيسٌ … خِـــلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ(١)
فدَعْ هذا ولكنْ مِنْ لِطَيْفٍ … يُؤَرِّقُنِي إذا ذَهَبَ العِشَاءُ
لشَـــعْثَاءَ التى قَدْ تَيَّمَتْهُ … فليس لقَلْبِهِ منها شِـــفَاءُ(٢)
كأنّ سَبِيئَةً من بيت رَأْسٍ … يكون مزاجَهَا عسلٌ وماءُ(٣)
إذا ما الأَشْرِباتُ ذُكِرْنَ يومًا … فهنّ لِطَيِّبِ الراحِ الفِدَاءُ
نُوَلِّيها الملامـــةَ إنْ أَلَمْنَا … إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحَاءُ(٤)
ونشربها فتتركُنَا مـــلوكا … وأُسْـــدًا ما يُنَهْنِهُنَا اللقاءُ(٥)

⁂

عَـــدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لم تَرَوْهَا … تُثِيرُ النَّقْعَ موعدُها كَدَاءُ(٦)
يُنَازِعْنَ الأَسِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ … على أكتافها الأَسَـــلُ الظِّمَاءُ(٧)
يَظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّـــرَاتٍ … تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ(٨)
فإمّا تُعْرِضُـــوا عنّا اعتمرنا … وكان الفتحُ وانكشفَ الغِطاءُ

---

(١) شاء : جمع شاة ، وهى للمذكر والمؤنث من الغنم ، أو منها ومن المعزى وغيرها ، وأصل شاه شاه قلبت الهاء همزة .

(٢) شعثاء : اسم امرأة وكانت احدى زوجات حسان ، وقد قيل إنه لم يعشق كغيره من الشعراء وإنما كان يذكر نساءه فى شعره ، وفى البيت التفات لقوله تيمته بعد قوله فى البيت قبله يؤرقنى .

(٣) السبيئة : الخمر المشتراة . بيت رأس : موضع بالشام مشهور بالخمر ، إذا رفع مزاج مع رفع عسل تكون الجملة خبر يكون واسمها ضمير الشان ، وإذا نصب يكون ذلك ضرورة .

(٤) ألام الرجل : فعل ما يلام عليه فهو مليم بمعنى ملوم . المغث : القتال والشر . اللحاء والملاحاة : المعارضة باللسان .

(٥) ينهنهها : يردها .

(٦) كداء : الثنية العليا بمكة ، وهى التى دخل منها النبيّ فاتحا .

(٧) معنى منازعة الخيل للأسنة : أن الفارس يضجع رمحه فتكون شباته بسماة رأس الفرس فيجرى محاولا سبق الرمح . الأسل : جمع أسلة وهى الرمح . الظماء جمع أظمى : أى أسمر ، يقال رمح أظمى ، وشفة ظمياء : أى سمراء .

(٨) تمطر الفرس : أسرع . تلطمهن النساء بالخمر : أى ينفضن ما عليها من الغبار بضربها بالخمر .

وَإلاّ فاصبِرُوا لِجَلادِ يوم ... يُعِينُ اللهُ فيه من يَشاء
وقال اللهُ قدْ يسَّرْتُ جنداً ... هُمُ الأنْصارُ عُرْضَتُها اللِّقاء[١]
لنَا فى كلّ يوم من مَعَدٍّ ... سِبابٌ أو قِتالٌ أو هِجاء
فَنُحْكِمُ بالقوافِي مَنْ هجانا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّماء[٢]
وَقَالَ اللهُ قَدْ أرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الْحَقَّ إنْ نَفعَ البَلاء
شَهِدْتُ بِهِ وَقَوْمِي صَدَّقُوهُ ... فَقُلْتُمْ مَا نُجِيبُ وَمَا نَشَاء
وجبريلٌ أمينُ اللهِ فينا ... وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ له كِفاء
ألا أبلغْ أبا سُفيانَ عَنّى ... مُغَلْغَلَةً فقد بَرِحَ الْخَفاء
بِأنَّ سُيُوفَنا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وَعَبْدُ الدَّارِ سادَتُها الإمَاء[٣]
هَجَوْتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند اللهِ فى ذاكَ الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكُفْء ... فشرُّ كما لِخَيْرِكما الفِداء[٤]
هجوتَ محمداً بَرًّا حنيفاً ... أمينَ اللهِ شِيمتُه الوَفاء
أمَنْ يهْجُو رسولَ اللهِ منكم ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَواء[٥]

---

(١) يقال فلان عرضة حرب : أى يتعرض له كثيرا فهو عرضة الحرب ، والحرب عرضته كلاهما عرضة للآخر .

(٢) نحكم : نمنع ونرد .

(٣) عبد الدار : بطن من قريش كانت لهم السقاية واللواء والحجابة والرفادة . وفى غزوة أحد قال لهم أبو سفيان إنكم ضيعتم اللواء يوم بدر فادفعوه إلينا فغضبوا وإنما أراد أن يحملهم على الصبر، وكان قد أخذه منهم طلحة بن أبى طلحة فقتله علىّ ثم أخذه عثمان ابنه فقتله حمزة ثم سعيد بن أبى طلحة فقتله سعد بن أبى وقاص ومازال اللواء يتنقل حتى أخذه عبد لهم يسمى صوابا فقتل فأخذته امرأته . فهذا ما أشار اليه حسان فى قوله « سادتها الاماء » ويصح أن تقرأ سادتها فعلا فتكون تاؤها ساكنة ، أواسما فتكون التاء مضمومة والوزن يجيز الأمرين .

(٤) لما أنشد حسان البيت قال الحاضرون: هذا أنصف بيت قالته العرب . وأنت تعلم أنه احتذاء لقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

(٥) العطف فى قوله ويمدحه على تقدير من: أى ومن يمدحه لأن المادح غير الهاجى .

فإنّ أبى ووالدَه وعِرْضى ... لِعرْضِ محمّدٍ منكم وِقَاءُ[1]
لِسانى صارمٌ لا عيبَ فيه ... وبَحْرِى ما تُكَدِّرُه الدِّلاءُ[2]

وقال يذكر يوم أُحُد ويفخر بنصر قومه لرسول الله :

وقد ضَارَبَتْ فيه بنو الأوْس كلُّهم ... وكان لهم ذِكْرٌ هناك رَفِيعُ
وحامَى بنو النجار فيه وضارَبُوا ... وما كان منهم فى اللقاء جَزُوعُ
أمامَ رسولِ الله لا يَخْذُلونه ... لهمْ ناصرٌ من ربهمْ وشفيع
وَفَوْا إذا كفرتم يا سَخِينُ بربكم ... ولا يستوى عبدٌ عَصَى ومُطيع[3]
بأيمانهم بِيضٌ إذا حَمِىَ الوَغَى ... فلا بُدَّ أن يُرْدَى بهن صريع
أولئك قَوْمِى سادةٌ من فروعهم ... ومِنْ كلِّ قومٍ سادةٌ وفروع
فإنْ تذكروا قَتْلَى وحَمْزَةُ فيهم ... قتيلٌ ثوى لله وهو مطيع
فإنَّ جِنانَ الخُلْدِ يُنْزِلُهُ بها ... وأمرُ الذى يَقضِى الأمورَ سَرِيعُ
وقتلاكمو فى النار أفضل رِزْقِهِمْ ... حميم معاً فى جوفها وضَرِيعُ[4]

⁂

اتصل عطاء آل جَفْنة بحسان حتى بعد أن أسلم وتنصروا . فقد أرسل إليه جَبَلة

---

(١) العرض هنا: بمعنى النفس .

(٢) الدلاء : جمع دلو ، والمعنى أن بحره واسع كثير الماء بعيد الغور ، يريد أنه كثير الشعر فصيح اللسان .

(٣) سخين: كناية عن قريش لأنها كانت تكثر من أكل السخينة فعيرت بها ، وقد مازح معاوية الأحنف بن قيس، فقال له: ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ قال السخينة يا أمير المؤمنين . أشار معاوية إلى وطب اللبن يلف فى الصوف وكانت تميم (قوم الأحنف) تعير بحب الأكل قال الشاعر :

إذا ما مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجئ بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن ... أو الشيء الملفف فى البجاد

(٤) الحميم : الماء الحار . الضريع : طعام أهل النار ، وقيل ان هذه الكلمة لم يكن العرب يعرفونها قبل القرآن .

ابن الأيهم بعد أن ارتدّ عن الإسلام ، ولحق بهرقل قيصر الروم خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج ، فلما صارت الهدية إلى حسان قال :

إنّ ابنَ جفنة من بَقيّةِ مَعْشَر — لم يَغْذُهُمْ آباؤهم باللُّومِ
لم يَنْسَنِي بالشّامِ إذْ هُوَ رَبُّها — كلّا ولا مُتَنَصِّراً بالرُّومِ
يُعْطِي الجزيل ولا يَراهُ عنده — إلا كبعض عطيّة المَذْمُومِ
وَأتيتُه يومًا فقرّبَ مَجْلِسِي — وَسَقَى فروّاني من الخُرْطُومِ (١)

وقال يرثى رسول الله :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لا تَنَامُ كأنّما — كَحِلَتْ مآقيها بِكُحْلِ الأَرْمَدِ
جَزَعًا على المَهْديّ أصْبَحَ ثاويًا — ياخيرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَى لاتَبْعَدِ
وجهى يَقِيكَ التّرْبَ لَهْفِى لَيْتَنِي — غُيِّبْتُ قبلك فى بقيع الغَرْقَدِ (٢)
بأبِي وأمّي من شَهِدْتُ وَفَاتَه — فى يوم الاثنين النبيّ المهتدى
فَظَلِلْتُ بعد وفاته مُتَبَلِّدًا — مُتَلَدِّدًا يا ليتنى لم أُولَدِ (٣)

موازنات بين أقوال حسان وغيره من الشعراء

يقول حسان :

إذا انصرفتْ نفسى عن الشرّ لَمْ تَكَدْ — إليه بوجهٍ آخرَ الدهر تُقْبِلُ

ويقول معن بن أوس البيت بألفاظه ، ولكنه يجعل كلمة الشىء بدل الشرّ . ولاتحاد

(١) الخرطوم : الخمر .
(٢) الغرقد : مقبرة المدينة .
(٣) متبلدا : حيران . متلددا : كثير التلفت .

البيتين فى جميع لفظهما لم تبق موازنة إلا بين كلمتى شرّ وشىء ، ونرى أن بيت حسان صار بكلمة الشرّ أحكم وأليق بارعواء المسلم وتقواه . أما بيت معن ، فقد صيرته كلمة « الشىء » جاهلياً ينبئ عن ركوب الرأس ، والتمادى فى العناد ، واطراح التعقل .

ويقول حسان :

لو يَدِبُّ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرْ ... رِ عليها لأَنْدَبَتْها الكُلُومُ

ويقول أمرؤ القيس :

من القاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْدَبَّ مُحْوِلٌ ... من الذَّرِّ فوق الإِتْبِ منها لأَثَّرَا

وبيت حسان خير من بيت أمرئ القيس ، فإن المبالغة فيه مقبولة ، إذ جعل دبيب النمل على ظاهر الجلد ، فكان من المعقول أن يحصل التأثير ، ولكن أمرأ القيس غلا وأحال بإثبات التأثير مع صيانة الجسم بالإتب . على أن فى بيت حسان تفصيلا للتأثير بذكر إحداثه الكلوم ، وهو مجمل فى بيت أمرئ القيس ، ولا شكّ أن الوصف برقة البشرة يناسبه ذلك التفصيل .

وقال حسان :

ما إنْ مَدَحْتُ محمداً بمقالتى ... لَكِنْ مَدَحْتُ مَقالَتِى بمُحَمَّدِ

وقد سبق كلّ الشعراء إلى هذا المعنى ، ولم يأت بعده من زاد فيه ، بل لا يزال بيت حسان خيراً فيما نعلم من كلّ بيت سرق منه .

فهذا المتنبى يقول :

الطِّيبُ أنتَ إذَا أصابَكَ طِيبُهُ ... والماءُ أنت إذا اغتسلت الغاسلُ

ولا شكّ أن اللفظ فى بيت حسان قد حاز الفضيلة لأنه قد تيسر له من غير تكلف ذلك النوع البديعى المسمى بالعكس .

وكذلك قد سرقه أبو تمام فى قوله :

وَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً لشعرى ... ولكنّى مدحتُ بك المديحا

وهو يحاول تحقيق العكس ، فيأبى عليه اللفظ ، إذ جعله كلمة « المديحا » بدل الشعر منع من ذلك .

ولقد ذكروا أن حسان لما أنشد النابغة بسوق عكاظ ، ففضل عليه النابغة الخنساء غضب وقال :

أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك ، قال النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فى الضُّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا
وَلَدْنَا بنى العَنْقاء وَابْنَىْ مُحَرِّق فَأَكْرِمْ بنا خالاً وأَكْرِمْ بنا ابْنَمَا

قال النابغة : لقد قللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . وقالت الخنساء : تقول ، يلمعن بالضحى ، وكان حقه بالدجى ، ليكون أكثر طراقا ، وقلت الغرّ ، وكان حقه البيض ، و يقطرن ، وكان الأجمل يسلن أو يفضن . . و بعض هـذه المآخذ حسن مقبول ، ولكن منها المتكلف الذى يصحّ أن يكون مدسوساً على هؤلاء العرب الأقحاح الذين لا يعرفون هـذه المناقشات اللفظية التى لا تدلّ كثرتها إلا على فساد الذوق . وأرى أن كلمة يقطرن لا غبار عليها ، وليس الفيضان ولا السيولة بأبلغ فى الدلالة على الشجاعة ، لأن السيف مهما كثر القتل به ، فإنه لا يزيد على أن يقطر الدم .

وقد روى بعض الكتب هذه القصة بزيادات لا شكّ أنها مدسوسة ، كقولهم : إن الخنساء عابت كلمة نجدة ودما ، وقالت : لو قال نجدات ودماء لكان أبلغ ، وهو قول ظاهر الفساد ، فإن نجدة مصدر ، والدم اسم جنس ، وهما يدلان على الكثير والقليل سواء .

هـذا وديوان حسان رضى الله عنه مطبوع فى مصر وغيرها ، ومشروح بعدّة شروح ، ونرى أن أليقها وأقربها إلى الصحة والضبط، شرح الأستاذ الجليل عبد الرحمن البرقوقى ذى الآثار الأدبية الكثيرة .

الحطيئــــة

نشأ الحطيئة لا يعرف له نسباً صريحاً ينتمى إليه ، وكان كلما سأل أمه عن نسبه خلطت عليه القول وموّهت ، فحقد عليها من أجل ذلك كما حقد على أبيه ، لأنه يعرف أن صراحة النسب فى العرب شرف لا يعدله شرف . ولكنه لم يستطع مداراة هذه الفضيحة البادية ، فكان يصرّح بقوله : أنا موضوع النسب . سأل أمه مرة عن أبيه ، فخلطت عليه ، وكان اسمها الضراء ، فقال :

تقولُ لِىَ الضرّاء لَسْتَ لواحدٍ ولا اثنين فانظُرْ كيف شِرْكُ أولئكا
وأنت امرؤ تبغِى أبًا قد ضَلَلْتَهُ هَبِلْتَ أَلَمَّا تستفقْ من ضلالكا[1]

والذى عرف من نسبه أن أمه كانت أمة لأوس بن مالك الذى ينتهى إلى عبس ، وكان أوس متزوّجا بنت رياح بن عوف بن الحارث ، وتنتهى إلى ذهل ، وكان لبنت رِياح أخ يقال له الأفقم . فيقال : إن أوسا أعلق جاريته الضراء بالحطيئة ، فلما ولدته جاء شبيها بالأفقم ، وسألتها مولاتها : من أبو هذا الصبى ؟ فقالت لها : هو من أخيك ، وهابت أن تقول لها : من زوجك . فلما شبهت الصبىّ بأخيها قالت لها : صدقت ، فلما مات أوس ترك بنين من الحرة ، وتزوّج الضرّاء رجل من عبس ، فولدت رجلين ، فكانا أخوى الحطيئة من أمه ، وقد أعتقت بنت رياح أم الحطيئة ، فلما صارت حرّة

---

(١) يقال هبلته أمه : أى ثكلته ، والقياس أن يقال فى الدعاء هبلت (بالبناء للمجهول) لأنه إنما يدعو عليه أن تثكله أمه ولكن صاحب لسان العرب نقل عن ابن الأعرابى أنه يقال فى الدعاء هبلت (بالبناء للفاعل) .

اعترفت أنها اعتلقت بالحطيئة من أوس . . وإنما ذكرنا هـــذا لنريك كيف أن الحطيئة اتخذ من هذا التاريخ وسيلة لإشباع طمعه ، وإرضاء نفسه الحريصة على المال فإنه قام يطالب بميراثه من نواح كثيرة : طالب ابنى أوس بنصيبه مما خلفه أوس ، فامتنعا وقالا : أقم معنا ونواسيك ، فلم يرض حكمهما ، وقال يهجوهما :

أَأَمَرْتُمانِى أَنْ أُقِيمَ عَلَيْكُمَا كَلاَّ لَعَمْرُ أَبِيكُمَا الحَبَّاقِ (١)
عَبْدَانِ خَيْرُهما يُشَــلُّ بِضَبْعِهِ شَلَّ الأَجِيرِ قَلاَئِصَ الوَرَّاقِ (٢)

ثم لحق بإخوته من الأفقم وسألهم ميراثه ، وتملقهم أولا بالمدح ، فقال :

إِنَّ اليَمامَةَ خَــيْرُ ساكِنِهَا أَهْلُ القُرَيَّةِ مِنْ بَنِى ذُهْلِ (٣)
الضَّامِنُونَ لِمالِ جارهِم حتى يَتِمَّ نواهضُ الْبَقْلِ (٤)
قومٌ إذا انْتَســبُوا ففَرْعُهُمُ فَرْعِى وأَثْبَتُ أصلِهِمْ أَصْــلِى

فأعطوه نخلات سميت بعدُ نخلاتِ أم مُلَيْكَة ، وهى أُمامَةُ امرأة الحطيئة . ثم لم تقنعه النخيلات ، وقد قام فيهم زمانا ، فسألهم ميراثه فلم يعطوه ، وضربوه فقال :

تَمَنَّيْتُ بكراً أن يكونوا عِمارَتِى وَقَومى وبَكْرٌ شرُّ تلكَ القبائِلِ (٥)
إِذَا قلتُ بَكْرِىَ نَبَوْتُمْ بِحَاجَتِى فياليتنى مِنْ غيرِ بَكْرِ بنِ وائِلِ (٦)

وغاضبهم فعاد إلى بنى عبس وانتسب إلى أوس بن مالك .

---

(١) الحباق : الكثير إخراج الريح .
(٢) يشل : يطرد . الضبع : وسط العضد . الوراق : صاحب الورق ، وهو المال : من ابل ودراهم وغيرها .
(٣) القرية : موضع باليمامة مساكن بنى ذهل .
(٤) نهض البقل : استوى على سوقه، يقول: إذا أجدب الناس ضمن هؤلاء المدوحون لجارهم وضيفهم ماله ، لايعتدى عليه ، ولا يهلكه الجدب حتى يعود الخصب .
(٥) العمارة : أصغر من القبيلة .
(٦) نبوتم : تباعدتم .

ذلك هو الحطيئة الذى كان متدافعاً فيه بين قبائل العرب، يأوى إلى هذه إذا غضب على تلك ، ويصحح نسبه من واحدة إذا عتب على الأخرى .

***

اجتمع على الحطيئة اختلاط النسب ، (وهى شنعة ما بعدها شنعة) ، وقبح الخلقة إذ كان قصيراً ، (وقيل إنه سمى الحطيئة : لقصره) قريباً من الأرض دميما ، صغير العينين مضغوط اللَّحيين : وانضمّ إلى ذلك حرص منه على المال ، وشدّة نهم إليه ، حتى كان أحد بخلاء العرب المشهورين ، وهم فيما عدوا أربعة : الحطيئة ، وحميدٌ الأرْقَط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صَفْوان . كان الحطيئة يطرد أضيافه ، فقد مرّ به رجل ، وهو فى غنم له ، فقال الرجل : يا صاحب الغنم ، فرفع الحطيئة العصا وقال: إنها عَجْراء[1] من سَلَم ، فقال : الرجل إنى ضيف ، فقال للضيفان أعددتها . وقيل مرّ به ابن الحمامة ، وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السلام عليكم ، فقال : قلت مالا ينكر ، فقال : إنى خرجت من أهلى بغير زاد . قال ما ضمنت لأهلك قراك . قال أفتأذن لى أن آتى ظلّ بيتك أتفيأ به ؟ قال : دونك الجبلَ يَفِيء[2] عليك . قال : أنا ابن الحمامة . قال انصرف وكن ابن أىّ طائر شئت .

ونستطيع أن نفسر بهذه الصفات التى قدّمناها بين يديك كثرة تعرضه للطلب من الناس ، وكثرة جشعه ، وقلة اقتناعه بما يصل إليه منهم ولجوءه إلى الهجاء من أجل منعهم أو اعطائهم المصرّد ، فقد ذكروا أنه قدم المدينة والناس فى سنة مجدبة ، وفى غضبة من خليفة، فمشى أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض وقالوا : قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتى الرجل من أشرافكم فيسأله ، فإن أعطاه جَهَد نفسه بَهْرَها ، وإن حرمه هجاه ، فأجمع رأيُهُم على أن يجعلوا شيئاً معدًّا يجمعونه بينهم ، فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون العشرة والعشرين

---

(١) ذات عقد . (٢) يظل .

والثلاثين ديناراً، حتى جمعوا له أربعمائة ديناراً، وظنوا أنهم قد أغنوه ، فأتوه فقالوا : هذه صلة بنى فلان ، وهـــذه صلة بنى فلان . . فأخذ جميع ذلك ، ثم إذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام ماثلا ينادى : من يحملنى على بغلين وقاه الله كبّة جهنم .

وفى أخباره : أنه مضى إلى عُتيبة بن النّهّاس ، فسأله فقال له : ما أنا على عمل فأعطيك ، ولا فى مالى فضل عن قومى ، فقال له : لا عليك ، وانصرف ، ثم لام عتيبة قومُه ، وقالوا : هذا الحطيئة ، وهو لابدّ هاجينا أخبث هجاء ، فقال : ردّوه ، ثم أرسل معه وكيله إلى السوق ، وقال له : لا يطلب شيئاً إلا اشتريته له ففعل حتى قضى أربه ومضى ، وفيما عتيبة جالس فى نادى قومه إذ أقبل الحطيئة ، فلما رآه عتيبة قال : هذا مقام العائذ بك يا أبا مُليكة من خيرك وشرّك ، فقال : إنى قد كنت قلت بيتين فاسمعهما ثم أنشأ يقول :

سُئِلْتَ فَلَمْ تَبْخَلْ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلاً ... فَسِـــيَّانِ لاذمٌ عليكَ ولا حَمْدُ
وأنتَ امرؤٌ لا الجودُ منكَ سجيَّةٌ ... فتُعْطى ولا يُعْدِى على النائل الوُجْدُ[1]

ثم ركض فرسه وذهب .

وحديثه مع الزبرقان بن بدر يدلّ على الشره وقلة الوفاء ، فأما الشره فلأنه تعجل عطاء بَغِيض ولم ينتظر الزبرقان حتى يعود إليه كما وعده ، وأما غدره فلأنه ترك جوار الزبرقان من غير إساءة لحقته من الرجل ، ولم يكتف بذلك بل هجاه من غير أن يكون منه إليه منع ، ولكنها النفس الشريرة كالنار تكمن فى الحطب فيؤججها عود ثقاب ، وإليك قصته مع الزبرقان ترى فيها نفس الحطيئة ودناءته وشدّة جشعه .

قدم الزبرقان على عمر ليؤدّى صدقات قومه ، فلقيه الحطيئة بقَرْقَرَى[2] ، وهى أرض باليمامة ، وكان مع الحطيئة ابناه أوس وسَوْدة و بناته وامرأته ، فقال له الزبرقان :

---

(١) أعداه على الأمر : ساعده عليه . الوجد : الغنى ، ومعنى لا يعدى على النائل الوجد ، ليس الغنى هو الذى يعين المرء على العطاء ، بل لا بد له من أن يكون الكرم طبعا فيه حتى يعطى .

(٢) أرض باليمامة فيها قرى ومزارع ونخيل .

وقد عرفه ، ولم يعرفه الحطيئة : أين تريد ؟ قال العراق ، فقد حطمتنا هذه السنة . قال : وما تصنع بها ؟ قال : وددت أن أصادف رجلا يكفيني مئونة عيالي وأصفيه مدحي (١) أبداً ، فقال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبناً وتمراً ، ويجاورك أحسن جوار وأكرمه ، فقال له الحطيئة : هذا وأبيك العيش قال قد أصبته عندي . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا الزبرقان بن بدر . قال : وأين محلك ؟ فدله عليه وكتب معه كتابا إلى أمه أو زوجه لتحسن إليه ، فلحق الحطيئة بمنزل الزبرقان ، ولقي الإكرام والإحسان ، وكان للزبرقان قوم ينازعونه الشرف ، وهم بغيض وإخوته ، وكانوا أشرف من الزبرقان إلا أنه استعلاهم بنفسه ، فأعملوا الحيلة ليحوّلوا الحطيئة إليهم ، ووعدوه وأطمعوه ، ودسوا إلى امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوّج ابنة الحطيئة ، وكانت جميلة كاملة ، فظهرت من المرأة جفوة ، وهي في ذلك مدارية ، وكانت الأطماع من بني أنف الناقة قد اعتلجت بنفس الحطيئة ، فلما احتاج أهل الزبرقان للنجعة ، قال لهم الحطيئة تقدموا وأنا لاحق بكم ، ثم لحق ببغيض وقومه ، فبالغوا في إكرامه وأعطوه لقاحًا وكسوة ، فلما قدم الزبرقان سأل عنه فأخبر بقصته ، فجمع قومه وركب فرسه ، وأخذ رمحه ، ووقف بنادي القوم وقال : ردّوا عليّ جاري ، فقالوا : ما هو لك بجار ، وقد تركته بمَضِيعَة ، وألمّ أن يكون بين الحيين حرب ، فحضرهم أهل الحجا من قومهم وانتهى الأمر بأن خيروا الحطيئة ، فاختار بغيضاً وقومه ، فجاءه الزبرقان ، فقال له : يا أبا مليكة أفارقت جواري عن ذمّ وسخط ؟ فقال : لا ، فتركه وانصرف .

فلو أن في نفس الحطيئة بقية من وفاء لمدح بغيضاً ، ولم يهج الزبرقان ، فقد اعترف له آنفاً بأنه لم يترك جواره عن سخط أو ذمّ ، ولكنه كان مع طمعه دنيء النفس ساقط المروءة لا يرى الغدر إلا أمرًا هيناً ، فقال يمدح بغيضاً ويهجو الزبرقان :

وَاللهِ مَا مَعْشَرٌ لَامُوا امْرَأً جُنُباً ... فِي آلِ لَأْيِ بْنِ شَمَّاسٍ بِأَكْيَاسِ

---

(١) أجعله خالصا له .

ما كان ذنبُ بغيضٍ لا أبا لـكُمُ ... فى بائسٍ جاء يحدو آخرَ الناسِ
لقد مَرَيْتُكُمو لو أنَّ دِرَّتَكُمْ ... يوما يجيء بها مَسْحِى وإبْسَاسِى (١)
وقد مَدَحْتُكُمو عَمْدًا لأُرْشِدَكُمْ ... كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ مَتْحِى وإمْرَاسِى (٢)
لَمَّا بَدَا لِىَ مِنْكُمْ عيبُ أنْفُسِكُمْ ... ولم يكنْ لِجِراحِى مِنْكُمُ آسِى
أزْمَعْتُ يأسا مُبِيناً من نَوالِكُمُ ... ولا يُرَى طارِدًا لِلْحُرِّ كاليَاسِ
جارٌ لقومٍ أطالوا هُونَ مَنْزِلِهِ ... وغادَرُوهُ مُقِيمًا بين أرْمَاسِ (٣)
مَلُّوا قِرَاهُ وهَرَّتْهُ كلابُهم ... وجَرَّحُوه بأنْيابٍ وأضْرَاسِ
دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِى (٤)
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ
ما كان ذَنْبِىَ أنْ فَلَّتْ مَعاوِلَكُمْ ... مِنْ آلِ لَأْىٍ صَفَاةٌ أَصْلُهَا رَاسِى
قَدْ نَاضَلُوكَ فَسَلُّوا مِنْ كِنَانَتِهِمْ ... مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبْلاً غَيْرَ أَنْكَاسِ (٥)

وكان منذ إقامته فيهم لا يزال يمدحهم ، وهو القائل فيهم :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

---

(١) مرى الناقة يمريها: مسح ضرعها. الدرة : اللبن . المسح : إمرار اليد على الضرع. الإبساس : التلطف للناقة بأن يقال لها بس بس لتسكن وبدرّ لبنها .

(٢) المتح : نزع الماء من البئر . أمرس الحبل : أعاده إلى مجراه بعد أن يكون قد نشب بين البكرة والعقو .

(٣) الهون : الذل . الأرماس : جمع رمس ، وهو القبر .

(٤) قال الفراء: إن طاعما وكاسيا فى البيت بمعنى مطعوم ومكسو . وعليه فى البيت مجاز عقلى . ولا أرى داعيا لهذا مادام فى اللغة طعم الرجل بمعنى أكل وكسى بمعنى اكتسى فيكون استعمال اسم الفاعل على أصله .

(٥) أنكاس: جمع نكس، وهو أضعف السهام، وكان العرب إذا أسروا أسيرا خيروه بين التخلية مع جز الناصية وبين الأسر ، فاذا اختار التخلية جعلوا شعره المجزوز فى كنائنهم فاذا افتخروا أخرجوه ، فهذا هو المراد بقوله « مجدا تليدا » .

فقلب اللقب من ذمّ إلى مدح ، وقد كانوا يطأطئون رءوسهم لهذه الكلمة ، فصاروا إذا سئل أحدهم عن نسبه قال : أنفيّ يملأ بها فمه .

وسبب تلقيبهم بهذا اللقب أن جدّهم قريعاً نحر ناقة ، فقسمها بين نسائه ، فبعثت جعفراً أمّه فأتى أباه ، ولم يبق إلا رأس الناقة ، فقال له شأنك بهذا ، فأدخل يده فى أنفها وجرّها منه ، فسمى أنف الناقة .

ومازال الحطيئة نازلا بالقوم حتى أحيوا ، وكانوا قد وعدوه إذا أصابهم الحيا أن يعطوه مائة من الإبل ، فجمعوها له ودفعوها إليه مع راعيين ، فرحل عنهم وقال :

لا يُبْعِدُ اللهُ إذْ وَدَّعْتُ أرضَهُمُ ... أخى بَغِيضاً ولكنْ غيرُه بَعُدَا

لا يُبْعِدُ اللهُ مَنْ يُعْطِى الجزيلَ ومَنْ ... يَحْبُو الجليلَ وما أكْدَى ولا نَكِدَا[1]

ومن تُلَاقِيهِ بالمعروفِ مُبْتَهِجًا ... إذا اجْرَهَدَّ صَفَا المذمومِ أَوْ صَلَدَا[2]

لاقَيْتَهُ ثَلِجًا تَنْدَى أنامِلُهُ ... إن يُعْطِكَ اليومَ لا يَمْنَعْكَ ذاكَ غدا[3]

إنّى لَرَافِدُهُ وُدِّى وَمَنْصَرَتِى ... وحافظٌ غَيْبَهُ إنْ غَابَ أو شَهِدَا

ويظهر أن الغدر الذى غدره الحطيئة كان لايزال يحز فى ضميره ، فإنه أتى ابن عباس ، وقد كفّ بصره والناس حوله يستمعون له ، فقال يابن عمّ رسول الله أفتنى . قال : فيم؟ قال : أتخاف علىّ جناحا ، إن ظلمنى رجل فظلمته ، وشتمنى فشتمته ، وقصر بى فقصرت به ، فقال ابن عباس : العفو خير ، ومن انتصر فلا جناح عليه ، أرأيت أمرأ أتانى فوعدنى وغرنى ومنانى ، ثم أخلفنى واستخفّ بحرمتى ، أيسعنى أن أهجوه ؟ قال لا يصلح الهجاء ، لأنه لا بدّ أن تهجو غيره من عشيرته ، فتظلم من لم يظلمك ، وتشتم من لم يشتمك ، وتبغى على من لم يبغ عليك ، والبغى مرتعه وخيم ، وفى العفو ما قد

---

(١) يحبو : يعطى . أكدى الرجل : حفر فصادف الكدية (الصخرة العظيمة) ويقال سأله فأكدى : أى وجده مثله : ويقال أكدى الرجل بمعنى بخل . نكد : منع العطاء أو أعطى قليلا

(٢) اجرهدت الأرض : لم تنبت . الصفا : جمع صفاة ، وهى الصخرة العظيمة لاتنبت . صلد : صلب

(٣) ثلجا : فرحا مبتهجا .

علمت من الفضل . قال الحطيئة : صدقت وبررت ، ثم لم يلبث الحطيئة أن عرف ، فقال له ابن عباس : أجرول ؟ قال : نعم . قال ابن عباس : لله أنت أيّ مِرْدَى قِذَافٍ[1] ، وذائد عن عشيرة ، ومثن بعارفة تؤتاها يا أبا مليكة ، والله لو كنت عَرَكْتَ بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيراً لك ، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك ، وشتمت من لم يشتمك . قال : إنى والله بهم لعالم ، ثم أنشأ يقول :

أَنَا ابْنُ بَجْدَتِهِمْ عِلْمًا وَتَجْرِبَةً ... فَسَلْ بِسَعْدٍ تَجِدْنِى أَعْلَمَ النَّاسِ[2]
سَعْدُ بن زيد كثيرٌ إِنْ عَدَدْتَهُمُ ... وَرَأْسُ سَعْدِ بنِ زَيدٍ آلُ شَمَّاسِ[3]
والزِّبْرِقَانُ ذُنَابَاهُمْ وَشَرُّهُمُ ... لَيْسَ الذُّنَابَى أَبَا العَبَّاسِ كَالرَّاسِ

فقال له ابن عباس : أقسمت عليك أبا مليكة ألا تقول إلا خيراً . قال : أفعلُ .

⁂

أما موقع قول الحطيئة من الزبرقان ، فقد كان شديداً جدًّا كان حطًّا لكرامته وسلباً لمروءته ، فهم ذلك الزبرقان من قوله : « واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى » ، عرف كما يعرف كلّ خبير بالأسلوب العربى أن مراده أنك ضعيف الهمّة ، زَمِرالمروءة[4] لا مطمع لك فى الحياة إلا أن تكون آكلا كاسياً . ذلك هو منتهى أملك ، ومرتقى سعيك ، فلست للرياسة ، ولا للدفاع من العشيرة ، فكأنه قد سلبه بهذه الكلمة جميع صفات المجد ، وحلى الشرف ، وهو خبث من الحطيئة ، ولؤم ضريبة ، ومعرفة بمواطن الإيلام من النفوس ، يأتيها من أيسر الطرق بلا جلبة ولا ضوضاء ، أتراه كيف جعل

---

(١) المردى : حجر يرمى به ، ويقال للشجاع هو مردى حرب أو مردى قذاف .

(٢) البجدة : الأصل ، وباطن الشىء ، والصحراء ، ويقال : أنا ابن بجدتها : أى العالم بها والضمير للصحراء .

(٣) الباء فى « بسعد » بمعنى عن كقوله تعالى « سأل سائل بعذاب واقع » . وسعد : هى القبيلة الكبرى التى يرجع اليها آل شماس والزبرقان .

(٤) زمر المروءة : قليلها ، ويقال فلان زمر الشعر : أى قليله ، فزمر بمعنى قليل.

هجاءه فى صورة نصح يسديه إلى هذا الذى يعنّى نفسه فى طلب المجد ، وهو غير قادر عليه ولا يملك أدواته من كرم وشجاعة وغيرهما ، فيقول له فى لهجة الناصح :

دَعِ المَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِى

ويدلك على شناعة هذا الهجاء أن عمر لما اشتكى إليه الزبرقان قال : ما أرى هجاء وهو العالم بموضع الإيذاء فى الكلام ، ولكنه يريد أن يدرأ الحدود بالشبهات ، ثم حكم الشعراء ، فكان منهم إجماع على فحش هـذا الهجاء ، فإن حسان قال : لم يهجه ولكن سلح عليه وقال لبيد : ما يسرنى أن لى حُمْرَ النَّعم ، وأنه قد قيل فىّ هذا البيت .

ولم يعرف للحطيئة موقف لم يُصِخْ فيـه إلى داعى شرهه إلا حين طلب منه هجاء أوس بن سُعْدى ، وكان النعمان قد أقدم إليه وفود العرب وقال : أُحضروا غداً فإنى ملبس أكرمكم حلة ثمينة فتخلف أوس ، فلما جلس القوم لم ير النعمان أوسا فيهم فطلبه ، فلما حضر ألبسه الحلة ، فحسده قوم من أهله وقالوا للحطيئة . اهجه ولك ثلثمائة ناقة ، فقال : كيف أهجو رجلا لا أرى فى بيتى أثاثاً ولا مالا إلامن عنده ، ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفكُّ صالحة   من آل لأى بظهر الغيب تأتينى

⁂

وقد رأيت أن الحطيئة على هجنة نسبه وقبح منظره ، وإلحافه فى السؤال كان مهيباً مخشىّ الجانب ملقىّ بالإكرام من كلّ من عرفه ، والاعتذار من كلّ من سبقت إليه منه جفوة ، وماذلك إلا لأنه كان سفيهاً حقير الشأن لايتحرج من عيب ، ولايترفع عن خسيسـة فهو يهجو ، وقد أمن أن يهجى ويؤذى الناس فى أعراضهم على حين لاعرض له يحرص على نقاوته ، ولو قال الناس فيه لذهب قولهم هباء . هذا هو السرّ الذى جعل الحطيئة يخلع عِذاره ، ويطلق لسانه فى أعراض الناس لا يبالى أين وقع ولو رأى الناس له عرضاً يرمى لوجدوا مكان القول ذا سعة ، فهو كما قال القائل :

نَجَا بِكَ لُؤْمُكَ مَنْجى الذُّبَا   بِ حَمَتْهُ مَقَاذِيرُه أَنْ يُصَادَا

❊

كان الحطيئة فاسد الدّين ، وقد تجلى هذا الفساد فى ارتداده بعد وفاة رسول الله وتهكمه بأبى بكر حين ولى الخلافة ، وقد قال فى ذلك :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا فيَا لَعِبادِ اللهِ ما لِأَبى بَكْرِ
أَيُورِثُهَا بَكْرًا إِذا مات بعدَهُ وتِلْكَ لعمرُ اللهِ قاصمةُ الظَّهرِ

كما يتجلى ذلك الفساد أيضاً فى نهشـــه الأعراض ، وقد نهى الدّين عنه وفى عودته للهجاء بعد أن تاب على يد عمر وعاهده ألاّ يعود . فلما مات رجع إلى ما كان فيه من سبّ الناس كما ترى ذلك ظاهراً فى حديثه مع ابن عباس ، فإنه بعد أن أفتاه بحرمة الهجاء لم يبرح مجلسه حتى هجا الزبرقان ، وإنك لترى فى وصيته وقد احتضر أن جعل للإناث من أولاده مثل حظّ الذكور ، وفى بعض الروايات أنه حرمهن ، فلما قيل له : إن هذا غير ما قضى الله . قال : لـكنى هكذا قضيت .

❊

لم يكن الحطيئة صادقاً فى قوله حتى يصحّ أن نتخذ قوله فى كلّ أحواله دليلا على ذات نفسه ، فقد اختلف قوله وناقض فعله فى كثير من الأمور ، ولعلّ السبب فى ذلك أنّه ولع بالمبالغة فى المدح رجاء لمـا فى أيدى الناس كما بالغ فى الهجاء ، وادعى على الناس ما ليس فيهم حين يئس من عطائهم ، ومن أمثلة تلك المناقضات التى وقعت فى شعره ، وخالفت فعله قوله :

ولستُ أَرَى السعادةَ جَمْعَ مالٍ ولـكنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّـــعِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِي قَرِيبٌ ولـكنَّ الَّذِى يَمْضِى بَعِيــدُ

فإنك إذا قست هذا القول بمـا تعلم من جشعه وبخله وفساد دينه تجد أنه يقول بلسانه مالا يوقن بجنانه ، وإلا فمـا الذى حمله على جمع المـال وهو يعتقد أن السعادة فى غيره .

وهو الذى يُعَدُّ له من حكمه قوله :

مَنْ يفعَلِ الْخَيْرَ لا يعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ (١)

ثم لا تعثر له فى أخباره على عارفة أسداها أو كلمة طيبة يرجو ثواب الله عليها حتى إنه فى وصية وفاته . قالوا له : فما توصى لليتامى ؟ قال: كلوا أموالهم ، وقيل له : ما تقول فى عبيدك و إمائك ؟ قال : هم عبيد ماعاقب الليلُ النهارَ ، وقيل له أوص للفقراء بشىء ؟ فقال : أوصيهم بالإلحاح فى المسألة ، فإنها تجارة لاتبور .

وقال رجل : دخلت على الحطيئة ، وهو مضطجع على فراشه و إلى جانبه سوداء قد أخرجت رجلها من تحت الكساء ، فقال له : و يحك ! أفى رجلك خفّ ؟ قال : لا والله ولكنها رجل سوداء ، أتدرى من هى؟ هى والله التى أقول فيها :

وآثرْتُ إدْلاجِى على ليل حُرَّةٍ ... هَضِيمِ الْحَشَا حُسَّانَةِ المتَجَرَّدِ (٢)

تُفَرِّقُ بالمِدْرَى أثِيثًا نَبَاتُهُ ... عَلَى وَاضِحِ الذِّفْرَى أَسِيلِ الْمُقَلَّدِ (٣)

والله لو رأيتها يا أخى ما شربت الماء من يدها . فانظر كيف وصفها بالحسن مع موضعها من القبح وسوء رأيه فيها .

ومن كذبه يمدح نفسه بالكرم ، وقد علمت مقدار بخله .

وقد عَلِمَتْ هندٌ على النأىِ أَنَّنِى ... إذَا عَدِموا يُسْراً لَنِعْمَ الْمُكَلَّفُ

أَرُدُّ المخاض البُزْلَ والشمسُ حَيَّةٌ ... إلى الحىِّ حتى يُوسِعَ المتضيِّفُ (٤)

---

(١) قال الزمخشرى فى أساسه : الجوازى ألطاف الله وأسباب رحمته وأنشد هذا البيت ثم قال: أو أراد جمع جازية بمعنى الجزاء .

(٢) الادلاج : السير أول الليل والادّلاج (بتشديد الدال) السير آخره (وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى) . هضيم الحشا : دقيقة الخصر . حسانة : شديدة الحسن . المتجرد : مصدر ميمى بمعنى التجرد ، أواسم مكان بمعنى الجسم ، وكل ذلك بفتح الراء المشددة . وقد تكسر الراء على معنى اسم الفاعل ويراد به الجسم .

(٣) المدرى : المشط . الأثيث : الكثيف ، والمراد به الشعر . الذفرى : العظم النابت خلف الأذن ، وتقدير الكلام على عنق واضح الذفرى .

(٤) المخاض : الابل الحوامل، أو العشار التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر، والواحدة خلفة

وكنتُ إذا دارتْ رَحَى الأمرِ رُعْتُهُ بمَخْلُوجَةٍ فيها عن العجز مَصْرَفُ[١]

شــــعره

أساس القول فى شعره أن نقول : إنه تلميذ زهير وراويته وراوية آله من بعده ، وقد علمنا أن زهيراً كان ينقح شعره ويصفيه ، وأن له الحوليات التى لم يكن يظهرها حتى يأتى عليها الحول وقد ورث عن زهير خير ما يرث تلميذ عن معلمه ، فإنّ لقوافيه أسر قوافى زهير ، ولقوله نقاء قول زهير ، وخلوّه من المعاظلة والتعقيد ، ثم له حكمته التى شاعت شيوع حكمة زهير ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : إن أصدق بيت قالته العرب هوقول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فقيل له فقول طرَفة :

سَتُبْدِى لكَ الأيَّامُ ما كُنْتَ جاهلاً وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبارِ مَنْ لمْ تُزَوِّدِ

فقال من يأتيك بها ممن زودت أكثر ، وليس بيت قالته الشعراء إلا وفيه مطعن إلا قول الحطيئة هذا .

وقد مرّ بك من حكمته قوله : (ولست أرى السعادة جمع مال) .

وإنك لتراه فى كلّ مجال قوىّ اللفظ مجتمعه ، شريف المعنى بارعه ، لم يعدّ عليه الناقدون كما عدوا على غيره ، بل لقد عقبوا أقواله بأحكام تجعلها فى الذروة من كلام العرب ، فلقد قال حماد الراوية: سمعت أبى يقول ، وقد أنشد قول الحطيئة الآتى: أما إنى ما أزعم أن أحداً بعد زهير أشعر من الحطيئة ، وهذا قوله :

بفتح فكسر (واستعمال المفرد نادر) . البزل : جمع بازل وهو الجمل ، أو الناقة فى السنة التاسعة وليس بعده سن تسمى . أوسع الرجل : صار ذاسعة . المتضيف (بصيغة الفاعل) الضيف ، من قولهم: تضيفته أى نزلت ضيفا عليه .

(١) المخلوجة : العزيمة . مصرف : مصدر ميمى بمعنى الانصراف .

وَفِتْيَانِ صِدْقٍ من عَدِيٍّ عَلَيْهِمُ ... صَفَائِحُ بُصْرَى عُلِّقَتْ بالعَوَاتِقِ (١)
إذا ما دُعُوا لم يَسْأَلُوا مَنْ دعاهمُ ... ولم يُمْسِكُوا فوقَ القلوبِ الخوافِقِ
وطاروا إلى الجُرْدِ العِتَاقِ فأَلْجَمُوا ... وشَدُّوا على أوساطهم بالمناطقِ (٢)
أولئك آباء الغريب وَغَاثَةُ الْـ ... ـصَرِيخِ وَمَثْوَى المُرْمِلِينَ الدَّرَادِقِ (٣)
أَحَلُوا حِيَاضَ المَوْتِ فَوْقَ جِبَاهِهِمْ ... مكانَ النَّوَاصِي من وُجُوهِ السَّوَابِقِ (٤)

وكان ابن شُبْرُمة يقول : أنا والله أعلم بجيد الشعر ، ولقد أحسن الحطيئة حيث يقول في آل شَمَّاس قوم بَغِيض :

أَلَا طَرَقَتْنَا بعدَ ما هَجَعُوا هِنْدُ ... وقد جُزْنَ غَوْرًا واستبانَ لنا نَجْدُ
وإن التى نَكَّبْتُهَا عَنْ مَعَاشِرٍ ... علىَّ غِضَابٍ أَنْ صَدَدْتُ كما صَدُّوا
أَتَتْ آلَ شَمَّاسِ بن لَأْيٍ وإنما ... أتاهمْ بها الأَحلامُ والحَسَبُ العِدُّ (٥)
فإنَّ الشقيَّ مَنْ تُعادِى صدورُهُمْ ... وذو الجَدِّ مَنْ لانوا إليه ومَنْ وَدُّوا
يَسُوسُونَ أَحلامًا بعيدًا أَنَاتُهَا ... وإنْ غَضِبُوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ (٦)
أَقِلُّوا عليهمْ لا أبا لِأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّوْمِ أَوْسُدُّوا المكانَ الذى سَدُّوا
أولئك قومٌ إنْ بَنَوْا أحسنوا البِنَى ... وإنْ عاهدوا أَوْفَوْا وإن عَقَدُوا شَدُّوا (٧)
وإنْ كانتِ النَّعْماءُ فيهم جَزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كَدَّرُوها ولا كَدُّوا (٨)

---

(١) الصدق : الشدة فى القتال . بصرى : مدينة بالشام . وصفائح بصرى : الدروع .
(٢) المناطق : جمع منطقة (بكسر الميم) وهى مايشد على الوسط .
(٣) غاثة : جمع غائث . الصريخ : طالب النصرة . المرمل : الفقير . الدرادق : جمع دردق وهو الصبى الفقير .
(٤) عبارة حياض الموت : معناها المنية . السوابق : جمع سابق ، وهو الجواد .
(٥) العدّ : القديم .
(٦) الحفيظة : الحمية .
(٧) عقدوا : أى عقدوا الألوية للحرب . شدوا : اشتدوا فى الحملة .
(٨) الضمير فى كدروها للنعمة المفهومة من أنعموا . والمراد تكديرها بالمن . وكدوا : أى أتعبوا ، والمراد أتعبوا المنعم عليه بطلب الشكر .

وإن قال مولاهم على جُلّ حادثٍ من الدهرِ رُدّوا فضلَ أحلامكم رَدّوا
مطاعين فى الهيجاء مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

ولقد بكى عمر من شدة التأثر حين أنشد الحطيئة ، وقد أحضر من سجنه للمحاكمة فى أمر الزبرقان :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ(١)
ألقيْتَ كاسِبَهُمْ فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فاغفرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ(٢)
أنتَ الإمامُ الّذى من بعدِ صاحِبِه ألْقَى إليكَ مقاليدَ النُّهَى البَشَرُ(٣)
لم يُؤْثِرُوكَ بها إذْ قدّموكَ لها لكنْ لِأَنْفُسِهِمْ كانتْ بها الأُثَرُ(٤)
فامْنُنْ على صبيةٍ بالرّمْلِ مَسْكَنُهُمْ بينَ الأباطِحِ تَغْشَاهُمْ بها القِرَرُ(٥)
أهْلِى فِدَاؤُكَ كَمْ بينى وبينَهُمُ من عَرْضِ دَاوِيَةٍ تَعْمَى بها الخُبُرُ(٦)

لقد حاول الحطيئة أن يؤثر فى نفس عمر والتمس كلّ ذرائع التأثير التى عرف أن البشر يخضعون لها ، فوصف حال بنيه من صغر وفقر ، ثم التمس التأثير بالمدح الذى يملأ النفس كبراً وعظمة . ولكن عمر لم يتأثر من كلّ هذا إلا بوصف الصبية ، فإن دموعه استهلت عند قوله : ماذا تقول لأفراخ ، وهذا عهدنا بعمر . ولو أن خليفة من بنى أمية سمع هذا القول لزحف إلى الشاعر وقبل بين عينيه وحكمه فى ماله كما سنرى عند دراسة هذه الدولة ، و بيان مقدار غرام خلفائها بالمدح .

وقال الحطيئة يمدح بغيضاً ، وما أكثر ما قال فيه وفى قومه ! حتى قال المتقدّمون : إن الحطيئة استفرغ شعره فى بنى قريع . قال :

---

(١) مرخ : واد بالحجاز . زغب : جمع أزغب ، وهو الفرخ يعلوه الريش الأصفر .
(٢) المظلمة هنا : البئر ، وكان الحطيئة قد حبس فيها .
(٣) المقاليد : جمع مقلاد كمفتاح وزنا ومعنى . النهى : جمع نهية ، وهى العقل ، أو النهى مفرد بمعنى العقل أيضا .
(٤) الأثر : جمع أثرة وهى التفضيل .
(٥) القرر : جمع قرة وهى البرد .
(٦) الداوية : الصحراء الواسعة . الخبر : جمع خبير ، وهو العالم بالشىء .

تَزورُ فتىً يُعْطِى على الحمد مالَهُ ... ومَنْ يُعْطِ أثمانَ المحامد يُحْمَدِ
تزور فتىً من يُعْطِهِ اليومَ نائلا ... بكفّيْهِ لا يَمْنَعْهُ من نائلِ الغَدِ
مفيدٌ ومِتْلافٌ إذا ما سألتَهُ ... تهلَّلَ واهْتَزَّ اهتزازَ المُهنّدِ[1]
متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضوء ناره ... تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ[2]

قال النقاد ما زال الناس يفضلون قول الأعشى فى وصف النار :

تُشَبُّ لِمقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِهَا ... وباتَ عَلَى النّارِ النّدَى والمُحَلَّقُ

حتى قال الحطيئة : متى تأته . . . فأخمل بيت الأعشى .

⁂

لم يمرّ بك من قوله فى الهجاء إلا ما جاء فى حديث الزبرقان ، أو التهكم بأبى بكر ، ولكنك تستطيع أن تمثل حقاً إغراقه فى الذمّ وروحه الخبيثة فيه من تصويره لبخيل فى قوله :

كَدَحْتُ بأظفارى وأعملتُ مِعْوَلى ... فصادفت جُلْموداً من الصخر أملسا[3]
تشاغل لما جئتُ فى وجه حاجتى ... وأطرَقَ حتى قلتُ قدْ مات أوعسى
وأجمعتُ أن أنْعَاهُ حين رأيتهُ ... يَفُوقُ فُواقَ الموتِ حتى تَنَفَّسا[4]
وقلتُ له لا بَأسَ لستُ بعائدٍ ... فأفْرَخَ تعلوه السّمادِيرُ مَلْبَسا[5]

وغريب أن يكون هذا من شاعر جاهلى ، وهم لم يعرفوا بغير بساطة الفطرة وسذاجة الفكرة ، فالبعد فى الخيال إلى هذا الحدّ بجعل هذا البخيل قد مات من خوف الاستجداء ،

---

(١) مفيد : مستفيد : أى كاسب . متلاف : مضيع . تهلل : فرح واستبشر .
(٢) تعشو : تقصد .
(٣) كدح : كدّ واجتهد .
(٤) أجمع : عزم . الفواق : ما يأخذ الميت عند الاحتضار .
(٥) أفرخ : سكن وهدأ . السمادير : ضعف البصر ، أو شىء يتراءى للانسان من ضعف بصره عن سكر أو دوار .

وأنه أجمع أن يشيع فى الناس موته ، وأنه بعد ذلك تنفس فتركه ليستعيد روحه ، فذلك ما لا نعرفه إلا لمن كان كابن الرومى من شعراء الدولة العباسية ، وقد نشأ فى المدنية ، وتفلسف بدراسة آراء الحكماء .

ومن أمثلة شعر الحطيئة التى تجمع نقاء اللفظ ، وجزالة التركيب ، ودقة الوصف قوله يصف أعرابيا جواداً صاحب صيد ألوفا للفلوات ، ويصف ما كان من نزول الضيف به وحيرته لعدم وجدانه ما يطعمه ، ثم ما كان من سنوح حمر الوحش، واصطياده منها وسروره بتوفقه لإكرام ضيفه :

وطاوى ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرْمِلٍ ... ببيْداء لم يَعْرِفْ بها ساكنٌ رَسْمَا[1]
أخى جَفوة فيه من الإنسِ وَحْشَةٌ ... يرى البؤس فيها من شراسته نُعْمى[2]
وأفرَدَ فى شِعْبٍ عجوزاً إزاءها ... ثلاثةُ أشباحٍ تخالُهمُ بَهْمَا[3]
حفاةٌ عراةٌ ما اغتَذَوْا خُبْزَ مَلّةٍ ... ولا عرفوا للبُرّ مذ خُلِقوا طَعْما[4]
رأى شَبَحاً وسْطَ الظلام فراعه ... فلما رأى ضَيْفاً تَشَمَّرَ واهْتَمَّا
وقال هَيا رَبّاهُ ضيْفٌ ولا قِرًى ... بحقك لا تحْرِمْهُ تا الليلةَ اللَّحْمَا
فقال ابنُهُ لما رآه بحَيْرَةٍ ... أيا أبَتِ اذْبَحْنِى ويَسِّرْ له طُعْمَا
ولا تعتذر بالعُدْمِ علَّ الذى طَرَا ... يظن لنا مالاً فيوسِعَنا ذَمّا[5]
فروّى قليلاً ثم أحْجَمَ بُرْهةً ... وإن هو لم يَذْبَحْ فتاه فقَدْ هَمّا

---

(١) الطاوى : الجائع . ثلاث : أى ثلاث ليال .

(٢) أخى جفوة : صاحب جفاء .

(٣) الشعب : الطريق فى الجبل . البهم : اسم جنس واحده بهمة ، وهى ولد الضأن ذكرا أو أنثى

(٤) الملة : الرماد الحار .

(٥) طرا : مسهل من طرأ : أى أتى . يقال وسع الرجل المكان (بجعل الرجل فاعلا) على سبيل القلب والأصل وسع المكان الرجل . وعلى الأول يقال أوسع فلان الرجل المكان فيتعدى لمفعولين ، ومنه قوله: يوسعنا ذما، بجعل « نا » مفعولا أوّل، فان اعتبرت مفعولا ثانيا خرج الكلام على الأصل .

فبينا هما عَنَّتْ على البُعْدِ عانَةٌ قد انتظمت من خَلْفِ مِسْحَلِها نَظْمَا[1]
عِطاشاً تُريدُ الماء فانسابَ نحوَها على أنَّهُ منها إلى دَمِها أظْمَا
فأَمْهَلَها حتى تَرَوَّتْ عِطاشها فأَرْسَلَ فيها مِنْ كِنانَتِهِ سَهْمَا
فخَرَّتْ نَحوصٌ ذاتُ جَحْشٍ سَمينَةٌ قد اكتنزتْ لحماً وقد طُبِّقَتْ شَحْمَا[2]
فيا بِشْرَهُ إذْ جَرَّها نحو قَوْمِه ويا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَها يَدْمَى
وباتوا كراما قد قَضَوْا حقَّ ضَيْفِهِمْ وما غَرِمُوا غُرْماً وقد غَنِمُوا غُنْما
وبات أبوهم من بَشاشَتِهِ أَبَا لِضَيْفِهِمُ والأُمُّ مِنْ بِشْرِها أُمَّا

وإننا بوجود هذه القصة العجيبة فى شعر الحطيئة نردّ على من يزعم خلوّ الشعر العربى من القصص ، فهذه قصة لاينكر منكر اتساقها وتسلسل معانيها ، وهو ما يطلبون تحققه فى القصص .

❊

ونحن وإن كنا قد روينا ظمأك من شعر الحطيئة ، وجعلناك تلمس فيه أنه مدّاح هجاء وصّاف متين فى كلّ المعانى والأغراض يتناولها أحسن تناول ، لا نحبّ أن نختم قولنا فى الحطيئة ، حتى نطلعك على هذه القصيدة فى وصفه للجيش وعظمه ، ومقدار بلائه فى العدوّ ، وذلك فى معرض مدحه للوليد بن عُقْبة أخى سيدنا عثمان بن عفان ، وقد جمع جيشاً للقتال :

أَبَى لِابْنِ أَرْوَى خَلَّتانِ اصطفاهما قتالٌ إذا يَلْقَى العدوَّ ونائلُه[3]

---

(١) (عنّ كضرب ونصر) ظهر . العانة : القطيع من حمر الوحش ، المسحل : الحمار الوحشى .
(٢) النحوص : الأتان التى لا ولد لها ، أوالتى منعها السمن من الحمل . الجحش : ولد الحمار . اكتنز : امتلأ لحما .
(٣) أورى : هى أم عثمان والوليد ، وهى بنت كرز بن ربيعة . والكلام فى البيت يحتاج إلى تتمة وهى مفعول أبى وتقديره : الذم . يعنى أن هاتين الخلتين : القتال والنائل أبتا للوليد أن يلحقه عليه ذم .

فتى يملأ الشيزى ويروى بكفه ... سنانُ الرُّدَيْنِيِّ الأصمِّ وعاملُه(١)
يؤمُّ العدوَّ حيثُ كان بجحفلٍ ... يُصِمُّ السميعَ جَرْسُه وصواهله
إذا حان منه منزلُ الليلِ أوقدتْ ... لأخراه فى أعلى اليفاعِ أوائلُه(٢)
ترى عافياتِ الطيرِ قد وثقتْ لها ... بشبْعٍ من السَّخْلِ العتاقِ منازلُه(٣)
بناتُ الأغرِّ والوجيهِ ولاحقٍ ... يقوَّدْن بالأشطان ضُخْماً جحافله(٤)
يظلُّ الرداء العَصْبُ فوق جبينه ... يَقِى حاجبيه ما تُثير قنابِلُه(٥)
وكَمْ مِنْ حَصَانٍ ذاتِ بعلٍ تركْتَها ... إذِ الليلُ أدجى لم تجدْ مَنْ تُباعِلُه
وذِى عَجْزٍ فى الدار وسَّعت داره ... وذى سَعَةٍ فى داره أنتَ ناقله(٦)
وإنِّى لأرجوه وإنْ كان نائياً ... رجاءَ الربيعِ أنبتَ البقلَ وابلُه
لزُغْبٍ كأولادِ القطا راثَ خلقُها ... على عاجزات النَّهْضِ حُمْرٍ حواصله(٧)

هذه هى حياة الحطيئة ، ويظهر أنه قد عاش طويلا ، لأنهم يقولون: إنه عمر فى الجاهلية وبقى فى الإسلام حيناً ، فإذا علمنا أنه مات فى خلافة معاوية سنة ٥٩ ، وأن حياته فى الإسلام قليلة ، بالاضافة إلى حياته فى الجاهلية ، نفهم أنه كان من المعمَّرين ، وإذا

---

(١) الشيزى : القصعة . الأصم : المصمت (غير الأجوف) . عامل الرمح : صدره ومقدمه. والرمح يقال له ردينى أو سمهرى . وردينة وسمهر كانا رجلا وامرأته يعملان فى تثقيف الرماح فنسبت إليهما .

(٢) اليفاع : مفرد بمعنى التل .

(٣) العافيات : جمع عافية بمعنى طالبة الرزق . السخل: جمع سخلة ، وهى ولد الضأن ما كان .

(٤) الأغر والوجيه ولاحق : خيول مشهورة . الأشطان : جمع شطن ، وهو الحبل .

(٥) العصب : من برود اليمن . القنابل : جمع قنبلة بفتح القاف ، وهى الطائفة من الخيل أو الناس

(٦) أنت ناقله : أى من السعة إلى الضيق .

(٧) راث : أبطأ . وقوله راث خلقها : أى أبطأ كبرها لضعف غذائها . النهض : النهوض . الضمير فى حواصله عائد إلى الخلق . والمعنى انى أرجو هذا الكريم لأولادى الذين يشبه أحدهم فرخ القطا الذى أبطأ تكوّنه فعجز عن النهوض .

أضفنا إلى ذلك أنه راوية زهير ، وأن زهيراً عاش حتى أظله الإسلام ومات فى طريقه إلى النبى وهو شيخ فانٍ ، فلابدّ أن يكون قد شارف المائة أو زاد عليها .

وله ديوان شعر قد طبع فى مدينة لبسك سنة ١٨٩٣ م قامت بطبعه الجمعية الألمانية الشرقية ، ثم طبع فى مصر والشام بشروح مختلفة ، وله شرح خطىّ فى دار الكتب الملكية المصرية ، وتجد أخباره فى ديوان مختارات ابن الشجرى ، وفى طبقات الشعراء لابن سلام ، وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفى الأغانى ، والعقد الفريد ، والمستطرف وخزانة الأدب ، وجمهرة أشعار العرب وغيرها .

العصر الأموى

٤١ — ١٣٢ هـ

كان قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فتحاً لباب فتنة ظلّ المسلمون يقاسون جرائرها أمداً طويلا . فإن آل بيته وهم بنو أمية امتنعوا عن مبايعة الخليفة الذى بايعه جمهور المسلمين ، وهو علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان السبب الظاهر الذى يبديه معاوية كبير الأمويين ووالى عمر ، ثم عثمان على الشام ، أنه يجب قبل تولية خليفة للمسلمين أن يبحث عن قتلة عثمان فيقتلوا به ، فكان من ذلك حجاج فقتال بين علىّ ومعاوية ، ثم تبع ذلك خروج جماعة من رجال علىّ عليه على أثر الدسيسة التى دسّها معاوية ورجاله من رفع المصاحف على الرماح والمطالبة بتحكيم كتاب الله ، وكان على يرى خطأ هذا الرأى ، ويعلم مبعث تلك الفتنة ، فلم يقبل التحكيم أوّلا ، ثم رضى به إيصاداً لباب من أبواب الشر ، وإطفاء لجانب من فتنة اندلعت ألسنتها من كلّ ناحية ثم كان من تمام الدسيسة أن ادعى معاوية الخلافة لأن صاحب علىّ من الحكمين خلع عليًا وصاحب معاوية أقرّ معاوية . واستمرّ علىّ يقاتل حتى اغتاله أحد الخوارج فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ ، وبذلك خلص الأمر لمعاوية ، لأنه لم يكن من الحسن ابن علىّ الذى بايعه أصحاب أبيه إلا التسليم العاجل لمعاوية حقناً للدماء وإخمادا للثورة . وكان ذلك فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ .

الخـــلافة والملك

انقلبت ولاية المسلمين من خلافة إلى ملك ، فكان من آثار ذلك أن عادت العصبية الجاهلية جذعة فتية واســعة النطاق متعدّدة النواحي ، فهي من ناحية بين بنى هاشم آل النبيّ وأحقّ الناس بولاية أمر الناس من بعده ، وبين بنى أمية أندادهم فى شرف الجاهلية الذين لم يكن لهم فى بدء الإســلام نصيب من الشرف والمكانة لتأخرهم عن تلبية دعوته . فاتخذوا من قتل عثمان سبيلا إلى استبدادهم بالأمر ، وزحزحة الهاشميين عن مقام يقرهم عليه جمهور الناس . . . ثم هى من ناحية أخرى بين اليمنيين ، ومنهم الأنصار الذين رأوا أن يبقوا على عهد رسول الله بنصرة آل بيته ، وبين المضريين الذين يتألف منهم جيش معاوية بالشام .

كان من هم معاوية أن يحيى العصبيــة التى عمل النبيّ وخلفاؤه على قتلها ، لأنه يرى فى حياتها صرفاً للعرب عن التفكير فى اغتصابه للسيادة ، ثم خضدا لشوكتهم بجعل بأسهم بينهم ، وظفرا بعد ذلك باصطناع من يريد اصطناعه منهم . وكذلك فعل فإنه لم يقنع بانحياز المضرية إليه حتى ضمّ قبيلة كلب من اليمنية إلى حظيرته بأن تزوج منها بَحْدَل أم يزيد ابنه .

وكان فى حياة هذه العصبية حياة لـكثير من أمور الجاهلية من المهاجاة والمفاخرة . وفاحش الغزل والاجتماع فى الأسواق بظاهر الـكوفة « الـكُناســة » ، أو بظاهر البصرة « المِرْبَد » .

وبلغ من شأن هـذه العصبية أن رجلا من الأزد كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ، فقال : إنها يمنية . وقال رجل من بنى أســد ابن خُزَيمة يمدح يحيى بن حيان أخا النَّخَع :

ألا جعل اللهُ اليمانين كلَّهُمْ فِدًى لفتى الفتيان يحيى بن حَيَّان

ولولا عُرَيقٌ فيّ من عصبيةٍ لقلت وألفاً من مَعَدّ بن عدنان
ولكنّ نفسي لم تطب بعشيرتي وطابت له نفسي بأبناء قحطان

وقد قوى أمر هذه العصبية حتى صار فى كلّ بلد من بلاد الإسلام حزبان : مضرى ويمنى يتنازعان المنزلة بتقلب الأحوال ، واختلاف العمال ، وبلغ من شأن هذه العصبية أن عملت فى تولية الخلفاء والأمراء ، فقد نصرت اليمنية الأمويين بعد موت يزيد ، وطلبت الخلافة لابنه خالد ، ولكن كبار بنى أمية رأوا تولية مروان بن الحكم على أن يكون الأمر بعده لخالد ، فلم يفِ مروان له . وظلت اليمنية تناصر الأمويين حتى كانت أيام هشام ، فكانت القيسية نصيرته ، واستمرّ الحال كذلك إلى آخر أيام الدولة .

ولما مات يزيد بن الوليد أقامت القيسية مروان بن محمد خليفة لأنه كان يطالب بدم يزيد مستجدياً بذلك عطف القيسية ، وكانت أم يزيد منهم .

وكما أعانت العصبية الأمويين أيام دولتهم ، كانت سبب القضاء على ملكهم ، فإن شيعة بنى العباس إنما كانت من اليمنية ومن انضمّ إليها .

وكان معاوية يتلمس الذرائع لاستتباب ملكه ، واجتماع الأمر بيده ، فكان يحلم على أعدائه فيقبل من العلوى أو العلوية التجْبِيةَ فى مجلسه وبين أمرائه ، ويسمع من حجابه ، ثم لا يكون منه إلا إجزال العطية والحمل على أوطأ مركب وهو القائل لعمرو ابن العاص فى بيان سياسته : ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .

قال عمرو : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إن هم شدّوا أرخيت ، وإن هم أرخوا شددت .

كذلك عمد إلى الألسنة فقطعها بالمال ، فكان يصل العطاء أو يقطعه ويزيد فيه أو ينقص على حسب ما تقضى السياسة ، حتى لقد جعل عطاء الحسن والحسين مائتى ضعف لما كان عليه أيام عمر بن الخطاب فقد كان خمسة آلاف درهم فجعله ألف ألف . وقد صار الحجاز ، وهو موطن أبناء المهاجرين والأنصار مثابة للهو والترف لكثرة ما أغدق عليهم معاوية وخلفاؤه من العطاء ليوقعوهم فى أسر اللهو وليشغلوهم عن المطالبة بالخلافة .

ولقد تعمدوا أن يملئوا عليهم المدينة بأسباب الفساد . فتهاونوا فى إقامة حدود الشرع بها حتى شربت الخمر، وارتكبت الفواحش ، وصارت أكثر بلاد المسلمين مخنثين ومغنين ، ومنها انتشر الغناء فى المملكة العربية .

ولم يقف معاوية وخلفاؤه فى أمر مال المسلمين عند توزيعه بغير العدل بين مستحقيه بل لقد تعدّوهم إلى من لايستحقّ ذلك المال ممن لم يشهد موقعة ، ولا كان من أبناء المجاهدين ، فجعلوا للشعراء نصيباً فى بيت مال المسلمين ، وتلك بدعة ابتدعوها ليقطعوا بها ألسنة هؤلاء وليلقوا لأنفسهم الرعب فى قلوب الناس بما يبالغ به هؤلاء فى وصفهم ، ويرفعون من شأنهم : وما زال الشعراء يأخذون أعطية من بيت المال حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فأبطل ذلك فيما أبطله من مظالم بنى أمية .

وفى سبيل تأييد بنى أمية لملكهم حاربوا الخوارج الذين كان خطرهم يشتدّ حتى يهدّد الدولة فى كثير من نواحيها كما ثقفوا العلويين فشردوهم وعصفوا بهم . وكان ولاتهم يتقرّبون إليهم بتذبيح نسائهم وأولادهم والتمثيل بأبطالهم، وحمل رءوسهم إلى دار الخلافة حيث خزانة الرءوس .

ولقد كان لهؤلاء الخوارج قول قوىّ النزعة قوّة يقينهم فى معتقدهم شديد الوقع على مقدار استماتتهم فى الدفاع عن آرائهم ، كما كان للمظلومين من العلويين أنين ولقتلاهم رثاء يخرج من قلوب حزينة أدماها عسف الغاشم وقسوة قلب الظالم .

ولقد كان للعصبية التى عمّ أمرها فى هذه الدولة أثر عظيم فى احتفاظ بنى أمية بالصبغة العربية لا يبدلون بها غيرها ، ولا يحاولون الخروج منها ، بل لقد زادوا تعلقاً بحياتهم الأولى ، فأنشئوا أولادهم بالبادية ، وثقّفوهم برواية الشعر ، وعقدوا المجالس للسمر به ، وأرسلوا فى طلب رجاله ليسألوا أحدهم عن بيت أو قصيدة ، وأكثر من كان يفعل ذلك هشام بن عبدالملك ، ثم أجزلوا العطاء على ذلك ، فشدّت إليهم الرحال ، وتنافس الناس فى الزلفى إليهم بطريف الأخبار ، ونادر الرواية ، ووجدت آداب الجاهلية سوقا نافقة ، وحنّ الشعراء والخطباء إلى جزالة الجاهلية . بل لقد أحيوا ما زهد فيه القرآن من الحوشى والغريب . وهذا الفرزدق يرى نقادُ الشعر أنه أحيا ثلث العربية فى شعره .

كذلك كان من أثر هذه العصبية ، وترفع العرب عن أهل البلاد المفتوحة وعدم تعويلهم على غـير العربى ، أن اجتهدوا فى تحويل الدواوين فى كلّ الأمصار إلى العربية ، فكانت الدولة عربية فى كل مظاهرها من جيش وولاة وعمال ، وتركوا محاقر الأمور ، (وهى فى نظرهم الزراعة والصناعة) إلى الموالى وأهل البلاد المفتوحة ، فلم يكن عمل العربى إلا السياسة والرياسة .

انتشار اللغة فى عصر بنى أمية

تم على أيدى الخلفاء الرشدين الفتحُ لأغلب المعمور من الدنيا ، وصاحب الفضل فى ذلك هو عمر بن الخطاب الذى كانت جيوشه تقاتل فى المشرق والمغرب ، فوصلت شرقاً إلى نهرى السند وجيحون ، وفتحت فى الغرب مصر و بلاد الشام متوغلين فى شمالها .

وفى أيام بنى أمية وصلت الفتوح إلى الهند والصين شرقا . وشملت جميع بلاد الأندلس غربًا . ووصلت إلى السودان جنوبًا ، و بلاد سيبريا شمالا ، وملـكوا كذلك جزر البحر الأبيض المتوسط بأساطيلهم ، وحاول معاوية فتح القسطنطينية كما حاوله سليمان بن عبد الملك ، فامتنعت عليه لمتانة أسوارها ، وشدّة فعل النيران الإغريقية بسفن العرب .

وإلى أغلب هذه البلاد نزح العرب من جزيرتهم تاركين حرّ الصحراء وقحطها إلى بلاد أكلها دائم وظلها ، فأقاموا متوطنين ، وعمّروا الأمصار ، وخالطوا أهل البلاد بالتعامل فى الأسواق ، وتبادل المتاجر والمصاهرة والتسرّى ، فكان العربى يعقد على الأعجمية أو يملـكها بحكم الفتح ، فيعقب منها الأولاد الهجن (١) الذين لاتخلص عربيتهم

---

(١) فى القاموس المحيط جمع الهجين هجن (بضم ففتح) وجمع الهجينة هجن (بضم فسكون) والهجين من أبوه عربى وأمه غير عربية . وعكسه المقرف (بضم الميم وسكون القاف وكسر الراء) وهو من أبوه أعجمى وأمه عربية .

لسماعهم رطانة أمهاتهم ، أو حواضنهم الروميات ، أو الفارسيات ، أو القبطيات ، فينشأ ناشئهم ملتاث اللهجة مضطرب الملكة ، فكان هذا وهْناً دخل على اللغة لم تعهده أيام انزواء أهلها فى جزيرتهم .

وإلى جانب هذا الفساد الذى طرأ على الملكات استفادت اللغة أنصاراً ، وكثر عدد المتكلمين بها ، فإن هؤلاء الأعاجم كان لابدّ لهم أن يتعلموا لغة أسيادهم بحكم المعاشرة والمخالطة تقربا إليهم وزلفى ، على أنه لم يقف أمر هؤلاء الأعاجم عند حذق التخاطب باللغة ، بل إنهم تعلموا العربية دراسة ، وقرءوا القرآن وزاولوا علومه ، وقرضوا الشعر ليستفيدوا مما يدره الخلفاء من جزيل العطاء على العلماء والشعراء ، على أن الدين كان من عوامل نشر اللغة أيضا فان جمهرة البلاد المفتوحة كانوا يدخلون فى الإسلام تفضيلا له على وثنيتهم أو دياناتهم القديمة ، أو فراراً من أداء الجزية التى يدفعها من يبقى على دينه من أهل البلاد المفتوحة ، فكانوا يتعلمون العربية لفهم الدين وأداء الصلاة .

وإن هذا لفوزٌ للعربية لم تظفر به لغة من اللغات منذ عمرت الدنيا ، فإن الإسكندر الأكبر مثلاقد استولى حقا على أكثر المعمور فى زمنه ولـكن ملكه لم يلبث أن تقلص فلم يكن للغته تغلب على الداخلين فى سلطانه . على أن سلطان المسلمين قد زال عن بعض البلاد المفتوحة ، وبقيت فيها اللغة العربية مصاحبة الدّين .

قيام اللغة بمقتضيات الملك والسياسة

لقد كانت دولة بنى أمية ملكاً عضوضاً لم يقم على أساس التقوى ، وتوزيع العدالة بين الناس وإعلاء كلمة الله كما كان الشأن فى الخلافة أيام الخلفاء الراشدين الذين اجتهدوا فى ترسم آثار النبىّ ، والحيلولة بين العرب وبين التورط فى مفاسد الدنيا وعاجل نعيمها ، بل إن بنى أمية إنما طلبوا الملك إشباعا لنهمتهم إليه ، واستعادة لنصيبهم من الرياسة الذى كان لهم فى الجاهلية ، فحرمهم منه تأخر إسلامهم إلى حين الفتح ، فان

أبا سفيان كبيرهم وأولاده ، ومنهم معاوية ظلوا على الكفر حتى لم يجدوا من الإسلام بدا . لذلك لم يكن أبو بكر يثق ببنى أمية ، فحال بينهم و بين الولايات والأعمال وجعل ذلك من نصيب المهاجرين الأوّلين ، ولقد شكوا إليه حالهم ، فقال لهم : « لقد جئتم الإسلام متأخرين ، فأدركوا إخوانكم بالجهاد » فجاهدوا فى حرب الرّدّة .

ولما تولى عمر عرف ما فى نفوسهم من التطلع إلى السيادة ، فرمى بهم الروم ، ورغبهم فى الشام . واستعمل يزيد بن أبى سفيان ثم أخاه معاوية على الشام ، فعادت إلى بنى أمية الرياسة التى كانت لهم فى الجاهلية .

فكانوا جديرين وقد حصلوا على الخلافة أن يجعلوها ملكاً عضوضاً ، فاستكثروا من الحجاب والحرّاس ، ولم يظهروا للناس إلا فى المواكب الحافلة بالجند تحفّ بهم ، وقد شهرت السيوف وشرعت الرماح . وكذلك أنشئوا الأساطيل تقاتل فى البحر[1] كما أتموا عُدّة جيوشهم فى البرّ حتى لقد قلدوا الفرس فى اتخاذ الموسيقى للجيش تفخيماً لأمر الملك و إرهاباً بسلطانهم ، وكذلك اتخذوا البريد لتسرع الأخبار من أطراف المملكة ، وأوّل من اتخذه معاوية وجعل مقرّه دمشق ، ثم ينفرج عنها إلى نواحى المملكة . كذلك ضربوا النقود ، وأنشئوا ديوان الخاتم ، وديوان الخراج إلى غير ذلك من مظاهر الملك التى كانت على أيامهم يقتبسـونها من فرس وروم ومصريين ، لا يتحرّجون من شىء منها ، ولا يتناهون عن بدعة فيها لم يعملها السلف الصالح .

لقد استثيرت اللغة العربية فى تسمية هذه المستحدثات والمصطلحات ، فنهضت بما طلب منها . فمن ألفاظ فى تمييز الجند من مرتزقة ومتطوّعة ومهاجر وأعرابى إلى أسماء لأنواع

---

(١) لما ألح معاوية على عمر أن يأذن له فى ركوب البحر ورغبه فى الفائدة من وراء ذلك كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يصف له البحر فكتب إليه : إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء . إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول تزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، ثم فيه دود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق « معنى برق : تحير لا يطرف ، أو دهش فلم يبصر وبابه فرح أو نصر » .

الأدوات المستعملة فى الحرب ، كالدبّابة ، والكبش ، والعرّادة ، والمنجنيق ؛ وأسماء الحَمَلات ، كالشواتى ، والصوائف ؛ إلى مصطلحات الدواوين ، كقولهم : الثغور ، والعواصم ، والأقاليم ، والقصبات ، والعمل ، والولاية ، والحكومة ، والسكّة ، والتوقيع ، والوظيفة ، والمرصد ، ودار الضرب ، والدفاتر ، والجرائد ، والخرائط . كما عرّبوا ألفاظاً سمعوها من جيرانهم ، وكانوا محتاجين إليها فى معيشتهم ، فمن ذلك الطَّسْت ، والطبق ، والفيروز ، والبلور ، والكَعْك ، واللوز ، والدولاب ، والميزاب ، والجاموس ، والفرسخ ، والبند ، والسُّكَّر ، والطُّنبور ، والغالية[1] . ولقد كان من نهوض اللغة بمقتضيات الملك أن حوّلت دواوين الخراج إلى العربية ، وكانت منذ عهد الخلفاء الراشدين تكتب فى العراق بالفارسية ، وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية . ففى أيام عبد الملك بن مروان تمكن الحجاج من تحويل ديوان العراق إلى العربية على يد صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم ، وأبوه من سبى سجستان . وكان صالح يكتب بالعربية والفارسية لزادان فروخ بن بيرى كاتب الحجاج . فلما قتل فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه إلى منزله استكتب الحجاج مكانه صالحاً ، فأبدى للحجاج أنه يستطيع نقل الديوان إلى العربية ، فعزم عليه الحجاج أن يفعل . فقال له الفرس الذين خافوا انقطاع أرزاقهم من هذا العمل : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ فقال : أكتب عُشْراً ونصف عُشْر ، فقيل له : وكيف تصنع بوَيْد ؟ فقال أكتب : أيضاً فقال له قائلهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن ذلك ، فأبى إلا نقل الديوان فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درّ صالح ما أعظم منته على الكتّاب (أى من العرب) .

أما ديوان الشام فقد كان بالرومية والذى كان عليه سُرْجُون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ، ثم إن عبد الملك أحس من سرجون بإدلال لاستقلاله بأمر هذا الحساب ، وقد أمره مرّة بشىء فتراخى فيه فأحفظه ذلك ، واستشار كاتبه على

---

(١) نوع من الطيب ، وأول من سماه هو سليمان بن عبد الملك .

الرسائل سليمان بن مسرور ، فقال : لو شئت لحوّلت الديوان من الرومية إلى العربية ، فقال افعل وأنظره سنة ، فلما وقف سَرْجُون على عمل سليمان ، قال لكتاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

أما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وحوّل فى أيام الوليد بن عبد الملك على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر ، فصرف عنه أثناش ، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب ، وقد كان ديوان الجند والرسائل ، وجميع مرافق الدولة عربية لم يكن ينقصها إلا ديوان الخراج حتى حوّل .

طروء اللحن على اللغة

- تمتاز اللغة العربية من بين أغلب اللغات بميزة الإعراب ، وهو مراعاة أواخر الكلمات ، وتغيير حركاتها باختلاف الأساليب . وتلك المراعاة دقيقة لا تتمّ إلا لملكة سليمة لم تشبها شائبة . وهى سليقة العرب الخلص الذين سلموا من المخالطة ، وعاشوا فى وسط الجزيرة آمنين لُوثة الألسنة ، متجانفين عن مخالطة الفرس فى ريف العراق أو الروم فى مَشَارِف[1] الشام ، أو الهند فى البحرين ، أو القبط على حدود مصر . فتغلب وبكر جاوروا الفرس ، وعبد القيس وأزدعُمَان خالطوا الهند ، واللخميون وقضاعة وغسان عاشروا الرّوم ، فكانت لغاتهم غير نقية لأثر الجوار ، أما قريش وثَقِيف وهُذَيل وكنانة وغَطَفان وأَسَد وتميم ، فهم أفصح العرب وأصرحهم لغة لبعدهم عن المخالطة ، وهؤلاء هم الذين سلمت لغتهم من اللحن ولم يجرب على أحدهم خطأ ، ولذلك قيل : إن العربىّ الفصيح لا يخطئ ، لأن الاعراب جزء من لهجته لا ينفصم عنها . وقد قال

---

(١) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية .

ابن جنى فى الخصائص : إذا اتفق شىء من مخالفة الوجوه المعروفة فى الاعراب ، فإن كان العربى فصيحاً حمل ذلك على أنه قد وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها وتأبّدت معالمها . وقد قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه . وقال : إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كبقل فى أصول رَقْل (نخل طويل) .

وإذا كان قد وقع لحن على أيام النبىّ ، فإنما ذلك على ألسنة قوم طارئين على العرب من الموالى والمتعرّبين ، كسَلْمان الفارسى ، وكان يرتضخ لكنة فارسية ، وبلال مولى أبى بكر وكان يرتضخ لكنة حبشية ، وصهيب ، وكان يرتضخ لكنة رومية .

فقد حدث أن رجلا لحن بحضرة النبىّ ، فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضلّ » ، كما حدث أن كاتب أبى موسى الأشعرى كتب عنه كتابا إلى ابن الخطاب فلحن ، فأرسل إليه عمر أن قنع كاتبك سوطاً . وكان ما كتبه هو قوله فى أوّل الكتاب : « مِنْ أبو موسى . . . » .

كان ذلك قليلا معدوداً فى أيام الخلفاء الراشدين لقلة اختلاط العرب وقرب عهدهم بالبداوة ، وسلامة الملكات ، فلما انساحوا فى البلاد ، وخالطوا أهلها ، ونشأ أولادهم من السبايا يسمعون عجمة أمهاتهم وحواضنهم ، وكثر الداخلون فى الإسلام من أهل البلاد المفتوحة ، وأقبلوا على العربية يتعلمونها ليُرْضُوا أسيادهم من العرب ، وليقرءوا بها القرآن ويقيموا الصلاة ، فشا اللحن ، وتعدّى الأعاجم وأبناءهم إلى العرب الخلص لكثرة ما كانوا يسمعون من الخطأ ، ففسدت ملكاتهم حتى كان الخلفاء وكبار الدولة يدرءون هذا السيل الجارف ، والعيب اللاحق عن أبنائهم بتنشئتهم فى الصحراء ، أو إحضار المعلمين من أفصح الناس وأعلمهم ليروضوهم على الفصاحة منذ الحداثة .

وما زال رجال هذه الدولة يرون اللحن عاراً لازماً لا تمحى سوءته ولا تزول سبته . لذلك قال عبد الملك بن مروان ، وقد سئل عن سبب إسراع الشيب إليه : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . وهو القائل : الإعراب جمال للوضيع وهجنة للشريف .

وكانت جماهير العرب تحضر مجلسه ، وتُنادى كلّ طائفة باسم قبيلتها ، فيقال مثلا : لتقم هَمْدان ، ولتقم تميم : أى من حضر من رجال هـذه القبائل . فكان عبد الملك يستسقط من يلحن .

واستأذن عليه رجل من علية أهل الشام ، و بين يديه قوم يلعبون بالشِّطْرَنْج ، فقال : يا غلام غطّها ، فلما تكلم الرجل لحن ، فقال عبـد الملك : يا غلام اكشف عنها الغطاء . ليس للاحنٍ حرمة .

ولقد عدّوا من اللحّانين : عبد الله بن زياد وكانت أمة فارسـية . والوليد بن عبد الملك أشفق عليه أبوه ، فلم يرسله إلى البادية ، فتربى بالمصر ، وتعلّم العربية بالصناعة فعرض لكلامه اللحن ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وكانت أمه نصرانية ، وكان من أبلغ الناس وأخطبهم ، ولـكن عدّ عليه بعض اللحن .

كذلك كانت السلامة من اللحن شرفا عظيما يعدّ من مفاخر الرجل ، ولقد ذكروا أن أربعة لم يلحنوا فى جدّ ولا هزل : الشعبىّ ، وعبد الملك ، والحجاج ، وابن القِرِّية ، وكان الحجاج أفصحهم ، على أنه قد نسب للحجاج لحن فى بعض المواطن ، فقـد قال للشعبى يوما : كم عطاءك ؟ فقال ألفين . قال الحجاج : ويحك ! كم عطاؤك ؟ قال ألفان ، قال الحجاج : فلمَ لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك ؟ قال : لحن الأمير فلحنت ، وأعرب فأعربت ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليـه ، فأكون كالمقرع له بلحنه ، والمستطيل عليه بفضل القول .

وكان اللحن يقع فى محادثتهم وحوارهم ومعتاد كلامهم ، فكان محتملا مع الغضاضة وقد أسرعوا بوضع النحو لتلافيه ، فلما طمّت المصيبة بوقوع اللحن فى القرآن ، ولم يكن وضع النحو كافياً لتـــداركه ، أعملوا الحيلة ، فاهتدوا إلى ما سنبينه فى موضوع الشكل والإعجام .

أمثلة من اللحن وضعف الملكة

كان الوليد بن عبد الملك لحانة ، فدخل عليه أعرابى ، فقال له الوليد : من خَتَنَكَ ؟ قال : رجل من الحىّ لا أعرف اسمه ، فقال عمر بن عبد العزيز : إن الأمير يقول : من خَتَنُكَ ؟ فقال : هو ذا بالباب ، فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذى كنت أخبرتك عنه ، فقال : لا جرم لا أصلى بالناس حتى أتعلمه .

سمع أعرابى رجلا يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله ، فقال : يفعل ماذا ؟ وجاء رجل إلى زياد ، فقال : إن أبينا هلك ، وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا ، فقال زياد ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك ، فلا رحم الله أباك حين ترك ولداً مثلك .

اختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان ، فقال الحاجب : قما فقد آذيتما أمير المؤمنين ، فقال عمر : أنت والله أشد إيذاء لى منهما .

قال الحجاج ليحيى بن يَعْمَر : أتسمعنى ألحن ، قال : فى حرف واحد . قال : فى أىّ ؟ قال : فى القرآن . قال ذلك أشنع ، ثم قال : وما هو ؟ قال تقول : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ » فترفع أحبُّ .

وقال بشر بن مروان (وعنده عمر بن عبد العزيز) لغلام له : ادع لى صالحاً ، فقال الغلام : يا صالحاً ، فقال : بشر ألق منها ألف ، فقال له عمر : وأنت فزد فى ألفك ألفاً .

صعد يزيد بن عبد الملك المنبر ، فقال فى سبّ علىّ : لُصّ بن لُصّ ، فقال أعرابى كان تحت المنبر : فى قوله أعجوبتان ، أنه رمى علياً بأنه لصّ ، وأنه بلغ من جهله أن ضمّ لام لصّ .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أمير المؤمنين . اقتل أبى فُدَيك[١] ، وقال مرّة لغلامه : يا غلام ردّ الفرَسان الصادان عن الميدان .

وخطب يومًا فقرأ فى خطبته : ليتها كانت القاضيةُ (بالرفع) ، فقال عمر بن العزيز : علينا وأراحنا الله منك .

قال يوسف بن خالد التميمى لعمرو بن عبيد : ماتقول فى دجاجة ذبحت من قفائها ؟ فقال له عمرو : « أحسن » . قال من قفاؤها ، قال « أحسن » ، قال من قفاءها ، قال له من عنّاك هذا ؟ قل من قفاها واسترح وسمع يوسف هذا يقول حتى يشجه ، وهى مضمومة ، وكان يقول : هذا أحمر من هذا يريد أشدّ حمرة منه .

وقال رجل لبعض الأعراب : كيف أهلِك (وكسر اللام) ، فقال قتلا بالسيف إن شاء الله . فهمّ العربى أنه يسأله عن موته ، ولو قال « أهلُك » لأجابه .

وقيل إن أوّل لحن سمع بالبادية قولهم: هذه عصاتى ، وأوّل لحن سمع بالعراق : حىّ على الفلاح بكسر الياء وهى مفتوحة .

(ومن ضعف الملكة والعجز عن تأدية المعنى بألفاظه الموضوعة له ، وذلك أنكى من اللحن وأدلّ على الارتضاخ بالعجمة ، قول عبد الله بن زياد يوما للجند : « افتحوا سيوفكم ، وقد عيّره بذلك يزيد بن مُفرّغ[٢] بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت وكان أمرك للضياع

ومثل ذلك ما وقع لخالد بن عبد الله القسرى ، فقد عدّوا عليه أنه قال مرّة : أطعمونى ماء ، وقد عيّره بذلك يحيى بن نوفل ، إذ يقول :

بلّ المنابر من خوف ومن وهَلٍ   واستطعم الماء لما جدّ فى الهرب
وألحن الناس كلّ الناس قاطبة   وكان يولع بالتشديق فى الخطب

وقال المبرّد عن خالد القسرىّ « كان متقدما فى الخطابة ومتناهياً فى البلاغة ، فخرج

---

(١) أحد الخوارج تنسب إليه طائفة الفديكات .
(٢) سمى مفرّغا لأنه راهن على أن يشرب عسا من لبن فشربه حتى فرغه .

عليه المغيرة بن شُعْبة بالكوفة فى عشرين رجلا فمطعطوا به ، فقال خالد وهو على المنبر : أطعمونى ماء فعير بذلك ، فكتب إليه هشام فى رسالة يعيره بذلك ، وقال يحيى بن نوفل:

لأعلاج ثمانية وعبـــد لئيم الأصل فى عدد يسـير
هتفت بكلّ صوتك أطعمونى شرابًا ثم بلت على السرير

وذكر عن يزيد بن المهلب أنه لم تؤخذ عليه زلة فى لفظ إلا واحدة . فإنه قال على المنبر (وقد ذكر عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب) ، فقال هذه الضَّبُعَة العرجاء ، فاعتدت عليه لحناً ، لأن الأنثى ضَبُع والذكر ضِبْعان

وبسبب من اللحن وضعف الملكة تلك اللكنة ، وهى العجز عن وضوح اللهجة وصحة مخارج الحروف ، فقد حكوا أن زيادا النبطى وكان شديد اللكنة دعا غلامه ثلاثا، فلما أجابه قال : « من لدن دأوتك ، فقلت لبى إلى أن جئتنى ماذا كنت تصنأ » ، يريد دعوتك وتصنع . وكانت أمّ نوح وبلال ابنى جرير أعجمية ، فقالت يوما : « يا نوح جردان دخل فى عجان أمك » ، تريد أن الجرذ أكل عجينها . وأهدى إلى زياد حمار وحشىّ ، فقال له مولاه أهدوا لنا همار وهش ، فقال زياد : « أىّ شىء تقول » . قال : اهدوا لنا عـيراً « بقلب العين همزة » ، فقال زياد الثانى شرّ من الأوّل .

وقال بعض الشعراء فى أمّ ولد له يذكر لكنتها :

أكثر ما أسمع منها فى السحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر
* والسوءة السوآء فى ذكر القمر *

ومن لكنة عبيد الله بن زياد أنه أملى على كاتب له ، فقال : اكتب الحاصل ألف كر ، فكتبها بالهاء كما لفظ بها ، فأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الكاتب ، فلما فطن لاجتماعهما على الجهل ، قال : أنت لا تهسن أن تكتب ، وأنا لا أهسن أن أملى اكتب الجاصل ألف كر فكتبها بالجيم .

وضـــع النحو

يعدّ العرب أسبق الأمم إلى وضع قواعد النحو ؛ فإن الرومان واليونان والفرس وغيرهم لم يفكروا فى مثل ذلك إلا بعد قرون مرّت على انتقالهم من البداوة ، والذى حدا بالعرب إلى هذا الإسراع هو ما امتازت به لغتهم من حركات الإعراب ، فإن الفساد إلى هذه أسرع لدقة فروقها ولكثرة دواعيها .

بدأ العرب بوضع النحو ولم يقضوا فى الإسلام إلا نصف قرن . ويروون فى أمر وضعه روايات مختلفة ، فبعضها يدلّ على أن علياً كرم الله وجهه هو الذى فكر فى ذلك إذ يذكرون أن أبا الأسود دخل عليه ، فوجد فى يده رقعة ، فقال له : ما هــذه يا أمير المؤمنين ، فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ، « يعنى الأعاجم » ، فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الرقعة إلى أبى الأسود ، فإذا فيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبئ به والحرف ما أفاد معنى . ثم قال علىّ لأبى الأسود : انح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك . واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأســود فيما ليس بظاهر ولا مضمر . وأراد بذلك الاسم المبهم . قال أبو الأسود : ثم وضعت بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ، فلم أذكر لكنّ ، فلما عرضتها على علىّ عليه السلام أمرنى بضمّ لكن إليها . وكنت كلما وضعت باباً عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، فقال لى : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت ، فسمى النحو من ذلك .

ومن هذه القصة نرى أن علياً يعدّ واضع النحو ، لأنه أوّل من فكر فيه ، ونهج لأبى الأسود طريق الوضع بتقسيمه الكلام والاسم إلى أقسامهما .

ويذكرون غير ذلك وهو أن بنتاً لأبى الأسود نظرت فى السماء ، ثم قالت لأبيها : ما أحسنُ السماء ؟ فقال : نجومها ، فقالت : إنما أردت أن السماء حسنة ، فقال لها : قولى ما أحسنَ السماء ! ثم لما أصبح دخل على علىّ كرّم الله وجهه ، فقصّ عليه قصة ابنته ، وقال : إننى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الحمراء . فأذن له علىّ فى أن يضع النحو ، فكان أوّل ما وضعه أبو الأسود الدؤلى باب التعجب ، ثم أتبعه بكثير من الأبواب سدًّا لما كان يسمع من الخطأ ، فوضع باب العطف وإن . . .

وذكر ابن الأثير فى المثل السائر : أن أبا الأسود دخل على ابنته بالبصرة ، فقالت له : يا أبت ما أشدُّ الحرّ ؟ فقال لها : شهر ناجر . قالت له : إنما أخبرتك ولم أسألك . فأتى عليًّا كرّم الله وجهه ، فقال له : ذهبت لغة العرب ، ويوشك إن تطاول عليها الزمن أن تضمحل ، فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره بالخبر ، فقال : هلمّ صحيفة ، ثم أملى عليه : الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف .

ويقال إنه أتى زياد بن أبيه ، وقال له : إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم ، وتغيرت ألسنتها أفتأذن لى أن أصنع ما يقيمون به ألسنتهم ؟ فقال لا ، فلما خرج من عنده دخل رجل على زياد ، فقال : أيها الأمير : مات أبانا وخلف بنون ، فقال زياد : ردّوا علىّ أبا الأسود . وقال له : اصنع ما كنت نهيتك عنه .

وعلى هذه الروايات يكون أبو الأسود هو صاحب علم النحو ، لأنه أوّل من فكّر فيه ، ويكون علىّ عليه السلام بمكان المساعد إن صحّ أنه قال له : الكلمة اسم وفعل وحرف ، وعلى هذا فانح يا أبا الأسود .

ومما روينا نرى أن الفضيلة فى وضع هذا العلم ترجع إلى أحد رجلين عرفا بالفضل : فأما أحدهما وهو علىّ فهو إمام مشهور بعلمه ، وقد دعا له رسول الله حين أرسله إلى اليمن قاضياً ، فقال : « اللهمّ اهدِ قلبهُ وثبّتْ لِسانَهُ » ، وهو حلال المشكلات فى الفقه ومسائل الميراث ، والذى يقول عنه رسول الله : « أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ » ، ويقول عنه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : « لَوْلاَ عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ » ، كما يقول : « لاَ يَفْتِيَنَّ

أَحَدٌ بِالْمَسْجِدِ وَعَلِيٌّ حاضِرٌ » . وأما ثانيهما : فهو أبو الأسود الدؤلى المشهور بالذكاء المشارك فى كلّ فنّ من فقه وشعر وحديث و بديهة حاضرة ودهاء مشهور . فليس بكثير عليهما أن يتعاونا فى وضع النحو ، وهو الذى حفزت إليه ضرورة فساد اللسان ، فأقضّت على ولاة الأمر مضاجعهم خوفاً على القرآن ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول ما يدعيه بعض من أن أبا الأسود لم يضع النحو إلا بعد أن عاشر السريان بالعراق وتعلم لغتهم ، ونقل نحوها للشبه القريب بين اللغتين ، مستدلين بأن أقسام الكلمة فى العربية هى عينها فى السريانية ، وهـذا هو والله العجب ! ! فإن أقسام الكلمة فى جميع اللغات واحدة لا تختلف ، ولو أن أبا الأسود نقل نحو السريانية إلى العربية لوجب أن ينقله جملة ، ولكن المروىّ عنه أنه كان يضع أبوابًا لما يقع تحت سمعه من الخطأ .

ولم يقف أمر الوضع فى النحو عند ما فعله أبو الأسود ، فقد أخذ عنه جماعة ، منهم : عنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر وكلهم من البصرة ، فنشأ علم النحو بصريًا ، ودرس فى مساجدها ، ونشأ فيما حولها ، حتى ألّف فيه عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى كتابًا فى الهمز ، وكان رئيس الناس وواحدهم فى هذا العلم فى عصره .

و بقيت الكوفة لا تشتغل بالنحو حتى أظلت القوم الدولة العباسية ، فظهرت فى الكوفة طبقة أخذت عن أبى عمرو بن العلاء ومعاصريه من البصريين .

وقد غلا ابن فارس غلوًّا قبيحاً حين زعم أن العرب العاربة كانوا يعرفون النحو والعروض بمصطلحاتهما ، وكان ذلك بتوقيف من قبلهم حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول ، وهو الله سـبحانه وتعالى الذى علّم آدم الأسماء كلها . قال ثم أتت الأيام على هذين العلمين ، وقلا فى أيدى الناس حتى جدّد النحو أبو الأسود ، وجدّد العروض الخليل بن أحمد .

وهذا قول ظاهر البطلان لا يستحقّ الاحتفال لدحضه .

الشكل

لم يكن الخطر الذى وصل إلى العرب مضبوطاً بالحركات والسكنات ، بل كان خلوا منها ، فكلمة حمل مثلا تصلح أن تكون فعلا أو اسماً ، وكان التميز بالقرائن ودلالة السياق .

ولما انتشر الإسلام واختلط العرب بالعجم ، ونشأت النابتة من الهجناء والمقرفين، وخشى أن يتطرّق الخطأ إلى القرآن ، فكروا فى تدارك هذا اللسان قبل استفحال الفساد . وحدثت عدّة حوادث استفزتهم إلى النهوض لصيانة القرآن واللغة . فوضع أبو الأسود الدؤلى النحو بمعونة سيدنا علىّ . وتعلم من أبى الأسود كثيرون ، منهم : يحيى بن يَعْمَرٍ ، ونصر ابن عاصم ، ولكن ما وضعه أبو الأسود من الضوابط لم يصدّ التيار الجارف ، فطاب زياد بن سُمَيَّة أو ابن أبيه أو ابن أبى سفيان كما كان يكنيه بنو أمية ، وكان عامل البصرة من قبل معاوية ، طلب من أبى الأسود أن يضع طريقة لإصلاح اللسان ، وقال له : إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب ، فلو وضعت لنا شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعربون به كتاب الله ، فامتنع أبو الأسود أن يضع ذلك ضنًا بما يعرف ، ولأنه موتور من بنى أمية لعزله عن البصرة بعد موت علىّ رضى الله عنه ، وكان من شيعته وواليه عليها . فاحتال زياد على أبى الأسود بأن جعل رجلا يقعد فى طريقه ، ويتعمد اللحن فى القرآن ، ففعل الرجل ذلك ، وقرأ : « إِنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ » (بكسر اللام) ، فاضطرّ أبو الأسود أن يجيب زياداً إلى طلبه ، وقال له : ابغنى كاتباً ، فأرسل له ثلاثين اختارهم واحداً ، وقال له : خذ صبغاً يخالف لون المداد ، فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله . وإذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدى الحرف . (وكان الساكن يترك بلا نقط) ، فإذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة ، فانقط

نقطتين ، وما زال يقرأ بتأنّ ، والكاتب يعمل بما أمره حتى أتمّ القرآن . وكان الصبغ الذى اتخذه الكاتب أحمر ، ولون المداد أسود .

واتبع الناس طريقة أبى الأسود ونوّعوا فيها ، فكانوا إذا رأوا الحرف الذى بعد المنوّن حرف حلق وضعوا نقطتين إحداهما فوق الأخرى علامة على أن النون مظهرة وإلا وضعوهما متجاورتين علامة على الإدغام أو الإخفاء . وهذا مثال يبيّن لك طريقة أبى الأسود فى الشكل :

سلامٌ .. قولاً من ربٍّ رحيم

هذا كلّ ما عمله أبو الأسود فى ضبط الحروف بالشكل ، وقد زاد أهل المدينة للحرف المشدّد علامة على شكل القوس طرفاه من أعلى هكذا : (‿) يوضع فوق الحرف المفتوح ، وتحت المكسور ، وعلى شمال المضموم ، ويضعون نقطة الفتحة فى داخل القوس والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله هكذا : (‿ ‿ ‿) ثم استغنوا عن النقطة ، وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة (⁀ ⁀ ‿) .

ثم زاد أتباع أبى الأسود علامات أخرى ، فوضعوا السكون جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه (ـ) .

هذا هو ما انتهى إليه تصوير الشكل فى عهد الدولة الأموية ، ثم حدث تغيير فى صورة الشكل على يد الخليل بن أحمد فى الدولة العباسية .

ولم تشتهر طريقة أبى الأسود إلا فى المصاحف ، أما الكتب والرسائل فكان شكلها نادراً ، لأن المكتوب إليهم كانوا يعدّون ذلك تجهيلا لهم حتى قال بعضهم : شكل الكتاب سوء ظنّ بالمكتوب إليه .

وفى دار الكتب الملكية بالقاهرة مصحف كوفىّ عثر عليه فى جامع عمرو بن العاص وهو من أقدم المصاحف فى العالم ، مشكول على طريقة أبى الأسود .

الإعجام

الإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس بين المتشابه منها ، كالباء والتاء والثاء مثلا، فالهمزة فيه للسلب : أى إزالة العجمة . والمشهور أن اختراع الإعجام كان فى زمن عبد الملك بن مروان ، والتحقيق أنه كان قبل الإسلام ، فقد روى ابن عباس : أن عامر بن جَدَرة هو الذى وضع الإعجام . ونحن نجد للباء والتاء والثاء مع اختلافها فى النطق صورة واحدة ، وكذلك الجيم والحاء والخاء والدال والذال الخ ، ويبعد كلّ البعد أن تكون الحروف موضوعة من أوّل أمرها على هذا اللبس الذى لا تستطيع القرائن تمييزه بسهولة . على أنه عثر على كتب كتبت قبل زمن عبد الملك فيها إعجام بعض الحروف كالباء وما يشبهها .

ويمكن التوفيق بين الرأيين بأن المراد بحدوث الإعجام فى زمن عبد الملك أنه تكامل ووصل إلى التمام .

فكان الناس إلى أيام الحجاج بالعراق بعد أن مضى على مصاحف عثمان نيف وأربعون سنة يصحفون القرآن ، ويحرّفون كثيراً من الآيات عن مواضعها ، فمنهم من يقرأ : وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار كفور ، والأصل : ختّار . ومنهم من يقرأ : عذابى أصيب من به من أساء ، والأصل : أشاء . وقرءوا : هم أحسن أثاثا وزيّا ، والأصل : ورئياً ، كذلك قرءوا : والذين كفروا فى غرّة وشقاق ، والأصل : فى عزّة ، وقرءوا : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه ، والأصل : إياه . ففزع الحجاج إلى كتّابه ، وسألهم وضع علامات للتمييز بين الحروف ، ودعا نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبى الأسود لهذا الأمر . وقد قرّروا بعد البحث والتروّى والاقدام والاحجام إدخال هذا الإصلاح ، وهو تمييز الحروف المتشابهة بإهمال بعض وإعجام آخر .

ولما كان هذا الإصلاح يستدعى اشتباه نقط الشكل بنقط الإعجام قرّروا أن يكون نقط الشكل بالمداد الأحمر كما فعل أبو الأسود ، ونقط الإعجام بلون المداد المستعمل فى كتابة الحروف . وقد توقف الناس فى قبول ذلك العمل كما توقفوا قديماً عن العمل بإصلاح أبى الأسود ، ولكن شدّة الحجاج جعلتهم يخضعون لرأيه ، وعمّ الإعجام جميع الكتابة فى القرآن وغيره حتى عدّ إهماله خطأ يلام عليه فاعله ، وفى دار الكتب أيضاً مصاحف اجتمع فيها شكل أبى الأسود ، وإعجام نصر بن عاصم .

(تدوين العلوم)

مضى زمن النبىّ وعصر الخلفاء الراشدين ، ولم يكن العرب قيدوا شيئاً من العلوم غير القرآن الكريم . ويرجع امتناعهم عن ذلك إلى أسباب :

أوّلها : أنهم يرون فى القرآن غنية عن كل شىء ، فقد قيل : إن عمرو بن العاص لما رأى مكتبة الإسكندرية أرسل بخبرها إلى عمر ، فقال له : إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليه ، فتقدّم بإعدامها ، فأحرقها عمرو .

وثانى هذه الأسباب : أنهم كانوا منصرفين إلى الفتح ، وإعلاء كلمة الله ، على أن الصحابة من علوم الجاهلية وأشعارها أغفلوها كذلك ، لاشتغالهم بالدعوة إلى الدّين وتأييده قال عمر رضى الله عنه : كان الشعر علم القوم ، ولم يكن لهم علم أصحّ منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ، وَلَهِيَت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، واطمأنت العرب فى الأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئوبوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم أكثره .

وأما ثالث الأسباب : فهو أنهم لقرب عهدهم من البداوة كانوا ذوى ملكات

صحيحة وحوافظ قوية ، فلم يشعروا بالحاجة إلى التدوين ، وهذا هو شأنهم الذى غبروا عليه مدّة جاهليتهم يحفظون أنسابهم وأخبارهم وأشعارهم لا يعتمدون فى ذلك إلا على قوّة حفظهم .

وتضاربت أقوال المؤرّخين فى بيان رأى رسول الله وأصحابه فى التدوين ، فمنهم من ينقل أقوالا يستنبط منها حظره على المسلمين ، ومنهم من ينقل ما يؤيد الدعوة إليه والحثّ عليه . فقد روى أصحاب الرأى الأول عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الكتابة ، وقال : إنما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة كما ورد أنه رأى فى يد عمر ورقة من التوراة ، فغضب وقال : ألم آتكم بها بيضاء نقية ، والله لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعى .

ويروى أصحاب الرأى الثانى أن رسول الله لما فتح مكة قام فخطب ، فقال له رجل من اليمن يقال له أبو شاة : يا رسول الله اكتبوا لى ، فقال رسول الله : اكتبوا لأبى شاة كما يروى عن عبد الله بن عَمْرو قال : كنت أكتب كلّ شىء أسمعه من رسول الله أريد حفظه ، فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : أتكتب كلّ شىء تسمعه ورسول الله يتكلم فى الرضا والغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، ثم ذكرت ذلك لرسول الله ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حقّ .

⁂

والذى نراه فى هذه المرويّات المتناقضة فى ظاهرها أن النهى فيها إنما كان عن كتابة الأديان ، لأن فى ذلك إحياء لها ، وهو يناقض عمل رسول الله . أما كتابة غير ذلك من الحديث أو القرآن فليس بمستساغ فى عقل أن ينهى عنه رسول الله ، وفى أول سورة من القرآن حضّ على الكتابة . قال تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ، ورسول الله هو الذى حارب الأمية فجعل فداء الأسرى من الكتّاب يوم بدر

تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة . أما ما حدث من تحرج الصحابة والتابعين عن كتابة الحديث فإنما كان مبالغة منهم فى توقى الابتداع وخوفاً من اختلاط الحديث بالقرآن . فلما شاعت الفتن ، واجترأ الناس على رسول الله ينسبون إليه مالم يقل ، لم ير الأئمة بدًّا من الإذن بتدوينه ، وقد أمن اختلاطه بالقرآن .

العلوم المدوّنة فى هذا العصر

لقد ذكروا أن معاوية استدعى رجلا من اليمن اسمه عَبِيد بن شَرْيَةَ الجُرْهُمِىّ ، فسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم وتبلبل الألسنة ، فأجابه عن كلّ ذلك ، فأمر معاوية أن يدوّن ذلك وينسب إلى عبيد ، فكان هذا أوّل كتاب أُلّف فى التاريخ ، وقد عاش الرجل إلى أيام عبد الملك وعمل كتباً أخرى منها : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك الماضين كما ذكروا أن وهب بن مُنَبِّه المتوفى سنة ١١٦ هـ وضع كتاباً فى الأخبار . كذلك يقال : إن زياد ابن أبيه ألّف كتاباً فى نسبه ومثالب العرب ، ودفعه إلى ولده وقال : استظهروا به على العرب فإنهم يكفّون به عنكم .

وقيل : إن واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ له كتاب فى المرجئة ، وآخر فى التوبة ، وكتاب فى خطبته التى أخرج منها الراء ، وكتاب معانى القرآن .

كذلك ألّف يونس الكاتب كتباً فى الأغانى ونسبها إلى المغنين ، وقد أخذ الغناء عن مَعْبَد وابن سُرَيْج . وفى علم النحو وضع عبد الله بن إسحق الحَضْرمىّ كتاباً فى الهمز كان يمليه على تلاميذه .

أما الحديث فلم يدوّن إلا فى أيام عمر بن عبد العزيز . استخار الله أربعين يوما ثم أمر ابن شهاب الزُّهْرى ، أو ابن جُرَيج ، أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فكان ذلك ، وبعث بما جمع إلى الأمصار ، ثم فقد هذا المدوّن ولم يوقف له على أثر .

وكان الدافع لعمر إلى تدوين الحديث هو ما كان من اجتراء الناس على رسول الله باختلاق الأحاديث لابطال حجة خصومهم أو لاكتساب تأييد العامة فيما يحتاجون فيه إلى تأييد . وقد ذكروا أن المهلّب بن أبي صفرة وضع أحاديث كثيرة ليشدّ بها أزر المسلمين ، ويضعف أمر الخوارج مع أنه معدود من الأتقياء ، ولعله كان يعدّ ذلك من خدع الحرب ، وهي يباح فيها ما لا يباح فى غيرها ، وأمثال ابن المهلب كثير وبعض مختلق الحديث كان يفعل ذلك نكاية فى الإسلام . فقد ذكروا أن عبد الله بن المقفع اعترف بأنه دسّ على المسلمين أربعة آلاف حديث كما ذكروا أنه لما أخذ عبدالكريم ابن أبي العوجاء أحد وُضّاع الحديث لتضرب عنقه ، قال : قد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أُحرّم فيها وأُحلّلُ . وأن البخارى اختار أحاديثه ، وهى سبعة آلاف ، فيها ثلاثة آلاف مكرّرة من ستمائة ألف حديث ، وقد تجرّد العلماء لبيان الصحيح والفاسد من الحديث ولكن ذلك لم يكن إلا فى العصر العباسى .

أما علم التفسير فقد ظلّ الصحابة والتابعون يتناقلون ما سمعوه عن النبيّ من بيان مشكل القرآن ، وتوضيح غامضه ،وتمييز ناسخه ومنسوخه إلى نهاية القرن الأوّل .

ولابن عبّاس المتوفى سنة ٦٨ هـ تفسير مدوّن ، وفى دار الكتب الملكية المصرية بضع نسخ منه ، ولكن يظهر أنه إنما نقل عنه بالرواية ولم يدوّن فى أيامه ، والمشهور أن أوّل من دوّن التفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

ولم تقف همتهم فى هذا العصر عند العلوم العربية أو الدينية ، بل إنهم ترجموا فى الطبّ والكيمياء ، فقد ذكروا أن ماسَرْجَوَيْه السريانى اليهودى متطبب البصرة نقل كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية ، وكان ذلك فى الدولة الأموية. كما ذكروا أن خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان يدعى حكيم بنى مروان كان فاضلا فى نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى فى ذلك عمره وأسقط نفسه ، وله كلام فى صناعة الكيمياء والطبّ وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وقد أخذ هذه الصنعة عن رجل من الرهبان يسمى مريانس ، وقد استبعد ابن خلدون

أن يكون من العرب فى هــذا العهد من يشتغل بهذه العلوم . قال فى مقدمته عن علم الكيمياء : « وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها إلى خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ، ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربى والبداوة إليه أقرب ، فهو بعيد من العلوم والصناعات جملة ، فكيف له بصناعة غريبة المنحى ، مبنية على طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين فى ذلك من الطبعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم » . واستغراب ابن خلدون لا موجب له ، فإن الذى ننفيه عن العرب فى ذلك العصر إنما ينفى عن جملتهم وجمهرتهم ، وقيام فرد بالإقبال على علم أو علوم غريبة تشغف بها النفس غير مستبعد خصوصاً إذا كان القائم بذلك له من ذات يده وفراغ باله ما يمكنه من محاولته على يد معلم ماهر كمعلم خالد الراهب ، والأمراء فى كل عصر لا بدّ لهم من اشتغال بعلم أو لهو تزجية للوقت وقتلا للسأم .

وصف الكتب المدونة فى هذا العصر

ولم تكن تلك الكتب التى عرفت فى هــذا العصر على الحالة التى نرى عليها الكتب اليوم ، أو على ما صارت عليه فى العصر العباسى من التقسيم والتبويب ، وحسن التنسيق ـ التسمية والعنونة ـ ولكنها كانت محض روايات لا أثر فيها للاستنباط أو الاستدلال ، ولا عمل للمؤلف فيها إلا الجمع لما وصلت إليه يده وانتهى إليه سماعه ، فالحديث الذى دوّن فى أيام عمر بن عبد العزيز كان مجموعة أحاديث بسندها ليس لها نصيب من التبويب الذى عرفناه فى البخارى ومسلم اللذين هما من عمل الدولة العباسية فيما بعد . فالذى كان يطلق عليه اسم كتاب فى ذلك العصر هو مجموعة من الأوراق فى موضوع واحد لا صبغة لها إلا الرواية والسند فى حديث أو غيره .

وبعض هــذه الكتب بقيت إلى عهود متأخرة ، فابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ هـ يقول : إنه رأى صحف أبى الأسود الدؤلى فى النحو كما رأى كتاب

عَبِيد بن شَرْيَة . وابنُ خِلّكان المتوفى سنة ٦٨١ يقول : إنه رأى كتاب ابن مُنَبّه في تاريخ اليمن .

وفى وصف حركة العلم والاشتغال به فى هذا العصر يقول ابن خلكان عن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ إنه كان إذا جلس فى بيته وضع حوله كتبه ، فيشتغل بها عن كلّ شىء من أمور الدنيا . فقالت له امرأته يوما : والله لهذه الكتب أشدّ علىّ من ثلاث ضرائر ، وإن أبا عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرّأ (تنسك) فأخرجها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأوّل لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن عرب الجاهلية .

(عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب)

إن العصبية التى بنيت عليها سياسة الدولة الأموية قد عادت على اللغة والأدب بأجلّ نفع ، فإن من آثارها أن أغرم رجال هذه الدولة بحديث آبائهم من العرب يرفعون من ذكرهم ، ويمجدون أعمالهم ، ويعدّدون أيامهم ، ويسجلون مفاخرهم . ولم يكن من سبيل إلى ذلك إلا رواية شعرهم ، وإحياء ما درس من أخبارهم .

وكان الإسلام قد شغل العرب عن ذلك أيام النبىّ والخلفاء الراشدين ، فانقطع ما كان متصلا من رواية هذه الأخبار ، وكاد ينسى ما كان محفوظاً من تلك الأقوال . فكان عمل الخلفاء والأمراء جهاداً كبيراً ، وسعياً مشكوراً فى سبيل إحياء ما درس ، وتأبّدت معالمه من تلك الآداب ، فبذلوا العطاء الكثير لمن أحيا لهم منها شيئاً (برواية قصيدة ، أو تحقيق كلمة ، أو نسبة بيت لقائله .

ولقد كان الخليفة أو الأمير يأرق ، فلا يخطر بباله إلا شىء من ذلك ، فينطلق حاجبه ينادى فى الناس لعله يرى طلبة سيده ، أو يرسل الشرط فى جوف الليل إلى

فلان الراوية ليأتوه به من ساعته . أو يطلب بالبريد من عامل على أطراف مملكته حمل ذلك الأديب الذى يؤمل فى علمه ردّ شبهته ، فإذا اطمأنّ الرجل بمجلس الخليفة وسأله فروّى ظمأه ، أجزل له العطاء وقرب منزلته .

فمن أجل ذلك كان العلماء لا يألون جهداً فى إحياء أدب هذه اللغة بالمدارسة والبحث ، ومشافهة الأعراب واستخبارهم ، يتلقونهم بالبصرة أو الكوفة ، أو يخرجون إليهم فى البادية ، فما يدعون صبيًّا ، ولا شيخاً ، ولا فتاة ، ولا عجوزاً إلا حاوروهم واستنشدوهم ، ثم يرجعون وقد امتلأت جعابهم بالعلم الذى يؤملون رواجه والإثراء به عند رجال هذه الدولة .

ولقد كان الخلفاء والأمراء أنفسهم علماء مُلِمِّين ، ورواة ثقات يعلمون جلساءهم ما يجهلون ويرشدونهم إلى ما لايفهمون . وقد أعدّوا لهذه المذاكرات مجالس يحشدون لها العلماء والأدباء ، وتجرى بين أيديهم مناظراتهم ، ويكون لهم الرأى فى تصويب وتخطئة ، ولكنهم لم يكونوا يكتفون بهذه المجالس . بل لقد امتلأت كتب الأدب بما يدلّ على أن هذه اللغة وآدابها كانت موضوع سمرهم ، وحديث موائدهم ، بل هى العنصر الذى ملأ أوقات فراغهم وشغلهم ، لا يصدّهم عنها غضب ، ولا يلهيهم طرب ، ولم يكتفوا بأن يهبوا فى سبيلها المال الجزيل والجاه العظيم ، بل لقد وهبوا الأرواح لأصحابها لأدب راعهم ، أو شعر ترنحت له أعطافهم ، فيؤمنون الخائف ، ويرفعون السيف عن المقتول ، وينقلب حنقهم عليه صفحاً ورضاء .

وإن هذا لغرام ما سمعنا بمثله فى الناس ، لذلك كان من نتائجه المحتومة أن اجتمع لدينا لهذه اللغة أدب لايظن أن مثله اجتمع لأمة عن أيام بداوتها ، فحفظت الأمة العربية بهذا الأدب صورة صادقة من بداوتها . وشأن البداوة فى كلّ أمة ألا يبقى منها إلا أحاديث خرافة ، ولقد كان من سعادة اللغة أن الذين كانت عنايتهم بها أتمّ من خلفاء هذه الدولة هم أطول خلفائها أعماراً فى الخلافة ، وهم : معاوية ، وعبد الملك بن مروان ،

وهشام بن عبد الملك ، وكل منهم حكم زهاء عشرين سنة ، فكان مجموع مدّتهم ثلاثة أرباع عمر هذه الدولة .

(أمثلة من عناية الخلفاء والأمراء بالأدب واللغة)

١ — أنشد عبد الملك يوما قول عِمْران بن حِطّان(١) يمدح عبد الرحمن بن مُلْجَم قاتل علىّ كرّم الله وجهه :

يا ضَرْبَةً من كَرِيمٍ ما أراد بها   إلا لِيَبْلُغَ من ذى العرش رِضْوانا
إنى لأفْكِرُ فيه ثم أحْسِبه   أوْفى البَرِيّة عند الله مِيزانا(٢)

ثم قال لجلسائه : من يعرف قائلها ؟ فسكت القوم جميعاً ، فقال لرَوْح بن زِنْباع : سل ضيفك . قال نعم أنا سائلهم ، وما أراها تخفى على رجل فيهم ما سألته عن شىء قطّ إلا وجدته به عالما . فلما راح إلى ضيفه ذكرلهم البيتين ، وكان عِمران بن حِطّان من ضيوفه يكتم خبره خوفا من الخليفة ، فقال له : قائلها عِمْران بن حطان فى ابن مُلْجَم قاتل علىّ فقال له : فهل فيها غير هذين البيتين تفيدنيه ؟ قال نعم :

لِله دَرُّ المُرادىّ الذى سفكتْ   كفّاه مُهْجَة شَرِّ الخلقِ إنسانا
أمْسَى عَشِيّةَ غَشّاهُ بِضَرْبَتِهِ   مِمّا جَناهُ مِنَ الآثامِ عُرْيانا

ثم أتبع البيتين بقوله : صلوات الله على علىّ ، ولعن الله عِمْران وابن مُلْجَم ، فلما أصبح رَوْح غداً على أمير المؤمنين فأخبره بالحديث ، فقال له ضيفك هذا هو عِمْران بن حِطّان ،

---

(١) عمران بن حطان السدوسىّ شاعر فصيح من الشراة ودعاتهم والمقدمين فيهم ، وكان فى آخر أيامه من القعدة لأن عمره طال فضعف عن القتال فكان يدعو بلسانه . وهو من البصرة فلما اشتهر بالخروج طلبه الحجاج فهرب إلى الشام ثم طلبه عبد الملك فهرب إلى عمان وما زال يتنقل حتى مات .

(٢) فكر (من باب ضرب) كأفكر وتفكر . حسب بمعنى الظن (كفرح) والمضارع بالوجهين

فقل له : إن الخليفة أمرنى أن آتيه بك ، فأظهر عمران السرور بذلك ، ثم فرّ خوفاً من عبد الملك لأنه كان خارجا عليه .

٢ — نَضَدَ عبد الملك يوما الموائد يطعم الناس ، فجلس رجل من أهل العراق على بعض تلك الموائد ، فنظر إليه خادم عبدالملك فأنكره وضايقه ، فقال له الأعرابى : دعنى أتهنأ بزاد أمير المؤمنين ولا تنغصنى به ، ثم إن عبد الملك وقف على تلك المائدة ، فقال من القائل :

إِذَا الْأَرْطَى تَوَسَّدَ أَبْرَدَيْهِ   خُدودُ جَوازِئٍ بالرَّمْلِ عِينِ[١]

وما معناه ؟ ومن أجاب فيه أجزناه . والخادم يسمع ، فقال العراقى للخادم : أتحبّ أن أشرح لك قائله وفيم قاله ؟ قال نعم . قال : يقوله عدىّ بن زيد فى البطيخ الرَّمْسِىّ . فقال ذلك الخادم . فضحك عبد الملك وقال له : من دلك على هذا ، قال : هذا العراق فعل الله به ، فقال عبد الملك للعراقى : أنت لقنته هــذا ؟ قال : نعم ، لأنه كدر علىّ طعامك بازدرائه لى ، ثم قال له عبد الملك : فكيف الصواب ؟ قال يقوله الشَّمَّاخ[٢] ابن ضِرارٍ الغطفانى فى صفة البقرة الوحشية قد جزئت بالرطب عن الماء ، قال صدقت وأجازه ، ثم قال له . ما حاجتك ؟ قال : تنحى هذا عن بابك فإنه يشينه .

٣ — قال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك . فكان هشام

---

(١) الأرطى: شجر أحمر السيقان . الأبردان: الظل والفئ، أو الغداة أو العشىّ . الجوازئ : المكتفية بالعشب الأخضر عن الماء . العين: جمع عيناء، وهى التى عظم سواد عينيها فى سعة (فائدة) كما تقصد العرب بالأبردين الظل والفئ أو الغداة أو العشىّ تقصد بالأبيضين اللبن والماء أو الخبز والماء أو الشحم واللبن . وبالأحمرين الخمر واللحم . ويكون تقدير البيت إذا توسدت خدود البقر الأرطى فى الغداة أو العشىّ . . . ويكون نصب أبرديه على الظرفية . وبعد البيت :

بعثت إليك راحلتى تشكى   هزالا بعد محفدها السمين

والمحفد : السنام .

(٢) الشماخ : شاعر مخضرم وهو أحد من هجا قومه وعشيرته ومنّ عليهم بالقرى . قال فيه الحطيئة إنه أشعر غطفان ، وكان يجيد وصف القوس والحمار الوحشى ، وكان أرجز الناس على البديهة

يجفونى لذلك ، فلما أفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت فى بيتى مدّة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخوانى سرًّا ، فلما لم أسمع أحدا يذكرنى سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ، فإذا شرطيان يقولان : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت فى نفسى : من هـذا كنت أحذر ، وحاولت أن آتى أهلى أودعهم فلم يمكنانى ، فلما صرت إلى الأمير يوسف رمى إلىّ كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مُرَوَّعٍ ولا مُتَعْتَع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا يسير عليه إلى دمشق . فلما صرت إلى هشام استدنانى فدنوت ، ثم قال لى : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت لا . قال بعثت إليك لبيت خطر ببالى لم أدر قائله قلت وما هو ؟ قال :

فدَعَوْا بالصَّبُوحِ يوما فجاءت ... قَيْنَةٌ فى يمينها إبريقُ

فقلت هذا يقوله عَدِىُّ بن زَيْدٍ[1] فى قصيدة له . قال فأنشدنيها ، فأنشدته :

بَكَرَ العاذلونَ فى وَضَحِ الصُّبْـحِ ... يَقُولُونَ لِى ألا تَسْتَفِيقُ

وَيَلُومُونَ فيكِ يَا ابْنَةَ عَبْدِ اللهِ ... وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ

لَسْتُ أَدْرِى إِذْ أَكْثَرُوا الْعَذْلَ فيها ... أعَدُوٌّ يَلُومُنِى أَمْ صَدِيقُ

فدعوا بالصَّبوح يوما فجاءت ... قَيْنَةٌ فى يمينها إبريقُ[2]

قدَّمَتْهُ على عُقَارٍ كَعَيْنِ الدْ ... دِيكِ صَفَّى سُلَافَهَا الرَّاوُوقُ[3]

مُزَّةٌ قَبْلَ مَزْجِها فإذا ما ... مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمُهَا مَنْ يَذُوقُ

---

(١) عدى بن زيد: شاعر جاهلى نصرانى قروى كان من أهل اليمامة ثم تحوّل جده إلى الحيرة لدم أصابه فى بلاده . وفيها نشأ عدى واتصل بملوكها حتى لقد كتب فى ديوان كسرى بالعربية وكان يعرف الفارسية ، وليس من الفحول قالوا عنه: إنه بين الشعراء كسهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها .

(٢) الصبوح : شراب الصبح .

(٣) العقار : الخمر لمعاقرتها (ملازمتها) الدنّ أو لعقرها شاربها: أى قيدها إياه عن المشى .

وطفَا فوْقَها فَقاقيعُ كالدُّرْ ... رِ صِغَارٌ يُثِيرها التَّصْفِيق[١]
ثم كان المِزَاجُ ماء سحابٍ ... لا صَرًى آجِنٌ ولا مَطْرُوق[٢]

فطرب هشام ، ثم قال أحسنت : فسل حاجتك كائنة ما كانت ، فقال حماد فقلت : إحدى الجاريتين لجاريتين كانتا واقفتين فى خدمة الخليفة ، فقال : هما لك ، ثم بتّ فى ضيافة الخليفة ، فلما أصبحت إذا بعدة من الخدم بيد كلّ منهم بَدْرة[٣] ، فقال لى أحدهم أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول لك : انتفع بهذا المال فأخذته والجاريتين وانصرفت .

٤ — قال عبد الملك يوما لجلسائه ، وكان يتجنب غير الأدباء : أىّ المناديل أفضل ، فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غِرْقىء البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً أفضل المناديل كما قال أخو تميم ، يعنى عَبْدة بن الطبيب :

لَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ ... وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ المَرَاجِيلُ
وَرْدٌ وأَشْقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابِخُهُ ... مَا غَيَّرَ الغَلْىُ مِنْهُ فَهْوَ مَأْكُولُ[٤]
ثُمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ ... أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

قال فى الكامل : وإنما أخذ الشاعر هذه الأبيات من بيت أمرئ القيس ، فإنه جمع ما فيها فى بيت واحد مع فضل التقدّم :

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنَا ... إذا نحن قمنا عن شِواء مُضَهَّبِ

والمضهب الذى لم يُدْرك .

---

(١) الفقاقيع : هنات صغار مستديرة تتولد من مزج الخمر بالماء واحدتها فقاعة . التصفيق مزج الخمر بالماء .
(٢) الصرى: الماء يطول مكثه. آجن: متغير اللون والطعم. المطروق: الذى خوضته الابل وبولت فيه.
(٣) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم . أو سبعة آلاف دينار .
(٤) مايؤنيه : أى يؤخره حتى يبلغ أناه: أى إدراكه، والعرب لا تنضج اللحم لاستعجالها للضيف ولأن ذلك مستحب عندها . الورد : الأحمر . الأشقر ! الذى بين الحمرة والبياض .

٥ — كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يعظم أمر قَطَرِىّ بن الفُجاءة المازنى ، فكتب إليه عبد الملك : أُوصيك بما أوْصى به البكرى زيداً ، فقال الحجاج لحاجبه : ناد فى الناس من أخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيداً فله عشرة آلاف درهم ، فقال رجل للحاجب : أنا أخبره فأدخله عليه ، فقال له : ما قال البكرى لزيد ؟ قال : قال موسى بن جابر البكرى لابن عمه زيد :

أَقُولُ لِزَيْدٍ لا تُتَرْتِرْ فَإِنَّهُمْ ... يَرَوْنَ المنايا دونَ قَتْلِكِ أو قَتْلِي (١)

فإِنْ وَضَعُوا حَرْبًا فضَعْهَا وإِنْ أَبَوْا ... فَشُبَّ وَقُودَ الْحَرْبِ بالحَطَب الْجَزْلِ (٢)

فإِنْ عَضَّتِ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ بِنابِهَا ... فعُرْضَةُ نارُ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَو مِثْلِي (٣)

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين عُرْضة نار الحرب مثلى أو مثله .

٦ — جىء إلى الحجاج بالأسرى بعد حرب ابن الأشعث ، فوقفوا بين يديه ، وجعل يقتلهم ، ثم صاح به رجل : « والله يا حجاج لئن كنا قد أسأنا بالذنب ، فما أحسنت بالعفو ، ولقد خالفت الله فينا وما أطعته ، فقال له : « كيف ؟ ويلك ! » . قال : لأن الله تعالى يقول : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » ، وقد قتلت فأثخنت حتى تجاوزت الحدّ ، فامنن ولا تقتل ، فقال الحجاج : « ويلك ! ألا كان هذا الكلام قبل هذا ؟ » ، ثم أمر رفع السيف وأمن الناس .

٧ — فرّ الكُمَيْتُ الشاعر المتشيّع لبنى هاشم من سجن هشام ، فكان شديد الحنق عليه لتشيعه وفراره من سجنه ، ثم احتال الكميت حتى دخل على هشام ، فقال له : يا كميت ، ألست القائل :

---

(١) الترترة : التزلزل والتقلقل ، وهى أيضا استرخاء فى الكلام والبدن .

(٢) الوقود بالفتح والضم : شبوب النار . وبالفتح خاصة : الحطب كالوقيد والوقاد .

(٣) يقال هو عرضة لذلك : أى مقرن له قوى عليه . وجعلته عرضة لذلك : أى نصبته له ، والمعنيان مناسبان هنا : أى نحن نقاوم نار الحرب ، أو نحن معرضون لها .

فَقُلْ لِبَنِي أُمَيَّـــةَ حَيْثُ حَلُّوا ... وإِنْ خِفْتَ الْمُهَنَّدَ وَالْقَطِيعَا(١)
أَجَاعَ اللهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ ... وَأَشْبَعَ مَنْ بِجَوْرِكُمُ أُجِيعَا
بِمَرْضِيِّ السِّيَاسَــةِ هَاشِمِيٍّ ... يَكُونُ حَيًا لِأُمَّتِهِ رَبِيعَا

فقال : لا تثريب يا أمـير المؤمنين ، إن رأيت أن تمحو عنى قولى الكاذب . قال : بماذا ؟ قال : بقولى الصادق :

أَوْرَثَتْهُ الْحَصَانُ أُمُّ هِشَامٍ ... حَسَــبًا ثَاقِبًا وَوَجْهًا نَضِيرَا(٢)
وَتَعَاطَى بِهِ ابْنُ عَائِشَــةَ الْبَدْ ... رَ فَأَمْسَى لَهُ رَقِيبًا نَظِــيرَا
وكَسَــاه أَبُو الْخَلَائِفِ مَرْوَا ... نُ سَــنَاءَ الْمَكَارِمِ الْمَأْثُورَا
لَمْ تَجَهَّمْ لَهُ الْبِطَاحُ وَلَكِنْ ... وَجَــدَتْهَا لَهُ مَعَانًا وَدُورَا(٣)

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر ، ثم قال : رضيت عنك يا كميت ، فقبل يده ، وأمر له بأربعين ألف درهم وثلاثين ثوبا شامياً ، وكتب إلى خالد ابن عبدالله القسرى عامله على العراق ينهاه عن التعرض للكميت ، ويأمره بإخلاء سبيل امرأته ، وأن يعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً .

٨ — وصفت لعبد الملك جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه فيها ، فامتنع وامتنعت ، ثم أضعف لصاحبها الثمن وأخـذها على كره منها ، فأعجب بها عبد الملك ، وأمرها بلزوم مجلســه والقيام على رأسه ، فبينما هى عنده ومعه ابناه الوليد وسليمان ، وقد أخلاهما للمذاكرة إذ أقبل عليهما ، فقال : أىّ بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

---

(١) القطيع : السوط أو القضيب تتخذ منه السهام ويصح إرادة المعنيين .
(٢) أم هشام، هى بنت إسماعيل المخزومى، وهى زوج عبد الملك وكانت له أيضا عائشة وهى بنت طلحة التيمى وقد ولدت له أبا بكر واسمه بكار .
(٣) البطاح : أراد بها الأماكن المقدسة : أى الكعبة وما حولها . المعان : المباءة والمنزل .

وقال سليمان : بل قول الأخطل :

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

فقالت الجارية : بل قول حسان :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

فأطرق عبد الملك ، ثم قال : وأى بيتٍ قالته العرب أرقّ ، فقال الوليد قول جرير :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا

فقال سليمان : بل قول عمر بن أبى ربيعة :

حَبَّــذَا رَجْعُهَا إِلَيْهَا يَدَيْهَا مِنْ يَدَيْ دِرْعِهَا تَحُلُّ الْأَزْرَا

فقالت الجارية : بل بيت حسان :

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرْ رِ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ

ثم قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد قول عنترة :

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الْأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا وَلٰكِنِّي تَضَايَقَ مُقْدَمِي

فقال سليمان : بل قوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَالْمَوْتُ مِنِّي سَابِقُ الْآجَالِ

فقالت الجارية : بل بيت كعب بن مالك :

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا قُدُمًا وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال عبد الملك : أحسنتِ ، ومانرى شيئاً فى الإحسان إليك أبلغ من ردّك إلى أهلك ، فأجمل كسوتها ، وأحسن صلتها ، وردّها إلى أهلها .

٩ — ضمّ مجلس عبد الملك جماعة من خواصه وسمّاره ، وكلهم من أهل الأدب ، لأنه كما علمت كان يتجنب غيرهم فى مجالسه . فقال « أيّكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه ، وله علىّ ما يتمنى ، فقام إليه سُــوَيْد بن غفلة ، فقال : أنا لهـا يا أمير المؤمنين ، فقال : قل ما عندك ، فقال :

«أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق خدّ . دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال ظهر . عين . غُدْبة[١] . فم . قفا . كف . لسان . منخر . نُغْنُغ[٢] هامة . وجه . يد . فهذه حروف المعجم ، والسلام على أمير المؤمنين » .

فقام بعض الجالسين وقال : أنا أقولها فى جسد الإنسان ثلاثا . فقال عبد الملك : قل ولك ماتتمنى ، فقال :

« أنف . أذن . أسنان ـ بطن . بصر . بز ـ ترقوة . تمرة . تينة[٣] ـ ثغر . ثنايا . ثدى ـ جمجمة . جنب . جبهة ـ حلق . حنك . حاجب ـ خد . خصر . خاصرة ـ دبر . دماغ . دُرْدُر[٤] ـ ذكر . ذقن ذراع ـ رقبة . رأس . ركبة ـ زند . زردمة[٥] . زغب[٦] ـ ساق . سرة . سبابة ـ شفة . شعر . شارب ـ صدر . صدغ . صلعة ـ ضلع . ضفيرة . ضرس ـ طحال . طُرّة[٧] . طرف ـ ظهر . ظفر . ظَلْم[٨] ـ عين . عنق . عاتق ـ غُدْبة . غلصمة . غنة ـ فم . فك . فؤاد ـ قلب . قدم . قفا ـ كتف كفّ . كعب ـ لسان . لحية . لوح ـ مرفق . منكب . منخر ـ نُغْنُغ[٩] نغنوغ . ناب . نَن[١٠] . هامة ـ هيف . هيئة ـ وجه . وجنة . ورك ـ يمين . يسار . يافوخ . ثم نهض مسرعا وقبل الأرض بين يدى عبد الملك ، فقال أعطوه ما يتمنى .

---

(١) الغدبة : لحمة غليظة تحت لهازم الانسان .
(٢) النغنغ : اللحمة فى الحلق عند اللهازم .
(٣) التينة : الدبر .
(٤) الدردر : مغارز الأسنان فى الصبي .
(٥) الزردمة : الغلصمة ، أو موضع الابتلاع .
(٦) الزغب : صغار الشعر .
(٧) الطرة : الناصية .
(٨) الظلم : بريق الأسنان .
(٩) الفرج .
(١٠) الشعر الضعيف .

(مجامع العلم والأدب)

كان فى عهد هذه الدولة مجامع للعلم وأخرى للأدب . تقوم الأولى على علوم الدين من تفسير للقرآن ورواية للحديث و بيان للفرائض والوعظ ، ولم يكن يؤيدها فى الغالب ، ولا يدفع إليها إلا رغبة كبار الصحابة والتابعين فى نشر الإسلام وتفقيه الناس فيه . فلم يكن للدولة ولا للقائمين بالأمر بذل فى سبيل ذلك ولا تشجيع عليه .

أما مجامع الأدب فكانت زاخرة بالشعر والرواية عن العرب تزدحم فيها الأقدام ، ويجرى التنافس ، ويذكيها اشتراك الخلفاء فيها ، ومساجلتهم لرجالها ، وإغداقهم على المبرّزين منهم وإذا كانت مجامع العلم ، وهى حلقات الدروس فى مساجد الأمصار، وفناء الكعبة ، ومسجد رسول الله بالمدينة ، فإن مجالس الأدب هى دور الخلفاء والولاة والمساجد ، وكُناسة الكوفة ، ومربد البصرة .

مجامع العلم

لما كثرت البلاد المفتوحة ، واستقرّت فى يد العرب ، وكانت كثيرة الخيرات وفيرة الغلات رغب العرب فى النزوح إليها للاستمتاع بخيراتها . فكان من ذلك أن انبثّ فى البلاد أصحاب رسول الله الذين عقلوا عنه الدّين ، وفهموا معانى القرآن ، وأحصوا حديثه ورأوا فعله ، فالتفّ حولهم الناس يتلقون عنهم ، و يرهفون آذانهم لما فاتهم من حكمة رسول الله وأدبه ، وكانت الأمصار إذ ذاك هى : المدينة ، ومكة ، والبصرة، والكوفة ، ودمشق، والفسطاط . وقد أتاح الله لكلّ مصر من هذه الأمصار عالما أو علماء كانوا هداة أهلها ، وخلفوا فيها تلاميذ لهم اقتدوا بآرائهم ، واصطبغوا بصبغتهم ، وشاعت فى كلّ مصر آراء ، أو راجت علوم توافق النزعة التى امتاز بها

ذلك الصحابى والتابعى الذى كان محدّث الناس بهذا المصر .

كان للمدينة ومكة الشأن الأول بين الأمصار فى نشر الدّين . فأما مكة فلها شرف البيت ونشأة النبىّ والإسلام بها وكونها مثابة الحاج وأما المدينة ، فلكونها مُهاجَر النبىّ ، وبها كان جلّ التشريع الإسلامى ، وهى مركز الخلافة أيام أبى بكر وعمر وعثمان . ولكن المدينة كانت أعظم شأناً من مكة (على عظم شأنها) إذ كان بالمدينة جلّ الصحابة الذين سمعوا من الرسول ، وحضروا غزواته ولازموا مجلسه ، فقد بقوا بالمدينة لم يبرحوها ، ولم يعد إلى مكة من كان بها من المهاجرين . تحرجا من ذلك والتماساً للبركة بملازمة الموضع الذى شرُف برسول الله حيًّا وميتاً .

فكانت المدينة ثم مكة أكثر قصاداً من طلاب العلم لكثرة من بهما من حملة الشرع والذين حضروا التنزيل ، فكان من كبار العلماء بالمدينة زيد بن ثابت الذى كان مترئساً فى القضاء والفُتيا والقراءة والفرائض ، وكان من فضله أن يأخذ ابن عباس بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء . ثم من علماء التابعين بها سعيد بن المسيَّب تلميذ زيد بن ثابت ، وعروة بن الزبير ، وأخيراً أنجبت المدينة مالك بن أنس .

وكان من كبار رجال مكة مُعاذ بن جبل الذى خلفه رسول الله بمكة بعد الفتح يعلم أهلها ويفقههم ، وعبد الله بن عباس أعلم الناس بتأويل القرآن ، ومنهم سفيان ابن عيينة الذى أخذ عنه الإمام الشافعى قبل أن يتحول إلى المدينة .

ونزل بالكوفة من أصحاب رسول الله كثير كان من أشهرهم : علىّ بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ولكنّ علياً كان مشغولا بالسياسة والحروب فلم يجلس للتعليم ، وابن مسعود ، وهو الذى أرسله عمر بن الخطاب إلى الكوفة لتعليم أهلها ، فكان له تلاميذ علموا الناس من بعده ، واجتمع بهم من قدموا من المدينة فيما بعد ، فكانت فى الكوفة حركة علمية كبيرة ، ومن علمائها شريح القاضى والشَّعْبى والأشتر النَّخَعِى . ومن علماء الكوفة فيما بعد (فى عصر العباسيين) الإمام أبو حنيفة النعمان .

وفى البصرة كان أوّل من علم الناس بها أبو موسى الأشعرى ، وهو يمنى قدم مكة

فأسلم وهاجر إلى الحبشة ، وكان يعدّ من أعلم الصحابة ، وكذلك علم بها أنس بن مالك الذى كان صبياً حين قدم النبىّ المدينة وخدمه عليه الصلاة والسلام عشر سنوات ، وكان آخر من مات بالبصرة من الصحابة ، واشتهر بالحديث أكثر من الفقه ، وإنما أتاه ذلك من ملازمته للنبىّ . ومن تلاميذه الحسن البصرى وابن سيرين ، وقد ماتا فى سنة واحدة هى سنة ١١٠ هـ .

وفى الشام : كان معاذ ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وقد أرسلهم عمر حين طلبهم يزيد بن أبى سفيان لاحتياج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم فى الدّين ، ثم بعث عمر بعدهم عبد الرحمن بن غَنْم ، فتخرّج على أيديهم كثيرون من التابعين ، كعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة والأوزاعى إمام أهل الشأم الذى انتشر مذهبه فى المغرب والأندلس ، ولكن زاحمه فيها مذهبا الشافعى ومالك .

وكان فى مصر ممن نزل بها : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ، وكان يدوّن كلّ ما يسمع ، وممن اشتهر بمصر بعد الصحابة : يزيد بن حبيب وهو نوبى من دنقلة ، وكان علمه فى أخبار الفتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق بفتح مصر ، ومن تلاميذه : الليث بن سعد ، وكان صاحب المذهب الذى اتبعه المصريون ، ثم اندرس كما درس مذهب الأوزاعى بالشام .

ومما تجب ملاحظته أن أكثر هؤلاء الذين أذاعوا العلم وأشاعوه فى الأمصار ، وأصدروا الفتيا ، واستنبطوا الشرع من القرآن وحديث النبى كانوا من الموالى ، وذلك أنه لما تمّ الفتح اشترك الموالى والعرب فى التلقى عن الصحابة ، وكان الموالى أكثر إقبالا على العلم لأنهم نسل أمم متمدينة عرفت العلم ، ودرجت عليه ، واكتسبت فيه حذقا وسرعة قبول له . ثم إنهم كانوا يطلبون العلم ليرفعهم فى نظر أسيادهم ، وليستروا به وصمة الرق . فمنهم سعيد بن جبير مولى بنى والبة ، وكان أسود ، ومحمد بن سيرين ، والحسن البصرى كان أبواهما من سبى ميسان ، وعكرمة مولى بن عباس ، ونافع

ابن الأزرق مولى ابن عمر ، وربيعة الرأى ، وأبو فروج من الموالى ، ويزيد بن حبيب مولى الأزد ، وهو بربرىّ من أهل دنقلة .

مجامع الأدب

أما الأدب فهو الذى بذل خلفاء هذه الدولة عنايتهم به ، فراجت أسواقه ، وحفلت مجامعه ، وإنما حملهم على العناية به غرامهم بشعر الجاهلية وأخبارها ، ثم رغبتهم فى المدح والإشادة بالذكر ، فتنافس الشعراء بالزلفى إليهم، وتساوموا إلى الغاية التى ترضيهم. فكانوا يعرضون شعرهم على نقدة الكلام ليعرفوا موقعه من النفوس ، ولتظهر لهم شهرة يتقدّمون بها إلى الخليفة أو الأمير ، فإذا تمّ لأحدهم بلوغ هذا الأمل فقد ضمن الرزق الوفير والجاه العريض .

ولقد كان الشاعر ينبغ ويتسامع به الناس ، فيحرص الخليفة أو الأمير على إشخاصه إليه ليضمه إلى أنصاره وليزيد فى رجاله . ولقد زاد الناس عناية بالأدب أن الخلفاء أنفسهم كانوا يساهمون فى معرفته ، ويستطيعون تذوّقه والحكم عليه ، بل لقد نصبوا أنفسهم لتعليم جلسائهم وإطرافهم بما لم يسمعوا به . فكان عمل الشاعر أو الأديب الراوية يجمع بين الرغبة والرهبة ، لأنه سيقف أمام ناقد بصير يردّ عليه خطأه ، ويعيب عليه نقصه ، ثم هو بعد ذو أريحية تجعله يهتزّ للحكمة ، ويملك سمعه اللفظ الجيد ، ويستولى على مشاعره المدح البالغ ، فإن استطاع شاعر أو أديب الوصول إلى قلب الخليفة من إحدى هذه النواحى لم يبق بينه وبين الغنى إلا أمر الخليفة لخدّامه أن يحشوا فاه درًّا ، أو يملئوا أوعيته تبرًا ، ثم يصير من جند الخليفة ، وإن لم يحمل سلاحا فيكتب فى ديوان الجند ، ويستحقّ الرزق الذى يجرى عليه كلّ عام .

فهل يكون هذا جزاء الشعر أو الأدب ، ثم يقعد عن التماسهما من يستطيع إليهما سبيلا .

ولقد كان للعصبية التى أحياها بنو أمية بين القبائل أثر فيما للأدب من رواج ، فان كلّ قبيلة تتعصب لشاعرها وتنصره ، وتحتجّ له فيكثر النقاش والجدل ، وتمتلئ المحافل والأسواق بالمفاضلة التى ربما انتهت إلى المخاصمة والقتال .

وكانت مجامع الأدب هى مجالس الخلفاء والولاة ، يجتمع فيها كلّ أديب نابه ، أو شاعر نابغ ، وربما بعثوا فى طلب الراوية من أقصى مكان ليسمع منه الخليفة أو الوالى رأيه فى شاعر ، أو ليستطلع رأيه فى رواية بيت أو مغزاه . كذلك كانت المساجد من مواضع مدارسة الشعر ، لا بل المسجد الحرام نفسه ، فقد ورد بالأغانى ما يأتى :

بينا ابن عباس بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبغين موردين أو ممصرين[1] حتى دخل فجلس فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا ، فأنشد :

أمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمُهَجِّرُ

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه نافع ، فقال له : يابن عباس ، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحرام والحلال ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من قريش ، فينشدك :

رأت رجلا أمّا إذا الشمس عارضَتْ فيخزَى وأما بالعشىّ فيخسَرُ

فقال : ليس هكذا . قال فكيف قال ؟ قال :

رأت رجلا . . . . فيضحى . . . . فيخصَرُ

فقال نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت . قال : أجل ، بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت . قال : فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة .

ومن المجامع الحافلة، والمشاهد الجامعة سوق الكوفة (الكُناسة) وسوق البصرة (المربد)، فكانت تتألف فيهما حلقات المناشدة والمفاخرة ومجالس الرواية ، وكان كلّ شاعر يقصد

---

(١) الممصر : المصبوغ بالمصر ، وهو صبغ أحمر .

السوق ومعه رواته للمناضلة عنه . وكان لفحولهم حلقات خاصة أشهرها فى المربد حلقة الفرزدق وراعى الإبل .

وقد كان بين الكوفة والبصرة تنافس شديد فى العلم والأدب ، ومناظرات بين رجالهما ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلمها من نحو وغيره لقربهم من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .

⁂

أما الكوفة فقد اشتهرت بعلم الشعر وروايته ، وقيل فى سبب ذلك : إن المختار ابن عبيد الله وقف فى أثناء حروبه بالعراق على أشعار مدفونة تحت القصر الأبيض فاستخرجها ، فكانت فى يد الكوفيين يتنفلون بها على البصريين ، وكان الذى دفنها فيما ذكروا النعمان بن المنذر ملك الحيرة . وبقيت الكوفة فى النحو عالة على البصرة ، ولم ينبغ فيها من علمائه أحد إلا فى العصر العباسى .

النثر فى العصر الأموى

لقد استفادت اللغة العربية بالإسلام فوائد جليلة تحدّثنا عنها فى كلامنا عن العصر الماضى وما كان من تأثير القرآن ، وحديث النبىّ فى مادّة اللغة وصفاء أساليبها ، وتعدّد مناحى القول فيها : وما نقول فى هذا العصر إلا أن كلّ فائدة من تلك الفوائد قد تضاعف أثرها وجلّ شأنها ، وما نشبه ما كان من ذلك إلا بغرس كانت فى أيام الخلفاء الراشدين باكورته ، واليوم تتابع أثماره ، وزادت غلته . فهذا القرآن الكريم كان على عهد النبىّ والخلفاء بعده لا يحفظ الرجل منه إلا الآيات يصلى بها ، وقليل من المسلمين إذ ذاك من حفظ سوراً بأجمعها .

قال أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا ، وأقام

ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين ، وكان عثمان وابن مسعود وغيرهما من القرّاء إذا تعلموا من النبى عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل . والسبب فى ذلك حداثة العهد ، واشتغال الناس بالفتوح ، وضعف وسائل النشر ، ولكنك ترى فى آخر أيام الخلفاء الراشدين أن عثمان كتب نسخاً من المصاحف ، وبعث بها إلى الأمصار ، ولا شكّ أن الكتابة فى عهد الأمويين كانت أعمّ ، فضمن ذلك انتشار القرآن أكثر مما كان . على أن الناس حين هدءوا من الفتوح واستراحوا من القتال، جلسوا لتلقى العلم ، فكان ابن عباس بمكة ، وزيد بن ثابت بالمدينة، وغيرهم فى الأمصار يعلمون الناس ، ويشرحون لهم المشكل من آيات القرآن ، ويبينون ناسخه ومنسوخه ، فكانت لدراسة القرآن سوق أنفق من سوقها أيام صدر الإسلام .

وهكذا الشأن فى حديث رسول الله ، كثرت الحاجة إليه والاستدلال به فى كلّ ما كان يقع للمسلمين أو يجرى بينهم من خلاف ، فكان المحدّثون يروونه للعامة ، ويلفتونهم إلى ماحواه من أدب وحكمة ، وانتهى الأمر بجمعه أيام عمر بن عبد العزيز .

ولا يفوتنا أن نقول : إن الوعظ وإن كان حاصلا من الخلفاء وغيرهم فى صدر الإسلام لم يصر إلى الكثرة التى كان عليها أيام بنى أمية ، فإن معاوية (وقد اتبعه خلفاؤه) رتب الوعاظ فى المسجد يعظون الناس ، ويذكرونهم بآخرتهم ، ومدار القول عند هؤلاء إنما هو آيات القرآن ، وحديث النبى ، فهما فيما نرى كانا فى عصر بنى أمية أشيع وأكثر تداولا ، فجدير أن يكون أثرهما أقوى ونفعهما أجدى .

وإذا عزونا إلى مخالطة العرب لغيرهم واطلاعهم على أحوال الأمم فضلا فى حصافة عقولهم ، فقد كانت هذه المخالطة أتمّ ، وذلك الاطلاع أوسع فى عصر بنى أمية ، فإن العرب فيه أقاموا بين ظهرانى الفرس والروم والقبط فى البصرة والكوفة بالعراق ، وفى دمشق وما حولها بالشام ، وفى الفسطاط إلى بلاد النوبة بمصر ، وعاملوهم وصاهروهم ، ونشأت من نسلهم ناشئة تحمل صفات العرب ومزايا تلك الأمم السابقة إلى الحضارة ، فكان لهذه الناشئة أثر فى تقدّم العرب ، ورواج العلم ، وشيوع الحضارة .

غير أن هنوات دخلت على اللغة من أثر ذلك الاختلاط ، ولكنها لم تتعد العرض إلى الجوهر ، فقد لحنوا وغيروا الإعراب ، وهذا لم يكن فى الغالب إلا من المتعربين من الموالى . أما العرب أنفسهم فقد قلّ ذلك فيهم . ولقد كان من هؤلاء اللحانين من كان بليغاً قوىّ الملكة ، بل خطيباً جزل القول بعيد المدى ، فإن الجاحظ يقول عن خالد ابن عبد الله القسرى : إنه كان مولعاً بالتشديق فى الخطب ، وما كان الجاحظ يستسيغ قبول ما تناقله الناس من لحنه لموضع فصاحته، لولا أن هذا النقل صح عن الوليد ، وكان كذلك فصيحاً رويت له الخطب المرتجلة .

على أن العصر الأموى ، أفاد النثر فى بعض مناحيه فائدة جديدة، وهى شدّة الأسر والعودة إلى صلابة الجاهلية مع هجر عنجهيتها ، فقد علمت أن الأمويين أحبوا الآداب الجاهلية من شعر ونثر وأخبار ، فكان من أثر ذلك أن وجد متعصبون للقول الصلب ، والعبارة الشديدة التى رأينا أهل العصر الأول قد عدلوا عنها كلّ العدول . و إنك إذا ناظرت بين قول الحسن البصرى ، أو ابن سيرين ، وقول الحجاج ، أو زياد ، رأيت الفرق ظاهراً ، فإن الأولين لنزعتهما الدينية جاريا أسلوب القرآن ، فجاء قولهما سهلا ليّناً ، فى حين أن قول الحجاج أو زياد غليظ شديد نزعا فيه إلى صلابة الجاهلية ليناسب قولهما عملهما فى أخذ الناس بالقمع والغلبة عليهم بالسلطان .

(الكتابة فى عصر بنى أمية)

عرفت ما كان لها فى العصر الماضى من بساطة المظهر ، والإيجاز فى الأغلب الشائع ، والسهولة التى تكاد تنسيك أنها كتبت فى أقرب العصور إلى العصر الجاهلى . كذلك بان لك خلوّها من التكلف بجميع أنواعه من سجع ، ومحسن لفظىّ ومعنوىّ ، إلا ما وقع عفو الخاطر . وكان من بساطة مظهرها أن يبدأ الكاتب باسمه لا يتحرّج من ذلك ولو كتب إلى الخليفة، بل لقد كتبوا إلى رسول الله فقدّموا أسماءهم كما فعل أبو بكر

والعلاء الحضرمى وغيرهما . وقد بقيت هذه صورتها حتى كانت أيام الوليد ، فاستتبع ما توغلوا فيه من مظاهر الملك من حجابة وحراسة وقصور أن أنف الوليد أن يكتب إليه مع تأخير اسمه ، فصاروا يكتبون إلى أمير المؤمنين فلان من فلان ، فجرت بذلك السنة إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ويزيد الكامل فإنهما عملا بسنة رسول الله، ثم رجع الأمر إلى رأى الوليد .

وما زالت الجزالة مظهرها، والإيجاز وصفها الغالب فى بدء العصر ، ثم جعلت تتدرج فى اللين والتوسع فى الأساليب بكثرة الترادف على حسب ماصارت إليه الدولة من نعيم، وما اقتبس العرب من نظام الفرس فى كتاباتهم . فقد نشأ من الكتّاب من حذقوا العربية بعد نشأتهم فى لغتهم ، كما حكوا عن سالم مولى هشام بن عبدالملك أحد الواضعين لنظام الرسائل ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، ولا شكّ أن من أجاد لغتين استطاع أن يروى اناساً من إناء أناس . وقد ذكروا عن عبد الحميد أنه أوّل من جعل الكتابة صناعة عتيدة لها نظامها فى البدء والختام ، وتكرار التحميد فى فصول الكتاب ، والتوسع فى الأسلوب بالترادف وغيره .

وكما اقتضت الحضارة التفخيم فى القول والاتساع فيه، اقتضت كذلك كثرة الأعمال لدى الخلفاء والعمال أن يبالغوا فى الإيجاز فى ردودهم ، أو مايبدونه من رأيهم فيما يقدم إليهم من شكايات أو مطالب ، فكثر ذلك النوع المسمى بالتوقيع(١) يكتبونه فى آخر

---

(١) يطلق التوقيع على معان :
١ — الإصابة .
٢ — رمى لاتباعده ، كأنك تريد أن توقعه على شئ .
٣ — الدبر الذى يكون فى ظهر الدابة ويقال بعير موقع .
٤ — إقبال الصيقل على السيف بميقعته يجلوه . وفى الاصطلاح أن يكتب على حواشى الكتاب أو القصة المرفوعة إلى السلطان مايفيد الاطلاع عليها وإيراد الرأى فيها . وأول توقيع عرف كان لعمر بن الخطاب . فقد كتب إلى سعد بن أبى وقاص فى بنيان : (ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر) ووقع لعمرو بن العاص (كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك)

الرسالة أو الشكاية ليدلوا على أنهم قرءوها ، فيكون رأيهم واضحاً فى تلك الكلمة المجملة التى يذيلون بها الرسالة :

١ — كتب ربيعة بن عسل اليَرْبُوعىّ إلى معاوية يسأله أن يعينه فى بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جذع ، فوقع على رسالته (دارك فى البصرة أو البصرة فى دارك ؟ !) .

٢ — وكتب مسلم بن عقبة المرّى إلى يزيد بن معاوية بالذى فعل بأهل المدينة فى وقعة الحرّة ، فوقع فى أسفل الكتاب : « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

٣ — وكتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع ، فوقع سليمان « الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

٤ — كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه يستأذنه فى مرمة مدينته فوقع : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » .

٥ — وكتب إليه عامله على الكوفة أنه فعل فى أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » .

❊

ولاتساع الدولة وكثرة أعمال الخلفاء ، لم يستمرّوا يكتبون الرسائل بأيديهم ، أو يملونها على الكتاب ، بل تركوا ذلك إلى من قام به من أبناء العرب ، أو الموالى الذين أجادوا العربية ، وما زالت الكتابة يعظم أمرها حتى صارت فى آخر عهد الدولة صناعة محكمة لها نظامها وقوانينها ، وكثر الكتاب ، وتعدّد رؤساؤهم ، كما تعدّدت الدواوين ، ولم يكن منها فى العصر الماضى إلا ديوان الجيش ، وأوّل من اتخذه عمر لما اتسعت الفتوح ، وزاد عدد المقاتلين عن الحصر ، وديوان الخراج ، وقد نشأ فى كلّ مصر منذ دخول العرب فيه ، وهو ديوان كلّ عمله حساب ، ليس فيه أثر للتنوّق فى اللغة أو التفاضل فى الأسلوب ، ومع ذلك فقد تبدّل كما تعرف فى زمن عبد الملك بن مروان .

وقد زاد معاوية ديوان الخاتم ، وهو ديوان يختم فيه الرسائل التى تصدر عن الخليفة حتى لايطلع عليها إلا من ترسل إليه ، وسبب إنشاء هذا الديوان : أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، فمضى الرجل فجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف ، ثم وضع ديوان الخاتم ، فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدرى أحد ما فيها ولا يمكن تغييرها .

⁂

وإننا لنرى فى هذا العصر مظهراً للكتابة لم نعهده فى العصر الماضى وهو الرسائل الإخوانية، ونريد بها تلك الرسائل التى تكون بين الناس فى عتاب، أو شوق ، أو شكر، أو استمناح . وذلك أثر لانتشار العلم والكتابة ، ولاتساع رقعة المملكة ، وتوزع الناس فيها مع اشتباك المصالح واتصال الأواصر ، وقد كثرت هذه الرسائل فى أواخر هذا العصر ، ولا غرو إذا رأيت فيها طرفا من التنوّق ومسحة من الابتداع ، فإن التقسيم والازدواج، بل السجع لتظهر فيها واضحة، وذلك فيها بمثابة إرهاص لما تتابع بعد ذلك، وتزايد فى العصر العباسى ، ولا شك أن ختام عصر فاتحة للعصر الذى يليه .

الخطابة فى العصر الأموى

لعلك على ذكر لما قلناه فى حديثنا عن خطابة صدر الإسلام من الأسس التى تعتمد عليها الخطابة . وما أشرنا إليه من توافرها فى ذلك العصر . فاعلم أن هذه الأسس بقيت فى عصر بنى أمية، بل لقد زاد بعضها زيادة بينة .

فأما حرّية القول ، فقد ضمنها معاوية للناس فى قوله : إنا لا نحول بين الناس و بين ألسنتهم مالم يحولوا بيننا و بين ملكنا ، وقوله : إن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشتفٍ، جعلتها تحت قدمى ودَبْرَ أذنى . وهذه الحرّية التى تسامح فيها معاوية أو اضطرّ إليها

اضطراراً لما يعلم من شدّة الشكائم ، هى التى أفسحت المجال لتكون هذه الأحزاب السياسية ، وأنت تعلم أن الحرب أوّلها الكلام .

نعم ، إن الأمويين حاربوا هذه الأحزاب من شيعة وخوارج وزبيريين وغيرهم ، ولكن قتالهم لم يكن إلا بعد استفحال أمرهم واستغلاظ شوكتهم . ولقد كان معاوية وخلفاؤه أعلم الناس بطبيعة العرب ، وأنه لايستطيع أن يأخذ عليهم مذاهب القول ، أو ليس من هؤلاء العرب من رأى المغيرة بن شعبة يصعد المنبر والياً من قبل أمير المؤمنين معاوية فحصبه ! ! وليس منهم الذى كان يردّ على الخليفة قوله وهو يخطب وحوله الحرس الأشداء والجند المدجّجون بالسلاح ، حتى اضطرّ عبد الملك أن يقول ، وهو على المنبر لمن قال له اتق الله : « من قال لى اتق الله بعد يومى هذا ضربت عنقه » أو ليس منهم الذى يقول للحجاج ، وقد كان منه ما أغضب الأمير : إن صدقناك أرضينا الله ، وإن غششناك أغضبنا الله ، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله ، وسأل الحجاج رجلا عن أخيه محمد ، فقال الرجل : تركته عظيما سميناً ، فقال له : ليس عن هذا سألتك . قال : تركته غشوما ظلومًا . قال : أماتعلم أخزاك الله أنه أخى . قال : أتراه بك أعزّ منى بالله .

وذكروا أن أعرابيًا شهد أمام معاوية بشىء كرهه ، فقال له معاوية : كذبت يا أعرابى ، فقال الأعرابى : الكاذب والله متزمّل فى ثيابك ، فقال معاوية وتبسّم : هذا جزاء من عجل .

أما الأسّ الثانى وهو تمام الملكة، فليس ينكر أنها لم تكن عند الأمويين مثلها عند أهل العصر السابق ، ولكن النقص عند هؤلاء لم يتناول إلا العرض وهو الإعراب ، فأما قوة البيان ، فقد كانت فى أوائل العصر شائعة فى العرب الخلص ، حتى إن منهم من ساموا السابقين فى البلاغة وقوّة العارضة، على أن الأمويين كانوا يجتهدون فى السموّ بأنفسهم عن المصير إلى ضعف الملكة ، فكانوا يكثرون من المذاكرة لكلام العرب ، وينشئون أولادهم بالبادية ليحتفظوا بالبلاغة العربية إذ كانوا يرونها فخرهم وميزتهم ،

وهؤلاء الذين نعدّهم لحانين لم يكونوا بناقصى الملكة فى التعبير، فإن خالدا القسرى ، والوليد بن عبدالملك معدودان من فصحاء الخطباء، وقد مرّ بك رأى الجاحظ فيهما . وقد قال بكر بن عبد العزيز الدمشقى ، سمعت الوليد بن عبد الملك يقول على المنبر : إذا حدثتكم فكذبتكم فلا طاعة لى عليكم ، وإذا غربتكم فجمّرتكم [1] فلا طاعة لى عليكم ، فيقول مثل هـــذا الكلام ، ثم يقول لأبيه : يا أمير المؤمنين اقتل أبى فُدَيْك ، وصعد عبد الله بن زياد المنبر بعد موت يزيد بن معاوية ، وحين بلغه أن سلمة بن ذؤيب الرياضى قد جمع الجموع يريد خلعه ، فقال : يأهل البصرة انسبونى ، فوالله ما مهاجر أبى إلا إليكم ، وما مولدى إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، والله لقد وليكم أبى ومامقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها مائة وعشرين ألفاً ، وأنتم أوســع الناس بلاداً ، وأكثرهم جنوداً ، وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس . انظروا رجلا تولّونه أمركم ، يكفّ سفيهكم ، ويجبى لكم فيئكم ، ويقسمه فيما بينكم ، فإنما أنا رجل منكم . ولـكن لاينكر أن هذه الملكة أخذت تضعف فى أواخر العصر ، ولـكنه ضعف لا يخرج بأصحابه إلى العجز والانبهار .

وأما الأسّ الثالث وهو دواعى الخطابة ، فقد زادت فى هذه الأيام باتساع المملكة وتعدّد الأحزاب السياسية ، ونشوء الفرق الدينية ، وتكاثر الوفود على أبواب الملوك ، وحاجة الأمة إلى الوعظ لضعف الوازع الدينى ، ولحملهم على الطاعة لأولى الأمر حتى رأينا معاوية أوّل من رتب الوعاظ بالمساجد . كما نشـــأ من التابعين قوم أهل ورع وصلاح لم يغبوا الناس وعظاً وإرشاداً كمحمد بن سيرين والحسن البصرى .

ولقد بلغ من شأن الخطابة وظهور الحاجة إليها فى هذا العصر أن كانوا يعلمونها الفتيان الناشئين ويدرّبونهم عليها حتى لا يتأخروا عن مواقفها إذا قدموا على أمير أو تكلموا فى حفل ، والرجل عندهم إنما كان قدره فى أسلة لسانه ، وقوله دليل جنانه .

حكى الجاحظ فى البيان والتبيين . قال ما معناه : مرّ بشر بن المعتمر على إبراهيم

---

(١) التجمير : إطالة التغريب .

ابن جبلة ، وهو يعلّم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم ، فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميقه ، فإذا فيها من كلام كثير .

ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات ، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما ، ولكلّ حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين الخ .

فهذا يدلك على أن شأن الخطابة عظم فى هـذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها .

ولقد ظهر فى خطابة هذا العصر تلك العوامل التى كانت تتنازع الأمة ، فقد علمت أن دولة بنى أمية لم تقم على الدّين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم ، وفى الأمة أمثال الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة ، لذلك جعل الأمويون معوّلهم على السياسة ، فبان ذلك فى خطابتهم ، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل السلف الصالح ، حتى لقد غلا بعضهم ، فترك حمد الله فى أوّلها كما فعل زياد فى خطبته البتراء ، وقد كان أشهى إليه أن يتمثل ببيت شعر من أن يحلى خطبته بشىء من كلام الله ، على حين ترى النزعة الدينية عند مثل مصعب بن الزبير تحمله على أن يجعل بعض خطبـه كلها من القرآن الكريم كما خطب ، فلم يزد على قوله : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . طٰسٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (وأشار بيده نحو الشام) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (وأشار بيده نحو الحجاز) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (وأشار بيده نحو العراق) .

❋

وقد تجلت ظاهرة فى خطابة هذا العصر ، وهى التوقح فى السبّ والغلوّ فى الشتم ، وماجرّ عليهم ذلك إلا الإمعان فى الخلاف السياسى ، ومطاوعة شهوة الانتقام ، فقد ولع الأمويون بسبّ علىّ ، وكان ذلك ديدنهم لا تخلو خطبة لهم من النيل منه . والعجيب فى ذلك أنهم خلطوا الدّين بالسياسة ، فكان سبّ علىّ ملتزما فى خطب الجمع ولم يعدل عنه إلا عمر بن عبد العزيز ، فإنه جعل مكان السبّ قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

أما عادات الخطابة فقد بقيت إلى هذا العصر كما كانت فى الذى قبله حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : لو ألقيت الخيزرانة من يدى لذهب شطر كلامى ، وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة فرطلها فى يده فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرته من بيته فخطب بها .

أشهر الكتاب والخطباء فى العصر الأموى

لا نستطيع الفصل فى هذا العصر بين الكاتب والخطيب ، وذلك بأنّ أغلب من تولوا الكتابة والخطابة كانوا من ذوى الملكات القوية التى تواتى صاحبها فى أىّ أنواع القول ، ولم يكن قد أتى بعد ذلك العهد الذى لا يستطيع فيه الكاتب أن يرتجل القول ، اللهم إلا فى أخريات هذا العصر فإنه قد اشتهر قوم بالكتابة وحدها ، ولم تعرف لهم مواقف للخطابة كعبد الحميد الكاتب ، ولعلّ ذلك يرجع إلى مهنته ، ونوع العمل الذى كان يتقلده ، فإن عمله كان فى النظر فى الرسائل وتسويدها ، فلم يفرغ لموقف الخطابة حتى نعرف بلاءه فيه .

كذلك كان الحال فى العصر الماضى ، ويرجع ذلك كله إلى تمام الملكة التى تواتى صاحبها فى كلّ مايحاول منها · فأما فى العصر العباسى فاضعف الملكات وحاجتها إلى الاكتساب والمران نرى كتابا لا يحسنون موقف الخطابة ، وربما كانوا فى نهاية البلاغة ، ولكنّ طبعهم لا يواتيهم إلا مع الروية ، واستجماع الخاطر ، وذلك خلاف ما تحتاج إليه الخطابة من حضور الذهن والاعتماد على البديهة .

ومن أشهر رجال هذا العصر فى الخطابة والكتابة : معاوية ، ويزيد ابنه ، وعبد الملك ، والوليد ، وسُلَيمان ابناه ، وعُمَر بن عبد العزيز ، وسَحْبان وَائِلٍ ، والحَجَّاجُ . ومن الشيعة : المُخْتار بن عُبَيْد الله الثَّقَفِىّ . والكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ . ومن الخوارج : الطِّرِمَّاحُ ، وَقَطرِىُّ بن الفُجَاءَةِ ، وأَبُو حَمْزَةَ الخَارِجِىُّ . ومن رؤساء القبائل : صَعْصَعَة بن صُوحان ، والأحنف بن قيس ، ومن بنى هاشم : أمثال الحسين ابن علىّ ، وابنه علىّ ، وحفيده زيد .

الحجاج بن يوسف

[نسبه] : هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الذى ينتهى نسبه إلى ثَقِيف هو أبو القبيلة المشهورة .

وتجد المؤرّخين كلاما عن ثقيف هذه ، فبعضهم يرجعها إلى مضر ، و بعضهم يجعلها من قحطان ، و بعض يقول إنها من بقايا ثمود ، ولعلّ هذا القول الأخير لم يقصد به إلا تشنيع اسم الحجاج من الذين كرهوا بطشه وألصقوا به كلّ قبيح ، ولقد ردّ عليهم الحجاج حين هتفوا بهذا النسب ، فصعد المنبر يوما ، وقال : يزعمون أنا من بقايا ثمود ، فقد كذّبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » ، وكرّر هذا الردّ مرّة أخرى فقال : لئن كنا بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم .

وقيل إن أمه سمته كليباً على عادة العرب من تسميتهم بكليب وصخر وفهر وحرب ثم لقبته الحجاج تفاؤلا أن يكون ورعا كثير الحجّ .

[أبواه] : أما أبوه فهو يوسف بن الحكم بن أبى عقيل، كان من مشايخ ثقيف ، وكان نبيلا جليل القدر . يدلّ على ذلك ما ورد من أنه خرج من مصر ، يريد عبد الملك ابن مروان ، ومعه ابنه الحجاج ، فأقبل سليم بن عمرو قاضيها ، وكان من أروع الناس وأتقاهم ، فقام إليه يوسف وقال : إن كانت لك حاجة إلى عبد الملك فأعلمنى بها ، فقال له : حاجتى أن يعزلنى عن القضاء ، فقال يوسف : والله لوددت قضاة المسلمين كلهم مثلك فكيف أسأله هذا . والذى نقصده من هذه القصة أن نذكر أن الحجاج استنكر أن يقوم أبوه لهذا الرجل ، فقال له أبوه : هذا قاضى أهل مصر وقاصهم ، فقال الحجاج يغفر الله لك يا أبت ، أنت ابن أبى عَقِيل تقوم إلى رجل من كندة أو تحييه ، فقال له أبوه يابنىّ ، إنى أرى الناس ما يرحمون إلا بهذا وأشباهه ، (يريد أنه ورع تقىّ ينتفع الناس بصلاحه) .

وهذه القصة تمثل لك مقام أبيه وجلال شأنه ، ويصحّ أن يكون الحجاج مغالياً بقدر أبيه ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا وفى أبيه فضل وله مقام يرفعه به الحجاج عن القيام لرجل والسلام عليه ، وفى قصد الرجل لأمير المؤمنين دليل ثان على نباهة شأنه وهذا يجعلنا نستبعد ما ولع به الناس من دعوى أن أبا الحجاج كان معلم صبيان ، وأن الحجاج نشأ فى عمل أبيه يعلم معه ، وفى الحجاج يقول الشاعر مشيراً إلى ذلك :

أَيَنْسَى كُلَيْبٌ زَمَانَ الْهُزَالِ ... وَتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الْكَوْثَرِ
رَغِيفٌ لَهُ فَلَكٌ دَائِرٌ ... وَآخَرُ كَالْقَمَرِ الْأَزْهَرِ

يريد أن خبز المعلمين مختلف فى الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان . ولقد زاد أعداء الحجاج ، فنسبوا إليه أحقر الصناعات ، فقال بعض : كان دباغا ، وقال آخرون : كان بائع زبيب .

أما أمه فقد تمثل فى الحديث عنها ما كان يضمره الناس من عداوة الرجل ، فبعضهم

يجعلها زوج الحارث بن كَلَدة طبيب العرب المشهور ، وأنه طلقها لأنه دخل عليها سحراً ، فوجدها تتخلل ، فبعث إليها بطلاقها ، وقال لها : إن كنت بادرت الغـداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة ، فقالت كلَّ ذلك لم يكن ، ولـكنى تخللت من شظايا سواك ، ثم تزوجها بعده يوسف أبوالحجاج وبعضهم يقول : إن أمه هى المتمنية ، وكانت تحت المغيرة بن شـــعبة ، وإن عمر طاف ليلة ، فسمع امرأة تنشد :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا   أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

فقال عمر : لا أرى معى فى المدينة رجلا تهتف به العواتق فى خدورهنّ علىّ بنَصْرِ ابن حَجَّاجٍ ، فأتى به فإذا هو أجمل الخلق وجهاً وأحسنهم شعراً ، فجزّ شعره ، وسيره إلى البصرة ، وكانت هذه المرأة زوج المغيرة فطلقها فتزوّجت يوسف أبا الحجاج .

[منشأ الحجاج] : نشأ بالطائف ، وهى مدينة على مرحلتين من مكة ، وكانت واحة كثيرة الفواكه طيبة الهواء ، ولعلّ نشأة الحجاج بها هى التى جرّت عليه ما لهج به الناس من وصمه بالدباغة ، أو بيع الزبيب ، أو تعليم الصبيان ، لأن هذه الأعمال هى شأن أهل المدن غالبًا . ولقد أثرت فى الحجاج نشأته بالطائف ، فإنها لتوسطها وقربها من مكة وإحاطة الصحراء والبدو بها حاز الحجاج فضيلة الإبانة ، وتمت فيه ملكة الفصاحة ، وهى كما تعلم ملكة كانت كاملة فيه ، وقد مرّ بك أنه أحد الأربعة الذين لم يلحنوا فى جدّ أو هزل .

عصر الحجاج

لعلك تتساءل عن السبب الذى أنشأ الحجاج بهذه المثابة من الغلظة حتى أسرف فى القتل ، فخضع له العراق عشّ النفاق والغدر الذى لم يجتمع قبله إلا لرجل واحد كان أشبه بالحجاج فى الغلظة والشدّة من الصخر بالصخر وهو زياد بن أبيه . هذا الحجاج

الذى يقال : إن قتلاه مائة ألف أو يزيدون ، وأنه مات وفى سجنه عشرون ألفاً ، وكان سجنه غير مسقوف صيفاً وشتاء .

ولسنا ننكر أن يكون للعصر أثر ظاهر فى حياة العائشين فيه ، ولكنه ليس فى نظرنا كل شىء ، فقد رأينا كثيراً من النابغين لم يكن لعصرهم أثر ظاهر فيهم ، بل كان أحدهم نسيج وحده فيما تهيأ له ، فقسوة الحجاج يرجع بعضها إلى ما تأثر به من أحوال عصره كما يرجع كثير منها إلى تركيب نفسه والغلظة والقسوة من الأخلاق مثل : الذكاء والبلادة فى النفس تتبع التركيب الذى برأ الله عليه المخلوق يؤثر فى ذلك بالزيادة والنقصان ما أفادته الوراثة والبيئة .

وإذا كان العصر يؤثر فى نفس الناشئ ، فسنذكر لك من تاريخ الزمن الذى أظل الحجاج نبذاً يجعلك تحيط به وتعرف جملته .

⁂

كانت ولادة الحجاج إبان قيام الدولة الأموية سنة ٤١ وعاش ٥٤ سنة ، فيكون قد نشأ بين صلصلة السيوف ، وخفق البنود ، وحنين القسى ، وجلبة الجيوش ، ولعله إن لم يكن رأى شيئاً من ذلك يكون قد سمع أخباره : والأذن كالعين توفى القلب ما كان .

مضت أيام معاوية لم يكن فيها من القلاقل ما يزعج . نعم ناوأه الخوارج والشيعة بالعراق ، فرماهم بالمغيرة بن شعبة فى الكوفة ، ثم زياد بن أبيه فى البصرة وخراسان ، ثم ضم إليه الكوفة فيما بعد ، فاستقام لمعاوية الأمر .

ولكن الفتنة اشتعلت وتطاير لهبها أيام يزيد ابنه ، فإن الخوارج زادت شوكتهم وامتنع عن المبايعة له بالمدينة الحسين بن علىّ ، وبمكة عبد الله بن الزبير ، وذلك لما عرف الناس عن يزيد من اللهو والغرام بالصيد . ومما زاد الفتنة اشتعالا قتل الحسين فى طريقه للكوفة على يد عمرو بن سعد بن أبى وقاص .

وفى عهد يزيد انتهكت حرمة المدينة على أثر وقعة الحَرّة ، وأبيحت ثلاثة أيام ، وكانت جند الشام تمثل بأشرافها ، وتطالب منهم البيعة ليزيد على أنهم عبيده ومن أبى قتل . وقد كثر عدد القتلى فى هذه الفتن حتى لقد قتل سائب خاثر المغنى ، واستعظم يزيد نفسه ما أتته جيوشه حين علم أن القتل تناول أمثال سائب . كذلك توجه هذا الجيش إلى مكة ، فحاصرها ورماها بالمنجنيق ، فتصدّعت جوانب الكعبة ، ثم ارتدّ عنها لموت يزيد ، فقويت شوكة عبد الله بن الزبير حتى بايعه أهل مصر مع العراق والحجاز ، ولم يبايع خليفة بنى أمية معاوية الثانى ثم مروان بن الحكم إلا أهل الشام .

جرت هذه الحوادث الأخيرة والحجاج شابّ يربى على العشرين ، فكان يعى ما يجرى حوله ، وانضمّ ذلك إلى غلظته المركبة فى طبعه ، فتمت له الأسباب التى هيأته لما جرى على يديه .

الحجاج قبل الولاية

كان اتصال الحجاج برَوح بن زِنْبَاع فعمل فى شرطته ، وكان روح من عبد الملك بمثابة الوزير .

أراد عبد الملك أن يخرج لقتال زفر بن الحرث ، وقد دعا لابن الزبير بعد موت يزيد ، فشكا إلى روح ما يلقاه من الجند من توان فى طاعته ، وأنهم لا ينزلون بنزوله ، ولا يرحلون برحيله ، فقال له روح : إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لم ير منهم خلافا أو توانياً ، وهو الحجاج بن يوسف ، فقال عبد الملك : قد قلدناه ، فكان ماحدّث به روح ، ولكن قوما من جند روح ، لدالتهم ولموضع سيدهم من أمير المؤمنين كانوا يظهرون خلافا ، فمرّ الحجاج بعد رحيل العسكر فلم يجدهم ارتحلوا فهدم عليهم خيمتهم وأحرقها بما فيها من أثاثهم ، فشكوا إلى روح ، وبلغ الخبر

عبد الملك فطلبه وقال : من فعل هذا بغلمان روح ؟ فقال : أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما ولينا ، ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من بقى من أهل العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يعوّض عليهم ما ذهب ، وقد قامت الحرمة وتم المراد ، فأعجب به عبد الملك ، وأقرّه على عمله .

طموح الحجاج

كان الحجاج عظيم الطموح شديد الرغبة فى السموّ إلى الدرجات العلا ، وقد تذرع إلى ذلك بالإخلاص فى الخدمة والحرص على رضا مولاه عبد الملك وتعظيمه فى مشهده ومغيبه ، فقد أوفده عبد الملك مع رجاء بن حَيْوة إلى زفر بن الحارث يدعوه إلى الصلح فحضرت الصلاة ، فقام رجاء فصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده ، وسئل عن ذلك ، فقال : لا أصلى مع منافق خارج على أمير المؤمنين ، فلما سمع عبد الملك ذلك عرف إخلاصه ورفع درجته ، فولاه بلداً يسمى تَبالة من أعمال اليمن ، فلما كان قريباً منها سأل عنها ، فقيل له إنها وراء هذه الأكمة ، فقال : أُفّ لبلدة تسترها أكمة ، ورجع عنها ، فقيل المثل : أهون من تَبالة على الحجاج ، واستعفى عبد الملك من ولايتها وبقى ملازما خدمته .

كذلك تذرّع الحجاج إلى تحقيق مطامعه من العظمة ورفعة الشأن بالإقدام والتفانى فى خدمة الخليفة عبد الملك ، فإنه يقال : إن عبد الملك لما فرغ من قتال مصعب بن الزبير ورجع إلى الشام قال : من لعبد الله بن الزبير (وكان ممتنعاً بمكة) ، وندب الناس لقتاله ، فقام الحجاج وقال : ياأمير المؤمنين أنا له ، أبعثنى إليه ، فلقد رأيته بالمنام كأنى سلخته وجرّدته من جلده فبعثه إليه . فكان من الحجاج أن استحلّ كلّ موبقة ، واستباح كلّ معصية فى سبيل إرضاء عبد الملك ، فإنه حاصر مكة وضربها

بالمنجنيق ، وكان ذلك سنة ٧٢ هـ ، ولما اشتدّت الحال على أهل مكة تفرقوا عن ابن الزبير ، وخرجوا بالأمان من الحجاج ، وكان ممن فارق ابن الزبير ابناه حمزة وحبيب ، ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون شيئاً دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر ، فقال : يا أماه ! خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ، ومن ليس عنده غناء أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ قالت : أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت كنت على حقّ ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدّين . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ، فقال : يا أمى أخاف إن غلبنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى . قالت يا بنىّ . إن الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وقال : هذا رأيى والذى خرجت به دائباً إلى يومى هذا . ماركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله . وأن تستحلّ حرماته ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة .

ثم خرج فقاتل حتى قُتل وصلب ، ولم ينزل إلا بأمر عبد الملك ، ثم كافأ عبد الملك الحجاج بأن ولاّه الحجاز إلى سنة ٧٥ هـ ، ومما يدلك على طموح الحجاج أنه لم ير فى ولاية الحجاز إشباعا لأطماعه العظيمة ، فكتب إلى عبد الملك يقول : إنى قد حزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة ، فبعث إليه عبد الملك بعهد العراق .

ولاية الحجاج العراق

لم يكن نجاح الحجاج فيما مضى من أعماله إلا مقدمة لما تجلى من شدّته وحذقه لأساليب القمع والضرب على أيدى العائثين بالفساد، فإن العراق كان منذ قديم عهده مثار الفتنة ومبعث الشرّ. اجتمع فيه الخوارج والشيعة، واشتدّت به العصبيات، وطال من أهله الخروج على الخلفاء والتمرّد على طاعتهم والطرد لولاتهم. ويشمل العراق بلاد خراسان، وطالما امتنع بها الولاة والقواد وخلعوا طاعة الخلفاء لعلمهم بوعورة الطريق إليهم. وقديما أقلقت هذه البلاد بال معاوية، فرمى أهلها بالمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه الذى كان قدوة الحجاج ومثله الذى يحتذيه فى الشدّة وسياسة القهر.

أقبل الحجاج وهو يعلم من أهل العراق كثيراً من خلافهم وعنادهم، وشدّة شكيمتهم، فقابلهم بالشدّة، واستعان عليهم بالقول الذى زلزل عليهم المجالس حتى سمعوا صلصلة السيوف، وقبقبة الخيول، وصوت الغارات من بين ألفاظه، وإن لفصاحة الحجاج ليدًا محمودة الأثر فى نجاحه، فإن للقول تأثيراً قد يتجاوز تأثير السيف، وبخاصة فى مثل هؤلاء، وهم عرب يقيمهم الكلام ويقعدهم.

قصد الحجاج إلى الكوفة فى اثنى عشر راكباً على النجائب حتى دخلها فجأة، وقد انتشر النهار، فدخل المسجد مُعْتَماً بعمامة خزّ أحمر قد غطى بها وجهه وهو متقلد سيفاً متنكّب قوساً يؤمّ المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ومكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبّح الله بنى أمية تستعمل مثل هذا على العراق، حتى قال عُمير ابن ضابئ البُرجمى ألا أحصبه لكم؟ فقالوا أمهل الرجل حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه، ونهض فقال:

خطبة الحجاج بالكوفة تحفظ

أَنَا ابْنُ جَلاَ[١] وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ[٢] تَعْرِفُونِى

والله يأهل العراق : إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قِطَافها[٣] وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى[٤] ، ثم قال[٥] :

---

(١) ابن جلا . قال بعض النحاة: إنه فعل محكى وحده أو مع ضميره المستتر . ويرده أنه ليس فى نسب سحيم قائل الشعر من تسمى بهذا الاسم . وقال قوم : إنه وصف بالجملة لمحذوف أى ابن رجل جلا الأمور . وفات هؤلاء أن الجملة لايوصف بها إلا إذا كان الموصوف بعضا من متقدم مجرور بمن نحو منا ظعن ومنا أقام أوبفى نحو مافى قومه يفضله: أى أحد، وإن كان هذا ليس بلازم . والذى يحسن هو أن يقال إن جلا اسم مقصور من الجلاء ، فالمعنى أنا ابن الواضح الأمر ويؤيد هـذا أنهم يقولون ابن جلا وابن أجلى . وقيل جلا وأجلى معناهما الصبح. هذا مارجحه الشيخ المرصفى رحمه الله فى شرحه للكامل . ونرى أنه يعكر عليه عدم تنوين جلا ولا موجب لمنع الصرف فى الكلمة . لذلك نقول : لامانع أن يكون جلا علما محكيا ، وقد قال صاحب لسان العرب: ابن جلا رجل مشهور بالفتك فيكون سحيم قد قال ذلك على التشبيه : أى أنا كابن جلا فى الغارة والشدة .

(٢) العمامة : من معانيهاخوذة الحرب. ووضع هنا ، اما بمعنى جعلها على الرأس، والمعنى أنه إذا استعد للحرب ولبس الخوذة رأى الناس منه عجبا ، وإما أن يكون بمعنى خلع ويؤيد هذا العادة العربية وهى أن الرجل إذا قتل له قتيل لاث على رأسه عمامة وستر بها رأسه وخرج لطلب الثأر وما يزال هكذا متلثما حتى يأخذ بالثأر فيضع أوزار الحرب ومن بينها العمامة . ويساعد على هذا أن الحجاج أنشد البيت وهو ينزع لثامه عن وجهه . قال ثعلب : العمامة تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم . وعليه يكون المعنى متى أضع العمامة تعلمون أنى الشجاع الذى لم أنم عن ثأرى . وقائل هذا البيت هو سحيم بن وثيل الرياحى شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية ٤٠ سنة وفى الاسلام ٦٠ سنة .

(٣) ينع (كضرب ومنع) أدرك . شبه رءوس العصاة المخالفين لأولياء أمورهم بالثمار التى تم نضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .

(٤) إنما تكون الدماء بين العمائم واللحى من الضرب بالسيوف فى الجباه وأحرار الوجوه

(٥) قال:أى أنشد،لأن قائل هذه الأبيات هورويشد بن رميض العنزى، والشعر مقول فى شريح ابن ضبيعة غزا اليمن فغنم وسبا ثم ضل وهو راجع فساق بأصحابه سوقا عنيفا حتى نجوا .

هٰذَا أَوَانُ الشَّدِ فَاشْتَدِّى زِيَمْ   قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ (١)

لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلاَ غَنَمْ   وَلاَ بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ (٢)

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصْلَبِيِّ   أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِّيِّ (٣)

مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيِّ (٤)

ثم قال (٥) :

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا   وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عُرُدُّ   مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ

لاَ بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ

إِنِّى وَاللهِ يَأَهْلَ الْعِرَاقِ مَا يُقَعْقَعُ لِى بِالشِّنَانِ (٦) ، وَلا يُغْمَزُ جَانِبِى كَتَغْمَازِ

---

(١) زيم : اسم ناقة أو فرس . السواق الحطم : الذى لايبق من السير شيئاً .

(٢) الوضم : ما يقطع عليه اللحم « القرمة » والمراد أنه ليس بضعيف الشأن كأحد هذين : الراعى والجزار .

(٣) العصلبي : الشديد القوى العصب ، وزيادة اللام فى عصلبي للدلالة على القوة . الأروع : الذكى . الدوى : الصحراء لاعلم بها ولا أمارة وهى متسعة تسمع لها دويا وهو صوت يكون من وقع أخفاف الابل . وجهلة العرب يظنونه صوت الجن . والدوّ : الصحراء ونسبت إلى نفسها كقولهم دهر دوّارى أى دوار ، وخارجى مبالغة فى خارج أحد الخوارج . والمراد بخراج من الدوى أنه خراج من كل شدة متغلب على كل صعوبة ولاصعوبة أشد من الصحراء

(٤) قال فى لسان العرب : كل من أقام من العرب بباديهم أو حواضرهم ولم يلحقوا بالنبى ولم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التى أحدثت فى الاسلام وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين وليس لهم فى الفىء نصيب ويسمون الأعراب . وفيه أيضا قال الأزهرى : المهاجرة خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وكذلك كل محل بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين .

(٥) لم نقف على قائل هذه الأبيات وهى لاشك لغير رويشد وليست من نسق الأبيات السابقة وإن كانت مثلها من الرجز .

(٦) القعقعة : صوت الجلود اليابسة . الشنان : جمع شن ، وهو الجلد اليابس (كسهم وسهام) . والمراد لاأفزع مما لايفزع ذوى العقول .

التِّين(١) ، ولقدْ فُرِرْتُ عَنْ ذَكاء(٢) وفُتِّشْتُ عَنْ تجْرِبَةٍ . وَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِين أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ نَثَرَ كِنَانَتَهُ بين يديه ، فعَجَمَ عِيدانها ، فوجدنى أمرَّها عُودًا ، وأصْلبَها مَكْسِرًا(٣) ، فرماكم بى لأنكم طالما أوْضعتُم(٤) فى الفِتْنة ، واضطجعتُمْ فى مراقد الضلال ، والله لأحْزِمَنَّكُم حزمَ السَّلَمَةِ(٥) ، ولأضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرائبِ الإبِلِ(٦) فإنَّكُمْ لَكأَهْلِ قَرْيةٍ كانَتْ آمنةً مطمئنةً يأتيها رِزقُها رَغَدًا من كلِّ مكان فكفرتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصْنعون . وإنى والله ما أقولُ إلاَّ وفَّيْتُ ، وَلاَ أهُمُّ إلاّ أمضيتُ ، ولا أخْلُقُ إلاّ فَرَيْتُ(٧) ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وأنْ أوَجِّهَكُمْ لمحاربة عدوِّكم مع المهلب ابنِ أبى صُفْرَةَ ، وإِنِّى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلَّفَ بعد عطائه ثلاثةَ أيام إلاّ ضربْتُ عنقه .

ثم قال : يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : باسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم ، فلَمْ يقل أحد شيئاً ، فقال الحجاج : اُكفُفْ يا غلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : سلَّم عليكم

---

(١) رواية صبح الأعشى : التنين وهو الحية العظيمة ، والتين والحية لينا الملمس . والمراد لست بضعيف لين الجانب .

(٢) فر الدابة : كشف عن أسنانها . الذكاء : تمام السن أو حدة القلب ، والمراد هنا المعنى الثانى .

(٣) الكنانة : جعبة السهام . عجم العود : عضه ليبلو صلابته . أمرّها : من المرارة وهى طعم شجر المرار . المكسر : اسم مكان وهو موضع الكسر . وهذه العبارة تمثيل لإفراغ الفكرة فيمن يختارهم أمير المؤمنين من الرؤساء الذين بصرتهم الحروب .

(٤) الإيضاع : السرعة فى السير .

(٥) السلمة : شجرة شاكة يعسر خرط ورقها فيشد بعضه إلى بعض ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها

(٦) غرائب الإبل : أى الغريبة عن مواطنها ، وهى تضرب حين تدخل بين الإبل ويكون ضربها بلا شفقة لأنها لاتهم الضارب .

(٧) خلق الصانع الأديم : قدره لما يريد منه قبل القطع ، والمعنى لا أعزم إلا صممت .

أمير المؤمنين ، فلم تردّوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نِهْيَة[١] . أما والله لأؤدّبنّكم غير هذا الأدب أوْ لتستقيمنّ . اقرأ يا غلام ، فلما بلغ قوله : السلام عليكم ، لم يبق فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل فوضع للناس أعْطِيَاتِهِمْ ، فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يُرْعَشُ كِبَراً ، فقال أيها الأمير : إنى من الضعف على ماترى ، ولى ابنٌ هو أقوى منى على الأسفار ، فقال الحجاج : نفعل . فلما ولّى الرجل . قال قائل أتدرى من هذا أيها الأميرُ ؟ قال لا . قال : هذا عُمَيْرُ بن ضابئٍ البُرْجُمِىُّ[٢] الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِى حَلَائِلُهْ

ودخل هذا الشيخ على عثمانَ مقتولا فكَسَر ضِلَعَيْن من أضلاعه . فقال الحجاج رُدّوه ، فلما رُدّ قال له : هَلاَّ بعثت إلى أمير المؤمنين بَدَلاً يوم الدّارِ ، إنّ فى قتلك أيها الشيخ لصلاحا للمسلمين ، يا حَرَسِىُّ اضرب عنقه ، فوقعت الرَّهْبَةُ للحجّاج فى قلوب الناس ، فكان الرجلُ يضيق عليه أمره ، فيرتحل ويأمر وَلِيَّه أَنْ يَلْحَقَه بزاده ، وفى ذلك يقول عبد الله بن الزَّبِيرِ الأسَدِىّ . من شعراء الدولة الأموية ، وهو من أسد خزيمة لا أسد قريش :

تَجَهَّزْ فإِمَّا أَنْ تَزُورَ ابْنَ ضَابِئٍ ... عُمَيْراً وَإِمَّا أَنْ تَزُورَ المُهَلَّبَا
هُمَا خُطَّتَا خَسْفٍ نَجَاؤُكَ مِنْهُمَا ... رُكُوبُكَ حَوْلِيًّا مِنَ البُلْجِ أَشْهَبَا[٣]

---

(١) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج .

(٢) ضابئ البرجمى شاعر كان على أيام عثمان ، وهو الذى قدمنا حكاية استعارته للكلب وسبه لأصحابه وعقابُ عثمان له فاضطغن على عثمان وحاول قتله فشدد عليه عثمان العقاب (معاهد التنصيص وطبقات الشعراء) .

(٣) الحولى : الذى مضى عليه الحول . البلج : جمع أبلج وهو الأبيض . ويروى من الثلج . والمعنى أنه أشد شبهة من الثلج ، وصياغة التفضيل من اللون على رأى الكوفيين .

فَأَضْحَى وَلَوْ كانتْ خُراسانُ دُونَهُ رَآها مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبَا[١]
فَما إنْ أرَى الحَجَّاجَ يغْمِدُ سَيْفَهُ مَدَى الدَّهرِ حَتَّى يترُكَ الطِّفْلَ أشْيبَا

فتتابع الناس على المهلب حتى ازدحموا عنده .

ثم خرج من الكوفة إلى البصرة فخطب مثل خطبته بالكوفة ، فقال :

أيها الناس : من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلىّ أنْ أُعجِّله ، ومن ثَقُل عليه رأسُه وضعتُ عنه ثِقْله ، ومن استطال ماضى عمره قصَّرْتُ عليه باقيه . إن للشيطان طَيْفًا[٢] ، وللسلطان سَيْفًا ، فمن سَقِمَتْ سريرتُه صَحَّتْ عقوبَتُه ، ومن وضعه ذَنْبُهُ رفعه صَلْبه . ومن لم تسعه العافية[٣] لم تضق عليه الهلكة ، ومن سبقتْهُ بادرةُ فمه[٤] سبق بدنُه[٥] بسفك دمه ، إنّى أُنْذِر ثم لا أُنْظِر[٦] ، وأُحذِّر ثم لا أُعْذِر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق[٧] ولاتكم ، ومن استرخى لببه[٨] ساء أدبه . إن الحزم والعزم سلبانى سوطى ، وأبدلانى به سيفى ، فقائمه فى يدى ، ونجاده فى عنقى ، وذُبابه[٩] قلادة لمن عصانى ، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

---

(١) دونه : أى دون المهلب : أى قبله أو قريبة منه . السوق : هو سوق حكمة بالكوفة . أقرب منصوب على أنه ظرف متعلق بخبر هى ، والتقدير أوهى كائنة أقرب من السوق أوعلى أنه مفعول ثان لرأى بمعنى ظن ، ويكون قد وضع الضمير المرفوع « هو » فى موضع المنصوب .

(٢) الطيف : مس الشيطان . وقرئ — إذا مسهم طيف من الشيطان ، أوطائف — . وأصل الطيف : الجنون أو الغضب ومس الشيطان يحدث هذا .

(٣) العافية : السلامة .

(٤) البادرة : مايخرج من الفم عن غير قصد فى غضب أو غيره .

(٥) المراد بسبق بدنه أنه يقتل سريعا فيكون بدنه إلى الموت أسرع من خروج البادرة من فمه .

(٦) نظره « ككتب » تأنى عليه . وأنظره : أخره .

(٧) الترنيق : الضعف فى الأمر والمراد التسهل .

(٨) اللبب : مايشد فى صدر الدابة ليمنع استرخاء الرحل .

(٩) ذباب السيف حده .

❊

وفى سنة ٧٩ هـ ولّى الحجاج عبيد الله بن أبى بكرة سجستان، ومحاربة رُتبيل، وقد كان مصالحا للعرب يدفع لهم خراجا، ولكنه امتنع، فتوغل عبد الله فى بلاده، فأصيب وهلك جنده إلا أقلهم، فرأى الحجاج أن يجهز جيشاً كثيفاً، فجهز أربعين ألفاً جعل عليهم عبد الرحمن بن الأشعث، فسار حتى دخل بلاد رتبيل، وحاز من أرضه أرضاً عظيمة، وملأ يديه من غنائمه، ثم حبس الناس عن الوغول فى الأرض، واكتفى بما تمّ عامه هذا، وكتب للحجاج بذلك، فجاءه كتاب الحجاج:

يحفظ أما بعد، فإن كتابك أتانى، وفهمت ما ذكرت فيه، وكتابك كتاب أمرئٍ يحبّ الهدنة، ويستريح إلى الموادعة. قد صانع عدداً قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم فى الإسلام عظيما، لعَمْرُكَ يا بنَ أمّ عبدِ الرحمن إنّك حين تَكُفُّ عن ذلك العدوّ بجندى وحدى لسخِيُّ النفس عمن أصيب من المسلمين، إنى لم أعدُدْ رأيك الذى زعمتَ أنك رأيته رأىَ مَكيدةٍ، ولكنى رأيتُ أنه لم يحملك عليه إلا ضعفُك، والتياثُ رأيك، فامْضِ لما أمرتُكَ به من الوُغُولِ فى أرضهم، والهدمِ لحصونهم، وَقتْلِ مُقاتِلهم، وسَبْىِ ذرارِيهِمْ.

فلم يُرْضِ عبدَ الرحمن هذه الغلظةُ من الحجّاج، وخَلَعَ طاعتَه، وأخذَ البيعةَ على الناسِ لقتاله، وصالح رُتْبيل على أنه إن ظهر فلا خراج عليه أبداً، وإن هُزِمَ لجأ إليه وحَماه. ثم خرج ابنُ الأشعث لقتال الحجاج، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بخبره ويستنجده فأنجده، وانتهت المواقع بهزيمة ابن الأشعث والتجائه إلى رتْبِيل، فكتب إليه الحجّاج يهدّده إن لم يسلمه إليه، فانتحر ابنُ الأشعث بأن ألقى بنفسه من قصر عالٍ، وضرب رُتْبيلُ أعناق بضعةَ عشَر من رجاله، وأرسل بالرءوس إلى الحجاج.

وكان الحجاج مشغولا كذلك بقتال الخوارج ، وكان يحاربهم قبل توليته على العراق المهلَّبُ بنُ أبي صُفرة ، فما زال يراسله ويستحثه حتى تغلب عليهم ، وقدِم عليه ، فأكرمه الحجاج وأجلسه معه على السرير وقال : يأهل الكوفة ، أنتم عبيد المهلب ، ثم قال أنت والله كما قال لَقِيطٌ الإيادِيُّ :

وَقَلِّدوا أمرَكم لله دَرُّكُمُ رَحْبَ الذِّراعِ بأمرِ الحربِ مُضْطَلِعا(١)

لا يَطْعَمُ النومَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُه هَمٌّ يَكادُ حَشاه يَقْصِمُ الضِّلَعا(٢)

لا مُتْرَفًا إنْ رَخاء العيشِ ساعَدَهُ وَلاَ إذا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعا(٣)

ما زال يحلُبُ هذا الدَّهرَ أَشْطُرَه يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا(٤)

حتى استمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُه مُسْتَحْكِمَ الرأيِ لا قَحْماً ولا ضَرَعا(٥)

وهؤلاء الذين تغلب عليهم المهلب هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، وقد خرج غيرهم وكان رئيسهم شَبيب بن زيد . وقد تعدّى أمره حتى دخل الكوفة مرتين ، وفي الثانية بنى بها مسجداً ، ولكن الأمر انتهى بتغلب الحجاج وغرق شبيب .

٭

ولذلك هدأت الأحوال ، واستتبّ الأمر لبني أمية ، وما لأحد من فضل في ذلك مثل ما للحجاج حتى استحقّ أن يقول عنه عبد الملك : إن الحجاج جلدة ما بين عينيّ ، ثم يقول الوليد بعد أبيه: إن كان الحجاج جلدة ما بين عيني أبي فإنه جِلْدَةُ وجهي كله.

---

(١) يقال : فلان رحب بكذا إذا كان مطيقاً له . اضطلع بالأمر : احتمله .

(٢) الريث هنا : المقدار . يقصم : يكسر

(٣) الرخاء بالفتح : سعة العيش ، وبالضم : الريح اللينة .

(٤) شطر الناقة : جانب ضرعها ، ولها شطران وفي كل شطر خلفان .

(٥) استمر الحبل : قوي فتله . الشزر : الفتل مما يلي اليسار وهو أقوى له . المريرة الحبل . القحم : الكبير السن جداً . الضرع : الصغير السن الضعيف .

⁂

وبعد : فهل يحمد للحجاج ما قام به من إزهاق الأرواح وإزعاج الآمنين والقتل بالشبهة فى سبيل جمع الكلمة للخليفة العربى ، بل جمع أمر الإسلام وحفظه من التبدد ، فإن الأمر لو ترك لغلا الخوارج والخالعون للطاعة ، فزالت الدولة ولم يقم مكانها دولة أخرى لتشعب الآراء واختلاف المذاهب ، ولكن مهما حمدنا للحجاج سعيه ، فإننا لا ننسى أنه قتل الإباء فى الأمة العربية ، فذلت النفوس واستخذت ، واستعدت لاستبداد الأعاجم الذى صار فيما بعد فى العصر العباسى .

أخلاق الحجاج

لا يفوتنا أن ننهى إليك حديثاً عن شىء من أخلاق الحجاج يساعد على تصور النجاح الذى صار إليه ، فإن الشدة التى اشتهر بها لا تكفى للوصول إلى ما وصل إليه الرجل . فكم من شدة صاحبها الطيش ، وسوء النظر فى العواقب ، فلم تعقب إلا وبالا ، لذلك نميل إلى الاعتقاد بأن نجاح الحجاج مدين كذلك لصفات من شأنها أن تنهض بالرجال إلى ما يحاولون من مجد ، وهاهى تلك بعض صفاته .

[الكرم] : حكى أنه لما دخل المدينة فرق عشرة آلاف دينار ، ثم قال : أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوائب فاعذرونا ، فقال رجل : لاعذر الله من يعذرك وأنت أمير المصرين وعظيم القريتين ، فقال صدقت ، واقترض أموالا من التجار ففرقها فى الناس . ولما تولى العراق كان يطعم كل يوم على ألف مائدة يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس ، ويطاف به فى مِحَفَّة[1] على أيدى الرجال يشرف على القوم ،

---

(١) مركب للنساء كالهودج إلا أنه لا يقبب .

وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام ، فلما طال ذلك عليه قال : أيها الناس ، رسلى إليكم الشمس ، إذا طلعت فاحضروا للغداء ، وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، فكانوا يفعلون .

[الدهاء] : حكى عبد الله بن ظبيان قاتل مصعب بن الزبير قال : كنت يوما واقفا على باب الحجاج ، فإذا به خرج وحده وكانت القائلة ، ما بالباب أحد ، فوقع فى نفسى أن أقتله ، فنظر إلىّ فقال : هل لقيت يزيد بن أسلم يعنى كاتبه ؟ فقلت : لا . قال : القه ، فإن عهدك على الرىّ معه ، فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى يزيد فلم يكن عنده عهد بشىء ، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً وشغلا لى عما أردته به .
وبنى هو وعبد الملك فى بعض المساجد بابين ، فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك فداخله حسد للحجاج ، فكتب إليه إنما مثل أمير المؤمنين ومثلى كمثل ابنى آدم إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر .

دخل عليه قاتل الحسين رضى الله عنه ، فقال له : كيف قتلته ؟ قال دَسَرْتُه بالرمح دَسْراً(١) ، ثم هَبَرْتُهُ بالسيف هَبْرًا(٢) ، ووكلت رأسه إلى أمير غير وَكِل ، فقال الحجاج : أما والله لا تجتمعان فى الجنة ، وكان قصد الحجاج رضا أهل العراق وأهل الشام ، فخرج أهل الشام يقولون : صدق الأمير لا يجتمع من شق عصا المسلمين ، وخالف أمير المؤمنين هو وقاتله فى طاعة الله فى الجنة ، وقال أهل العراق : صدق الحجاج لا يجتمع والله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتله فى الجنة .

[الحلم] : حكى أنه خرج إلى ظاهر الكوفة منفرداً ، فرأى رجلا فقال : ماتقول فى الحجاج ؟ قال : زعموا أنه من ثمود وكفى بسوء سيرته شرًا ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فقال الحجاج : أتعرفنى ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاج . قال الرجل :

---

(١) دسره بالرمح : طعنه .
(٢) هبره بالسيف : قطعه قطعاً كباراً .

أتعرفنى أيها الأمير ؟ قال لا . قال : أنا مولى بنى عامر أجن فى الشهر ثلاث مرات ، وهذا اليوم أشدُّ الصَّرَع علىّ ، فضحك من قوله وعفا عنه .

كان عنده بعض ندمائه وقد أدركت الحجاج سـنة من النوم ، فعَطَس النديم عطسة مُنْكَرَةً ، ففزع الحجاج وقال : ما أردت بهذه العطسة إلا أن تروّعنى ، فقال : أيها الأمير إنها عادتى ، فقال : والله إن لم تأتنى بشاهد على ذلك ضربت عنقك ، فخرج الرجل ، فأتى ببعض أصحابه ، فقال : أيها الأمير ، إنى أشهد بأنه عطس يوما عطسة وقع منها ضِرْسه ، فضحك الحجاج حتى استلق ، وكان قليل الضحك إلا أن يغلب على أمره .

[محبة الصدّق] : روى الجاحظ قال : خطب الحجاج يوم جمعة فأطال الخطبة ، فقال رجل : إن الوقت لا ينتظرك ، والربّ لايعذرك ، فأمر بحبسه ، فأتاه أهل الرجل وكلموه فيه وقالوا : إنه مجنون ، فقال : إن أقرّ بالجنون خليت سبيله ، فقيل له : أقرّ بالجنون ، فقال : لا ، والله لا أزعم أنه ابتلانى وقد عافانى ، فلما بلغ ذلك الحجاج أطلق سراحه لصدقه .

ومما يحكى من ذلك أيضاً ما قيـل من أنه جلس لقتل أصحاب عبـد الرحمن ابن الأشـعث ، فقام رجل فقال : أصلح الله الأمير ، إن لى عليك حقاً . قال : وما حقك ؟ قال سَبَّك عبد الرحمن يوما ، فرددت عليه . قال الحجاج فمن يعلم ذلك ؟ قال الرجل : أنشدُ اللهَ رجلا سمع ذلك إلا شهد به ، فقام رجل من الأسرى فقال : قد كان ذلك أيها الأمير . قال : خلوا عنه . ثم قال للشاهد : وأنت فما منعك أن تنكر كما أنكر . قال : لقديم بغضى إياك . قال : ويخلى عنه لصدقه .

أمثلة من كلام الحجاج بحفظ

كتب إليه الوليد يقول : صف لى سيرتك ، فكتب إليه :

إنى أيقظتُ رأيى ، وأَنمتُ هواى ، فأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليتُ الحربَ الحازمَ لأمره ، وقلَّدْتُ الخراج المُوَفِّر لأمانته ، وصرفتُ السيفَ إلى النَّطِفِ(١) المسىء ، فخاف المُريبُ صَوْلَةَ العقابِ ، وتمسّكَ المُحْسِنُ بحظه من الثواب .

مات للحجاج ابن اسمه محمد فى غداة يوم الجمعة ، فلما كان العشى أتاه بريد اليمن بوفاة أخيه محمد ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج ، وهِيضَ جناحه ، فصَعِد المنبر ، فقال :

أيها الناس : محمدان فى يوم واحد . أما واللهِ ما كنت أُحبُّ أنهما معى فى الحياة الدنيا لما أرجولهما من ثواب الله فى الآخرة ، وايْمُ اللهِ ليُوشِكَنَّ الباقى منى ومنكم أنْ يَفْنَى والجديدُ أنْ يَبْلَى ، والحىُّ منكم ومنى أنْ يموتَ ، وأنْ تُدال الأَرضُ منّا كما أُدِلْنَا منها فتأْكلُ من لحومنا ، وتشربُ من دمائنا كما مَشَيْنَا على ظهرها ، وأَكلْنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكونُ كما قال الله تعالى : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» . ثم تمثل بالبيتين :

عَزائى رسولُ اللهِ من كلّ ميّتٍ ... وحَسْبِى ثوابُ اللهِ من كلّ هالك
إذا ما لقيتُ اللهَ عنّىَ راضياً ... فإنَّ سُرُورَ النَّفْسِ فيما هُنَالِكِ

وأرجف الناس بموته ، فصعد المنبر فقال :

إنَّ طائفةً من أهل العراق ، أهلِ الشّقاقِ والنفاق ، نَزَغَ الشيطانُ بينهم ، فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج فَمَهْ ، وهَلْ يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ، والله مايسرّنى

---

(١) النطف : المتلطخ بالعيب المتهم بالريبة .

ألاّ أموتَ ، وأنّ لىَ الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لأهْوَنِ خلقه عليه إبليس . ولقد دعا اللهَ العبدُ الصالحُ(١) ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْـدِى » ، فأعطاه اللهُ ذلك إلا البقاء ، فما عسى أن يكون أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل كأنى والله بكلّ حىّ منا مَيْتاً ، وبكل رَطْبٍ يابساً ، ونُقِلَ فى ثياب أكفانه إلى ثلاث أذْرُعٍ طولا فى ذراع عَرْضاً ، وأكَلَتِ الأرض لحمه ، ومصّتْ صديده ، وانصرف الحبيب من ولده يَقْسِمُ الخبيث من ماله ، وإنّ الذين يَعْقِلونَ يعلمون ما أقول .

لما قتل عبد الله بن الزبير ارتجّت مكة بالبكاء ، فصعد الحجاج المنبر فقال :

ألا إن ابن الزبير كان من أخْبار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ، وتنازع فيها ، وخلع طاعةالله ، واستكن بحَرَمِ الله ، ولو كان شىء مانعاً للعصاة لمنع آدم حُرْمةُ(٢) الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته . فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

خطبة دير الجماجم(٣) تحفظ

خطب الحجاج بعد وقعة دير الجماجم ، فقال :

يأهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم(٤) فخالط اللحمَ والدمَ والعَصَبَ والمسامع

---

(١) هو سليمان عليه السلام .

(٢) أى لوقته الجنة (وقد كان فيها) من أن يقع عليه غضب ربه حين عصا .

(٣) دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة ، وسمى دير الجماجم لأنه كانت تصنع به الجماجم وهى الأقداح من الخشب وبهذا الموضع كانت الوقعة بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث وانهزم فيها ابن الأشعث .

(٤) استبطن الأمر : دخل باطنه .

والأطراف والأعضاء والشَّغاف[١] ، ثم أفضى إلى المِخاخِ والأصْماخِ ، ثم ارتفع فعشَّشَ ، ثم باض ففرَّخ ، فحشا كم نفاقا وشقاقا ، وأشعركم خلافا ، واتخذتموه دليلا تتْبعونه وقائداً تُطيعونه ، ومُؤامراً[٢] تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وَقْعة . أو يحْجُزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابى بالأهواز[٣] حيث رُمتمُ المكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجْمَعْتم[٤] للكفر ، وظننتم أن الله خَذَل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطَرْفى . تتسللون لِوَاذاً[٥] ، وتنهزمون سِراعا . ثم يوم الزّاوية ، ومايوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازُعُكم وتخاذُلكم ، وبراءةُ الله منكم ، ونُكُوص[٦] وليِّكم عنكم إذ وليْتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعْطانها ، لا يسألُ المرء عن أخيه ، ولا يَلْوِى الشيخُ على بنيه ، حتى عَضَّكمُ السلاحُ ، وقَصَمَتْكُم الرماحُ . ثم دَيْرُ الجَماجِم وما دَيْرُ الجماجِمِ ! ! ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ ، بضَرْبٍ يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِه[٧] ، ويَصْرفُ الخليلَ عن خَليلِه ، يأهلَ العراقِ ، والكَفَرات بعد الفَجَرات ، والغدَرات بعد الخَتَرات[٨] ، والنَّوْرة بعد النَّوْرات ، إن بعثتُكم إلى ثغوركم غَلَلْتُمْ[٩] وَجَبُنْتُمْ . وَإنْ أَمِنْتُمْ أرْجَفْتُمْ ، وَإنْ خِفْتُمْ نافقتم ، لا تذكرون حَسَنةً ولاتشكرون نعمة ، يأهل العراق : هل استخفكم ناكثٌ ، أواستغوا كم غاوٍ ، أو

---

(١) الشغاف : حجاب القلب أوحبته .

(٢) آمره : شاوره .

(٣) الأهواز : سبع كورأوتسع بين البصرة وخراسان . لكل اسم خاص ، ولا يسمى واحدها هوزا ، ولعل الحجاج أراد أقربها إلى البصرة ، وهو الذى يغلب عليه اسم الأهواز كما فى مصور المرحوم آمين بك واصف .

(٤) اجتمعتم . (٥) اللواذ بالشىء (مثلثة) : الاستتاربه والاحتصان به ، واللواذ أيضاً المراوغة .

(٦) نكس عن الأمر : أحجم ، وعلى عقبيه : رجع عما كان فيه من خير .

(٧) مقيله : مكانه .

(٨) الخترة : الخديعة .

(٩) غلّ : خان فى الغنيمة .

استفزّكم عاصٍ ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم[(١)] خالع[(٢)] إلا اتبعتموه وأكرمتموه ونصرتموه وزكّيتموه . يأهلَ العراق : قلّما شغب شاغب ، أونعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلاّ كُنْتُم أتباعَه وأنصارَه . يأهل العراق : ألم تَنهكُمُ المواعظُ ، ولم تَزْجُرْكم الوقائعُ . ثم التفت إلى أهل الشام ، فقال : يأهل الشام ، أنا لكم كالظَّليم[(٣)] الرامح[(٤)] عن فراخه ، يَنْفِي عنها المَدَرَ ، ويباعد عنها الحَجَر ، وَيَكُنُّها من المطر ، ويحميها من الضِّباب ، وَيَحْرُسها من الذئاب . يأهل الشام : أنتم الجُنّة والرِّداء ، وأنتم العُدّةُ والحِذاء[(٥)] .

ومن وعظ الحجاج ما رواه المبرّد فى الكامل قال : كان الحجاج بن يوسف يقول على المنبر :

أيها الناس : اقْدَعوا هذه الأنفسَ فإنها أسْأَلُ شىء إذا أُعطيَتْ ، وأمنعُ شىء إذا سُئلَتْ ، فرحم الله امرأً جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فإنى رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه .

وكان يقول : إن امرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من ذنبه ، أو يفكر فى ميعاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة .

---

(١) استعانكم . (٢) خالع : ثائر جان .

(٣) الظليم : ذكر النعام .

(٤) الرامح : الضارب برجله .

(٥) الحذاء . القدوة ، من حذاه إذا فعل فعله .

الأدب فى حياة الحجاج

لعلك غير ناس ما مرّ بك من كون الحجاج أحد الأربعة الذين لم يلحنوا فى جدّ أو هزل ، كما تذكر بلاءه فى إعجام حروف الهجاء العربى وعمله على تحويل ديوان العراق إلى العربية هذا الى ما سنذكره موزعا فى أبواب المذكرة من إحيائه للأدب وسماعه من الشعراء والمبالغة فى مثوبتهم وتوجيههم ، وإرسالهم الى الخليفة مشفوعين برأيه ، فقد فعل ذلك بجرير حتى صار من شعراء الخليفة ، كذلك سنحدّثك عن رأيه الصائب وقريحته النقادة عند ما مدحته ليلى الأخيلية بقولها : غلام إذا هزّ القناة سقاها . فقال لها : قولى همام لاغلام .

أما الشهادة القائمة على بلاغته وقوّة تأثيره ، فهى خطبه وكتبه التى مرّ بك كثير منها وقد عرفت تأثير هذه الخطب ، وتلك الكتب فى إلزام الطاعة ، وتهدئة الثورة وهى وإن كانت لا تحتاج فى إثبات فضلها إلى دليل ، ولكنا نسوق لك رأيا لأحد معاصرى الحجاج تدرك منه كيف كان وقع كلامه واختلابه للألباب ؟ . يقول مالك ابن دينار : مارأيت أحداً أبين من الحجاج إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى إنى لأحسبه صادقا ، وأظنهم كاذبين . ألست ترى أن مالكا يظهر لك حيرته من تأثير الحجاج بكلامه ، وكيف أنه يعتقد ظلمه لهم وإساءته إليهم ؟ ، حتى إذا سمع كلامه انقلب اعتقاده إلى حين . ولا شكّ أن هذا من فضل البيان كالتصوير البارع الذى يريك الصورة خارجة وليست بخارجة ، أو داخلة ، وليست بداخلة .

وإن المتتبع لكلام الحجاج ليرى له مسحة خاصة ، وأساليب استقلّ باستعمالها من بين معاصريه ، وأحسن استخلاصها من كلام العرب وعاداتهم ، فصار له فضل شيوعها وتداولها . ولعل لنشأته البدوية أثراً كبيراً فى اهتدائه إليها ، فما كنا نرى

لغيره مثل قوله : « لأعصبنكم عصب السلمة » ، و « مايقعقع لى بالشنان » ، و « لأضربنكم ضرب غرائب الأبل ، وكذلك عرف الحجاج بالاستشهاد بالرجز ، والإكثار من رواية غريب الشعر .

عبد الحميد الكاتب

[نسبه] : هو عبد الحميد بن يحيى مولى بنى عامر ، والموالى فى الدولة الأموية حديث يجب أن تقف عليه لتستطيع فهم ما أحاط بعبد الحميد من ملابسات .

الموالى فى عصر بنى أمية

هم فى الأصل الذين صاروا سبيا للعرب ، تفرّقوهم فى المحاربين يتولون أمرهم ، فيسترقونهم أو يعتقونهم ، وينسب المولى إلى أسياده الذين ملكوا رقه ، فيعيش مستظلاً بظلهم ، وتنشأ ذرّيته على ذلك الولاء .

ولقد اقتضت سياسة بنى أمية الغض من شأن من ليس عربيًا ، فاضطهدوا هؤلاء الموالى حتى حاربوا فى جيوشهم بلا عطاء ، أو أعطوهموه مصرداً محسوبًا .

ولم يكن جميع الموالى من طبقة واحدة ولا أمة واحدة ، بل كان منهم من الفرس والروم ، ومنهم من ينتهى نسبه إلى ملوك الدولتين ، أو الأشراف فيهما كما كان منهم الحبش والسودان والترك والبربر ، وكل من فتح العرب بلادهم . لذلك كان أثر هؤلاء الموالى عظيما ، فأفادوا الأمة العربية بما حملوا معهم من نظام ، ودربة ، وذكاء ، وعلم ، وصناعة ، ولو أن بنى أمية أفسحوا المجال لهؤلاء الموالى ، واطمأنوا إليهم ، ولم يقصوهم عن أعمال الدولة لعجلوا للأمة العربية بما كان فى العصر العباسى الذى كانت سياسية خلفائه تقضى بالاطمئنان إلى هؤلاء والإفضاء إليهم بتدبير شئون الدولة .

لقد كان من أثر اضطهاد الأمويين للموالى أن أقبل هؤلاء على العلم ، يحصلونه ، واللغة العربية يحذقونها ليجعلوا ذلك زلفى إلى أسـيادهم ، ولينالوا به نصيباً من عطفهم ، وليستروا به مسبة الرقّ وعاره ، فكان منهم أئمة الدّين ، ومصابيح الهدى ، وأعلام اللغة على حين شغل العرب بالرياسة وتدبير الملك ، وولاية الأمصار والدفاع عن الملك ، أو القيام بمناهضته .

ولقد كان عبـد الحميد بن يحيى أحد هؤلاء الموالى الذين أفادوا العربية بذكائهم الموروث ، وجدّهم الذى طلبوا به المنزلة فى العرب ، والجاه عندهم .

حياة عبـد الحميد

نشأ بالشام والدولة الأموية مدبرة ، وأمورها مضطربة ، والخلافة قد ذهبت هيبتها ، وتطلع إليها كلّ طامع ، فكثرت لذلك الحروب ، وتوالى خلع الطاعة ، وشـغل الخلفاء بالدانى عن القاصى حتى عششت الدعوة إلى العباسـيين ، وأفرخت فى خراسان ، ثم اكتسحت الدولة الأموية أسرع اكتساح لضعف المقاومة ، ولصيرورة الدولة إلى الشيخوخة المبكرة ، إذ لم يكن قد مضى عليها فى الحكم غير تسعين سنة ، وهى فى أعمار الدول قليلة ، ولـكنّ الأمويين عجل إليهم الضعف بما أسرفوا فى الظلم ، وعسفوا فى الجباية ، حتى قلت مواردهم ، وضعف شأنهم .

كان أوّل أمره يعلم الصبيان ، ويتنقل فى البلاد ، حتى عرف فضله مروان بن محمد ، وكان والياً على الجزيرة وأرمينية ، فاتخذه كاتباً له ، فلزم خدمته ، وأخلص له ، وحرص مروان على الانتفاع به ، فلما صارت الخلافة إليه سنة ١٢٧ هـ أبقاه كاتب الدولة اعترافا له بسابقة خدمته ، والتماساً للانتفاع بذكائه وبلاغته . ويروى أنه كان فى مجلس مروان حين وصل إليه خبر الخلافة ، فسجد مروان ومن معه شكراً لله ، ولم يسجد عبد الحميد ،

فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : على أن كنت معنا فطرت عنا . قال : إذن تطير معى ، فقال عبد الحميد : الآن يطيب السجود ، وسجد .

لبث مروان خليفة خمس سنين عانى فيها كلّ شـدّة ، فقد خرج عليه عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا لنفسه ، وانضمّ إليه من الشيعة عدد عظيم ، ولكن ثورة عبد الله هذا قد أخمدها والى العراق عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز ، وكان الناس يحبونه لسيرة أبيه ومعدلته .

أما الشام فقد كانت أمصاره دائمة الاضطراب على مروان ، فانقضّ عليـه أهل حمص ، ثم أهل الغوطة ، ثم أهل فلسطين ، فانتصر مروان على كلّ هؤلاء ، ثم حسن بعض الدعاة لسليمان بن هشام بن عبد الملك أن يطالب بالخلافة ، فطالب أهل الشام ، فأتوه من كلّ وجـه ، وكانت موقعة هائلة بين سليمان ومروان ، فانهزم سليمان ، وأحصيت القتلى ، فكانت ثلاثين ألفاً .

ولقد طمع الخوارج فى ضعف الدولة ، فاستولوا على الكوفة ، وكانت لهم مع مروان جولات استمرّت مدّة طويلة .

وفى ربيع الأوّل سنة ١٣٢ هـ بويع بالكوفة لأبى العباس السفاح أوّل خلفاء العباسيين ، فأرسل الجند تتعقب مروان حتى التقوا على نهر الزاب ، فقتل من جنود مروان كثير وانهزم إلى مصر ، فتبعه العباسيون حتى عثروا به فى دير بقرية بوصير من مصر ، وقتل لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وانتهت بقتله دولة بنى مروان .

ولا شكّ أن عبد الحميد قاسى مع مروان حرّ هـذه النار ، فإن ما عرف له من الوفاء جعله لا يتخلى عن خدمته ، وقد طلب منه مروان حين اشـتدّ عليه الطلب ، وتتابعت هزائمه، أن يتحوّل إلى العباسيين ، وقال : إن القوم محتاجون إليك لأدبك ، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظنّ بك ، فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بى فلعلك تنفعنى فى حياتى أو بعد مماتى ، فقال عبد الحميد :

أُسِرُّ وَفاءً ثم أُظْهِرُ غَـدْرَةً ... فَمَنْ لى بِعُذْرٍ يُوسِـعُ الناسَ ظاهِرُهُ

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذى أمرتنى به أنفع الأمرين إليك وأقبحهما بى ، ولكنى سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد ، فغمز عليه عند صديقه ابن المقفع ، وفاجأهما الطلب ، وهما فى بيت ، فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كلّ منهما : أنا ، خوفا على صاحبه إلى أن عرف عبد الحميد . فأخذ ، وسلمه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته ، فكان يحمى طستاً ويضعه على رأسه حتى مات سنة ١٣٢ هـ .

تعلم عبد الحميد وعمله

نشأ عبد الحميد كما ينشأ أولاد الموالى مقبلين على الدراسة ، فتخرّج فى علوم زمانه من قراءة القرآن ، ورواية الشعر ، والإلمام بالحساب والأخبار وتلك عدة الكاتب فى تلك الأيام . وقد استوفى عبد الحميد كلّ ما يستعدّ به أهل زمانه من المرتزقة بالعلم ، وساعده على ذلك طبع مُوَاتٍ وذكاء موروث ، وكان أستاذه الذى تخرّج عليه هو ختنه سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وقد عرف سالم هذا بحذق اللغة اليونانية والنقل منها . ولئن فات عبد الحميد أن يكون عارفاً بغير العربية ، فإنه لم يفته أن يتتلمذ لهذا الرجل ، فيعرف منه أسرار تلك اللغى ، ويجرى على يديه ذلك الإبداع الذى عرف به فى تنويع بدء الرسائل واختتامها . ومراعاة فروق تلتزم فيها على تعدّد أنواعها ، فيكون لصورة العهد خلاف صورة التولية وللإخوانيات غير ما للديوانيات مما سنفصله فى موضعه من هذه الترجمة .

وقد سبق سالم تلميذه بشىء من هذا ، ولكن عمل عبد الحميد كان أتمّ وأوفى ، فاستحقّ أن يقال عنه : « بدئت الرسائل بعبد الحميد . » .

لما انتقل عبد الحميد مع مروان إلى دار الخلافة اشترك معه فى عمله المضنى من مناهضة

الواثبين على الخلافة ، وكان يكتب له كتبه إلى الموالين ، وتهديده إلى الخارجين ، وعهوده للولاة والقضاة .

ولقد ذكروا أنه كتب عن مروان كتاباً إلى صاحب الدعوة بخراسان يدعوه إليه ، وضمنه مالو قرئ لأدّى الى وقوع الخلاف والفشل فى صفوف العباسيين ، وقال لمروان : قد كتبت كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يكن ذلك وإلا فالهلاك ، وكان الكتاب لكبره يحمل على جمل ، فلما وصل الى أبى مسلم أمر بإحراقه ولم يقرأه ، وكتب على جذاذة منه الى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانْتحى عليك لُيوثُ الغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وكان لإنشاء الرسائل ديوان وفيه كتاب لمكان العمل من الاتساع ، ولصيرورة الدولة إلى نظام مستقرّ وعمل موزع كما هو الشأن فى الأمم التى قطعت فى الحضارة شوطاً . وكان عبد الحميد سيد هؤلاء الكتاب ورئيسهم . وهذه رسالته إلى الكتاب يوصيهم فيها بمعرفة كتاب الله والفرائض ، وعلم العربية ، ورواية الأشعار ، وحذق التاريخ ، والحساب ، وتجويد الخطّ ، ثم يعطف على أدب النفس بالرفق فى المعاملة ، وحسن الصحبة ، وسترى ذلك فيما ننقل إليك منها .

أثر عبد الحميد فى الكتابة

يقولون إن عبد الحميد أول من أطال التحميدات فى أوائل الكتب وكرّرها فى فصولها . وأنه رسم لها رسوما فى بدئها وختامها ، وجعل للإطناب مواضع ، وللإيجاز أخرى ، فكان بذلك شيخ كتاب الرسائل على الإطلاق .

لقد أطال عبد الحميد التحميدات حقًّا ، فإنه بعد أن كانت صيغة الحمد كما مرّ بك فى رسائل العصر الماضى تذكر بعبارة واحدة فى جملة واحدة ، توسع فيها عبدالحميد حتى

صاغها فى عبارات طويلة ، وكذلك كان التحميد مرّة واحدة فى الكتاب ، فلما أطال عبد الحميد الرسائل كان يبدئ فيه ويعيد ، فيجعله فى أوّل الرسالة ، ثم يعيده مرّة أو مرّات فى فصولها على حسب طولها . كذلك جعل للكتابة رسوما تراعى ، وهذه الرسوم لم تكن كلها له بل منها ما كان العمل جاريًا عليه سابقاً ، ولكن فضل عبد الحميد أن فصل ذلك وبناه على أسس وشرطه بشروط . فكان بدء ولاية العهد غير بدء الأخبار عن فتح ، فالأوّل يبدأ بعد البسملة بقولهم هذا ما عهد ، وهى الصورة القديمة التى كتبها عمر، وظلت سنة من بعده، والثانى يبدأ بالحمد ابتهالا لله على ماوهب . وكان خطاب المسلم الطائع غير خطاب أهل الملل الأخرى . فالأوّل يحمد فيه الله إلى المرسل إليه ، والثانى يقال فيه : سلام على من اتبع الهدى . وقد نصوا على أن عبد الحميد اخترع صورة التعقب بالحمد بعد البسملة مفصولا عنها بأما بعد ، فيقول مثلا : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فالحمد لله .

كذلك كان الختام مختلفاً وصورته القديمة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وقد لا تذكر بركاته ، وقد يختم بإن شاء الله ، فيقولون : فإن رأيت أن تفعل ذلك فعلت موفقا إن شاء الله أو (فرأيك فى ذلك موفقاً إن شاء الله) وقد يكون بالحسبلة كقولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، أو حسبى الله ونعم الوكيل ، وأكثر ما يكون ذلك فى المشارطات والمناشير ونحوها ، وتختم العهود بمثل ، وكفى بالله شهيداً ، وتختم التعزية فى الإخوانيات بقولهم : إنا لله وإنا إليه راجعون .

كذلك جعل عبد الحميد للإطناب مواضع فجعله فى أخبار الفتوح ، فكانت تبنى على إشباع القول ، وتكثير الألفاظ للتعريف بقدر النعمة ، وتفخيم أمر الملك ، كذلك كانت الكتابة تطال فى الحثّ على التهيؤ للعدوّ ، فيبسط فيها القول بوصف العزائم ، وقوّة الهمم ، وإثارة الحمية ، وسرعة الحركة ، وطىّ المراحل ، وتخييل أسباب النصر ، والوثوق بمعونة الله . وكذلك تطال فى الوعد والوعيد والإحماد والاذمام من الخليفة إلى

من يكتب إليه ، لينشرح صدر المشمر المحسن وينبسط أمله ، وليرهب المقصر ، ويزلزل به موقفه فيسهل ارتداعه ، وإقراره بالطاعة وعودته إلى الحظيرة .

وكان الإيجاز فى الكتابة إلى نوّاب الملك بالاستيحاش من العدو ، فلا يعمد إلى تهويل أمر العدو فتضعف القلوب ، ولا تهوينـه فيحصل الاغترار . كذلك يلجأ إلى الإيجاز فى أمر لا يراد إعلانه من مثل هزيمة ، أو تغيير رسم ، أوتكليف رعية ، أو أن تكون الكتابة إلى الوالى أو المرءوس فى أمر أو نهى .

ولسنا نرى فضل عبد الحميد يقف عند هـذا النظام الذى أجراه على الرسائل وقيدها ، فإنه وإن دلّ على ذكاء وصدق حسّ وإدراك لحقائق الفروق فى التعبير ، فليس يدلّ على الملكة القوية ، والمقدرة التامة ، وحسن التصوير للمعنى ، والوصول به إلى قلب السامع ، وغير ذلك من صفات البلاغة التى تمت فى عبد الحميد ، وتجمعت له خصائصها وإن أدلّ على فضل عبد الحميد أن تقول إنه لم يتكاءده لفظ ، ولم يستعص عليه معنى ، ولم يعتره فتور ، بل كانت معانيه وألفاظه تجرى جريان العذب على شـفاه الظمأى ، وأنك تقرأ له الرسالة فتطول عليك ، وتخشى عليه أن يصير إلى الوهن ، أو ينتهى إلى السقط ، فتراه فى آخرها كشأنه فى أوّلها سلاسة وعذوبة وتدفقا فى المعانى ، وتنويعا فى الأساليب .

هذا هو فضل عبد الحميد الذى جاء فوجد الكتابة مقيدة ، ففكّ قيودها ، ومتعثرة فأجراها على أذلالها ، وضيقة العطن ومنقطعة النفس ، فأطال من أنفاسها ومد من روحها . فهذا هو الاختراع فى الكتابة ، وهذا هو الابتداع الذى يصح أن نذكره لمن نريد أن نجعله شيخ الكتاب وسيدهم ، وهو جدير بهذا الوصف بعد ما بان لك أنه استطاع مالم يفعله الأوائل ، وأنه حافظ على فضـيلة السابقين من الجزالة والأحكام ، وزاد عليها الإسباغ وإطالة الذيل .

وإن الناظر فى رسائل عبد الحميد ليرى الرجل واسع التفكير ، مستقصيا للمعانى مرتباً لها ، متوغلا فى غامضها متناولا لسهلها وصعبها ، وذلك شأن من تثقف أحسن تثقيف

وحصف فكره أتم حصافة . ولا يكون ذلك إلا بمواتاة الطبع وحدة الذكاء ، ثم بالعلم النظرى الواسع المدى . وهذا ما يحملنا على اعتقاد أن عبد الحميد إن فاته معرفة لغة غير العربية لم يفتــه أن وعى كلّ ما ترجم إليها على يد ختنه أوغيره من النقلة ، وقد كان النقل من اللغات بدأ فى هذه الأيام ، فابن المقفع نقل كثيراً من كتب الفرس ، وأشهرها كليلة ودمنة ، فلم يفت عبد الحميد الاطلاع على كل ما ترجم فى أيامه .

فى كتاب صبح الأعشى جزء ٢ ص ١٨٤ : قال أبو هلال العسكرى : ومن عرف ترتيب المعانى ، واستعمل الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له فى الأولى . ألا ترى أن عبـد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى وحوّلها إلى اللسان العربى .

آراء الناس فى عبد الحميد

كان أحمد بن يوسف يقول : فى رسائل عبـد الحميد ألفاظ محككة ، وتجارب محنكة . وقال إبراهيم بن العباس الصولى : كان الكلام معانا له ما تمنيت كلام أحد من الكتاب يكون لى مثل كلامه . وقال أبو جعفر المنصور غلبتنا بنو أمية بثلاثة : بالحجاج ، وعبد الحميد ، والمؤذّن البعلبكى .

وقال قاضى القضاة ابن خلكان : كان فى الكتابة وفى كلّ فن من العلم والأدب إماما ، وعنه أخذ المترسـلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا ، وهو الذى سهل سبل البلاغة .

وسأله يوما بعض المعجبين بأدبه عن سرّ نبوغه فى الكتابة فقال : حفظ كلام الأصلع (يريد علياً كرّم الله وجهه) ، وقال ابن نُباتة[1] فى كتابه : سرح العيون ،

---

(١) ابن نباتة هو جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وهو شارح الرسالة الهزلية لابن زيدون ، وهو شاعر له ديوان شعر مطبوع .

فى شرح رسالة بن زيدون : هو أول من اتخذ التحميدات فى فصول الكتب، واستعمل فى بعض كتبه الإيجاز البليغ ، وفى بعضها الإسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال .

نماذج من كلام عبد الحميد الكاتب

ليس لعبد الحميد الكاتب كتاب يجمع رسائله كما هو الشأن فى رسائل البلغاء ، كبديع الزمان والصابى وأضرابهما : ولكنك تجدها موزعة فى الكتب ، وفى دار الكتب الملكية مجموعة خطية فيها بعض رسائله ، ومن أشهر تلك الرسائل رسالته إلى الكتاب ، وهى برمتها فى مقدّمة ابن خلدون فارجع إليها كاملة هناك ، ولكنا ننقل إليك بعضا منها فيه غنية .

رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

قال فى أوّلها : أما بعد حفظكم الله ، يأهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا فى الخلقة سواء . وصرّفهم [1] فى صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم ، وأبواب رزقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءات ، والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها ، وتستقيم أمورُها ، وبنصائحكم يُصْلِح الله للخلق سلطانَهم ، وتَعْمُرُ بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ [2] إلا منكم ،

(١) صرفهم : وجههم .
(٢) كاف : قادر على الأمر ناهض به .

فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطِشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه[1] من النعمة عليكم .

ومنهـــا

فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفهموا فى الدّين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجل والفرائض، ثم العربية ، فإنها ثِقاف[2] ألسنتكم . ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعِينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيّعوا النظر فى الحساب ، فإنه قِوام كُتّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيّها ودَنِيّها ، وسَفْسَاف[3] الأمور ومحاقرها . فإنها مَذَلّة للرقاب، مَفْسَدَةٌ للكتاب. ونزّهوا صناعتكم عن الدنايا ، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات .

⁂

ومن رسائله رسالة الشِّطْرَنْج[4] ، وهى ما كتبه عن الخليفة إلى الأمصار يأمر الولاة بالضرب على أيدى المستهترين بهــذه اللعبة . وقد شاعت إذ ذاك حتى صرفت الناس عن أمور معاشهم ومعادهم ، وسننقلها إليك برمتها لأنها غير شائعة فيما بين يديك من الكتب قال :

---

(١) أسبغه وأطاله .
(٢) الثقاف : ما يقوم به الرمح .
(٣) السفساف : الحقير من الامور .
(٤) فى القاموس أنه بكسر الشين ولا تفتح ، وقبل الكسر أفصح .

رسالة الشطرنج

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله ، وإيضاح معالمه باظهار فرائضه ، وبعث رسله إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجا عليهم برسالته ومقدّما إليهم بإنذاره ووعيده - ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة - ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وحيه ، وقفى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له ، حين انطمست الأعلام مختفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وعفت الآثار دارسة ، وسطع رَهَج [١] الفتن وابتدأ قتام الظلم . واستنهد الشرك ، وأسدف الكفر ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق ، واستطرق الجور ، واقمطر سلهب [٢] الفتنة ، واستضْرِم لِقاحها [٣] ، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغيابة فساد ، فصدع [٤] بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوما وفلج الإسلام وأهله دالا لهم على المراشد ، وقائدا لهم إلى الهداية ، ومنيرًا لهم أعلام الحق ضاحية ، ومرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة وإعلان عروة النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجرًا لهم عن طريق الضلال محذرًا لهم من الهلكة ، موعزا إليهم فى التقدمة ، ضاربًا لهم الحدود على مايتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابرًا نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم متحننا على كافتهم ، عزيزاً عليه عَنَتُهم [٥] . رءوفا بهم رحيما ، تقدُّمه شفقته عليهم وعنايته برشدهم إلى تجريد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم وسلامة أديانهم ، وتخفيف آصار [٦] الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله إليه

---

(١) الرهج : الغبار .
(٢) السلهب من الرجال : الطويل ، ومن الخيل ما عظم وطالت عظامه .
(٣) استضرم : أوقد. لقاح النار : ماتعد به من حطب .
(٤) الفاعل ضمير يعود على النبي .
(٥) العنت : المشقة .
(٦) آصار : جمع إصر بمعنى الذنب .

صلى الله عليه وسلم ناصحاً منتصحاً ، أميناً مأمونا . قد بلغ الرسالة ، وأدّى النصيحة ، وقام بالحقّ ، وعدل عمود الدّين حتى اعتدل ميله . وأذلّ الشرك وأهله ، وأنجز الله له وعده ، وأراه صدق أسبابه فى إكماله للمسلمين دينه ، واستقامة سننه فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم موبقات الأعمال ومُفْظِعات[1] الذنوب . ومُبْهِظات[2] الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو إليه نقصان الأديان ، وتستهويهم الغوايات ، وأوضح لهم أعلام[3] الحقّ ، ومنازل المراشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة . غير مدخر لهم نصحاً ولامبتغ فى إرشادهم غُنما .

فكان فيما تقدم إليهم فيه نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذّرهم إصْره ، وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج ، والمواصلة عليها لما فى ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر مع مشغلتها عن طلب المعاش ، و إضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات فى مواقيتها مع المسلمين . . وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناساً ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهجهم[4] الشيطان بها وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى مُمساهم مُلهية لهم عن الصلوات شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، وافترض عليهم من شرائع أعمالهم . مع مداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر فى الأندية والمجالس غير منكر ولا معيب ، ولا مستفظع عند أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان ،منهم فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عند مايئس من بلوغ إرادته فى معاصى الله عزّ وجلّ بمعصر المسلمين ، ومجمعهم صُراحا وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرّهم بمكيدة إرادة استهوائهم بالخدع ، واجتيالهم[5] بالشبه ، والمراصد الخفية المشكلة . وكل مقيم على معصية الله ، صغرت أو

---

(١) أفظع الأمر كفظع (كـكرم) .
(٢) بهظه الأمر : ثقل عليه ، ولم أعثر على أبهظه ولعله استعملها مزاوجة لمفظعات .
(٣) أعلام : جمع علم ، وهو ماينصب فى الطريق لهداية السائر .
(٤) ألهجهم : جعلهم يلهجون بها أى يديمون ذكرها ، والمراد أنهم مولعون بها .
(٥) اجتاله : حوّله عن قصده . ويحتمل أن يكون واحتبالهم أى اصطيادهم .

كبرت مستحلا لها مُشِيداً بها[١] مظهراً لارتكابه إياها ، غير حذر عقاب الله عزّ وجلّ ولا خائف مكروهاً فيها ولا رَعِب من حلول سطوته عليها حتى تلحقه المنية فتختلجه[٢] وهو مصرّ عليها غيرُ تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها . فكم قد أقام على موبقات الآثام ، وكبائر الذنوب حتى مرّ به مُخَرَّم[٣] أيامه .

وقد أحبّ أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم وأن ينذرهم ويُوعز إليهم ، ويعلمهم ما فى أعناقهم عليها ، وما لهم فى قبول ذلك من الحظ وعليهم فى تركه من الوزر فَأذِنْ بذلك فيهم وأَشِدْه فى أسواقهم وجميع أنديتهم وأوعز إليهم فيه وتقدم إلى عامل شرطتك فى إنهاك[٤] العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها . والاظهار للعب بها وإطالة حبسه فى ضيق وضَنْك . وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ورأيه[٥] . ولا يجدنّ أحدٌ عندك هَوادة[٦] فى التقصير فى حقّ الله عزّ وجلّ والتعدّى لأحكامه فتحلّ بنفسك ما يسوءك عاقبة ومغبة . وتتعرّض به لِغَيَر[٧] الله عزّ وجلّ ونكاله . واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك ان شاء الله والسلام .

صورة تحميد له فى كتاب فتح

الحمد لله العلىّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذى قدر على خلقه بملكه[٨] ، وعزّ فى سماواته بعظمته ،

---

(١) رافعاً صوته .

(٢) تنتزعه. (٣) خرّم الشىء وخرمه: فرق أجزاءه، ومعنى مخزم أيامه: أيامه القليلة، لأن الجميع إذا تصدع قلّ .

(٤) إنهاك العقوبة : المبالغة فيها .

(٥) أى الحسن .

(٦) الهوادة : اللين والضعف .

(٧) غير (كعنب) : أحداث الدهر .

(٨) ملك (مثلثة) : أى قدرة .

ودبّر الأمور بعلمه ، وقـــدّرها بحكمه على ما يشاء من عزمه ، مبتدعا لها بإفشائه إياها ، وقدرته عليها واســتصغاره عظيمها . نافذاً إرادته فيها ، لا تجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهى إلا إلى تأجيله ، ولا تقع إلا على سبق من حتمه كلّ ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وحيه لا معدل له عنها ، ولا سبيل لهـا غيره ، ولا علم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو ، فإنه يقول فى كتابه الصادق : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

إخوانياته

كتب إلى أخيه فى مولود وكان أوّل ما رزقه الله .

أما بعد : فإنه ليس ممـا أتعرّف من مواهب الله نعمة خُصِصْتُ بمزّيتها . وأُصْفِيتُ بخصيصتها كانت أسرّ لى من هبة الله لى ، ولدا سمّيته فلانا ، وأمّلت ببقائه بعدى حياة وذكرى وحسن خلافة فى حُرْمتى وإشراكه لى فى دعائه ، شافعاً لى إلى ربه عند خلواته فى صلاته وحجه ، وكلّ موطن من مواطن طاعته ، فإذا نظرتُ إلى شـخصه تحرّك به وجدى ، وظهر به سرورى ، وتعطفت[1] عليه منى أُنَسة[2] الولد ، وتوات عنى وحشة الوحدة . فأنا به جذل فى مغيبى ومشهدى ، أحاول مسّ جسده بيدى فى الظُّلَم ، وتارةأعانقه وأرشُفُه ، ليس يَعْدِله[3] عندى عطيات الفوائد ولامُنْفِسات[4] الرغائب ، سرنى به واهبه لى على حين حاجتى ، فشدّ به أزرى ، وحملنى من شكره فيه ماقد آدنى

---

(١) تعطف : انعطف وانحنى .
(٢) الأنسة : الأنس بالشىء .
(٣) عدله (كضرب) : ساواه .
(٤) شىء منفس كمخرج : يتنافس فيه .

بثقل حمل النعم السالفة إلىّ به المقرونة سراؤها فى العجب بما يتداركنى من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا إياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه .

فأسأل الله الذى منّ علينا بحسن صنعه[1] فى الأرحام ، تأديبه بالذكاء ، وحراسته بالعافية ، وأن يرزقنا شكر ما حمّلْنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته ، والمدّة فى عمره مُرْصَدا[2] بالزيادة ، مقرونا بالعافيــة ، محوطا من المكروه ، فإنه المنان بالمواهب والواهب للمنى ، لاشريك له .

حملنى على الكتاب إليك لعلم ماسررتُ به علمى بحالك فيه وشَرِكْتُك[3] إياى فى كلّ نعمة أسداها إلىّ ولى النعم (وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره) . والسلام عليك .

وكتب عن مروان إلى هشام يعزيه عن امرأة من حظاياه :

إن الله أمتع أمير المؤمنين من أنِيسته وقرينته متاعا مدّه إلى أجل مسمى . فلما تمت له مواهب الله وعاريته قبض إليه العارية ، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها أنفس منها فى المنقلب ، وأرجح فى الميزان ، وأسنى فى العِوَض ، فالحمد لله رب العالمين ، و إنا لله و إنا إليه راجعون .

وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُره والسرور ، فمن ساعده الحظّ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيدا لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق[4] استحليناها ، ثم جَمَحتْ[5] بنا نافرة ورمحتنا[6] مُوَلِّيةً فملُح عذبها ، وخشن ليِّنها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا من الإخوان ، فالدار نازحة ،

---

(١) أى حياطته وصيانته ، وذلك صنع من الله جميل وإحسان كبير .

(٢) مقروناً . (٣) شركه (كفرح) شاركه .

(٤) أفاويق : جمع أفواق وهى جمع فيقة . والفيقة : ماتجمع من اللبن بين الحلبتين .

(٥) جمحت الدابة : غلبت راكبها .

(٦) رمحت الدابة : رفست .

والطير بارحة[١] . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً و إليكم وجداً ، فإن تتمّ البلية إلى أقصى مدّتها يكن آخر العهد بكم و بنا ، و إن يلحقنا ظُفُرْ جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذلّ الإسار والذلّ شرّ جار . نسأل الله الذى يعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار أمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه ربّ العالمين وأرحم الراحمين .

ومن أمثلة إيجازه ما كتبه موصياً بشخص : حقّ موصل كتابى إليك[٢] كحقه علىّ إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدّق أمله[٣] .

ومنها ما كتبه إلى أحد عمال مروان ، وقد أهدى إلى الخليفة عبداً أسود ، فأمره بالإجابة ذاما مختصرًا ، فكتب : لو وجدت لونا شرًا من السواد ، وعدداً أقلّ من الواحد لأهديته .

نماذج من خطابة هذا العصر

قدم معاوية المدينة عام الجماعة ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أما بعد فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرّة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة . ولقد رُضْتُ[٤] لكم نفسى على عمل ابن أبى قُحافة ، وأرَدْتُها[٥] على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نِفاراً شديداً . وأردتها على سُنَيّات[٦] عثمان ، فأبتْ علىّ ، فسلكت بها

---

(١) البارح من الطير مامر من ميامنك إلى مياسرك وهو يتشاءم به .

(٢) للجملة تتمة تفهم من المقام، وأصلها حق موصل كتابى إليك عليك:أى إن حقه عليك كحقه علىّ .

(٣) أى اجعله صادقا .

(٤) راض نفسه على الأمر : حملها عليه .

(٥) أردتها : حملتها .

(٦) سنيات عثمان : سنواته الشديدة والتصغير للتعظيم . قالوا وقع فى السنيات البيض وهى سنوات اشتددن على أهل المدينة ، وقيل أيضا أصابتنا سنة حمراء : أى جدب .

طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم ، فإنى خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يَسْتَشْفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى . وإن لم تجدونى أَقُومُ بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل اذا جاء أثرى[١] وإن قلّ أغنى[٢] . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدّر النعمة .

❋

كان آخر خطبة خطبها معاوية أن صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته وقال : أيها الناس أنا من زرع قد استَحْصَد وقد طالت عليكم إمرتى حتى مللتكم ومَللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى . وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شرّ منى كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيرًا منى . وإنه من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه . اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى . ثم نزل فما صعد المنبر بعدها حتى مات .

❋

لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير دخل الكوفة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أيها الناس : إن الحرب صعبة مرّة ، وإن السلم أمن ومسرّة[٣] ، وقد زَبَنَتْنا[٤] الحرب وزبنّاها فعرفناها وألفناها . فنحن بنوها وهى أمُّنا . أيها الناس : فاستقيموا[٥] على سُبُل الهدى ، ودعوا الأهواء المُرْدية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين .

---

(١) أثرى : كثر المال وجعل الناس أغنياء .

(٢) أى أغنى عن المسألة .

(٣) رواية صبح الأعشى منّ ومبرة .

(٤) دفعتنا .

(٥) فى الكلام حذف والتقدير إذا عرفتم حالنا فاستقيموا .

ولا تُكلّفونا أعمال المهاجرين الأوّلين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم . ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرًّا ، ولن نزداد بعد الإعذار[1] إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد ، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قَيْس بن رِفاعة :

من يَصْلَ ناري بلا ذنب ولا تِرَةٍ ... يَصْلَ بنار كريمٍ غـيرِ غدّار[2]
أنا النـذيرُ لكم منّي مجاهرةً ... كي لا أُلَامَ على نَهْيٍ وإنذار[3]
فإن عَصَيْتم مقالى اليومَ فاعترفوا ... أنْ سوف تلقون خزيًا ظاهرَ العار
لترْجِعُنَّ أحاديثًا مُلَعَّنـة ... لَهْوَ المقيم وَلَهْوَ المُدْلِجِ السارى[4]
من كان في نفسه حَوْجاء يطلبها ... عنـدى فإنّى له رهْنٌ بإصْحار[5]
أقيمُ عَوْجَتَهُ إن كان ذا عِوَجٍ ... كما يُقَوِّمُ قِـدْحَ النَّبْعَةِ البارى
وصاحبُ الوِتْرِ ليْسَ الدَّهرَ مُدْرِكَه ... عنـدى وإنّى لدرّاكٌ بأوتار

☆☆☆

ويروى أنه لما أتى عبد الله بن الزبير خبر قتل مصعب بن الزبير خطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنه أتانا خبر قتل المصعب فسررنا به واكتأبنا له . فأما السرور فلما قدّر له من الشهادة وحيز له من الثواب . وأما الكآبة : فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه ، وإنا والله ما نموت حَبَجاً[6] كميتة آل العاص ، وإنما نموت والله قتلا بالرماح، وقصعا[7] تحت ظلال السـيوف، فإن يهلك المُصْعَب فإن في آل الزبير خلفاً منه .

---

(١) الإعذار : تقديم مايعذر معه المرء لو عاقب وآخذ وذلك بالنصح والارشاد .

(٢) ترة : ثأر . يصل نارى : يتعرض لى .

(٣) على نهى : أى ترك نهى .

(٤) ملعنة : يلعنها كل إنسان . الدلج والدلجة والإدلاج : السير من أول الليل . والادّلاج : السير من آخره . والسرى : المشى ليلا عامة .

(٥) الإصحار : الخروج إلى الصحراء . يقال أنا رهن بكذا أى مرهون له : أى ثابت عليه

(٦) الحبج : انتفاخ البطن .

(٧) قصعه : ضربه .

❋

خطب عمر بن عبد العزيز يوما ، فكان من خطبته قوله :

ما الجزع مما لا بدّ منه ، وما الطمع فيما لا يرجى ، وما الحيلة مما سيزول ؟ وإنما الشيء من أصله ، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ، إنما الناس فى الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب المصائب مع كلّ جرعة شَرَق، وفى كل أكلة غَصَص . لاينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يُعَمَّر مُعَمَّرٌ يوما من عمره إلا بِهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم . فأين المَهْرَب مما هو كائن ، وإنما نتقلب فى قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

خطبة زياد(١) البتراء

قدم زياد البصرة واليا لمعاوية على العراق وخُراسان وسِجِسْتان، والفسق بالبصرة ظاهر فاشٍ ، فخطب أهلها خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، وهى :

أما بعد ، فإن الجهالة الجَهْلاء(٢) ، والضلالة العَمْياء(٣) ، والغَيّ المُوفَى بأهله على

---

(١) ولد زياد للسنة الأولى من الهجرة . وكان منذ صغره ذكيا سديد الرأى استلحقه معاوية بعد قتل على لجعله أخاه . وتوفى سنة ٥٣ هـ .

وقيل فى نسبه : إن الحارث بن كلدة طبيب العرب كانت له أمة تسمى سمية وعبد يسمى عبيدا وكان روميا فزوّج العبد من الأمة فولدت له زيادا . وقد استكتبه أبو موسى الأشعرى والى البصرة من قبل عمر ثم ظهر نبوغه . واعترف أبو سفيان بأنه ابنه حملت به أمه وأبوسفيان مشرك ورأى على فيه إباء ولسانا . ثم استلحقه معاوية بعد موت على .

(٢) الجهلاء : الشديدة .

(٣) العمياء : التى يعمى فيها الناس ونسبة العمى إليها مجاز عقلى .

النار ما فيه سُفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم : من الأمور العِظام يَنْبُتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول ، أفتكونون كمن طرفت(١) عينه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من تركِكم الضعيف يقهر ، ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير(٢) المنصوبة ، والضعيفةُ المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج(٣) الليل وغارة النهار ؟ قرّبتم القرابة وباعدتم الدّين ! تعتذّرون بغير العذر ، وتُغْضُون على المختلس . كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيعَ من لايخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما أنتم بالعلماء ، ولقد اتّبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا(٤) فى مكانس الريب . حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لايصلح إلا بما صلح به أوّله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولىّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : أنج سعدُ فقد هلك سُعَيد(٥) ، أو تستقيم لى قناتكم . إن كذبة المنبر بلقاء(٦) مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، وإذا

---

(١) طرفه عن الشىء : صرفه عنه وامرأة مطروفة بالرجال منصرفة عن زوجها إليهم . وطرفت عينه الدنيا صرفته إليها وإلى زخرفها . وقيل المعنى جعلته لايبصر شيئا أى لايعنى بغيرها .

(٢) المواخير : جمع ماخور وهو بيت الريبة .

(٣) دلج الليل : السير فى أوله . والمراد مطلق السير فيه ، والكلام كناية عن التلصص .

(٤) كنوس : جمع كانس وهو الظبى يدخل كناسه . المكانس : جمع مكنس وهو الكناس

(٥) مثل يضرب فى تتابع الشر . وأصل المثل أن ضبة بن طابخة كان له ابنان سعد وسعيد فنفرت له إبل فخرجا فى بغائها فوجدها سعد فردها أما سعيد فانه ظفر به الحارث بن كعب فقتله وكان ضبة إذا رأى سوادا بالليل قال أسعد أم سعيد .

(٦) البلق : سواد وبياض وارتفاع التحجيل إلى الفخذين ، والمراد واضحة مشهورة .

سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نُقِب منكم عليه ، فأنا ضامن لما ذهب منه ، فإيَّاى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم فإياى ودعوى الجاهلية(١) فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرّق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقَبْنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حيًا . فكُفُّوا عنى ألسنتكم وأيديكم أكفف عنكم يدى ولسانى ولا يظهرنّ من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بينى و بين أقوام إحَنٌ(٢) ، فجعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان محسنا فليزدد فى إحسانه ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته(٣) . فإن فعل ذلك لم أناظره(٤) . فاستأنفوا أمركم ، وأعينوا على أنفسكم(٥) ، فرُبَّ مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أننى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابساً عطاء ، ولا رزقا عن إبانه ، ولا مُجَمِّراً لكم بعثاً فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدّبون ، وكهفكم الذى إليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا

---

(١) دعوى الجاهلية هى الدعوة إلى العصبية والتفاخر بها وقولهم يالفلان .
(٢) إحن : جمع إحنة وهى الحقد .
(٣) صفحة الشىء : جانبه .
(٤) أناظره : أمهل عليه .
(٥) أى ساعدونا على قيادة أنفسكم وإخضاعها بقهركم لها وإحكام أمرها .

حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم. أسأل الله أن يعين كُلًّا على كلٍّ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم أمرًا فأنفذوه على أذلاله[1]، وايْمُ اللهِ إنّ لى فيكم لصَرْعَى كثيرة، فليحذر كلُّ امرئٍ منكم أن يكون من صرعاى.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم، فقال: أشهد أيها الأمير، لقد أُوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبت ذلك نبيّ الله داود صلوات الله عليه. ثم قام الأحنف بن قيس فقال: إنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنّا لم نُثنى حتى نَبْتَلِى، فقال زياد: صدقت. ثم قام أبو بلال مِرْداس بن أميــة، وهو يهمس ويقول: أنبأنا الله بغير ما قلت. قال الله: وإبراهيم الذى وفّى ألّا تزرُ وازرة وِزر أخرى وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم، والمطيع بالعاصى، والمقبل بالمدبر. فسمعها زياد، ثم قال: (إنا لا نبلغ فيك وفى أصحابك ما نريد حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً).

خطبة أبى حمزة الخارجى

دخل أبو حمزة الخارجى مكة، (وهو أحد نُسّاك الإباضية[2] وخطبائهم)، فصعد المنبر متوكئا على قوس له عربية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه. أنزل الله له كتابا بيّن له فيه ما يأتى وما يتقى، فلم يكن فى شكٍّ من دينه ولا شبهة فى أمره، ثم قبضه الله إليه، وقد علّم المسلمين معالم دينهم، وولّى أبا بكر صلاتهم، فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاّه رسول الله أمر دينهم. فقاتل أهل الردة وعمل بالكتاب والسنة، فمضى لسبيله رضى الله تعالى عنه، ثم ولّى عمر بن الخطاب

---

(١) أذلال: جمع ذل بالكسر أو جمع لا مفرد له. والمعنى على أصله ومجراه.

(٢) نسبة إلى عبد الله بن إباض من زعماء الخوارج.

رضى الله عنه ، فسار سيرة صاحبه وعمل بالكتاب والسنة ، وجبى الفَىْء ، وفرض الأعطية ، وجمع الناس فى شهر رمضان ، وجلد فى الخمر ثمانين ، وغزا العدوّ فى بلادهم ومضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولى عثمان بن عفان فسار ستّ سنين بسيرة صاحبيه وكان دونهما ، ثم سار فى الستّ الأواخر بما أحبط به الأوائل ، ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولّى علىّ بن أبى طالب فلم يبلغ من الحق قصدا ، ولم يرفع له منارًا ، ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه ، ثم ولّى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول الله وابن لعينه اتخذ عباد الله خَوَلاً[١] ، ومال الله دُوَلاً[٢] ودينه دَغَلاً[٣] . ثم مضى لسبيله فالعنوه لعنه الله . ثم ولّى يزيد بن معاوية : يزيد الخمور ، يزيد القرود ، ويزيد الفهود . الفاسق فى بطنه ، المأبون فى فرجه (ثم اقتصّهم خليفة خليفة ، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه ولم يذكره) ثم قال : ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، الفاسق فى بطنه ، المأبون فى فرجه الذى لم يؤنس منه رشد ، وقد قال الله فى أموال اليتامى : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » ، فأمر أمة محمد أعظم . يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قُوِّمَتْ بألف دينار قد ضربت فيها الأبشار[٤] ، وهتكت الأستار ، وأخذت من غير حلها . حَبَابة عن يمينه ، وسَلاَّمة[٥] عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كلّ مأخذ قدّ ثوبه ، ثم التفت إلى إحداهما ، فقال : ألا أطير ؟ نعم فَطِرْ إلى لعنة الله ، وحريق ناره ، وأليم عذابه .

أما بنو أمية ففرقة ضلالة و بطشهم بطش جَبْرِيَّة[٦] يأخذون بالظِّنَّة ، و يقضون

---

(١) الخول : العبيد والاماء وغيرهم من الحاشية لا واحد له يقال للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث وقيل الواحد خائل .

(٢) الدولة : العقبة فى المال (تبادلة) والمراد باتخاذه دولا أن يعطى هذا مرة وهذا مرة .

(٣) الدغل : مايدخل فى الأمر فيفسده ، والمراد أنهم اتخذوا دين الله وسيلة للافساد والظلم بدل أن يكون وسيلة للاصلاح والعدل .

(٤) الأبشار : جمع بشر وهو جمع بشرة وهى ظاهر جلد الانسان أو غيره .

(٥) حبابة وسلامة : مغنيتان سنذكرهما فى باب الغناء فى آخر الكتاب .

(٦) الجبرية خلاف القدرية ، وقيل التسكين لحن أو هو الصواب والتحريك للازدواج .

بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ويضعونها فى غير أهلها ، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ » ، فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها . تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله .

وأما هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ فى الدّين ، ولا بعلم نافذ فى القرآن ، ينقمون المعصية على أهلها ويعملون إذا ولوا بها ، يصرّون على الفتنة ، ولا يعرفون المخرج منها . جفاة عن القرآن ، أتباع كهان ، يؤملون الدول فى بعث الموتى ، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا . قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون ـ ثم أقبل على أهل الحجاز ، فقال : يأهل الحجاز ، أتعيروننى بأصحابى ، وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا ؟ أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضةٌ عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم . أنضاء عبادةٍ وأطلاحُ سَهَرٍ ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل منحنيةً أصلابُهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شَهِق شهقة كأن زفير جهنم بين أُذُنيه ، موصولٌ كَلالهم بكلالهم كلالُ الليل بكلال النهار . قد أكلت الأرض رُكَبَهُمْ وأيديَهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فُوِّقَتْ[1] والرِّماحَ قد أُشْرِعَتْ[2] ، والسيوف قد انْتُضِيَتْ[3] ، ورَعَدت الكتيبة بصواعق الموت وَبَرَقَتْ ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . ومضى الشباب منهم

---

(١) فوقت : ركبت فى الأقواس للرمى .

(٢) أشرعت الرماح : سددت وصوبت .

(٣) انتضيت : سلت وأخرجت من أغمادها .

قُدُمًا[١] حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضّبَتْ بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعتْ إليه سباعُ الأرض ، وانحطت إليه طيرُ السماء ، فكم من عين فى مناقير طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله . ثم قال : (أوّهْ أوّهْ أوّهْ) ، ثم بكى ونزل .

نماذج من كتابة هذا العصر

كتب الحجاج إلى عبد الملك فى شأن عروة بن الزبير ، وكان عروة عاملا على اليمن ، ولجأ إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنّ لَوَذانَ المعترضين بك وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك ، واستلانتهم دَمَث أخلاقك ، وسعة عفوك كالعارض[٢] المبرق لأعدائه ، لا يعدم له شائما[٣] ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أُدْنِىَ الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كلّ ضالّ ، والناس عبيد العصا هُمْ على الشدّة أشدّ استباقا منهم على اللّين . ولنا قِبَل عُرْوَة بن الزُّبَيْرِ مالٌ من مال الله ، وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام .

فكتب إليه عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك خابطاً فى السياسة خبط عشواء الليل ، فإن رأيك الذى يسوّل لك أن الناس عبيد العصا هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أُحْرِجَتِ[٤] العامة بعنف

---

(١) القدم : المضى أمام أمام .

(٢) العارض : السحاب .

(٣) الشائم : الناظر إلى البرق أين اتجه .

(٤) أحرجت : ضيق عليها .

السياسة كان أوشك(١) وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، ولقد وَلِيتَ العراقَ قَبْلَكَ ساسةٌ وهم يومئذ أحمى أنوفا(٢) وأقرب من عَمْياء الجهالة ، وكانوا عليهم أصلح منهم عليك ، ولِلشِّدة واللِّين أهلون ، والإفراطُ فى العفو أفضلُ من الإفراط فى العقوبة ، والسلام .

وكتب الحجاج إلى قَطرىّ بن الفُجَاءة :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى قطرىّ بن الفجاءة .

سلام عليك ، الموحّد الله ، والمصلى عليه محمد عليه السلام . أما بعد ، فإنك مَرَقْت من الدّين مروق السهم من الرّمِيَّة قد علمت حين تجرْثمتَ(٣) ذلك أنك عاص لله ، ولولاة أمره ، غير أنك أعرابى جِلف أمىّ تستطعم الكِسْرة وتشتفى بالتمرة والأمورعليك حسرة ، خرجت لِتَنَاوُل شَبْعَةٍ ، فلحق بك طَغَامٌ صَلُوا(٤) ما صَليتَ به من العيش يهُزُّون الرماح ويستنشئون(٥) الرياح على خوف وجَهْد من أمورهم . وما أصبحوا ينتظرون أعظمُ مما جهلوا معرفته . ثم أهلكهم الله بنَزْحتين(٦) ، والسلام .

فأجابه قطرى : من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف :

سلام على الهداة من الولاة الذين يَرْعَوْن حريم الله ويرهبون نِقَمه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظْلَع(٧) به من أهل السفالة وهَدَى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه . كتبت إلىّ تذكر أنى أعرابىّ جِلْفٌ أستطعم الكِسْرة وأشتفى

---

(١) أوشك : أسرع .

(٢) أقوى غضبا .

(٣) تجرثم الشىء : أخذ معظمه .

(٤) صلى الرجل النار : قاس حرها .

(٥) استنشأ الذئب الريح : شمها . والمراد باستنشاء الرياح تعرّف ما تحمله من دلالة على الخصب والغيث وذلك لما هم فيه من جهد .

(٦) النزح : استخراج ماء البئر ، والمراد هنا استنفاد قوتهم بهجمتين لاغير .

(٧) الظلع : العرج ، وأظلعه جعله يعرج . والمعنى أن أهل السفالة غير مستقيمين فى أمورهم كما لا يستقيم الأعرج فى مشيته .

بالتمرة ، ولعمرى يابن أم (١) الحجاج إنك لميت فى جبلتك ، مُطْلَخِمٌ (٢) فى طريقتك ، واهٍ فى وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع فى خطيئتك ، يئست واستيأست من ربك . فالشيطان قرينك لا تجاذبه وَثاقك ولاتنازعه خِناقك . فالحمد لله الذى لوشاء أبرز لى صَفْحَتك ، وأوضح لى طَلْعتك . فوالذى نفسُ قَطَرِىّ بيده لعرفتَ أن مقارعة الأبطال ليست كتصدير المقال . مع أنى أرجوأن يُدْحِضَ (٣) الله حجتك ، وأن يُمْنِعَنِى مهجتك.

كتب عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك يشفع لكعب بن قيس :

بسم الله الرحمن الرحيم لولم يكن لكعب من قديم حرمته مايغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه التَّفَيُّوء بظلال عفوك الذى تأمُله القلوب ، ولا تتعلَّقُ به الذنوب ، وقد استشفع بى إليك ، فوثِقْتُ له منك بعفو لا يَخْلِطه سُخْط . فحقِّقْ أمله فىّ وصدِّق نفسى فيك تجد الشكر وافياً بالنعمة .

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه :

أما بعد : فقد عاقنى الشكّ فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء عن غير جريرة ، فأطمعنى أولك فى إخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحا ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشكّ فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف . أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

وكتب وهو فى السجن إلى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة يستعطفه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من الأسير فى يديه بلا ذنب إليه ، ولا خلاف عليه . أما بعد : فآتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية . فإنك مستودع الودائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك ، فالودائع

---

(١) نسبة الرجل إلى أمه كناية عن عدم معرفة أبيه : أى انه ابن زنية .

(٢) اطلخمّ كاطرخمّ : بمعنى كلّ بصره . والمعنى أنه ضال لايبصر الهدى والصواب .

(٣) يقال دحضت الحجة : أى بطلت ، وأدحضتها أى أبطلتها .

عارية ، والصنائع مرعية . وما النعم عليك وعلينا فيك بمنزور نداها ، ولا بمبلوغ مداها . فنبه للتفكير قلبك ، واتق الله ربك ، وأعط من نفسك من هو تحتك ما تحب أن يعطيك من هو فوقك : من العدل والرأفة ، والأمن من المخافة ، فقد أنعم الله عليك بأن فوض أمورنا إليك ، فاعرف لنا لين شكر النعمة ، واغتفار مس الشدة ، والرضاء بما رضيت ، والقناعة بما هويت ، فإن علينا من سَمْك[1] الحديد وثِقَله[2] أذى شديداً ، مع معالجة الأغلال ، وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم[3] علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم . زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الأياسة . فإليك بعد الله نرفع كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فمتى تَمِلْ إلينا طَرْفاً ، وتُولِنا منك عَطفا تجد عندنا نُصْحاً صريحاً ، ووُدّاً صحيحاً لا يُضَيِّعُ مثلُك مثلَه ، ولا يَنْفِي مثلُك أهله . فارع حرمة من أدركْتَ بحرمته ، واعرف حجة من فَلَجْتَ بحجته ، فإن الناس من حوضك رِوَاء[4] ونحن منه ظِماء . يمشون في الأبراد[5] ونحن نَحْجِل[6] في الأقياد بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة . والله المستعانُ وعليه التُّكلان . صريخ الأخبار ، مَنْجَى الأبرار ، الناسُ من دولتنا في رَخاء ونحن منها في بَلاء . حين أمن الخائفون ، ورَجَع الهاربون رزقنا الله منك التحنُّن ، وظاهَرَ علينا من التمنن ، فإنك أمينٌ مستودَعٌ ، ورائدٌ مُصْطَنَعٌ ، والسلام ورحمة الله .

---

(١) السمك : الغلظ والثخانة .

(٢) الثقل (كعنب) : ضد الخفة ، أما الثقل (كحمل) فهو هو في المعنى .

(٣) أي ما يوردونه علينا ويأتوننا به هو الغم .

(٤) رواء : جمع ريان وكذلك ظماء .

(٥) الأبراد : جمع برد ، وهو الحلة .

(٦) الحجل والحجلان : المشي المتقارب الخطا .

صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى لما ولّى الخلافة . أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن ، رحمهما الله ورضى عنهما :

أُعلم يا أمير المؤمنين أن الإمام العادل قوام كلّ مائل ، وقصد كلّ جائر ، وصلاح كلّ فاسد ، وقوّة كلّ ضعيف ، ونصفة كلّ مظلوم ، ومفزَع كلّ ملهوف ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق ، الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذُودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباع ، ويَكْنُفها من أذى الحرّ والقرّ . الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على وَلَدِه[1] يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، ويكتسب لهم فى حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرفيقة بولَدها ، حملته كَرْهاً[2] ووضعته كَرْهاً ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، تُرْضعه تارة ، وتَفْطِمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلُح الجوانح بصلاحه، وتفسُد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده يسمعُ كلامَ اللهِ ويُسْمعهم ، وينظر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويَقودُهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيا ملّكك الله كعبدٍ ائتمنه سـيدُه واستحفظه مالَه وعيالَه ، فبدّد المالَ ، وشرّدَ العيال ، فأفقر أهلَه ، وفرّق مالَه واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليَزْجُر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف بها إذا أتاها من يَلِيها ، وإن الله أنزل القصاصَ حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يَقْتَصّ لهم . واذكر يا أمير المؤمنين

---

(١) الولد بالتحريك وبالضم وبالكسر : واحد وجمع وقد يجمع على أولاد . والكاتب هنا قد استعمله جمعا .

(٢) الكره بالضم : الكراهة . وبالفتح المشقة وهو المراد هنا .

الموتَ وما بعده وقِلّةَ أشياعك[١] عنده وأنصارك عليه فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر. واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلا غير مَنْزِلك الذىأنت فيه يطول فيه ثَوَاؤك، ويُفارقك أحباؤك، ويسلمونك فى قَعْره فريداً وحيداً، فتزوّد له مايَصْحبك يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. واذكر يا أمير المؤمنينَ إذا بُعْثِرَ ما فى القبور وحُصِّلَ ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتابُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَلٍ قبل حلول الأجَلِ، وانقطاع الأمَلِ لا تَحْكُم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تُسلِّط المستكبرين على المستضعَفين، فإنهم لا يرقبون فى الله إلاًّ ولا ذِمّةً، فتبُوءَ بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك، وتحمِلَ أثقالك وأثقالا مع أثقالك، ولا يَغُرَّنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك لا تَنْظُرْ إلى قدرتك اليوم، ولكن أنظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسورٌ فى حبائل الموت وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيّين والمرسلين، وقد عَنَتِ الوجوهُ للحىّ القيوم. إنى يا أمير المؤمنين إن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى، لم آلُكَ شفقة ونصحاً، فأنْزِلْ كتابى إليك كمُداوى حبيبه يَسْقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الأجوبة والمحاورات

لقد عرفت الأمة العربية منذ جاهليتها بفضل بيانها وحدّة أذهانها، فكان الكلام أكبر عملهم. به عرف فصحاؤهم، وتقدّمت إلى الملوك وفودهم، وسعى سُفراؤهم،

---

(١) الأشياع: جمع شيعة، وشيعة الرجل أنصاره يقال للواحد والجمع.

وتحدّثت أنديتهم . وكان أكثر هذا القول بديهة وارتجالا لمكان الملكة فيهم ، وغلبة الطبع عليهم، ولفطرتهم التى جعلتهم يتناولون أمورهم من قريب لايتكلفون ولايتعمقون، فإذا وصف أحدهم فإنما يصف من الشىء ظاهره ، وإذا حدّث فإنما يصوّر مشاعره .

وإذا عجبنا من محاوراتهم وأجوبتهم فى جاهليتهم ، وراعنا منها حسن القصد ، وتمام الإيجاز ، وإصابة المَحَزّ وتطبيق المَفْصِل ، فقد كانت فى عصر بنى أمية أدعى إلى العجب إذ بان فيها أثر الحَصَافة ودقة الفكر ، للعلم والحكمة اللذين أفادوهما من الإسلام.

وقد طرأ على العرب ما أشعل بينهم جذوة الحوار ، وشحذ أذهانهم للجدال ، فإنّ الكلام فى الخلافة ، وحدوث الفتن منذ قتل عثمان ، إلى قيام الخوارج ، إلى انشعاب الرأى بين متشيعين لعلىّ ، وممالئين لمعاوية ، إلى ما كان من نقاش فى الأدب ، وتفضيل لشاعر على شاعر ، كلّ أولئك جعل للمحاورات والأجوبة فى عهد الدولة الأمويّة شأنا غير شأنها قبل ذلك لعظم ما تتعلق به ، وأهمّه النزاع على الملك ، أو الخلاف فى الدّين .

وإن أوّل خلاف حدث فى الإسلام واستوجب الحِوار هو الخلاف بين الأنصار والمهاجرين فى أيّهم أحقّ بالخلافة : هل هم القرشيون قرابة النبىّ وقومه ، أم أنصاره الذين آزروه وأذاعوا دينه ؟

ثم كان خلاف آخر يوم قتل عثمان ، يقول بنو أمية بوجوب القصاص أوّلا من قتلة عثمان ، ثم ينظر الناس فى اختيار خليفة لهم ، ويرى علىّ ومن تابعه أنه لايقيم الحدّ على القتلة إلا خليفة يتولّى جميع شئون المسلمين ، ومنها إقامة هذا الحدّ ، فخلافة علىّ التى بايعه عليها الناس ماضية يجب على جميع المسلمين الدخول فيها ، وإلا عدّوا خارجين على الجماعة .

ثم كان خلاف ثالث يوم التحكيم بين علىّ ومعاوية وظهور الخوارج الذين يخطّئون عليّاً فى قبوله ، وهم الذين دعوه أوّلا إليه ، وقد قالوا بتكفير علىّ ، وطالبوه بالإقرار على نفسه بالكفر حتى يعودوا إلى حظيرته ، وقد ناقشهم علىّ ، وأرسل إليهم ابن عباس

يحاورهم فى آرائهم ، ولكنهم كانوا معاندين ظهر لهم الحق ، ولم ينزلوا على حكمه ، وقد كثرت فرقهم على خلاف بينهما فى المعتقد : فنهم من يكفر مرتكب الكبيرة ، ويقول إن العمل جزء من الإيمان ، ومنهم من كفر جميع المسلمين ، وحرّم أكل ذبائحهم ومصاهرتهم .

كان أوّل خروج الخوارج إلى حروراء (قرية بقرب الكوفة) ، وهناك أمّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى ، وقد حاربهم علىّ فى وقعة النَّهْرَوان ، وقتل منهم كثيراً ولكنه لم يبدهم . ثم انقسموا قسمين : قسما بالعراق ، وأهمّ مراكزه « البطائح » ومن هؤلاء نافع بن الأزرق وقطرى ، وهم الذين حاربهم المهلب . وفرعا بجزيرة العرب وهؤلاء قد استولوا على اليمامة ، وحضرموت ، والطائف . ومن رؤسائهم : أبو طالوت ونَجْدة بن عامر ، وأبو فُدَيْك .

ومما تناوله الخوارج بالبحث صحة خلافة الخلفاء ، فأقرّوا خلافةَ أبى بكر وعمر ، وستّ سنوات من خلافة عثمان ، وخلافةَ علىّ قبل التحكيم . ثم تناولوا شروط الخلافة فقالوا : يجب أنْ يكون انتخاب الخليفة باختيار حرّ ، وليس من الضرورىّ أن يكون قرشيًّا . على أنّ منهم من قال بعدم الحاجة إلى إمام . ثم تناولوا بحوثاً دينية ، فجعلوا العمل جزءا من الإيمان ، فمن اعتقد بوحدانية الله ، ونبوّة محمد ثم لم يعمل فهو كافر .

وأشهر فرقهم : الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، وقد كفروا جميع المسلمين ما عداهم ، وأحلوا دماءهم وقالوا : بحرمة التقية ، ووجوب الجهاد ، وتكفير القعدة ، (وهم الذين يدينون برأى الخوارج ، ولا يرون القتال فى سبيل ذلك) ما داموا قادرين على القتال . ومنهم النجدات أتباع نجدة بن عامر ، ومن رأيهم أن الكذب أعظم من الزنا وشرب الخمر . ومنهم : الصُّفْرية أتباع زياد بن الأصفر . ومنهم : الإباضية وهم أتباع عبد الله بن إباض ، ولا يزال بعض من هؤلاء بالمغرب إلى اليوم ، وهؤلاء لم يغالوا فى الحكم على مخالفيهم كالأزارقة بل قالوا بحلّ التزاوج ، والتوارث بينهم وبين بقية المسلمين .

كذلك كان من الفرق الإسلامية فرق الشيعة التى كانت ترى آل البيت أولى بالخلافة من غيرهم لرحمهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء من غلا فى تفضيل علىّ حتى ادعى له الألوهية .

بدأت فكرة التشيع بالقول بأن قرابة النبىّ أولى بميراثه الدينى ، وهو ولاية أمر المسلمين ، فكان العباس وعلى أولى بالخلافة . ثم اتسع قولهم فى الإمامة فقالوا إنها ركن الدين ، ولا يجوز للنبىّ إغفالها ، وإن محمداً عليه الصلاة والسلام أوصى لعلىّ ، ولذلك عرف علىّ عندهم بالوصىّ ، ثم تبع القول بذلك القول بعصمة الإمام ، ولم يكتفوا بذلك ، بل لقد ألهه بعضهم وقالوا عن علىّ : إنه حلّ فيه جزء إلهى اتحد بجسده ، وبه كان يعلم الغيب ، وقد نسبوا إليه أنه أخبر بخلافة العباسيين ، وبمقتل الحسين ، وولاية الحجاج ، ومصير الخوارج ، بل اعتقد بعضهم أنه كتب على مَسْك جَفْر (جلد جدى) أخبار ما يكون إلى يوم القيامة ، وأن هذا الكتاب هو الذى ظفر به ابن تُوْمَرْت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب ، كما تبع ذلك أيضاً أن قالوا بالرجعة ، وقائل ذلك هو عبد الله بن سبأ فإنه قال لما قتل علىّ لو جئتمونى بدماغه ألف مرّة ماصدقت موته . وهذا القول مقتبس من قول اليهود فى النبىّ إلياس ، ومن قول النصارى فى عيسى . وعلى أساس هذه النظرية قامت أكبر فرق التشيع ، وهى « الإمامية » ، وهى على العموم تقول بعودة الإمام المنتظر .

كذلك كان من فرق المسلمين المرجئة والمعتزلة والجماعة أهل السنة .

أما المرجئة فقد نشأت بعد الخوارج والشيعة ، ونواة هذه الفرقة هم الغزاة الذين عادوا إلى المدينة بعد قتل عثمان ، فوجدوا الناس قد قسموا أحزاباً ، واستمرّ الخلاف بينهم ، فانتحى هؤلاء ناحية ، ورأوا رأياً فيه مسالمة للجميع ، فهم لا يخطئون خارجياً ولا شيعياً ، ولا أمويّا ، ويرجئون أمرهم إلى الله يوم القيامة . وقيل إن اشتقاقها من الرجاء لأنهم يرجون لكلّ مسلم غفران الله . وقد بحث المرجئة بعض أمور فى الدّين ، فقالوا : إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب ، وإن أعلن المرء الكفر بلسانه .

وأما المعتزلة فقد كان من أوائلهم جَعْد الجُهَنِىّ ، وغَيْلان الدمشقى الذى صلبه هشام ابن عبد الملك ، ويروى : أنّ غيلان هذا رأى يوما ربيعةَ الرأىِ ، فقال له : أنت الذى تقول : إن الله يحبّ أن يعصى ؟ فقال له ربيعة : وأنت الذى تقول : إن الله يعصى قسرًا ؟ وأهمّ مايراه المعتزلة القول بنفى القدر ، وبنفى صفات الله لأنها تدعو إلى التشبيه بالمخلوقات ، ونفى الرؤية فى الآخرة ، وقد جرى الخلاف فى مسألة مرتكب الكبيرة ، فقال الخوارج : إنه كافر ، وقال أهل السنة إنه مؤمن عاص ، وقال المعتزلة : إنه فى منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر ، وعلى أثر هذه المسألة رأس المعتزلةَ واصلُ ابن عطاء لأنه اعتزل بأصحابه مجلس الحسن البصرى .

وقد فشا الجدل بين هذه الفرق فشوًّا ظاهراً ، فقد حكى أن الخوارج فى حرب المهلب كانوا يضعون السيف من حين إلى حين ، ويجادلون خصومهم ، ويدعون إلى مذهبهم ، ويحكى صاحب الأغانى : أن ثابتَ قُطْنةَ لم يقل بالارجاء إلا بعد أن سمع جدال الخوارج مع المرجئة فى خراسان . ويحكى أن شيعيًا ومرجئًا اختصما إلى أوّل طالع عليهما فطلع الدّلال (المخنث) ، فقالا له : أيهما خير : الشيعى أم المرجئ ؟ فقال ما أدرى إلا أن أعلاى شيعى وأسفلى مرجئ . وقد وصل هذا إلى الشعراء ، فكان ذو الرمة قدريا سنيا ، وكان رؤبة جبريا (يقول بنفى استطاعة المرء ، وأنه كالريشة فى مهبّ الريح) ، وأنهما اختصما ، فقال رؤبة : والله مافحص طائر أفحوصاً ، ولا تقرمص سبع قرموصاً إلا بقضاء الله وقدره ، فقال ذو الرمة : ما قدّر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايبل ضرائك .

ويقول الراجز :

أيها المضمر همًّا لا تُهَمّ ... إنك إنْ تُقْدَرْ لك الحمّى تُحَمّ
ولو عَلَوْتَ شاهقاً من العَلَم ... كيف توقيك وقد جَفَّ القلَمْ

❊

كذلك كان فى هذا العصر حوار فى الشعر والأدب ، فإن العناية بهما جعلت لهما المجالس التى يشتدّ فيها الخلاف حتى بلغ من احتدام الجدال والتعصب لشاعر على

شاعر إن كان للشعر فرق ، كما كان للدين فرق ، فكان أنصار الفرزدق يسمون الفرززدقيين ، وأنصار جرير يسمون الجريريين .

ولقد رويت عن شعراء بنى أمية من بدائع البدائه فى الشعر مثل ماروى لغيرهم فى النثر ، وقد كان الخلفاء يثيرون فى كثير من الأحيان هـذه المحاورات ، فيأتى الشعراء بالعجب العجاب .

وإنا لناقلون إليك من كلّ ما مضى أمثلة لتقف على جملتها ، ونترك التفصيل إلى ما تفرق فى كتب الأدب تعثر عليه فى مطالعتك .

امثلة من المحاورات والأجوبة

١ — يقول الطبرى : خرج القوم مع علىّ إلى صــفين ، وهم متوادون فرجعوا متباغضين أعـداء ما برحوا معسكرهم بصِفِّين حتى فشا فيهم التحكيم (١) ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشاتمون ، ويضطربون بالسـياط . يقول الخوارج : ياأعداء الله ،

---

(١) لما رأى معاوية رجحان كفة علىّ بصفين استشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يرفع المصاحف على الرماح فلما رآها أصحاب علىّ قالوا ماهذا ؟ فقال أصحاب معاوية نحكم بيننا وبينـكم كتاب الله فأدرك علىّ مرمى الخديعة فى هذا ولـكنّ أصحابه لم يسمعوا لقوله وقالوا لايطلب منا تحكيم كتاب الله ثم نرفض ذلك فقبـل على التحكيم واختـير من رجال على أبوموسى الأشعرى ، ومن رجال معاوية عمرو بن العاص . واتفق الحـكمان على خلع الخليفتين وترك الأمر للامة فتقدم أبوموسى وقال أيهـا الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها وألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم . ثم تنحى وأقبـل عمرو فقام مقامه ثم قال قد سمعتم ماقال هـذا وإنه قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأقر صاحبي معاوية فانه ولىّ عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه . وكان عقد التحكيم قد أمضى فى ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ وأجل الحـكمان إلى رمضان .

أدهنتم فى أمر الله وحكّمتم ، ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا ومزقتم جماعتنا . فلما دخل علىّ الكوفة لم يدخلها معه الخوارج وأتوا حَروراء ، فبعث إليهم علىّ عبد الله بن عباس، فقال ما نقمتم من الحكمين ، وقد قال الله عزّ وجلّ : « إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا » ، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم . فقالوا له : أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأما ما حكم فأمضاه ، فليس للعباد أن ينظروا فيه ، فإنه حكم فى الزانى مائة جلدة ، وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا . قال ابن عباس : فإن الله عزّ وجل يقول : « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ » ، فقالوا له : أو نجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين ، ثم قالوا : إن هذه الآية بيننا أعدل . عندك ابن العاصى بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ، فإن كان عدلا فلسنا بعدول ، وقد أمضى الله الحكم فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا ، وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، ثم كتبتم بينكم وبينهم كتابًا ، وجعلتم بينكم وبينهم الموادعة والاستفاضة ، وقد قطع الله الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت « براءة » إلا من أقرّ بالجزية . ثم حضر علىّ المجلس ، فسألهم ما أخرجكم علينا ، فقالوا : حكومتكم يوم صفين ، فقال : أنْشُدكم الله ، ألست نهيتكم عن قبول التحكيم ، فرددتم علىّ رأيى ، ولما أبيتم إلا ذلك ، اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ماأمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن ، وإن أبيا فنحن من حُكمهما بَرَاء . قالوا له : خبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ قال : إنا لسنا حكمنا الرجال وإنما حكمنا القرآن قالوا : خبرنا عن الأجل ولم جعلته بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعلّ الله يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة ، وانتهى الأمر بأن طلبوا من علىّ الحكم على نفسه بالكفر وأن يتوب ، فيعودوا إليه فلم يقبل علىّ . . انتهى حديث التحكيم .

٢ — قال معاوية لابن الزبير تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى . قال : لم لا أكون أحقّ به منك يا معاوية ، وقد اتبع أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان ، واتبع الناس أباك على الكفر ، فقال : غلطت يابن الزبير بعث الله ابن عمى نبيًا فدعا أباك فأجابه ، فما أنت إلا تابع لى ضالاً كنتُ أم مهديًا .

٣ — جلس يوما عبد الملك بن مروان ، ومعه خالد وأمية ابنا عبد الله بن الوليد وأدخلت عليه الأموال التى جاءت من عند الحجاج ، فقال : هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة لا ما فعل هذا ، وأشار إلى خالد . استعملته على العراق ، فاستعمل كل مِلْط[1] فاسق فأدّوا إليه العشرة واحداً ، وأدّى إلينا من العشرة واحداً . واستعملت هذا على فارس ، (وأشار إلى أمية) ، فأهدى إلىّ برذونين حَطِمين[2] . فإن استعملتكم ضيعتم ، وإن عزلتكم قلتم استخفّ بنا وقطع أرحامنا ، فقال خالد : استعملتنى على العراق وأهله رجلان سامع مطيع مناصح ، وعدوّ مبغض كاشح ، فأما السامع المطيع المناصح ، فإنا جزيناه ليزداد ودًّا إلى ودّه . وأما المبغض الكاشح فإنا وارَيناه ضغنه وسللنا حقده ، وكثرنا لك المودّة فى صدور رعيتك . وإن هذا جبى الأموال ، وزرع لك البغضاء فى قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء ، فلاأموال ولارجال . فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : هذا والله ما قال خالد .

٤ — أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها القتل . قالت الخارجية : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك ، فقال لها : ومن صاحبى ؟ قالت : فرعون استشارهم فى موسى ، فقالوا : أرجئْ وأخاه .

٥ — تكلم الناس عند معاوية فى يزيد ابنه ، إذ أخذ له البيعة وسكت الأحنف ، فقال له : مالك لا تقول يا أبا بحر ؟ قال . أخافك إن صدقت ، وأخاف الله إن كذبت .

---

(١) الملط : الخبيث لايرفع إليه شىء إلا سرقه .

(٢) الحطم : المتكسر فى نفسه (الضعيف) .

٦ — قال معاوية لعَقِيل بن أبى طالب : إن علياً قطعك ووصلتك ، ولا يرضينى منك إلا أن تلعنــه على المنبر . قال : أفعل ، فصعد المنبر ثم قال : أيها الناس ، إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً فالعنوه ، فعليه لعنــة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت . قال : والله لا زدت حرفا ، ولا نقصت آخر ، والكلام على نية المتكلم .

٧ — قال معاوية لابن الطُّفَيْل : أنت من قتلة عثمان ؟ قال : لا ، ولكنى ممن حضره ولم ينصره . قال . فما منعك أن تنصره ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار فلم أنصره ؟ قال : لقد كان حقه واجباً ، وكان عليهم أن ينصروه . قال : فما منعك من نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمه ؟ قال : أو ما طلبى بدمه نصرة له ، فضــحك ابن الطفيل وقال : مثلك ومثل عثمان ، كما قال الشاعر :

لأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ تَنْدُبُنِى ... وَفِى حَيَاتِىَ مَا زَوَّدْتَنِى زَادِى

٨ — قال مَسْــلَمَة بن عبد الملك يوما لنُصَيْب : أمدحت فلانا ؟ قال : نعم . قال : أو حرمك ؟ قال : فعل . قال : فهلا هجوته ؟ قال : لم أفعل . قال : ولم ؟ قال : لأنى كنت أحقّ بالهجاء منه ، إذ رأيته موضعاً لمدحى ، فأعجب به مسلمة ، وقال : سلنى . قال : لا أفعل . قال : ولم ؟ قال : لأنّ كفك بالعطية أجود من لسانى بالمسألة ، فوهب له ألف دينار .

٩ — اجتمع الفرزدق وجرير عند عبد الملك ، فقال الفرزدق : النوّار طالق ثلاثا إن لم أقل شعراً لا يستطيع ابن المراغة[1] أن ينقضه أبدا ولا يجد فى الزيادة عليه مذهباً ، فقال عبد الملك : ما هو ؟ قال :

فإنّى أنا المَوْتُ الذى هُوَ وَاقِعٌ ... بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُزَاوِلُهْ

---

(١) المراغة فى الأصل الأتان لا تمنع الفحولة عن نفسها . وقد سمى الفرزدق أم جرير المراغة تشبيها لهـا بتلك الأتان : أى أنها مراغة للرجال ، وقيل سميت المراغة لأنها ولدت فى مراغة الابل وهى مكان تمرغها وهذا كناية عن الخسة وأنها من الإماء خدام الابل ورعاتها .

وَمَا أَحَـدٌ يَابْنَ الْأَتَانِ بِوَائِلٍ مِنَ الْمَوْتِ إِنَّ الْمَوْتَ لَاشَكَّ نَائِلُهْ

فأطرق جرير قليلا ، ثم قال : أمُّ حزرة طالق ثلاثاً إن لم أكن نقضته وزدت عليه ، فقال عبد الملك : هات ، فقد والله طلق أحدكما لا محالة ، فأنشد :

أَنَا الْبَدْرُ يَغْشَى نُورَ عَيْنَيْكَ فَالْتَمِسْ بِكَفَّيْكَ يَا بْنَ الْقَيْنِ هَلْ أَنْتَ نَائِلُهْ

أَنا الدَّهْرُ يَفْنَى الْمَوْتُ والدَّهر خالد فجئنى بمثل الدهر شَيْئاً يُطَاوِلُهْ

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس وطلّق عليك ، فبانت النَّوارُ من الفرزدق ، وندم عليها ، فقال :

نَدِمْتُ نَدامة الْكُسَعِىّ لَمَّا غَـدَتْ مِنِّى مُطَلَّقَةً نَوَارُ(١)

وكَانَتْ جَنَّتِى فَخَرَجْتُ منها كَآدَمَ حِينَ أخرَجَهُ الضِّرَارُ

١٠ — اجتمع جرير والفرزدق والأخطل فى مجلس عبد الملك ، فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار ، فقال لهم ليقل كل منكم بيتاً فى مدح نفسه ، فأيكم غلب ، فله الكيس ، فبدأ الفرزدق ، فقال :

أَنَا الْقَطِرَانُ والشُّعَرَاءُ جَرْبَى وفى الْقَطِرَانِ لِلْجَرْبَى شِفَاءُ

فقال الأخطل :

فَإِنْ تَكُ زِقَّ زَامِلَةٍ فَإِنِّى أَنا الطَّاعُونُ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ(٢)

فقال جرير :

أَنَا الْمَوْتُ الَّذِى آتِى عَلَيْكُمْ فَلَيْسَ لِهَارِبٍ مِنِّى نَجَاءُ

---

(١) الكسعى أعرابى كانت له قوس فرمى بها ليلا وظن أنها لم تصب فاغتاظ وحطمها فلما أصبح وجدها قد أبلت أحسن بلاء فندم على تحطيمها وقال :

ندمت ندامة لو أنّ نفسى تطاوعنى إذا لقطعت خمسى
تبين لى سفاه الرأى منى لعمر أبيك حين كسرت قوسى

(٢) الزق : السقاء من جلد ؛ الزاملة : الناقة أو غيرها : يحمل عليها .

فقال عبد الملك : فلعمرى إن الموت يأتى على كل شىء .

١١ — دخل إِيَاسٌ الشام وهو غلام ، فتقدَّم خصما له ، وكان خصمه شيخاً ، إلى بعض قضاة عبد الملك ، فقال له القاضى : أتتقدم شيخا كبيرًا ؟ قال : الحقّ أكبر منه . قال : اسكت . قال : فمن ينطق بحجتى ؟ قال ما أراك تقول حقًّا حتى تقوم . قال : لا إله إلا الله . أحقٌّ هذا أم باطل ؟ فقام القاضى من فوره ودخل على عبد الملك فأخبره بالخبر ، فقال له : اقض حاجته وأَخْرِجْه من الشام لا يُفْسِدْ علىّ أهلها .

١٢ — روى المبرّد قال : « يروى أنّ عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا ، فقال : يا أخى لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال خالد : بئس والله ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين وولىّ عهد المسلمين . فقال : إن خيلى مرّت به فعَبثَ بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك . فدخل خالد على عبد الملك والوليد حاضر ، فقال يا أمير المؤمنين : الوليد بن أمير المؤمنين وولىّ عهد المسلمين مرّت به خيل ابن عمه فعبث بها وأصغره ، وعبد الملك مطرق ، فرفع رأسه فقال : « إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » ، فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ، فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل علىّ . فما أقام لسانه لحناً ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعوّل ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان . فقال خالد : و إن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالدٌ ، فقال له الوليد : اسكت يا خالد ، فوالله ما تعدّ فى العِير ولا فى النَّفِير فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين . ثم أقبل عليه وقال : ويحك فمن فى العير والنفير غيرى : جَدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتبة بن ربيعة صاحب النَّفير . ولكن لو قلت غُنَيْماتٌ وحُبَيلاتٌ ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت .

يشير بذلك إلى ما كان من إطراد رسول الله للحَكَمَ بن العاص جدّ عبد الملك

ابن مروان ولجوئه إلى الطائف ، فكان يرعى غنيمات ، ويأوى إلى حُبيلة ، وهى الكَرْمة حتى ولّى عثمان فردّه . ويقال : إنه كان استأذن رسول الله فى ردّه إذا ولى أمر المسلمين . روى ذلك الفقهاء ») .

الشعر فى العصر الأموى

عرفت مما قدمنا كيف كان شأن الآداب فى العصر الأموى ومبلغ عناية الخلفاء بها ومقدار مساهمتهم فيها وتشجيعهم عليها ، حتى باتت الجوائز وقفا على البراعة فيها ، كما دارت مجالس سمرهم عليها ، ولمّا كان الشعر عروس الآداب عند العرب كان له فى هذه الدولة أرفعُ مكانةٍ وأجلّ خطرٍ .

وترجع العناية الخاصة بالشعر إلى شدّة تأثيره فى الجماهير وذيوعه فى الأندية ، فجعله خلفاء هذه الدولة وسيلة لإذاعة محامدهم ، وتأييد سلطانهم ، وتفخيم شأنهم كما اتخذوه أداة للتفريق بين القبائل ، فأباحوا المهاجاة بل أوعزوا بها وحموا المعتدى فيها .

وإن شيوع التغنى بالشعر فى هذا العصر ضاعف من شأنه وقوّى من تأثيره ، فزاد الحرص عليه ، والتماس الفائدة من ورائه .

وقد كان للعصبية التى أحياها رجال هذه الدولة أثر كبير فى شيوع الشعر ، فإن القبيلة عادت تحتاج إلى شاعر يذود عنها ، ويذيع محامدها ، ويردّ على مناوئيها كما كانوا يجعلون شاعرهم رسولهم إلى الخليفة ، فإن حلّ من قلبه ورضى عنه عدّت القبيلة ذلك سمّوا لمكانتها ووسيلة لدالتها . أما الخليفة فكان يعمد إلى شاعر القبيلة إن عناه أمرها فيُجْزِل عطاءه ليجمع قلوب القبيلة حوله ويجعلهم عونه .

واستتبع التعصبُ لبنى أمية من كلّ من ناله خيرهم وشمله برّهم أن يتعصب عليهم من لم يصب مثل ذلك منهم ، أو كان له هوى مع مناوئيهم ، وهم كثيرون : من خوارج ، وشيعة ، ومهاجرين ، يرون لأنفسهم سبقاً إلى الإسلام يجعلهم أولى بالخلافة منهم .

وليس يخفى أن الشعر وهو مرآة الأمة ظهر فيه فى هذا العصر ما بان فى حياة الأمة من تهاون بأمر الدّين . فشاع الغزل ووصفت الخمر ، وأفحش فى الهجاء .

هذا مجمل شأن الشعر فى هذه الدولة ، وهو قول سنفصله فيما يلى عند تناول كلّ شأن من شئونه .

العناية بالشعر

كانت العناية بالشعر فى هذا العصر متعدّدة المناحى . فعناية من الخلفاء بموضوعه ، وحرص على روايته ، وعقد مجالس لدراسته والتحكيم بين قائليه ، ثم عناية منهم أيضاً بقائليه وجود عليهم وترفيه لحالهم ، وقد سنّ الخلفاء فى ذلك سنة عابها عليهم كلّ ورع تقىّ ، وتلك هى فرض أعطية للشعراء من بيت المال ، وهو وقف على المجاهدين فى سبيل الله ، ومن ذكرهم الله فى آية الفىء ، وليس منهم هؤلاء الشعراء . ولقد أجاب الخلفاء بهذا المال دواعى الأريحية عند ما كان يعجبهم من شاعر مبالغة فى مدحهم أو هجاء لأحد أعدائهم ، وقد كان ذلك منهم جوداً دلّ على رغبة فى إظهار عظمة الدولة وواسع غناها . ولقد استمرّ هذا البذل حتى ولى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ففجع الشعراء فى آمالهم ، وقد وقفوا ببابه عند توليته حتى طال بهم الوقوف ، فكلمه فى شأنهم عدىّ ابن أرْطاة ، وكان أثيرًا عنده ، فقال له : إن الشعراء ببابك ، وأقوالهم باقية ، وأسنتهم مسنونة . قال يا عدىّ : مالى وللشعراء ؟ قال يا أمير المؤمنين إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد مُدح وأعطى ، وفيه أسوة لكلّ مسلم . ثم سأله عمن بالباب من الشعراء ، فجعل كلما ذكر له شاعراً عدّ عليه من قوله ما يفسقه به أو يكفره ولم يأذن إلا لجرير ، فلما مثل بين يديه ، قال له : اتق الله يا جرير ، ولا تقل إلا حقًّا ، فأنشأ يقول :

كَمْ باليمامة من شَعْثاءَ أَرْمَلَةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصَّوْتِ والبَصَرِ (١)

---

(١) الأرملة : من فقدت زوجها مع الفقر خاصة أو ليس هذا شرطا .

ممن يَعُدُّكَ تَكْفِى فقدَ والدِه كالفرخِ فى العُشِّ لم ينهض ولم يَطِرِ
يدعوكَ دَعْوَةَ ملهوفٍ كأنَّ به خَبلا من الجنّ أو مَسًّا من البَشَرِ (١)
خليفةَ الله ماذا تأمُرَنَّ بنا لسنا إليكم ولا فى دار منتظر (٢)
مازلت بعدكَ فى همٍّ يُؤَرِّقُنى قد طال فى الحىّ إصعادِى ومُنْحَدَرِى
مَا ينفع الحاضرُ المجهودُ بَادِيَنَا ولا يعود لنا بادٍ على حَضَرِ (٣)
إنَّا لَنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخْلَفَنَا من الخليفة ما نرجو من المطر
أَتَى الخلافةَ إذْ كانت له قَدَراً كما أتى رَبَّه موسى على قدر
هذى الأراملُ قد قَضَّيْتَ حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمَلِ الذَّكَرِ (٤)

فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية ، فقال : يا أمير المؤمنين إنها لأحبّ مال كسبته إلىّ ، ثم خرج وهو يقول : خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزّه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

لكن الحال بعد هذا الخليفة عاد إلى ما كان عليه . فاتصلت للشعراء أرزاقهم ، وجلس الخلفاء لسماع المديح ، وفتحوا بيت مال المسلمين لصلة الشعراء .

وقد تبع عناية الخلفاء بالشعراء أن اعتنى به قائلوه ، فبالغوا فى تجويده لينالوا على قدر ذلك منزلة ومالا وأقبلوا عليه يحاولونه ويتخرجون فيه لينالوا الغنى به . وكان منتهى أمل البدوى أو المتأدب أن ينبغ فى الشعر حتى يَقدَم به على أمير أو خليفة ، فيعود بالحقائب البُجْر من عطائه .

وكان من الشعراء من شغلتهم فكرة غلبت على الرغبة فى المال فلم يقولوا الشعر يلتمسون به عطاء وعابوا على المتورّطين فى هذا من الشعراء كما فعل عِمْران بن حِطَّان ، فقد وقف على الفرزدق ، وهو ينشد شعره ، فقال له :

---

(١) فى رواية النشر والنشرة : التعويذة .
(٢) لسنا إليكم : أى واصلين . منتظر : انتظار . (٣) الحضر : ضد البادى .
(٤) لا يقال رجل أرمل وإنما هو وصف خاص بالمرأة إلا أن يشاء الشاعر أن يتظرف كما فعل جرير

أيها المادح العبادَ ليُعْطَى إن لله ما بأيْدِي العباد
فاسألِ اللهَ ما طلبت إليهم وَارْجُ فضل المقسِّم العوّاد
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتُسَمِّ البخيل باسم الجواد

وعِمْرانُ هذا هو الذى آلى على نفسه ألا يكذب فى شعره ، فقالت له امرأته يوما أما حلفت أنك لا تكذب فى شعر ؟ قال : أو كان منى ذاك ؟ قالت : نعم . قلت :

فكذاك مَجْزأة بن ثو ر كان أشجع من أسامة

أيكون رجل أشجع من أسد ؟ فقال لها : ما رأيت أسدا فتح مدينة قط ، ومجزأة ابن ثور قد فتح مدينة .

وقد لزمت من ذلك عناية ثالثة ، وهى عناية جمهور الناس بالشعر وميز طيبه من خبيثه ، والحكم لجيد على مقصر ، لما رأوا من اشتغال الخلفاء به ، وأنه صار وسيلة الغنى ومفتاح الثروة ، وفعلوا ذلك أيضاً لمكان العصبية فيهم فكلّ قبيلة تتعصب لشاعرها ، وكلّ حزب يغلى بشأن لسانه ، فكانوا يجتمعون فى الأسواق ، فيتفاخر أو يتهاجى الشعراء ، ويتعصب الأشياع حتى ينتهى بهم الأمر إلى التجالد بالسيوف أحيانا كما كان يحصل بين شيعة سَدِيف ، وشيعة شَبِيب ، فيخرجون إلى ظاهر مكة للمفاضلة التى ربما انتهت بالاستياف . وبلغ أن أشياع الشاعر يُنسَبون إليه ، فيقال : جريريون وفرزدقيون ، وسَدِيفيُّون ، وشبيبيون .

وبلغ من شأن الشعر أن امرأة خافت هجاء الفرزدق على نفسها حين تناول قومها بنى جعفر بن كلاب ، فعاذت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً ، وإنما قال :

عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب فلا والذى عاذت به لا أضيرها

ومن تأثيره أيضاً : أنه لما ولّى الحجاج تميم بن زيد السند دخل البصرة ، فجعل يخرج معه من أهلها من شاء ، فخرج معه ابن لعجوز ، فجاءت إلى الفرزدق وقالت : إنى استجرت بقبر أبيك ، وأتت بحُصَيّات منه ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : خرج تميم بن زيد بابن لى ، ولا قرّة لعينى ، ولا كاسب لى غيره . فقال لها : ما اسم ابنك ؟ قالت : خُنَيْس ، فكتب إلى تميم :

تميم بن بدر لاتكونن حاجتى بظهر فلا يعيا على جوابها
وهب لى خُنَيْسًا واحتسب فيه مِنَّة لعبرة أم مايسوغ شرابها
أتتنى فعاذت يا تميم بغالب وبالحفرة السافى عليها ترابها
وقد علم الأقوام أنك ماجد وليث إذا ما الحرب شب أُوارُها

فلما ورد الكتاب على تميم اشتبه فى الاسم أخُنَيْس أم حُبَيْش ، فقال : انظروا من له مثل هذا الاسم فى عسكرنا ، فأصيب ستة مابين خنيس وحبيش ، فأعيدوا إلى أهلهم .

أسلوب الشعر ومعانيه

لا نستطيع أن نحكم على أسلوب الشعر فى هذا العصر حكما واحدا ينطبق عليه جملة ، فإن عوامل كثيرة أثرت فيه فظهر لكل عامل أثره . فمن تلك العوامل القرآن وحديث رسول الله يدعوان إلى إسجاح القول ، وترفيق حاشيته ، ويزهدان فى عنجهية الجاهلية ومكاثرتها بالاغراب لأنهما حققا للناس أن البلاغة قد تتناهى فى السمو ، وهى بعيدة كل البعد عن تلك الوحشية والعنجهية ، فكان من شأن القرآن والحديث أن يكون لأسلوبهما أنصار من شعراء هذا العصر .

كذلك كان من تلك العوامل ماجد فى هذا العصر خاصة من غرام بالجاهلية ، وإحياء لآدابها ودراسة لما روى عن شعرائها ، فكان ذلك جديرا أن يترك فى النفوس ميلا إلى نزعة الجاهليين فى قولهم بعد أن صرفهم الإسلام عنها .

كذلك كان لمعيشة البادية شأن غير سكنى الحضر ، فالبدوى فى الإسلام هو هو فى الجاهلية لم تختلف أمام عينيه مناظر الحياة ، ولاتبدل أسلوب المعيشة ، اللهم إلا مانال نفسه من تهذيب لدخوله الدين ، وتأدبه بمجمل آدابه ، وقراءته ما تيسر من قرآنه . أما الحضرى : فهو يعيش فى رغد العيش ، ويرى مناظر الحياة وآثار المدنية ، ويدرس الدين ، ويسمع الوعظ ، ويتلقى الحديث ، ويحفظ القرآن ، ويفهم معناه .

ويعتبر من مزايا العصر الأموى فى الشعر الإكثار من الأراجيز، فإنها بعد أن كانت قليلة لايقول منها الأعرابى فى العصر الجاهلى إلا المقطوعات القصيرة فى وصف ظبى أو ثور وحشى، صاروا فى هذا العصر يطوّلونها ويستخدمونها فى أغراض الشعر من مدح وفخر وهجاء ورثاء، ونشأ من كبار الرُّجّاز أبوالنجم العِجْلى والعَجّاج وابنه رُؤْبة.

هذه هى العوامل التى نعزو إليها اختلاف الأسلوب فى شعر هـذا العصر، فترى شاعراً متوعراً لأنه انقطع إلى البادية لم يَرِمْ منها، ولم يشهد للحضارة موقفا يكون له فى نفسه أثره، كما نرى آخر سهلا يكاد يسيل عذوبة ورقّة لما أثرت فيه الحضارة وأفاده التثقيف.

فيحسن فى الحكم على أسلوب الشعر فى هذا العصر أن نقول إجمالا: إن فيه النزعتين نزعة الإسلام والجاهلية، ثم نحكم على الشعراء أحكاما مناسبة لكلّ شاعر على حسب ماهيأته بيئته التى أحاطت به، فإنه ليس من الحكمة أن نجمع بين عمر ابن أبى ربيعة والفرزدق مثلا فى قرَن، ونطلق عليهما قولا واحداً، وهما من التباين فى الأسلوب بحيث لايلتقيان، والفرزدق هذا هو الذى كان مغرما بالغريب يتتبعه حتى قال أهل النقد: إنه أحيا ثلث اللغة فى شعره.

أما معانى الشعر فإن عمدة الشعراء فيها على معانى أهل الجاهلية لم يزيدوا عليها شيئاً كثيراً، وإن كانوا فى إيرادها قد توخوا مالم يستطعه الجاهلى من ترتيب الفكرة كما أنهم أكثروا من الحكمة والمثل، وتوسعوا فى المعانى بما أفادهم الإسلام وما توالى على نظرهم من مظاهر الحضارة لمن عاش فى المدن. أما من عاش فى البادية فقد بقيت معانيه هى معانى الجاهلية لم يتزحزح عنها كذى الرمّة مثلا وقف عليه الفرزدق وهو فى إبله ينشد الشعر، فقال له: كيف ترى ماتسمع يا أبا فراس؟ قال: ما أحسن ما تقول. قال: فمالى لا أذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غاياتهم بكاؤك فى الدمن، ووصفك الأبعار والعطن.

على أن من شعراء هذه الدولة من كان أعجمى المولد ، والنشأة كزياد الأعجم أصله من أصبهان ، وأبى العباس الأعمى ، وموسى شهوات ، فإن أصلهما من أذربيجان ، ولا شكّ أن هؤلاء قالوا الشعر العربى متأثرين بعقليتهم الفارسية .

ولشعراء هذا العصر معان لم يعرفها الجاهليون ولا الإسلاميون ، لأنها إنما كانت نتيجة الحضارة والانغماس فى الترف ، فقد أكثر الوليد بن يزيد من وصف الخمر ، وأتى فيها بما كان مستمدّ أبى نواس فيما توسع فيه بعد من وصفها ، ومن قول الوليد فيها :

مِن قَهْوَةٍ زانها تقادُمُها فهْىَ عجوزٌ تعْلُو على الحِقَبِ
فهْىَ بِغَيْرِ المِزَاجِ من شَرَرٍ وَهْىَ لَدَى المَزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ

أغراض الشعر

أكثر أغراضه فى هذا العصر هى أغراضه فى العصر الجاهلى مع التوسع فى كلّ غرض لما صاروا إليه من كثرة فى معانيهم ، وزيادة فى مادّة لغتهم وحضارة عاشوا فيها .

ولأسباب خاصة بهذا العصر كان بعض الأغراض يطغى طغيانا زائدًا ، على ما نفصله فى الكلام عن كلّ غرض وحده .

أما الأغراض التى كانت فى هذا العصر ولم تكن فى الجاهلية ، فهى ما أحدثه الإسلام خاصة من القول فى الزهد ، و بيان العقيدة ، ووصف البلاد المفتوحة ، وتناول السياسة بوصف جور الحكام ، والتعريض باغتصاب الخلافة ، وذكر مناقب المبعدين عنها من مستحقيها ، و إطراء زهدهم ، ورثاء قتلاهم .

وسنذكر فيما يلى أغراض الشعر التى كثر تداولها فى هذا العصر ، ونفصل القول فيها مع قياسها بما كان منها قبل ذلك .

النسيب[1]

لا شك أن النسيب وهو وصف المرأة والتمدح بمحاسنها ، وذكر ما يقع بينها

---

(١) الرأى عندى أنه لافرق بين: التغزل، والغزل، والنسيب، والتشبيب، ويؤيد قولنا ماورد فى كتب اللغة قال فى لسان العرب : الغزل حديث الفتيان والفتيات . وهو عن ابن سيده : اللهو مع النساء . والتغزل التكلف لذلك . وأقول ان نقل الغزل من الحديث إلى حكايته ومن اللهو إلى الحديث عنه فى الشعر مجاز سهل المأخذ .

وفى اللسان أيضا « نسب بالنساء ينسب : شبب بهن فى الشعر وتغزل .

وشبب بالمرأة قال فيها الغزل . والنسيب هو أن يشبب بها: أى ينسب . والتشبيب : النسيب بالنساء » كما يؤيده قول ابن رشيق فى العمدة : النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد .

أما قوله : « والغزل إلف النساء والتخلق بما يوافقهن وليس مما ذكرته (يريد النسيب والتغزل والتشبيب) فى شىء ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه نقد الشعر » .

وقد بينا لك سابقا مايصح أن يكون قد جرى على كلمة غزل وتغزل من التجوز الذى صارا فيه بمعنى قول الشعر فى حديث النساء والتكلف بهن .

وننقل لك هنا عبارة قدامة فى الكلام عن النسيب قال .

نعت النسيب . أقول إن كثيرا من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولا ما النسيب ؟ ، ونحن نحده فنقول : ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن . وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الانسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله فكأن النسيبَ ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه ، والغزل إنما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء ، ويقال فى الانسان إنه غزل إذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن لحاجته بالوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه ، والذى يميلهن إليه هو : الشمائل الحلوة ، والمعاطف الظريفة ، والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاح المستغرب . ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاج ، وانما هو متفاعل من الشجى : أى متشبه بمن قد شجاه الحب .

واذ قد بان أن الذى قلناه على ما قلناه فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز ، وأن يكون جماع الأمر فيه ماضادّ التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة فاذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض ، وقد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والبروق اللامعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة ؛ وآثار الديار العافية ، واشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومضى الأسف والمنازعة .

وبين المغرم بها من لقاء وتحية وحديث ، والشكوى من اللوعة بها ، وفقدان الصبر عنها على ما فى ذلك من عفة وعهر واعتدال وإفحاش ، كلّ ذلك كان شأن الشاعر الجاهلى ، فإن معيشة البادية من سفور المرأة ، واشتراكها فى أمور الحياة وخلوّ الرجل من الأعمال يجعل هذا النسيب أمراً لازما للحياة البدوية ، ولقد شاع فى ذاك العصر حتى صار لازمة لقول الشعر يبدأ به الشاعر قصيدته ، ولو لم يكن محبًّا فيذكر اسماً مستعاراً ، ويتخيل وقائع يذكرها على عادة المشاق ، ولقد ذكروا أن زهيراً كان عفيفاً يتحرج من النسيب ، ولكنه اضطُرَّ أن ينسِبَ ، فذكر اسم امرأته : « أم أوفى » فى معلقته .

وقد نظر قوم إلى الغزل فى العصر الأموى ، فرأوا شعراء يتغزّلون ولا يقولون فى شىء غير الغزل ، فتكون القصيدة وقفاً على هذا الغرض لاتتعدّاه إلى غيره . بل لقد وقف بعضهم نفسه على الغزل لا يقول غيره ، فاتخذوا من ذلك سبيلا إلى القول بأن الجاهلى لم يعرف هذا النوع من الغزل ، ولم يقل فيه وإنما كان غزله تابعاً لأغراضه الأخرى من مدح أو فخر أو غيرهما .

ولقد كان داعيتهم إلى هذا الرأى أنهم لم يجدوا غزلا مستقلاً فى شعر الجاهلين ، ولكن فقدانهم لرواية ذلك لا يدعونا إلى إبطال تلك الطبيعة التى هى أليق بالعربى فى باديته ، لما قدمنا من خلوّ الرجل من العمل ومشاركة المرأة له فى حياته وسفورها أمامه فى غالب شأنها . والحبّ طبيعىّ فى النفس والتعبير عنه زفرة لا يستطاع كظمها ونزعة لايمكن كبتها ، فلا بدّ أن يكون الجاهليون قد عمدوا إلى الغزل غرضا أصيلا وأكثروا منه حتى صار التزامه فى بدء القصائد نتيجة لهذا الإكثار منهم فى قوله ، على أنه قد روى لهم فيه قول مستقلّ .

فمن ذلك قول المُرَقِّش الأكبر ، وقد علق ابنة عمه وحال دونها إقتاره ، فقال فيها :

سَرَى لَيْلاً خيالٌ من سُلَيْمى ... فأَرَّقَنِي وأصحابى هُجُودُ
فبتُّ أديرُ أمرِى كلَّ حالٍ ... وأذكرُ أهلَها وَهُمْ بَعيدُ

عَلى أنْ قد سما طَرْفِى لنارٍ   يُشَبُّ لها بذى الأَرْطَى وَقودُ
حوالَيْها مَهاً جَمُّ التَّراقِى   وآرام وغِـزْلانٌ رُقـودُ (١)
نواعم لا تعالج بُؤْسَ عيشٍ   أوانِسُ لا تَرُوحُ ولا تَرُودُ (٢)
يرحن معا بِطَاءَ المَشْىِ بُدًّا   عليهن المَجَاسِدُ والبُرُودُ (٣)
سكنَّ بِبَلْدَةٍ وسكَنْتُ أخرى   وقُطِّعَتِ المَوَاثِقُ والعهودُ
فما بَالِى أَفِى ويُخَانُ عَهْدِى   وَمَا بَالِى أُصَادُ ولا أَصيدُ

كذلك يقول قيس بن الحدادية (٤) فى نُعْمٍ ، وكنيتها أم مالك ، وقد افترق أهلهما :

سَقى اللهُ أطلالا لنُعْمٍ ترادفَتْ   بِهِن النَّوَى حتى حَلَلْنَ المَطَالِيَا
فإنْ كانتِ الأيامُ يا أمَّ مالكٍ   تُسَلِّيكُمُ عَنِّى وَتُرْضِى الأَعاديا
فلا يَأْمَنَنْ بعدى امرؤٌ فَجْعَ لذة   عن العيش أو فَجْعَ الخطوب العوافيا
نظرتُ ودُونى يَذْبُلٌ وعمايةٌ   إلى آلِ نعم منظرا مُتنائِيا
شكوتُ إلى الرحمنِ بعد مَزَارِها   وما حَمَّلَتنى وانقطاع رجائيا
وقد أيقنتْ نفسى عشيَّةَ فارقُوا   بأسفَلِ وَادى الرَّوضِ أنْ لَا تلاقِيا
إذا ما طَوَاكِ الدَّهرُ يا أمَّ مالكٍ   فشأنُ المنايا القاضياتِ وَشانِيا

ولقد علمت أن الإسلام زهد العرب فى النسيب ، وحرم عليهم الفاحش منه ، فلما جاءت الدولة الأموية ونزعتها جاهلية ووازع الدين قد ضعف أثره فى القلوب ، والخلفاء

---

(١) جم العظم : كثر لحمه .
(٢) ترود : تختلف إلى المرعى مقبلة مدبرة .
(٣) بد : متفرقات . المجسد (كمنبر) الثوب يلى الجسد . البرد : ثوب يلتحف به .
(٤) شاعر جاهلى ، والحدادية أمه من قبيلة يقال لها بنو حداد . وكان قيس فاتكا شجاعا صعلوكا خليعاً . خلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها فلا تحتمل جريرة له ، وكان قيس يهوى أم مالك بنت ذؤيب الخزاعى . وكانت بطون خزاعة خرجوا جالين إلى الشام ومصر ثم رأوا فى الطريق البرق وأدركهم من قال لهم إن بلادهم أخصبت فرجع بعض واستمر بعض ، وكان فى الماضين فى ارتحالهم أهل نعم .

يرون من تمام سياستهم إطلاق الألسنة بالقول أكثر الشعراء من القول فى الغزل ، فكان منهم عشاق برح بهم الحبّ وملكهم جمال المرأة ، وقد صقلتها المدنية وورثت من الجمال الفارسىّ والرومىّ نصيبا ، فكثر العشق وساعد عليه أيضاً صيرورة الحمية والغيرة الجاهلية إلى الاعتدال ، فتحدّث النساء إلى الرجال فى غير حرج كبير . بل لقد أرسلن إلى من عرفنه غَزِلا يستزرنه ليصبن من اللهو وليكون من حظهن ذكر يشيع على لسانه . ولم تترفع عن ذلك نساء الخلفاء لما انطبع فى المرأة من حبّ الثناء ، فقد ذكروا أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك هى التى اقترحت على وَضّاح اليمن أن يشبب بها ، فلما فعل قتله الخليفة . وذكروا من قصتها فى ذلك أنها قدمت مكة حاجة ومعها من الجوارى من لم ير مثله حسنا ، وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إذا ذكروا أحداً ممن تبعها ، وقدمت فتراءت للناس وتصدّى لها أهل الغزل والشعر ، ووقعت عينها على وضاح اليمن فهويته وكان جميلا ، وأرسلت إليه وإلى كثيِّر أن انسبابى . فأما وضاح اليمن فإنه ذكرها وصرح بالنسيب بها ، فوَجِد عليه الوليد ، واحتال لقتله . وأما كُثيِّر فإنه عدل عن ذكرها ونسب بإحدى جواريها . كذلك اقترحت أم محمد بنتُ مروان بن الحكم وأخت عبد الملك على عمر بن أبى ربيعة أن يشهرها فى شعره ، وبعثت إليه ألف دينار ، فأبى أن يؤجر على التشبيب ، وابتاع بالجائزة حللا وطيبا وأهداها إليها فردتها ، ومن قوله فيها :

أيُّها الرائحُ المُجِـدُّ ابتِكارَا قدْ قضَى مِنْ تِهامةَ الأوْطارَا
منْ يكُنْ قلبُه صَحِيحًا سَلِيمًا ففؤادى بالخَيْف أمسى مُعارَا (١)
ليت ذا الدَّهرَ كان حتما علينا كُلَّ يَوْمَيْنِ حِجَّةً واعتمارا (٢)

⁂

وكان من شعراء الغزل فى هذا العصر قوم تيمهم الحب ، وذهب بألبابهم العشق ، فجاء شعرهم زفرات تكاد تحترق لها صدورهم . وهؤلاء هم المسمون بالعُذْريِّين وإمام هؤلاء

---

(١) الخيف : غرة بيضاء فى الجبل الذى خلف أبى قبيس ، وهو موضع بمنى وبه سمى مسجد الخيف .
(٢) ترتيب البيت هكذا : ليت الدهر كان حجة واعتمارا فى كل يومين منه واجبا علينا ذلك .

جميل بن مَعْمَر صاحب بثينة ، ومنهم قَيْسُ بن الملوَّح صاحب ليلى ، وقَيْس بن ذَرِيح صاحب لُبْنَى على القول بوجود الأخيرين ، وأن حديثهما غير موضوع .

فمن قول جميل فى بثينة :

إذا قُلْتُ ما بى يا بُثَيْنَةُ قاتلى ... من الحب قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلتُ رُدِّى بعض عقلى أعِشْ به ... مع الناس قالتْ ذاكَ منك بعيدُ
فلا أنا مَرْدُودٌ بما جئت طالبا ... ولا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ
وقلتُ لها بَيْنِى وبينَكِ فاعلمى ... من الله ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حُبِّيكُمْ طَرِيفاً وتالدا ... وما الحبُّ إلا طارِفٌ وتَلِيدُ
وإن عَرُوضَ الوصل بينى وبينَها ... وإن سَهَّلَتْه بالمُنَى لصَعُود(١)
فأفنيتُ عَيْشِى بانتظارى نَوَالَهَا ... وأبْلَيْتُ هذا الدهرَ وهو جديد

ومن قول مجنون ليلى ، وقد جعل يمرّ ببيتها فلا يسأل عنها ولا يلتفت إليها ، فإذا جاوزه قال :

ألَا أيُّهَا البيْتُ الذى لا أزُورُه ... وإنْ حَلَّهُ شَخْصٌ إلىَّ حبيبُ
هجَرْتُكَ إشفاقا وزُرْتُكَ خائفاً ... وفيكَ علىَّ الدهرَ منكَ رقيبُ
سأستَعْتِبُ الأيامَ فيكَ لعلَّهَا ... بيوم سرور فى الزمانِ تئوب

وقوله وقد أخذه أبوه إلى الكعبة ، وقال له : تعلق بها وقل اللهم أرحنى من ليلى وحبها ، فلما تعلق بها قال :

يقَرُّ بعينى قربُها ويَزيدنى ... بها شَغَفاً من كان عندى يَعِيبها(٢)

---

(١) العروض : الطريق فى عرض الجبل . الصعود : المرتفع . والمعنى أن الوصل صعب المنال مهما سهلته بالوعود .

(٢) روى فى الكامل من قول نبهان بن عكىّ العبشمىّ :

يقر بعينى أن أرى من مكانه ... ذرا عقدات الأبرق المتقاور

فقال : قرأها أبو العباس « يقرّ بعينى » قال الأصل يقر عينى والباء زائدة للتوكيد . هكذا سمعته . ويقول أبو الحسن الأخفش راوى الكامل وأجود مما روى عندى يقرّ بعينى وهو الأصل والباء فى موضعها غير زائدة .

وكم قائل قد قال تُبْ فعصَيْتُه ... وتلك لَعَمْرِى توبةٌ لا أتوبها
فيا نفسُ صَبْرًا لستِ والله فاعلمى ... بأولِ نفسٍ غاب عنها حبيبُها

ومن قول قَيْسِ بن ذَرِيحٍ فى لُبْنَى :

فان يحجبوها أو يحُلْ دون وَصْلِها ... مقالةُ واشٍ أو وعيـــدُ أميرِ
فلن يحجُبُوا عينىّ من دائم البُكا ... ولن يُذْهِبُوا ما قد يُجِنُّ ضميرى
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ... ومن كُرَبٍ تعتادنى وزَفيرِ

ومن شعراء الغزل من جعلوه لهوهم ، فأغرموا بالجمال ، وتتبعوا مساقطه ، وحضروا المواسم ليملئوا عيونهم من أشياء غيرهم ، ثم وصفوا ما وقع لهم من ذلك فهم لم يتيمهم الحبّ ، ولا كان القول فى الغزل صناعة لفظية لاغور لها فى نفوسهم ، بل كانوا بين بين يستأسرون للجمال وهم قادرون على الإفلات من حبائله . كما كان شأن عمر ابن أبى ربيعة ، ويكفى فى التدليل على أنه كان بهذه المثابة أن تغزل فى غير واحدة ، والحبّ الصادق لا يكون إلا لحبيب واحد ، وهو الذى يقول مستبيحاً الدبيب إلى المحبوبة ، ومغافلة أهلها الأبيات الآتية ، ولهــذا سمى هو ومن على شاكلته إباحيين لأنهم أباحوا فى غزلهم كلّ فحش ، أما العذريون فإنهم لا يتعلقون من محبوبتهم إلا التعلق الرُّوحى ، وبنو عُذْرَةَ قبيلة اشتهرتْ بالحبّ حتى فنى فيه رجالها . قال ابن أبى ربيعة :

فلما فقدْتُ الصوتَ منهم وأُطفِئَتْ ... مصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاء وأَنْؤُرُ (١)
وغاب قُمَيْرٌ كنتُ أرجو غُيُوبَه ... وروَّحَ رُعْيانٌ ونَوَّمَ سُمَّـــرُ (٢)
ونفَّضتُ عنى العين أقبلتُ مِشْيَةَ الْـــحُباب ورُكْنى خيفةَ القوم أزْوَرُ (٣)

---

(١) أنؤر : جمع نار .
(٢) روّح : رجع وقت الرواح .
(٣) ويروى النوم بدل العين ، والمراد بالعين الجواسيس ، الحباب : الحية ، أزور : مائل .

فَحُيِّيَتْ إذ فاجأتها فتَوَلّهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر(١)

وقالت وعضّتْ بالبنان فضحْتني ... وأنت امرؤ ميسورُ أمرِكَ أعسرُ

أرَيْتَكَ إذْ هُنّا عليكَ ألَمْ تخفْ ... رقيباً وحَوْلِي من عَدُوِّكَ حُضَّر(٢)

فوالله ما أدرى أتعْجِيلُ حاجةٍ ... سَرَتْ بكَ أم قدْنامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ

وهذان الفريقان لم يعرف لهم فى غير الغزل شعر ، و إن ورد عن بعضهم شيء من ذلك فهو نادر جدًّا .

ونوع ثالث من الغزلين ، وهم من كان الغزل فى قولهم محض صناعة لفظية يجرى أحـــدهم على طريقة العرب ، فيبدأ قوله بالغزل كما بدءوه به ، وإن لم ير لمحبوبته ظلاً أو لم يتعلق منها بمودّة ، وهؤلاء تناولوا جميع أغراض الشعر مع الغزل ، ومن أشهرهم كُثَيِّر عزّة ، فإنه أكثر من ذكرها وأطال فى وصفها ، و إن لم يرها فى حياته مرّة .

المـــدح

كان المدح على ما عرفت شأنه فى الجاهلية لا إسراف فيه ولا إغراق ، وكان فى غالب أمره ذكراً لحقيقة اشتهر بها الممدوح ، أو ثناء على عارفة كانت منه ، وكان مع ذلك قليلا لمكان الأنفة من نفوس العرب إلا ما كان من شأن الذين تكسبوا بالشعر فى أخريات الجاهلية ، كزهير ، والنابغة ، والأعشى ، والحُطَيْئَةِ على عفة فى أكثرهم عرفت حديثها ، وفى الإسلام لم يكن منه إلا مدح رسول الله وهو دون مايستحقه مقامه الأعظم و بلاؤه المشهود . أما الخلفاء بعده فإن ورعهم وانصرافهم إلى تحقيق العدالة ،

---

(١) توله : حزن وطاش عقله .

(٢) أرأيتك وأريتك : أخبرنى ، هنا : من هان بمعنى حقر وقل شأنه ، حضر : جمع حاضر .

وقلة ذات أيديهم جعلهم غير موضع لآمال المداح ، فقلّ المدح فى هـذا العصر ، وقد ذكروا أنه بلغ عمر أن الحطيئة مدح أبا موسى الأشعرى عامله على العراق فوصله ، فكتب إليه عمر يلومه ، فردّ عليه أبو موسى بأنه إنما اشترى عرضه بالصلة ، فكتب إليه عمر : إن كان هذا هكذا ، وإنما تذبّ عن عرضك ، ولم تعطه للبذخ والفخر ، فقد أحسنت .

أما فى دولة بنى أمية فقد جنّ جنون الشعراء لما رأوا من الغنى الذى يساق سوقا إلى مجيديهم فى مدح الخلفاء ، وتفخيم أمرهم ، وذكر بطشهم ، وواسع جودهم . وقد حبب ذلك إلى الخلفاء أنهم رأوه يمكن لهم ، ويوطد ملكهم ، ويلقى الرعب فى القلوب ، ويدفع الآمال إلى التعلق بهم ، فكان عمل الشعر فى هـذا بمثابة جيوش جرّارة يرصدونها لتحقيق هذه الغاية ، فكفاهم مئونتها بيت من الشعر يسير كلّ مسار ، وينتقل مع الريح :

فشرّقَ حتى ليس للشّرْقِ مَشْرِقٌ وغَرَّبَ حتى ليس للغرب مَغْرِبُ

كذلك لا تنس ما فيهم من روح عربية تحبّ المديح وترتاح له ، فجعلوا سماع الشعر فى مدحهم إحدى وسائل النعيم والترف الذى وفروا لأنفسهم أسبابه ، وامتلأت به قصورهم وقد كانوا لقوّة النقد فى نفوسهم يعرفون قدر مايقال فيهم ، فيتقبلونه قبولا حسناً ، أو يردّونه على قائله زائفاً مبهرجا .

دخل ابن قَيْس الرُّقَيَّاتِ على عبد الملك ، وقد أمنه بعد خروجه عليه ، فمدحه بقوله :

إنّ الأغَرّ الذى أبوه أبو العا صِى عَلَيْهِ الوقارُ والحُجُبُ
يَعْتَدِلُ التاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ على جَبِينٍ كأنَّهُ الذَّهَبُ

فقال عبد الملك : يا بن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاءُ

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق ، ولكن لا تأخذ فى المسلمين عطاء أبداً .

ومن قوّة تقدمهم مع حبهم للاستئثار بأعظم نصيب من المدح ما جرى لأبى زيد الأسلمى . دخل المدينة فصار إلى إبراهيم بن هشام ، فأنشده :

* يابن هشام يا أخا الكرام *

فقال إبراهيم : وإنما أنا أخوهم ، وكأنى لست منهم . ثم أمر به فضرب بالسياط .

وقد دخل رجل من بنى ضبّة على عبد الملك ، فأنشده :

وَاللهِ مَا نَدْرِى إذَا مَافَاتَنَا طَلَبٌ إليكَ مِنِ الّذِى نتطلَّبُ
فَلَقَدْ ضَرَبْنَا فى البلادِ فلم نَجِدْ أحَداً سِواكَ إلَى المَكارِمِ يُنْسَبُ
فاصبرْ لعادتنا التى عوّدْتَنَا أوْلاَ فأرْشِدْنَا إلَى مَنْ نَذْهَبُ

فقال عبد الملك : إلىّ إلىّ ، وأمر له بألف دينار ، ثم أتاه فى العام الثانى ، فأنشده :

يَرُبُّ الّذى يَأْتِى مِنَ الْخَيْرِ إنَّهُ إذَا فعَلَ المعروفَ زَادَ وَتَمَّمَا
وَلَيْسَ كَبانٍ حينَ تَمَّ بِناؤُهُ تَتَبَّعَهُ بالنَّقْصِ حَتَّى تَهَدَّمَا

فأعطاه ألفين ، ثم جاءه فى الثالث ، فأنشده :

إذا استُمْطِرُوا كانُوا مغازِيرَ فِى النَّدَى يَجُودُونَ بالمعروفِ عَوْداً على بَدْء

فأعطاه ثلاثة آلاف .

ومن ارتياحهم للمدح ، واهتزازهم له ما روى عن عمر بن هبيرة . قال العتبى : أشرف عمر بن هبيرة الفزارى من قصره يوما ، فإذا هو بأعرابىّ يرقص جمله الآلُ ، فقال لحاجبه : إن أرادنى هذا فأوصله إلىّ ، فلما دنا الأعرابى سأله الحاجب ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال عمر : ما خطبك ؟ قال الأعرابى :

أصلحك اللهُ قلّ ما بيدى فما أطيق العيال إذْ كثروا
ألحّ دهرٌ أنحى بكلكله فأرسلونى إليك وانتظروا
رجوكَ للدّهر أن تكون لهم غيثَ سَحابٍ إذْ خانهم مطرُ

قال : فأخذت عمر الأريحية ، فجعل يهتزّ فى مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إلىّ وانتظروا ،

إذاً والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانما ، فأمر له بألف دينار وردّه على بعيره .

ولقد بلغ من غرام خلفاء هذه الدولة بالمدح أن أرادوا أن يجعلوه وقفاً عليهم ، فلم يرضوا عمن مدح غيرهم ، ولو كان الممدوح من أعوانهم ، فهذا جرير مدح الحجاج ، فلما أعجبه مدحه أوجهه ، وملأ بالثناء عليه الأرض حتى بلغ خبره الشام ، وأمير المؤمنين عبد الملك ، ثم أراد الحجاج أن يحسن إلى جرير ، فأقدمه مع ابنه محمد إلى عبد الملك ، فلما صار فى مجلسه سأل عنه ، فقال محمد بن الحجاج : هذا يا أميرالمؤمنين ابن الخطفى ، فقال مادح الحجاج . قال جرير : قلت ومادحك ياأمير المؤمنين ، فائذن لى فى الإنشاد ، فقال : هات ما قلت فى الحجاج ، فاندفعت فى قولى :

صَبَرْتَ النفسَ يا بنَ أبى عَقيلٍ ... محافظةً فكيف تَرى الثَّوابَا
وَلَوْ لَمْ يَرْضَ رَبُّكَ لَمْ يُنْزِلْ ... مَعَ النَّصْرِ الملائكةَ الغِضَابَا
إذَا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رَأى الحجاجَ أثقَبَهَا شِهَابَا

قال صدقت ، ثم هات فأنشدته :

طَرِبتَ لعهدٍ هيَّجَتْهُ المنازلُ ... وكيفَ تَصابِى المرءِ والشيبُ شامِلُ

فما فرغت منها حتى خُيِّلتُ الغضب فى وجه أمير المؤمنين ، ثم قال : هات بالحجاج ، فأنشدته :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفاقِ عَلَيْهِمُ ... أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الحَجَّاجِ
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةً ... إذْ لاَ يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأَزْوَاجِ

ثم قال لى الخليفة اجلس فجلست ، وقال للأخطل : هات مديح أمير المؤمنين ، فأنشد أشعر الناس وأمدح الناس ، فقال له عبد الملك : أنت شاعرنا ومادحنا ، ثم استمرّ الوفد يدخل على الخليفة ثمانية أيام ، وكلهنّ يحجب جرير ، ودخلوا فى اليوم التاسع ، فأعطوا جوائزهم ، وتهيئوا فى العاشر للرحيل ، ثم توسل له محمد بن الحجاج عند عبد الملك ، واستأذنه فى أن يسمع من جرير فأذن ، فاندفع جرير :

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ ... عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

فقال له عبد الملك : بل فؤادك أنت ، وما زال ينشــد حتى وصل إلى قوله فى مدح عبد الملك :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

فجعل عبد الملك يقول : نحن كذلك ومازلنا كذلك ، ثم قال : ردّها علىّ ، فردّها فطرب ، ثم أمر له بمائة ناقة وثمانية أعبد : أربعة صقالبة ، وأربعة نوبية ، وكان بين يديه صحاف من فضة ، فقال جرير : المحلب يا أمير المؤمنين ، فندس إليه واحدة منهنّ .

ومن غرام الأمويين بالمدح ما رواه المبرّد قال : وقد فضل نُصَيبٌ على الفرزدق فى موقفه عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حضرا ، فقال سليمان للفرزدق : أنشدنى (وإنما أراد أن ينشده مدحًا له) ، فأنشده :

وركبٍ كأنّ الريح تطلبُ عنـدهمْ لهاتِرةً من جَذْبِها بالعصائبِ
سَرَوْا يخبطون الليـل وهى تلفّهم إلى شعب الأكوار من كلّ جانب
إذا آنسوا نارًا يقولون ليتها وقد خصرت أيديهمُ نار غالب

فأعرض سليمان كالمغضب ، فقال نصيب يا أمير المؤمنين ، ألا أنشدك فى رويها ما لعله لا يتضع عنها ، فقال هات ، فأنشده :

أقول لركب صادرين لقيتهمْ قفا ذات أوشال ومولاك قارب
قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالب
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقد قال سليمان للفرزدق حين أنشده نصيب كيف تراه ؟ قال : هو أشعر أهل جلدته ، ثم قام الفرزدق ، وهو يقول :

وخير الشـعر أشرفه رجالا وَشرّ الشـعر ما قال العبيد

ولقد عفا الخلفاء وعمالهم عن المجرم لبيت من الشعر بالغ به فى مدحهم ، فصادف هوى فى نفوسهم كما حدث أن الحجاج لجّ فى طلب العُدَيْل حتى لفظته الأرض ، ونبا به كل مكان ، فلم يجد حيلة إلا قصده ، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :

خَلِيلُ أميرِ المؤمنين وسيفُه ... لكلِّ إمامٍ صاحبٌ وخليلُ
به نَصَرَ اللهُ الخليفةَ مِنهُمُ ... وَثَبَّتَ مُلْكاً كاد عنه يَزُولُ
فَأَنْتَ كَسَيْفِ اللهِ فى الأَرْضِ خالدٍ ... تَصولُ بعـــون الله حين تَصُولُ

فقال له الحجاج : أولى لك[1] قد نجوت ، وفرض له ، وأعطاه عطاءه .

وبلغ من حبّ استئثارهم بالمديح أنهم حقدوا على الشاعر إذا افتخر ، فقد روى أن الفرزدق خرج من عند عبد الملك ، وقد مدحه فأجزل له العطية ، فقال فى طريقه وهو راكب راحلته :

ما حملتْ ناقةٌ من مَعْشَرٍ رجلا ... مثلى إذا الريح ألقتنى على الكُورِ[2]

فأنهى ذلك إلى عبد الملك فأرسل وراءه ، فلما دخل عليه قال : إيه يافرزدق الذى تقول ، فقال نعم يا أمير المؤمنين ، فلما أنشده البيت قال : لتخرجنّ منها أو لآتينّ عليك ، فقال مرتجلا :

إلا قُرَيْشًا فإنّ الله فَضَّلَهَا ... مع النبوّة بالإسـلام والخيرِ
تَرَى وُجُوهَ بنى مَرْوَانَ مُشْرِقَةً ... يَوْمَ النَّدَى كَمَشُوفَاتِ الدَّنَانِيرِ[3]

فقال عبد الملك : أولى لك ورضى عنه .

الهجاء

كان الشاعر فى الجاهلية يهجو وينافر ، ولكنه فى كلّ ذلك لا يتعدّى التعيير بالقصورعن الفضل ، والتأخر عن الأقران والنكوص عن مواقف الشجاعة ، والبخل على الضيف والقعود عن نصرة المستجير ، لا يعرفون ذكر العورات ولا الإفحاش فى سبّ

---

(١) أولى لك : تهديد ووعيد: أى قاربه مايهلكه .
(٢) الكور : الرحل .
(٣) الدرهم أو الدينار الشوف : المجلو .

الآباء والأمهات ، فكانت معانيهم فى ذلك تتبع بساطة معيشتهم ، فهم لم يعرفوا الغلوّ فى شيء حتى يعرفوه فى الهجاء ، وقد جاء الإسلام ينهاهم عن ذلك ويحول بينهم وبينه حتى تصفو النفوس ، وتجتمع على الحبّ فامتنعوا عنه ، وعوقب من استمرّ على نزعة الجاهلية كالحطيئة . نعم أباح الإسلام المسلمين هجاء الكفار بل دعاهم إلى ذلك لأنه اعتبره أسلوبًا من أساليب حربهم ونوعا من مساجلتهم ، ولا شكّ أن القول له بالنفس فعل السيف فى خضد الشوكة وتثبيط العزم .

فلما جاء عصر بنى أمية لم تقصر الأحزاب السياسية فى جعل الشعر من عدد حربهم يذيعون به المساوئ ، ويدلون به على المخازى ، ويؤلبون ويهدّدون ، فعل ذلك الأمويون ، وهم الحزب الأكبر بكلّ من ناوأهم من خوارج وهاشميين وزبيريين ومهلبيين كما قابلهم هؤلاء بمثل ذلك فكثر التهاجى ، واشتهر شعراء بالتعصب لبنى أمية ، وهم جلّ شعراء العصر ؛ فمنهم : مسكين الدارمى ، والأخطل ، وجرير ، والفرزدق ، والراعى ، وأبو النَّجْم الراجز ، والأعشى ، والنابغة الشَّيبانى وغيرهم ، واشتهر من أنصار الخوارج : الطِّرِمَّاح بن حَكِيم ، وعِمْران بن حِطَّان ، كما اشتهر من الأنصار المهلبيين : زيادٌ الأعْجمُ ، وحَمْزة بن بيض ، وبَيْهَس الجَرْمىّ ، ومن أنصار العلويين : النُّعْمانُ ابن بَشِير ، وأبو الأسود الدُّؤَلىّ ، والكُميْت بن زَيْد ، وأيْمَن بن خُرَيم .

وسنورد عليك نماذج من قولهم ليتمثل لك ما كان بين القوم من خلاف على السياسة .

حَرّش يزيد بن معاوية الأخطل ، فهجا الأنصار بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها   واللؤم تحت عمائم الأنصار

فلما شاع الشعر دخل النُّعمان بن بَشِير الأنصارى على معاوية ، وقال يا معاوية : هل ترى لؤما ؟ قال : لا أرى إلا كرما . قال فما الذى يقول فينا عبد الأراقم[1] ؟ قال : قد حكّمتك فيه . قال : والله لارضيت إلا بقطع لسانه ، ثم أنشده :

---

(١) الأراقم : حى من تغلب منهم الأخطل وجعله عبدهم تحقيراً له .

مُعاوِىَ إلاَّ تُعطِنا الحقَّ تَعتَرِفْ ... لِحَى الأُسْدِ مَشْدُودًا عليها العمائمُ(١)
وَيَشْـتِمُنا عَبْدُ الأَرَاقِمِ ضَلّةً ... وَماذَا الّذِى تُجْدِى عليك الأَرَاقِمُ
فَمالِىَ ثأرٌ دونَ قَطْعِ لِسانِهِ ... فَدُونَكَ من تُرْضِيهِ عَنكَ الدَّراهِمُ

ثم قال :

وَإِنّى لَأُغْضِى عن أمورٍ كثيرةٍ ... سَتَرْقَى بِها يَوْمًا إليك السَّلالِمُ
أُصانِعُ فيها عَبْدَ شمسٍ وإنّنِى ... لِتِلْكَ الّتى فى النفْسِ مِنّىَ كاتِمُ
فَما أنتَ والأَمْرَ الذى لَسْتَ أَهْلَهُ ... ولكنْ وَلِىُّ الحَقّ والأَمْرِ هاشِمُ

فلما رأى معاوية منه الجدّ دفع إليه الأخطل لقطع لسانه ، ولكن يزيد ابنه أجاره من النعمان .

وقال الأعشى : وقد دخل على عبد الملك ، وهو متردّد فى حرب ابن الزبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مالى أراك مُتَلوِّمًا(٢) ينهضك الحزم ، ويقعدك العزم ، وتهم بالإقدام ، وتجنح إلى الإحجام . توجه إلى عدوّك ، فجَدّك مُقْبِلٌ وجده مدبر ، وأصحابه له ماقتون ، ونحن لك محبون ، إلى أن أنشد :

آلُ الزُّبير من الخلافة كالّتى ... عجل النّتاج بحَمْلها فأحالها
أو كالضِّعاف من الحُمُولة حُمّلَتْ ... ما لا تطيق فضَيَّعَتْ أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمو ... كم للغُواة أطلتمو إمْهالها
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمو ... ما زلتمو أركانها وثِمالَها(٣)
أمْسَوْا على الخيرات قُفْلاً مُغْلَقاً ... فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

ومن قول عمران بن حطان فى مدح بن ملجم قاتل علىّ ، وكان عمران مغاليًا فى التعصب على علىّ .

---

(١) اعترف الشيء كعرفه : أقرّ به وأثبته علماً .
(٢) متلوما : مترددا .
(٣) الثمال : الذى يقوم بأمر قومه .

لِلّهِ دَرُّ المُرَادِىِّ الذى سـفكت كَفَّاه مُهْجَةَ شَرِّ الْخَلْقِ إِنْسَانَا(١)
أَمْسَى عَشِـيَّةَ غَشَّاهُ بِضَرْبَتِهِ مِمّا جَنَاهُ مِنَ الآثامِ عُـرْيَانَا
يَا ضَرْبَةً مِنْ كَرِيمٍ ما أَرَادَ بِهَا إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّى لأُفَكِّرُ فيـه ثم أَحسِبُه أَوفى البرِيّةِ عنـد الله مِيزانا

ومن قول الـكُمَيْتِ بن زيد يعيب على بنى أميـة جورهم ، ويدعو الله أن تدول الدولة للهاشميين .

فقُلْ لبنى أُميةَ حيث حَلُّوا وإِنْ خِفْتَ المُهَنَّدَ والقَطِيعا(٢)
أجاع اللهُ من أشـبعتموه وأشبعَ من بجَوْرِكُمُ أُجيعا
بِمَرْضِىِّ السياسـة هاشمىٍّ يكون حَيًا لأُمَّتِـه ربيعا

ولم ينته الهجاء إلى هذا الحدّ ، بل لقد تعدّاه إلى تهاجي الشعراء فيما بينهم، لاينزعون فى ذلك إلى مذهب سياسى لـكنهم كانوا يحيون بهذا التهاجي داعى العصبية التى أحيتها الدولة ، ويلتمسون الشهرة بالقول ، ويتحاسدون على ماصار لبعضهم من فضل ، وربما فعلوا ذلك ليسمر أمير أو خليفة بحديثهم ، فيكون على ذكر لهم ، وربما تهاجوا أودعاهم إلى التهاجى ما يأتيه أمير أو خليفة من التحريش بينهم كما فعل بشر بن مروان ، فإنه قال للأخطل : احكم بين جرير والفرزدق ، وألحّ عليه فى ذلك ، فلما حكم بقوله : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر لم يعجب حكمه جريرًا فهجاه ، فردّ عليه الأخطل ، وامتدّ بينهما التهاجى .

وأمر التهاجى بين جرير والفرزدق ، وبين جرير والأخطل مشهور ألفت فيه كتب خاصة .

---

(١) مر شرح هذا البيت والأبيات بعده فى باب عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب .
(٢) مر شرح هذه الأبيات فى باب عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب .

عمر بن أبي ربيعة

[نسبه] : هو عمر ، ويكنى أبا الخطاب ، وأبوه عبد الله بن أبى ربيعة ، وهو حذيفة بن المغيرة ، وينتهى إلى مخزوم ، ثم إلى مرّة بن كعب ، ثم إلى فهر ، فهو قرشىّ يجتمع مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى مرّة بن كعب . وعبد الله أبوه كان من أشراف قريش وأثريائهم ، وكان يتجر إلى اليمن ، وقد بلغ من غناه أن كانت قريش تكسو الكعبة من مالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، وقد استعمله رسول الله على الجَنَد ومخاليفها باليمن ، وكان اسمه فى الجاهلية بُحَيْرى ، فسماه رسول الله «عبدالله» .

أما أمه فهى مجد من أهل اليمن ، ولعلّ رحلة أبيه إلى تلك الأصقاع فى متاجره وولايته جعلته يتزوّج أم عمر من هناك .

وقد ولد عمر ليلة قتل ابن الخطاب رضى الله عنـه لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ . ولعلّ هذا هو السبب فى تكنيته بأبى الخطاب ، وكان إذا جرى ذكره فيما بعد بين أهل التقوى قالوا فى حديث ولادته : « أىّ حقّ رفع وأىّ باطل وضع » .

نشأة عمر

نشأ عمر يتقلب فى ثراء أبيه وغناه الواسع الذى علمت بعض شأنه ، فكان عمر فتى قرشيًّا مترفًا يلبس البرود اليمانية ، ويمتطى العتاق الفره ، قد حليت بالذهب والفضة، ويسير فى كوكبة من عبيده وأتباعه ، وكان فتى جميلا يرجل لمته ، ويتعطر ولا عمل له إلا إمتاع نفسه بتلك الثروة الواسعة فى بيئة ملئت بالترف ، وجمعت أسباب اللهو ، من جمال ، وغناء ، وغزل ، وفكاهة ، تلك هى الحجاز ، وماضم من المدينة ومكة والطائف.

نشأ عمر وحوله كلُّ أسباب النبوغ فى الشعر ، وبخاصة هذا النوع الذى اختصَّ به وهو الغزل . فالغنى وفراغ البال ، وأنواع اللهو قد اجتمعت إلى طبع غزل وظرف معم مخول . فإن أبوّته من الحجاز ، وأمومته من اليمن ، وهما مشهورتان بصفاء الطبع ، وحلاوة الشمائل ، ورقة العاطفة ، وخفة الرّوح . هــذا إلى ملكة الفصاحة نمتها فيه قرشيته ، ونشأته بمواطن البيان ، ومجالى البلاغة.

أما اختصاصه بذلك النوع من الغزل لا يقول فى غيره ولا يعدل عن سبيله ، فإنما كانت دواعيه إليه غناه عن التكسب بالمدح والزلفى إلى الرؤساء ، فلم يكن يقول الشعر لرهبة أو رغبة ، وإنما جعله وسيلة من وسائل نعيمه ، وسبباً من أسباب ترفه ، بل لقد كانت لذته الروحية مقرونة إلى لذائذه الحسية من مطعم وملبس ومركب ، فهو لم يذل عنقه مطمع يحرص عليه ، وإنما خضع للجمال ، واستأسر لمظاهره ، وقضى حياته واقفاً على منظر من مناظره ، أو محدثا عما وقع منه فى نفسه . وعندنا أنه لم يكن يتكلف القول ليعد فى الشعراء ، ولـكنه كان يسجل فى قوله حوادث جرت له وتاريخاً مر به فلا يتركه من غير أن يقيده فى ذلك الشعر الذى يجعله صورة لحياته ، فهو فى ذلك بمثابة المترفين الذين نعرفهم بيننا يخرجون للصيد أو السياحة فى البلاد ، ثم يحتفظون من هذه الحوادث بصور شمسية أو مذكرات يكتبونها ليكون فى النظر إليها استعادة لهذه الذكريات الجميلة . فأبو الخطاب لم يتحدث إلى الناس وإنما تحدث إلى نفسه بهذا الشعر ، ولم يكن همه أن يقال له أحسنت أو استحققت جائزة . ودليل ذلك أنه لم يكن له مع الشعراء حديث طويل ، ولا له بهم اجتماع فى سوق أو عند أمير . إنما كان مجلسه فى المعجبين بشعره من المغنين ، أو الفتيان الناشــئين على نهجه فى الغرام بالجمال والتحدّث عنه .

نوع الغزل فى شعره

عرفت من سابق كلامنا عن الغزل فى الشعر الأموى أنه انقسم فى هذا العصر إلى أقسام : العذرى والإباحى والصناعى ، وإنما يهمنا فى هذا المقام الموازنة بين النوعين الأولين . أما الغزل العذرى فقد كان شأن الأعراب فى مطارح بداوتهم ، يعشق الرجل منهم امرأة بعينها ، فتملك عليه نواحى نفسه بل قد يضلّ سعيه ، ولايستطيع أن يكتم حبها ، وهو يعلم أن فى إشاعته وإذاعته حرمان الأبد منها ، ولكنه يضطرّ إلى ذلك اضطراراً ، فيحال بينه وبين مايشتهى من الزواج بمحبوبته ، ويظلّ حياته شاكياً باكياً يخاطب الظباء وبقر الوحش لما يرى فيها من مشابه فى محبوبته ، ويستهدى الرياح سلامها ، ثم لايكون من عاقبة أمره إلا أن يموت كمداً وقد ملأ الدنيا شعراً . وترى سمة هذا الشعر حرارة الوجدان ، وطهارة اللسان . واللهفة على اللقاء ، وحذر الرقباء . ليس فيه إفحاش فى وصف ، ولا ذكر لخلوة ، ولاحيلة فى الوصول ، ولامقارفة لفاحشة فى لقاء . ومن مظاهره أيضا ، أن المرأة فى هذا الشعر صامتة يقال لها ولاتقول ، وتناجى ولاتنعم بجواب .

وأما الغزل الإباحى فهو الذى يستبيح فيه الشاعر مالم يستبحه صاحب العذرى ، ومظهره أنه إلى اللهو أقرب منه إلى الغزل ، فإن الموصوفة فيه غير واحدة بل كلّ برزة المحاسن ، فهى عروس من عرائس هذا الشعر يصف منها الشاعر ظاهرها وخفىّ أمرها ، ويذكر الخلوة بها والتحدّث إليها ، وما كان بينهما من دعابة وتجميش ، بل لقد يبرز فيه الشاعر محبوبته محبة ، ومعشوقته عاشقة ، فهى ترسل إليه وتستزيره وتحتال لمصيره إليها ، وذلك فى دين العشق القديم غير جائز ولامستساغ .

وعمر بن أبى ربيعة هو صاحب هذا المذهب : أكثر من معشوقاته ووصفهن جميعاً فى شعره وذكر ماجرى منه ومنهن ، ولم يكن العرب يعرفون الغزل بهذه المثابة قبله ، فحملوه لواء هذا النوع ، وجعلوه زعيم كلّ من اتبع سبيله من الشعراء .

وفرق مابين هذا النوع وسابقه أن حرارة الوجدان فى الأول محسة ملموسة، وأن رنة الأسى فيه قوية الجرس شديدة الحنين وأنه إذ كان موطنه البداوة ظهرت فيه سماتها من سذاجة وقناعة .

فاسمع سذاجة جَنادة العُذْرىّ حيث يقول :

مِنْ حُبِّها أَتَمَنَّى أَنْ يُلَاقِيَنِى مِنْ نَحْوِ بَلْدَتِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا
كَيْمَا أقولَ فراقٌ لالِقَاءَ لَهُ وتُضْمِرَ النفسُ يأساً ثم تسلاها

ثم اسمع قناعة جميل حين يقول :

وإنّى لأَرْضَى مِنْ بُثَيْنَةَ بالذى لَوَ اَبْصَرَهُ الواشى لقرّتْ بَلَابِلُهْ
بِلاَ ، وبألاَّ أستطيعَ وبالمُنَى وبالأملِ المَرْجُوِّ قد خاب آملُهْ
وبالنَّظْرةِ العَجْلَى وبالحول تَنقَضِى أواخرُه لا نَلْتَقِى وأوائِلُهْ

أما الثانى فقد اجتمعت فيه ألوان الحياة المدنية من وصف للجمال لاحياء فيه ولاتحرّج ، ومن حيل لا تهتدى إليها إلا ألمعية الحضريين ، ومن حديث مبناه الدعابة والظرف ، ولا يدلّ هذا النوع على أن قائله قد شغف فؤاده الحبّ وتامه الغرام ، وإنما أكبر دلالاته أن صاحبه طروب ميّال للّهو ، مُطاوع لرغبات النفس ، يقول الشعر متفكهاً لا متولهاً ، ويجلس إلى الغانيات لا يرجو شفاء لداء الحبّ ، أو بَرْداً لحرارة القلب ، ولكنه يزجى الوقت بحديثهنّ ، وإشباع العين من محاسنهنّ ، فهو ينتقل من مجلس الرباب إلى مجلس زينب ، ويخرج من عند عائشة إلى الثريا ، وربما اجتمع بكثير منهن فى مجلس واحد .

هكذا كان عمر بن أبى ربيعة ، فقد كانت صواحباته اللاتى ذكرهن فى شعره هن : الثُّرَيَّا بنت على ، وعائشة بنت طَلْحة ، وسُكَيْنة بنت الحسين ، وزينب ، ونُعْم ، وفاطمة بنت عبد الملك ، ورَمْلَة ، ولُبابَة ، والرَّبَاب ، وأَسْماء .

توبة عمر

ذكروا أن عمر تاب على حدود الأربعين ، ونذر لئن قال بيتاً ليعتقن به رقبة ، ثم انصرف إلى بيته حزيناً ، وأدركت جارية له مايجول بنفسه من أسف على تلك التوبة ، ومنازعة إلى العودة إلى ما كان فيه ، فقالت له : إن لك لأمراً ، وإنك لتريد أن تقول شعراً ، فاندفع يقول :

تَقُولُ وَلِيدَتِي لَمَّا رَأَتْنِي ... طَرِبْتَ وَكُنْتَ قَدْ أَقْصَرْتَ حِينا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قد أَحْدَثْتَ شَوْقًا ... وهاجَ لكَ الهوى داءٌ دَفِينَا
وكُنْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ ذو عَزاءٍ ... إذا ما شئتَ فارقتَ الْقَرِينَا
بِرَبِّكَ هل أَتاكَ لَهَا رَسُولٌ ... فشاقكَ أَمْ بعثتَ لها خَدِينَا(١)
فقلت شَكَا إِلَيَّ أَخٌ محبٌّ ... كَبَعْضِ زَمانِنَا إِذْ تَعْلَمِينا
فقصَّ عليَّ ما يَلْقَى بهندٍ ... فوافق بعض ما قد تعرفينا
وَذُو القَلْبِ المُصَابِ وَإِنْ تعزى ... مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى العاشقينا
وكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَعْرَضْتُ عنها ... مِنَ أَجْلِكُمُ وَكُنْتُ بها ضَنِينا(٢)
أَرَدْتُ فِرَاقَهَا وَصَبَرْتُ عَنْهَا ... وَلَوْ جُنَّ الفُؤَادُ بِها جُنُونَا

قالوا : ثم دعا بتسعة من عبيده فأعتقهم .

وقيل فى سبب التوبة : إنَّ أخاه الحرث بن عبد الله لما رأى ما كان منه من استهتار وخروج عما يليق بشرفه ومكانته سيره إلى اليمن ورشاه بألف دينار على ترك الشعر ، فلم يستطع الصبر وقال الشعر من اليمن ، فوصل مع الريح إلى الحجاز .

---

(١) الخدين : الصديق الذى يخادنك فيكون منك فى كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خدن الجارية (محدثها) وكان العرب فى الجاهلية لايمتنعون أن يكون للجارية خدين يحدثها فمنع الإسلام ذلك قال الله تعالى « ولا متخذى أخدان » .

(٢) الخلة بالضم : الخليلة .

تذكر الثريا يوما وهو نازح الدار ، فقال :

هيهاتَ مِنْ أمَةِ الوهاب منزلُنا إذا حلَلْنَا بسِيفِ البَحْرِ من عدَنِ (١)
واحتلَّ أهْلُكِ أجيادا فليس لنا إلا التذكُّرُ أو حَظٌّ من الحَزَنِ (٢)
لا داركم دارُنا ياوهب إنْ نزَحَتْ نَوَاكِ عنَّا ولا أوطانُكم وَطَنِي
فلستُ أمْلِكُ إلاَّ أنْ أقولَ إذا ذَكَرْتُ لايُبْعِدَنْكِ اللهُ ياسَكَنِي
ياوَهْبُ إنْ يكُ قَدْ شَطَّ البِعادُ بكُمْ وَفَرَّقَ الشَّمْلَ منَّا صَرْفُ ذَا الزَّمَنِ
فكَمْ وكَمْ من دَلَالٍ قد شُغِفْتُ به منكم متى يَرَهُ ذُو العقل يَفْتَتِنِ
بَلْ مَا نَسِيتُ ببطنِ الخَيْفِ موقفَهَا وموقفى وَكِلانَا ثَمَّ ذو شَجَن
وقولها للثريا يومَ ذى خُشُبٍ والدمع منها على الخدّين ذو سُنَنِ
بالله قولى له فى غير مَعْتَبَةٍ ماذا أردتَ بطول المُكْثِ فى يمن
إنْ كنتَ حاولْتَ دُنْيَا أو نعِمْتَ بها فما أخذتَ بترك الحج من ثَمَنِ

وقيل : إنّه إنما تاب فى أيام خلافة عمر بن عبد العزيز حين كتب إلى عامله على المدينة : ان أحمل إلىّ عمر بن أبى ربيعة والأحوص ، فقد عرفتهما بالخُبْث ، فلما صارا عنده قال لعمر : هِيه :

فلم أرَ كالتَّجْمِيرِ مَنْظَرَ ناظرٍ ولا كَلَيالِى الحج أفْلَتْن ذا هوى
وكَمْ مالئٍ عينيه من شىء غيره إذا راحَ نحوَ الجمْرَةِ البيضُ كالدُّمَى

فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يفلتون ؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجّك لم تنظر إلى شىء غيرك ، ثم أمر بنفيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أوَ خَيْرٌ من ذلك ؟ قال : وماهو ؟ قال : أعاهد الله ألا أعود إلى مثل هذا الشعر ، وأجدد توبةً على يديك . قال : أو تفعل ؟ قال : نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه .

---

(١) سيف البحر : ساحله .
(٢) أجياد : موضع بمكة ، وسمى كذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله به فسمى بذلك .

ولقد يكون من المعقول أن عمر تاب بوحي ضميره لم يدفعه إلى ذلك إغراء أخيه بالمال ، ولا تخويف الخليفة بالنفي ، ولكنها السنّ وطول العهد يحملان على الملل ، فجدير بعمر وقد رأى شبابه يتصوّح ، وصباه تتعرى أفراسه ورواحله ، والغواني يزورّ عنه جانبهنّ ، جدير به لكلّ هذا أن ينصرف عن اللهو وأن يتوب ، ثم كذلك غير مستغرب من أمره أن تهيج له الذكرى بعض ما كان فيه فيعود إلى شيء من غزله ولكن حدّته تكون قد فترت وجلال السن يربأ به عن ذكر ما كان يحله له الشباب وشَرْخه من فتك فى العشق وفحش فى الغرام ، فترك دعوى التوسد ، ونزع المجاسد ، وفك الإزار ، وحل المعاقد ، ورشف الثغور ، وضم الخصور ، وذكر الغافلات ، ورمى المحصنات ، فأصبح يقول :

إنّى امرؤٌ مُولَعٌ بالحسن أتبعه ... لاحَظَّ لِى فيه إلا لذةُ النَّظَرِ

ويقول :

ربّ يوم لَهَوْتُهُ ... بجوار ربائب[1]

ليس فيه مُحَرَّمٌ ... وإله المغارب

غير أنا نشفى الصدو ... ر بذَرْوِ التَعاتُب[2]

بعد أن كان يقول :

ثم قالتْ وسامحتْ بعد منع ... وأرَتْنى كَفًّا تَزِينُ السّوارا

فتناولتها فمالتْ كغُصْنٍ ... حرّكَتْه الريحُ عليه فمارا

وأذاقتْ بعد العلاجِ لذيذاً ... كجَنَى النَّحْلِ شاب صِرْفًا عُقارا

ثم كانت دون اللحاف لمَشْغُو ... فٍ مُعَنًّى بها صبوبٍ شعارا

واشتكت شدة الإزار من البُهْـ ... ـر وألقت عنها لدىّ الخمارا

---

(١) ربائب : جمع ربيبة وهى المعاهدة بالتربية .

(٢) الذرو من القول : الطرف منه ، وأخذ فى ذرو الحديث : إذا عرض ولم يصرح .

حبـــذا رَجْعُها إليها يديها ... فى يَدَىْ دِرْعِها تَحُلُّ الإزارا

ويقول :

فتأهبتُ لها فى خِفْيَــةٍ ... حين مال الليل واجْتَنَّ القَمَرْ
فأذاقتـــنى لذيذا خِلْتُــهُ ... ذَوْبَ نَحْلٍ شيب بالماء الخَصِرْ (١)
ومُـــدَامٍ عُتِّقَتْ فى بابلٍ ... مِثْلَ عَيْنِ الديكِ أو خَمْرِ جَدَرْ (٢)
فتقضّتْ ليلتى فى نعمـــة ... مرة أَلْثِمُها غـــير خَفِر
وأفرّى مِرْطها عن مُخْطَفٍ ... ضامر الأحشاء نعم المؤتزرْ
فلهونا ليلنـــا حـــتى إذا ... طرب الديك وهاج المُدَّكِرْ
حرّكتنى ثم قالت جزعًا ... ودموع العين منها تَبْتَدِر
قم صَفِيَّ النفسِ لاتفضحْنى ... قد بدا الصبح وذا بَرْدُ السَّحَر

خصائص شعر عمر

أظهر ما فى هذا الشعر من الخصائص ذلك القصص الذى يطول فيه نفس عمر بما لم يسبق إليه شاعر من العرب : فيذكر لك الحيلة فى اللقاء ، ثم ماجرى من عناق وحديث وماتلطف به للخلاص من الرقباء ، كما يحكى لك مراسلته للحبيبة ، ومازوّد به الرسول من قول وحذر وما رجع به الرسول من تحية الحبيبة وترحيبها ، وما كان بين الغوانى من نقاش فى أمره ، وحديث عن زيارته ، فهو بذلك خالق لهذا النوع من القصص الذى يدعى بعض علماء الأدب ظلما خلوّ الشعر العربى منه ، فهاهو ذاشعر ابن أبى ربيعة يقيم الدليل على أن العرب لم يعيهم هذا النوع .

---

(١) الخصر : البارد .
(٢) المدام : الخمر كالمدامة ، وسميت كذلك لطول دوامها فى الدن . جدر : بلدة بين حمص وسلمية .

فاستمع لقول عمر ، ولعله جمع لك كل مايكون من لقاء ، ومايجرى فى اللقاء من حديث الحب ومايعرض فيه من وصف الجمال ، ثم مايكون من الهموم بالرحيل ووصف الوداع ، وذكر الحيلة فى الخلاص ، واستشارة المرأة لمن يكتمن سرّها من أخواتها حتى لايفتضح أمرها ، فذلك حيث يقول عمر :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ مصابيحُ شُبَّتْ بالعشاء وأنْوُرُ(١)
وغاب قُمَيْرٌ كنتُ أرجو غُيوبَه ورَوَّحَ رُعْيانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ(٢)
وَنَفَّضْتُ عنى النومَ أقبلتُ مِشْيَةَ الـ حُبابِ ورُكْنِى خِيفةَ القوم أزْوَرُ(٣)
فحَيَّيْتُ إذ لاقيتُها فتولَّهَتْ وكادت بمكنون التحيةِ تجهَرُ
وقالتْ وعضَّتْ بالبنانِ فضحْتَنى وأنتَ امرؤٌ ميسورُ أمرِكَ أعسرُ
أرَيْتَكَ إذْ هُنَّا عليكَ ألمْ تخَفْ رَقيباً وحَوْلِى من عدوِّكَ حُضَّرُ(٤)
فواللهِ ماأدْرِى أتعجيلُ حاجةٍ سَرَتْ بك أم قدْنامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ
فقلتُ لها بل قادَنِى الشوقُ والهوى إليكِ وما عينٌ من الناسِ تنظُرُ
فيالكَ من ليلٍ تقاصَرَ طولُه وما كان لَيْلِى قبلَ ذلكَ يَقْصُرُ
ويالَكَ من مَلْهًى هناك ومجلسٍ لنا لم يُكدِّرْهُ علينا مُكدِّرُ
يَمُجُّ ذَكِىَّ المِسْكِ منها مُفَلَّجٌ رقيقُ الحَواشِى ذوغُرُوبٍ مُؤَشَّرُ(٥)
يَرِفُّ إذا تَفْتَرُّ عنه كأنَّه حَصَى بَرَدٍ أو أُقْحُوانٌ مُنوِّرُ(٦)

---

(١) أنؤر : جمع نار ، ويقال أنور بالواو أيضاً .
(٢) روّح رعيان : أى روحوا إبلهم . رعيان : جمع راع كركبان جمع راكب . وسمر : جمع سامر .
(٣) فى رواية العين بدل النوم، والمعنى احترست من العين (الرقيب) . والنفضة : القوم يتقدمون الجيش يفتشون له الطريق .
(٤) أريتك : أصلها أرأيتك، ومعناها أخبرنى . هنا . من هان بمعنى حقر .
(٥) المفلج : الفم الذى بين أسنانه فروج . الغروب : جمع غرب وهو الحد، وتحديد الأسنان (دقة أطرافها) جمال فيها. يقال أشرت الأسنان إذا صار فيها حزوز، والواحد منها أشرة، والجمع أشر.
(٦) يرف : يتلألأ . البرد : قطع الثلج تسقط من السماء عند اشتداد البرد ، تشبه بها الأسنان فى البياض .

وتَرْنو بِعَيْنَيْهَا إلىّ كما رنا ... إلى رَبْرَبٍ وَسْطَ الخميلة جُؤذَرُ (١)

فلما تَقضّى الليـــلُ إلا أقلّهُ ... وكادتْ تَوالى نَجْمِـــهِ تَتَغوَّرُ

أشارَتْ بأنّ الحىّ قد حان منهمُ ... هُبُوبٌ ولـكنْ مَوْعدٌ لك عَزْوَرُ (٢)

فما راعنى إلاّ مُنادٍ برِحْــلةٍ ... وقد لاح مَفْتُوقٌ من الصبح أشْقَرُ

فلما رأتْ مَنْ قَدْ تَنوّرَ منهمُ ... وأيقاظَهُمْ قالتْ أشِرْ كيف تأمُرُ

فقلت أُبادِيهِــمْ فإمَّا أفُوتُهُمْ ... وإمّا ينالُ السيفُ ثأرًا فيثأرُ (٣)

فقالت أتحقيقاً لما قال كاشِحٌ ... علينا وتصديقاً لما كان يُؤْثَرُ (٤)

فإنْ كان ما لا بُدّ منــه فغيرُه ... من الأمرِ أدْنى للخفاء وأستَرُ

أقُصُّ على أُخْتىّ بَدْءَ حــديثِنا ... ومالِىَ مِنْ أنْ تَعلَما مُتأخَّــرُ

لعلّهما أنْ تبغِيا لكَ مخرجًا ... وأنْ تَرْحُبا سِرْبًا بما كنتُ أحْصَرُ (٥)

فقامتْ كئيباً ليس فى وجهها دمٌ ... من الحُزْن تذْرى عَبْرَةً تتحدَّرُ

فقالت لأُختيها أعينا عَلَى فَــتًى ... أتى زائرًا والأمرُ للأمرِ يُقْدَرُ

فأقبلتــــا فارتاعتا ثم قالتَا ... أقِلّى عليك اللَّومَ فالخطبُ أيسرُ

يقومُ فيمشى بيننا متنكّرًا ... فلا سِرُّنا يفشو ولا هو يَظْهرُ

فكانَ مِجَنّى دُونَ من كُنْتُ أتّقى ... ثلاثُ شُخُوصٍ كاعبانِ ومُعْصِرُ (٦)

فلمّا أجزْنا ساحةَ الحىّ قُلْنَ لى ... ألَمْ تَتّقِ الأعْداءَ والليلُ مُقْمِرُ

---

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش . الجؤذر بضم الذال وفتحها : ولد البقرة الوحشية .

(٢) عزور : موضع بمكة .

(٣) أبا ديهم : أظهر عليهم .

(٤) يؤثر : يحكى .

(٥) السرب ، بالفتح : الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر (كفرح) : ضاق ذرعا .

(٦) المجن : الترس ، والمراد هنا مطلق الوقاية فى ثلاث شخوص ، أنث العدد على المعنى لكلمة شخص لأن المراد به هنا المرأة . المعصر : المرأة راهقت العشرين .

وقُلنَ أهذا دأبُكَ الدَّهرَ سادِرًا ... أما تستحِي أوْ ترْعوِى أو تفكَّر(١)

كذلك من خصائصه فى شعره تهوين أمر الحبّ وتسهيله على الناس ، وجعله سنة الطبيعة منذ خلق الناس ، فهو يقول لمحبوبته :

وقولى لِنِسْوانٍ لَحَيْنَكِ فى الهوى ... إذا عَقْلُ إحداهنّ عن وَصْلِنا عَزَبْ

أجئنا الذى لم يأتِهِ الناسُ قَبْلَنا ... فقبلى من النِّسْوانِ والناسِ مَنْ أحبّْ

☸

فَإِنْ نحنُ جئنا سُنَّةً لم تَكُنْ مَضتْ ... فنحنُ إذاً مما يقولون أخْرَقُ

وَإِنْ كان أمرًا سَنَّهُ الناسُ قَبْلَنا ... ففيم مقالُ الناسِ فينا تفرَّقُوا ؟

أَحَقٌّ بأن لم تَهْوَ غانيةٌ فتًى ... وأنّ أناساً لم يُحِبُّوا ويَعْشَقُوا

فمن ذا الذى إن جئتُ ما أمروا به ... يَبِيتُ بِهمٍّ آخرَ الليلِ يأرَقُ(٢)

وقد أورد الأغانى : أن مُصْعَبَ بن عبد الله بن الزُّبَيْر عدد من خصائص شعر عمر نيفاً وخمسين ميزة ، ولكننا نعدّ أكثرها معنى اخترعه أو لفظاً وفق إليه أو أسلوباً تلطف فيه ، وليست جميعها من الجسامة بحيث تكون أصولا ثابتة ، ومزايا شاخصة .

ومما قاله مصعب فيه :

« راق عمر بن أبى ربيعة وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدّة الأسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب ، وعطف المساءة على العذال ، وقد قاس الهوى وأعلنه وأسره ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، واستبكى عاذله ، ونفض النوم ، وأغلق رهن منى » .

وأنت ترى أن بعض هذه المزايا يشاركه فيها غيره كسهولة الشعر وشدّة الأسر ،

---

(١) السادر : الذى لايهتم ولا يبالى ما يصنع .

(٢) أى إذا فعلنا ما أمروا به من عدم اللقاء فنحن الذين سنشقى بالأرق والحزن .

وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، واستنطاق الربع . و بعضها ليست إلا سبقاً إلى معنى أو اهتداء إلى أسلوب .

فأما السبق إلى المعنى ، فقوله فى عطف المساءة على العُذَّال :

لا تَلُمْنِي عَتِيقُ حسبى الذى بى   إنَّ بِى يا عَتِيقُ ما قد كَفَانى
لا تَلُمْنِي وأنتَ زَيَّنْتَها لى   أنتَ مِثْلُ الشيطانِ للإنسانِ

كذلك قياسه الهوى فى قوله :

وقرَّبْنَ أسبابَ الهوى لِمُتَيَّمٍ   يقيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قِسْنَ إصْبَعَا

وأما ماسبق إليه من لفظ ، فاستعماله تنفيض النوم فى قوله :

ونَفَّضْتُ عنى النوم أقبلت مشية الـ   حُبابِ ورُكْنى خشية القوم أزْوَرُ

وأما ادعاء ابن الزُّبير سَبْقَه الشعراء فى إغلاق الرهن فى قوله :

وكَمْ مِنْ قتيلٍ لا يُبَاءُ به دَمٌ   ومِنْ غَلِقٍ رَهْنًا إذا لَفَّهُ مِنًى[1]

فقد سبقه امرؤ القيس فى قوله :

غَلِقْنَ بِرَهْنٍ من حبيبٍ به ادَّعَتْ   سُلَيْمَى فأمْسَى حبلها قد تَبَتَّرَا

ولا يفوتنا أن نذكر أن عمر بن أبى ربيعة تلمذ فى موضوع شعره ، وهو الغزل لامرئ القيس ، فأخذ معانيه ، ولكنه زاد فيها كثيراً وحلاها بصبغ المدنية وزبرج الحضارة ، وله فيها حيلة الشياطين ، ورق المُشَعْوَذين[2] فى حين أن امرأ القيس بدوىّ لايرى غير مشرفيه مخلصاً من كلّ ورطة . وفى الرائية التى مرّت بك كثير من المعانى تأثر فيها عمر أستاذه امرأ القيس فى لاميته التى أوّلها :

ألا عم صباحًا أيها الطلل البالى   وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُر الخالى

فعمر يقول :

---

(١) يقال أبأت فلانا بفلان إذا قتلته به . ويقال غلق الرهن فى يد المرتهن : إذا مضى وقت استرداده فاستحقه المرتهن . منى : أحد مناسك الحج . ولفه : أى جمعه فيمن جمعهم .

(٢) الشعوذة : خفة فى اليد وأخذ كالسحر . والمشعوذ بصيغة الفاعل والمفعول : هو الذى يكون منه ذلك .

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـــحُباب ورُكْنِى خيفة القوم أزور

وأمرؤ القيس يقول :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حَبَاب الماء حالا على حال

ولا شكّ عندنا أن امرأ القيس لا يدانى فى بيته هذا ، فإنه معدود من أوابده .

فإن مشية الحباب فى قول عمر وإن دلت على التسلل والحذر ليس فيها ما فى سموّ حباب الماء وصعود فواقعه ، وذلك شيء يرى ولا حس له ، وهو فى السرعة والانتهاء إلى الغرض لا يقوم مقامه تعبير آخر ، وقد زاده قوله حالا على حال جمالا لا يعدله جمال لذلك كان قول امرئ القيس بحقّ أشرف تعبيرا ، وأدقّ تصويرًا .

ويقول امرؤ القيس :

فلما تنازعْنا الحديثَ وأسمحتْ هَصَرْتُ بغصن ذى شماريخ ميَّال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورُضْتُ فذلّتْ صعبةً أىَّ إذلال

ويقول عمر :

ثم قالت وسامحتْ بعـــد منعٍ وأرتنى كَفًّا تزين السِّـــوارا

إلى آخر الأبيات السابقة فى أول الترجمة ، وامتياز عمر ظاهر فى تفصيله القول ، وحكاية الحال ، وإباحته المطلقة فحين يقول امرؤ القيس : * «فذلت صعبة أىّ إذلال» *

يقول عمر : * «أرتنى كفا تزين السوارا» *

فجعلها هى البادئة بالغزل ثم يقول : * «فتناولتها فمالت كغصن» *

فيصوّر الحركة تصويرا واضحاً ، ثم يفحش ويكشف ما ستر امرؤ القيس فى قوله : * «ذلت أىّ إذلال» * ، فيقول : * «ثم كانت دون اللحاف ..» *

ففى قول امرئ القيس تمثل ضيق خيال البدوى وشدّة إيجازه للقول وتجافيه عن الإفحاش إلى حدٍّ ما ، وعلى خلاف ذلك قول عمر ، ففيه الخيال الواسع والإطناب الوافى والإفحاش الذى لا حجاب دونه ، ولا تورع معه .

ويقول امرؤ القيس :

فيالك من ليل كأن نجومه   بكلّ مُغارِ الفتل شدّت بيَذْبلِ

ويقول عمر :

فيالك من ليل تقاصر طوله   وما كان ليلى قبل ذلك يقصُرُ

وبيت أُمرىءِ القيس فى موضوعه لا يضارعه بل لا يكاد يدنو منه بيت عمر فالقوة ظاهرة فيه، والتشبيه محكم، وبيت عمر خال من كلّ ذلك .

ويقول عمر :

وقالتْ وعَضَّتْ بالبنَانِ فَضَحْتني   وأنت امرؤ ميسور أمْرِكَ أعْسَرُ

أَرَيْتَكَ إذْ هُنَا عَلَيْكَ أَلَمْ تخَفْ   رَقيباً وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ

ويقول امرؤ القيس :

فقالت سَبَاكَ اللهُ إنَّكَ فاضِحِى   أَلَسْتَ تَرى السُّمَّارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي

وفى قول عمر أثر للحضارة ، واتساع معانيها ، والتلاعب بألفاظها .

ويقول عمر :

فكَانَ مِجَنِّى دُونَ مَنْ كُنتُ أَتَّقِي   ثَلاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ ومُعْصِرُ

ويقول امرؤ القيس :

أيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فلجأ عمر إلى الحيلة فى فواتهم ، وهذا فضل حضارته على بداوة امرىءِ القيس .

طرف من أخباره

١ — كان عمر محبًا للثريّا بنت عبد الله بن أمية الأصغر ، وكانت حرية بذلك جمالا وتماما، وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو كلّ غداة من مكة يسأل الركاب

الذين يحملون الفاكهة من الطائف إلى مكة عن الأخبار ، فلقى يوما بعضهم فسأله عن أخبارهم فقال: ما استطرقنا خبَرًا إلا أن امرأة من قريش اسمها نجم فى السماء (ذهب عنى اسمها) قد ماتت ، فقال له عمر الثريا ، قال : نعم ، وكان قد بلغه قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه إلى الطائف يَرْكُضُه مِلْءَ فروجه حتى انتهى إلى الثريّا ، وقد توقعته ، وهى تتشوّف له وتتشوّق ، فوجدها سليمة ، ومعها أختها ، فأخبرها الخبر ، فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأخبر ما عندك ، وفى ذلك يقول عمر :

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرْىَ لَمَّا جَهَدْتُهُ ... وَبَيَّنَ لَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَا
فقلتُ لَهُ إِنْ أَلْقَ للعين قُرَّةً ... فهان علىَّ أَنْ تَكِلَّ وَتَسْأَمَا
عدمتُ إذاً وَفْرِى وفارقتُ مُهْجَتِى ... لئن لم أَقِلْ قَرْناً إن اللهُ سَلَّمَا[1]
لذلك أدنى دون خَيْلِى مكانَه ... وأُوصِى به ألاَّ يُهَانَ ويُكْرَمَا

٢ — قالوا حجّ أبو الأسود الدؤلى ومعه امرأته وكانت جميلة ، فبينما هى تطوف إذ عرض لها عمر ، فأتت أبا الأسود فأخبرته ، فأتاه أبو الأسود فعاتبه ، فقال له عمر : ما فعلت شيئا ، فلما عادت إلى المسجد كلمها ، فأخبرت أبا الأسود ، فأتاه فى المسجد ، وهو جالس مع قوم ، فقال له أبو الأسود :

وَإِنِّى لَيَثْنِينِى عن الجهل والخنا ... وَعَنْ شَتْمِ أَقْوَامٍ خَلاَئِقُ أَرْبَعُ
حياءٌ وإسلامٌ وبُقْيَا وأَنَّنِى ... كريمٌ ومثلى قد يَضُرُّ ويَنْفَعُ[2]
فَشَتَّانَ مَا بَيْنِى وبَيْنَكَ إِنَّنِى ... عَلَى كُلِّ حالٍ أَسْتَقِيمُ وَتَظْلَعُ[3]

فقال عمر : لست أعود لكلامها بعد اليوم ، ثم عاد فكلمها ، فأتت أبا الأسود ، فأخبرته ، فجاء إليه ، وقال :

---

(١) أقل : مضارع قال بمعنى سكن وهدأ وقت القيلولة (الظهر) . قرن : موضع يسمى قرن المنازل يذكره عمر كثيراً فى شعره ، والمعنى على الظرفية : أى أقل فيه .

(٢) البقيا : الاشفاق والرحمة .

(٣) ظلع (كنفع) عرج وغمز فى مشيته .

أَنْتَ الفَتَى وابْنُ الفَتَى وأَخُو الْفَتَى   وسَــيِّدُنا لَوْلَا خَلَائِقُ أَرْبَعُ
نُـكُولٌ عَنِ الجُلَى وقُرْبٌ من الخَنَا   وبخْلٌ عن الجَدْوَى وأَنَّكَ تُبَّعُ(١)

ثم خرجت ومعها أبو الأسود مشتملا على سيف ، فلما رآها عمر أعرض عنها ، فتمثل أبو الأسود :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتَتَّقِي صَـوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الحامى(٢)

٣ — واعد عمر نسوة من قريش إلى العقيق ليتحدث معه ، فخرج إليهنّ ومعه الغريض ، فتحدثوا مليا ، ثم مطروا ، فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة ، فأظلوا عليهنّ بمطرف و بردين له حتى استترن من المطر إلى أن سكن ثم انصرفن ، فقال له الغريض : قل فى هذا شعراً حتى أتغنى فيه ، فقال عمر :

أَلَمْ تَسْـأَلِ المنزلَ المُقْفِرَا   بيانا فَيَكْتُمَ أو يُخْـبِرَا
ذَكَرْتَ به بعضَ ماقد شَجَاكَ   وحُقَّ لذى الشَّجْوِ أَنْ يَذْكُرَا
مَبِيتَ الحبيبين قـد ظاهرا   كِساء وبُرْدَيْنِ أَنْ يُمْطَرَا
ومَمْشَى الثلاثِ به مَوْهِناً   خَـرَجْنَ إلى زائرٍ زُوَّرَا(٣)
إلى مجلس من وراء القِبَا   بِ سَهْلِ الرُّبَا مُنْبِتٍ أَعْفَرَا(٤)
غَفَلْنَ عن الليل حتى بَدَتْ   تَبَاشِيرُ من واضحٍ أسْفَرَا
فقُمْنَ يُعَفِّينَ آثارَنا   بأَكْسِيَةِ الخَزِّ أَنْ تُقْفَرَا(٥)

(١) التبع : من يتبع النساء .
(٢) البيت للنابغة . وقد أدخله الزبرقان فى شعره . قال ابن سلام : سألت يونس عن البيت فقال : هو للنابغة وأظن الزبرقان استزاده فى شعره كالمثل حين جاء فى موضعه ، والعرب تفعل ذلك لايريدون السرقة .
(٣) الموهن : الثلث الأول من الليل ، أو بعد ساعة منه .
(٤) القبة : البناء المسنم . والمراد هنا بيوت الحى لأنها عادة تكون كذلك أو المراد بها الخيام . أعفر وصف المجلس : أى ذى رمل أحمر .
(٥) عفى الذيل الأثر : محاه . قفر الأثر : اقتفاه وتتبعه والتقدير فى قوله أن تقفرا : خوف ذلك

مَهَاتَانِ شَيَّعتَا جُؤذَرًا أسِيلاً مُقلّدُهُ أحْوَرَا
وقُمْنَ وقُلْنَ لو انَّ النها رَ مُدَّ لهُ الليلُ فاستأخرا
قضَيْنَا به بعضَ أشْجَانِنَا وكانَ الحَدِيثُ به أجْدَرَا

٤ — عتبت الثريا على عمر لأنه مدح رملة (وكانت قبيحة جَهْمة الوجه عظيمة الأنف) ، وكان من حديثها أن تزوجها عمر بن عبد الله بن معمر وجمع بينها وبين عائشة بنت طلحة ، فقال يومًا لعائشة : فعلت فى محاربة الخوارج كذا وصنعت كذا فقالت له عائشة : أنا أعلم أنك أشجع الناس ، وأعرف لك يومًا أعظم من هذا اليوم الذى ذكرته ، وهو يوم اجتليت رملة ، وأقدمت على وجهها وأنفها . فلما قال عمر ابن أبى ربيعة فى رملة :

وجلا بردُها وقد حسرَتْه نُورَ بَدْرٍ يُضِىء للناظرينا

قالت الثُّرَيَّا : أفٍّ له ما أكذبه أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رَمْلة ؟ ولكن ابن أبى عتيق توسط ما بين الثريا وعمر حتى عادت إلى الرضا ، وقد قص عمر قصتها هذه فى قوله :

قال لى صاحبى ليعلم مابى أتُحِبُّ القتولَ أخْتَ الرَّبَابِ[١]
قلت وَجْدِى بها كوَجْدِكَ بالعَذْ بِ إذا ما مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرابِ
مَنْ رَسُولِى إلى الثُّرَيَّا فإنِّى ضِقْتُ ذرْعًا بِهَجْرِها والكِتابِ[٢]
أزْهَقَتْ أمُّ نوفل إذْ دعَتْها مُهْجَتِى مالقاتلى من مَتَابِ[٣]
حينَ قالتْ لها أجيبى فقالتْ من دعانى ؟ قالتْ أبو الخطَّاب
فأجابت عند الدعاء كما لَبْـ ـبَى رجال يَرْجُونَ حُسْنَ الثَّواب
أبرزوها مثل المَهاةِ تهادَى بين خمس كواعبٍ أتراب

---

(١) القتول : صيغة مبالغة من القتل . الرباب : جمع ربابة بمعنى السحابة .
(٢) والكتاب : قسم بالقرآن .
(٣) أم نوفل كانت تتلطف لعمر عند الثريا فلما دعتها لصلحه فلم تجبها الثريا كادت تزهق روحه .

وَهى مكنونةٌ تحـــيَّرَ منها   فى أديم الخدَّيْنِ ماء الشباب
دُمْيَةٌ عند راهب ذى اجتهاد   صَوَّرُوها فى جانب المِحْرَاب
ثم قالوا تُحِبُّهَا قُلْتُ بَهْرًا   عَدَدَ النَّجْمِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ (١)
أذْكَرَتْنِي من بَهْجَةِ الشَّمْسِ لَمَّا   طلعتْ من دُجُنَّةٍ وَسَحَاب
فارجَحَنَّتْ من حُسْنِ خَلْقٍ عَمِيمٍ   تتهادى فى مَشْيِهَا كالحُبَاب (٢)
غَصَبَتْنِي مَجَّاجَةُ المِسْـكِ عَقْلِي   فَسَـلُوها مَاذَا أحلَّ اغتصابى (٣)
قَـلَّدوها من القَرَنْفُلِ والدُّرْ   رِ سِخَابًا واهاً له من سِخَابِ (٤)

وفاة عمر

اختلفوا فى موته ، فبعضهم يقول : إنه مات سنة ٩٣ هـ ، فيكون عمره سبعين سنة ، وبعض يقول : إنه عاش ثمانين سنة ، فيكون قد مات سنة ١٠٣ هـ ، ويكون خبر لقائه لعمر بن عبد العزيز صحيحاً لأن عمر بن عبد العزيز لم يتول إلا سنة ٩٩ هـ .

ويروى أنه لما مات اشتدّ الحزن على جارية حبشية بمكة ، وراحت نحو المدينة أشدّ ما تكون حزنا وإعوالا ، وهى تقول من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها ، ووصف نسائها ، وحسن جمالهن بعد عمر ، فقالوا لها : خفضى عليك فقد نشأ من يأخذ مأخذه ، ويسلك مسلكه يعنون العَرْجِىّ ، فقالت : أنشدونى من شعره ، فأنشدوها :

إنّى وما نحروا غَـداةَ مِنًى   عند الجِمَارِ تَؤُودُهُ العُقْلُ (٥)

(١) بهرا : أى بهرنى حبها بهرا أى غلبنى . وقيل إن بهرا معناه تبا لكم على لومكم لى فى حبها فهى كلمة دعاء عليهم .

(٢) ارجحن : مال واهتز . عميم : تام . الحباب : الحية .

(٣) مجاجة : صيغة مبالغة ، من مجّ الشىء بمعنى لفظه من فيه ، يعنى أنها لطيب نكهة فمها كأنما تمج منه مسكا .

(٤) السخاب : القلادة . واها لكذا : كلمة تعجب بمعنى ما أحسنه .

(٥) العقل : جمع عقال ، وهو ماتقيد به الدابة والأصل فى الجمع عقل بضمتين وسكن تخفيفاً للشعر ويصح ضبطها العقل بالفتح (كبحر) والمعنى يثقله الحبس .

لو بُدِّلَتْ أعلى منازِلِها سُفْلاً وأصبح سُفْلُها يعلو
فيكاد يعْرِفُها الخبيرُ بِهَا فَـيَرُدُّه الإقْواء والمَحْل[1]
لعرفتُ مُغْنَاها بِمَا احْتملَتْ منى الضلوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ[2]

فمسحت عينيها وضحكت وقالت: الحمد لله الذى لم يُضيِّعْ حَرَمَه.

جـــرير

[نسبه] : هو جرير بن عَطِيَّة بن الخَطَفَى[3] ، والخَطَفَى هو حُذَيْفَة بن بدر ، وينتهى إلى نزار ، وكنية جرير أبو حَزْرَة . وأمّ جَرِير بنت سعد بن عُمَير ، وينتهى إلى يَرْبوع ، وأم عطية هى النوّار بنت يزيد ، وينتهى إلى كُلَيب .

وجرير من كليب وكليب من يَرْبوع ويربوع من بنى تميم ، وتميم من مضر ، ومضر تنتهى إلى عدنان ، وهذا هو الذى جعله يقول فى مفاخرة الأخطل :

إن الّذى حرمَ المكارِمَ تغلِبا جَعَلَ الخلافةَ والنبوّةَ فينا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهلْ لكم يا خُزْرَ تَغْلب من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمّى فى دِمشق خليفةٌ لو شئتُ ساقكم إلىّ قطينا

[نشأته] : ولد باليمامة[4] سنة ٤٢ هـ فى خلافة عثمان وقيل إنه ولد لسبعة أشهر ، وإن أمه رأت قبل ولادته كأنها ولدت حبلا أسود ، فلما سقط منها جعل ينزو ويقع

---

(١) الاقواء : عفاء الدار . المحل : الجدب .

(٢) المغنى : المنزل الذى غنى بأهله ثم ظعنوا عنه ، أوعام .

(٣) غلب لقب الخطفى على جد جرير لوقوع هذا اللفظ فى شعر له . ومعنى الكلمة السير السريع .

(٤) كان قوم جرير ينزلون بقرية حجر من قرى اليمامة بالجنوب الشرقى من نجد (وهى المسماة الآن بالرياض) .

فى عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعة فأولت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاما شاعراً ذا شرّ وشدّة وشكيمة و بلاء على الناس ، فلما ولدته سمته جريراً ، وهو الحبل ، وجعلت ذلك رمزاً إلى رؤياها .

نشأ باليمامة أعرابيًا بدويًا فقيراً يرعى لأبيه غنيمات له من الضأن والمعزى ، وكان فى أخلاقه حبّ الانتقام والإسراف فى العداوة ، والميل إلى الشرّ مع خوف وجبن من أعوان السلطان ، وكان مع ذلك دينًا كثير الصلاة والاستغفار عفيفاً ، و إن كان دينه لم يمنعه من قذف المحصنات فى سبيل هجاء قومهن .

وما زال جرير بالبادية حتى قال الشعر ، ثم قدم الشام على يزيد بن معاوية ، وهو ولىّ عهد ، ومدحه بقصيدة منها :

وإنّى لعَفُّ الفَقْرِ مُشْتَرَكُ الغِنَى   سَرِيعٌ إذا لم أرْضَ دَارِى انْتِقَالِيَا
جَرِىءُ الْجَنَانِ لاأَهَابُ مِنَ الرَّدَى   إذَا مَاجَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وَلَيْسَ لِسَيْفِى فِى الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ   وَلَلسَّيْفُ أشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا

وحدث أن يزيد كتب بهذه الأبيات إلى أبيه معاوية فى معرض معاتبة ، ولم ينسبها إلى قائلها ، فظنّ أبوه أنها له ، فلما صار يزيد خليفة استأذن عليه جرير ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين يقول : لايصل إلينا شاعر لانعرفه ، ولانسمع بشىء من شعره ، وماسمعنا لك بشىء فنأذن لك على بصيرة ، فقال جرير قل لأمير المؤمنين إنى القائل ، وذكر الأبيات السابقة فعرفه يزيد وأذن له فأنشده ، واستحقّ جائزته وقال له : والله لقد مات أبى ومايظن أبياتك التى توسلت بها إلىّ إلا لى .

ثم كان يقدم البصرة للميرة ، فرأى مايتمتع به الفرزدق ، (وهو تميمى مثله) من عطايا الخلفاء ، فنفس عليه منزلته وودّ لو يغلبه على مكانته ، فاتصل التهاجى بينهما ، ولكن قول الفرزدق كان أشيع لإقامته بالبصرة مجمع العرب وللزوم جرير للبادية وظل جرير يهجو الفرزدق عشر سنين وهو مقيم بالبادية والفرزدق بالحاضرة فكان شعره أشيع .

ثم مازال بنو يربوع قوم جرير يرغبونه فى سكنى المصر حتى يشيع لهم ذكر بما

يجرى على لسان شاعرهم من مفاخرهم والتنويه بمكانتهم ، فقدم جرير البصرة وفيها اتصل بالحجاج ، وشاع شعره فشرق وغرب حتى وصل إلى الخليفة عبد الملك . أقدمه عليه الحجاج مع ابنه محمد ، وصار من شعراء الخليفة ، وكان عطاؤه أربعة آلاف درهم فى العام .

مهاجاته للشعراء

قال الأصمعى : كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفخه فيرمى به ، وثبت له الفرزدق والأخطل ، وكان من هاجى جريراً فغلبه جرير أرجح عند الناس ممن هاجى شاعراً آخر فغلب .

ولقد سأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده وجاء إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها ، وجعل يمص ضرعها ، فصاح به : اخرج ياأبت ، فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال له : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أو تعرفه ؟ قال : لا . قال هذا أبى . أفتدرى لم كان يرضع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه اللبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعراً فغلبهم جميعاً .

وأسباب مهاجاته للشعراء قد وردت فى حديثه مع الحجاج حين قدم عليه من قبل الحكم من أيوب الثقفى ، فإن الحجاج أكرمه وكساه وأنزله بكنفه فأقام أياما ، ثم بعث إليه بعد نومه ، فلما دخل عليه قال له : إيه ياعدو الله ! علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلت فداء الأمير . إنى والله ما أظلمهم ، ولكنهم يظلموننى فأنتصر ، مالى ولابن أم غسان ، ومالى وللبعيث ، ومالى وللفرزدق ، ومالى وللأخطل حتى عدهم واحداً واحداً ؟ فقال الحجاج : ما أدرى مالك ولهم . قال : أخبر الأمير أعزه الله : أما غسان

ابن ذُهَيْل فإنه من قومى هجانى وهجا عشـيرتى ، وكان شاعرًا قال الحجاج : فما قال ؟ قال :

لَعَمْرِى لَئِنْ كَانَتْ بَجِيلَةُ زانها جريرٌ لقد أخزَى كُلَيْباً جَرِيرُها
رَمَيْتَ نِضالاً عن كُلَيْبٍ فقصَّرَتْ مَرامِيكَ حَتَّى عادَ صِفراً جَفِيرُها[1]
ولا يَذْبَحُونَ الشَّاةَ إلا بِمَيْسِرٍ طويلاً تَناجِيها صِغاراً قُدُورُها[2]

قال : فما قلتَ له ؟ قال :

ألا ليت شعرى عن سَلِيطٍ ألم تجد سَلِيطٌ سوى غسَّانَ جارا يُجِيرُها[3]
فقد ضَمَّنوا الأحسابَ صاحبَ سَوْءَةٍ يناجى بها نفسا خَبِيثاً ضميرُها
فما فى سَلِيطٍ فارسٌ ذو حفيظة ومَعْقِلُها يوم الهِياجِ جُعُورُها[4]

قال : ثم من ؟ قال البَعِيث . قال : فمالك وله ؟ قال : اعترض دون ابن أمّ غسّان ليفضله علىّ ويُعِينه . قال : فما قال لك ؟ قال :

كُلَيبٌ لِئامُ الناسِ قد تَعْلَمُونه وأنتَ إذا عُدَّتْ كُلَيْبٌ لئيمها
لَقًى مُقْعَدُ الأحْسابِ مُنْقَطَعٌ به إذا القوم رامو خُطَّةً لا يَرُومها[5]
أترجو كليب أن يَجِيء حَدِيثُها بخَيْرٍ وقد أعيا كُلَيْباً قَدِيمُها

قال : فما قلت له ؟ قال :

ألم تَرَ أنّى قد رَمَيْتُ ابن فَرْتَنَى بصَمَّاء لا يَرْجُو الحياة أَمِيمُها[6]

---

(١) الجفير : جعبة من جلود لاخشب فيها ، أومن خشب لاجلود فيها: المرامى السهام واحدها مرماة. صفرا : حال ، والمعنى أن جعبة سهامه خلت من السهام وهو لم ينل بعد مأربا .

(٢) يقول يشتركون فى الشاة كما يشترك الأيسار فى الجزور . التناجى : التشاور .

(٣) سليط : هم بنوعم جرير وكان غسان بن ذهيل سيدهم .

(٤) المعقل : الملجأ . الهياج بالـكسر : الحرب . جعور : جمع جعر بالفتح، وهو مايبس من العذرة فى المعجر: أى الدبر.

(٥) اللقى : الملقى المهمل .

(٦) الفرتنى : المرأة الفاجرة . الصماء : الداهية الشديدة . الأميم : الذى شجت أم رأسه.

لَهُ أُمُّ سَوْءٍ بِئْسَمَا قَدَّمَتْ له   إذا فَرَطَ الأحسابَ عُدَّ قَدِيمُها (١)

قال : ثم من ؟ قال الفرزدق . قال : فمالك وله ؟ قال : أعان البعيث عليّ . قال : فما قلت له ؟ قال :

تَمَنَّى رجالٌ من تميم لِيَ الرَّدَى   وماذادَ عَنْ أحسابهم ذائدٌ مِثْلِي (٢)
كأنَّهُمُ لا يَعْلَمُونَ مواطِنِي   وقد جَرَّبُوا أَنِّي أنا السابقُ المُجْلِي (٣)
فلو شاء قومى كان حِلْمِىَ فِيهِمُ   وكان على جُهَّالِ أعْدائِهِمُ جَهْلِي
وقد زَعَمُوا أن الفرزدقَ حَيَّةٌ   وما قتل الحيَّاتِ من أحدٍ قَبْلِي

قال : ثم من ؟ قال : الأخطل . قال : مالك وله ؟ قال : رشاه محمد بن عُمَير بن عُطارِدٍ زِقا من خمر ، وكساه حلة على أن يفضل عليّ الفرزدق ويهجونى . قال : فما قال لك ؟ قال :

أُخْسَأْ إليكَ كُلَيبُ إن مُجاشِعاً   وأبا الفوارس نَهْشَلاً أخَوانِ (٤)
وإذا وَرَدْتَ الماء كانَ لِدارِمٍ   جَمَّاتُه وسُهُولَةُ الأعْطانِ (٥)
وإذا قَذَفْتَ أباك فى مِيزانِهِمْ   رَجَحُوا وَشالَ أبوكَ فى المِيزانِ

قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يا ذا العَبَاءَةِ إنّ بِشْراً قد قضى   ألَّا تجوز حكومة النَّشْوان (٦)

---

(١) أى إذا فرط فى أحسابه عدّ الناس لأنفسهم أحسابا قديمة ، ويروى إذا فارط الاحساب أو فرط الاحساب (بالتحريك)والمراد ماضيها .

(٢) رجال من تميم : يريد الفرزدق والبعيث وعمرو بن لجأ وغسان بن ذهيل السايطى والمستنير ابن عمرو وهو البلتع .

(٣) السابق المجلى : هذا السابق الأول ، ويروى المبلى : أى الذى أبلى بلاء حسناً .

(٤) يقال اذهب إليك: أى اشتغل بنفسك ، فقوله هنا: اخسأ إليك أى ابتعد مشتغلابنفسك غير متصل بأحد لحقارتك ، ومجاشع ونهشل من آباء الفرزدق .

(٥) ودارم أبوه الأعلى . جمات الماء : جمع جمة وهو ما تجمع فى البئر منه . ومراده بقوله : جماته أنهم ذو الأولية فى السقاية لعظيم مكانتهم فلا يجرؤ أحد أن يتقدمهم إلى الماء .

(٦) ذو العباءة:هوالأخطل،وكان يلبس العباءة وهى من مسوح النصارى . بشر هو بشر بن مروان

فدَعُوا الحكومةَ لستُمُو من أهلها إنَّ الحكومةَ فى بَنِى شَيْبَانِ(١)

قَتَلُوا كُلَيْبَكُمُ بِلَقْحَةِ جارهم يا خُزْرَ تغلب لَسْتُم بِهِجَانِ(٢)

قال : ثم من ؟ قال : الراعى . قال : مالك وله ؟ قال : قدمت البصرة ، وكان بلغنى أنه قال فىّ :

يا صاحبىّ دنا الرواحُ فسيرا غَلَبَ الفرزدقُ فى الهجاء جريرا

فقلت له :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

وسنفصل حديث هذه القصيدة عند رواية شعر جرير .

ومازال الحجاج يسمر بحديث مهاجاته للشعراء حتى طلع الصبح، وقد قال فى شأنه : قاتله الله أعرابيا إنه لجَرْوُ هِراشٍ .

والواقع أن هذه الأسباب ليست هى الأسباب الجوهرية التى تدعو للعداوة ، وقضاء العمر فى المشاتمة ، ولكن السبب الحقّ هو الرغبة فى الشهرة إذ كانت رواية الشعر شائعة ، ومجالسه كثيرة ، وأسواقه زاخرة ، وإنما كان موضوعها الهجاء دون غيره لما تعلم من شبوب نار العصبيات بين قبائل العرب إبان هذه الدولة على مافصلناه لك فى مواضع سابقة .

وموضوع هذه المهاجاة على الجملة هو مثالب القبائل ، وما أخذ عليها فى سابق أيامها من بخل وجبن ، وإخفار للذمام ، وإضاعة لحقّ الجوار ، كذلك الأعراض ، فقد سبت الأمهات والبنات ، ورمين بالفحشاء ، ولقبن أشنع الألقاب ، وكان نصيب الآباء من

ابن الحكم ، أخو عبد الملك : النشوان : السكران يعيره بما رشاه به محمد بن طارد من زق الخمر والحلة ليفضل عليه الفرزدق .

(١) بنو شيبان من بكر . والأخطل تغلبى ، وكانت بين بكر وتغلب عداوة ومنافسة .

(٢) كليب هو الفارس المشهور الذى من أجله قامت حرب البسوس وهو تغلبى يجتمع مع الأخطل فى قبيلته . اللقحة : الناقة ، والمراد بها هنا ناقة البسوس التى من أجلها قامت الحرب بين بكر وتغلب . الخُزر : جمع أخزر ، وهو الذى فى عينه ضيق وذلك كناية عن اللؤم الهجان : الخيار .

ذلك موفورًا ، فقد رموا كذلك بالفحشاء ، وسبوا بمسبات النساء . كما نسبوا إلى الضعة والامتهان بتناول الصناعات ، وهى فى نظر الأعرابى سبة وشنعة ، وقد أكثر جرير من تلقيب أبى الفرزدق بالقَيْن (الحداد) .

وقد كان العربى إلى ذلك الحين يترفع عن الصناعات ، ويرى أنه لا يليق به إلا المجالدة بالسيف ، والتقدّم أمام الصفّ .

ومن أمثلة هذه الأهاجى فى كلام جرير ، قوله يهجو التَّيْم :

إذا عُدّ الكرامُ وجدت تَيْماً ... نُخالَتهمْ وغيرَهمُ اللُّبابا(١)
أبوكَ التَّيْم ليس بخِنْدِفِيّ ... أرابَ سوادُ لونكم أرابا(٢)
ترَى اللؤمَ بين سِبالِ تَيْمٍ ... وبين سوادِ أعينِهمْ كِتابا(٣)
عَرفْتُ العارَ من سبإ لِتَيْمٍ ... وفى صَنْعاءَ خَرْزَهُمُ العِيابا(٤)
وَمَا تَيْمٌ غَداةَ الحِنْوِ فِينا ... ولا فِى الخَيْلِ يومَ علتْ أرابا(٥)
سَمَوْنَا بالفوارِسِ مُلْجِمِيها ... مِنَ الغَوْرَيْنِ تَطَّلِعُ النِّقابا(٦)
دخلْنَ حُصُونَ مَذْحِجَ مُعْلَماتٍ ... وَلَمْ يَتْرُكْنَ مِنَ صَنْعاءَ بابا
لعلَّ الخَيْلَ تَذْعَرُ سَرْحَ تَيْمٍ ... وتَعْجَلُ زَيْدَ أَيْسَرَ أنْ يُذابا

وقال يهجو الفرزدق :

أَلَسْنا لِلْمُجاوِرِ نَحْنُ أَوْفَى ... وَأَصْبَرُ عِنْدَ مُعْتَرَكِ الضِّرابِ

---

(١) النخالة من الدقيق : مايبقى منه بعد نخله .

(٢) خندفىّ : منسوب إلى خندف ، وهى ليلى بنت حلوان وهى زوج إلياس بن مضر ولدت منه مدركة وطابخة وقمعة . أراب الشىء : بان فيه مايريب .

(٣) السبال : جمع سبلة وهى شعر الشارب ، وجعله اللؤم بين شواربهم وأعينهم : أى إنه ظاهر على وجوههم كأنه كتاب مفتوح يقرأ فيه من ينظر إليهم .

(٤) الخرز : الخياطة بالمخرز . العياب : جمع عيبة وهى الحقيبة .

(٥) الحنو بالكسر : موضع ، أراب (مثلثة الهمزة) : موضع .

(٦) النقاب : الطريق فى الأرض الغليظة ، أوهى جمع نقب ، وهو الطريق بين جبلين .

وَأَحْمَدُ حِينَ يُحْمَدُ بِالمَقَارِى ... وَحَالَ الْمُرْبِعَاتُ مِنَ السَّحَابِ (١)
أَقَمْنَا يَوْمَ طِخْفَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ ... صُدُورَ الْخَيْلِ تَنْحَطُ فِى الحِرَاب
وَطِئْنَ مُجَاشِعاً وَأَخَذْنَ غَصْباً ... بنى النَّجَّارِ فى رَهَجِ الضَّبَاب (٢)
وَعُزْنَا يَوْمَ ذِى نَجَبٍ وَعُذْتُم ... بِسَعْدٍ يَوْمَ وَارِدَةِ الكُلَاب (٣)
وَيَرْبُوعٌ هُمُو أَخَذُوا قَدِيمًا ... عَلَيْكَ مِنَ المَكَارِمِ كُلَّ بَابِ
فَلَا تَفْخَرْ وَأَنْتَ مُجَاشِعِيٌّ ... نَخِيبُ القَلْبِ مُنْهَتِكُ الْحِجَاب (٤)
إِذَا عَدَّتْ مَكَارِمَهَا تَمِيمٌ ... فَخَرْتَ بِمِرْجَلٍ وَبِعَقْرِ نَابِ (٥)
لَقَدْ أَخْزَاكَ فِى نَدَوَاتِ قَيْسٍ ... وَفِى سَعْدٍ عِيَاذُكَ من ذُبَاب
وَسَيْفُ أَبِى الفرزدق فَاعْلَمُوه ... قَدُومٌ غَيْرُ ثَابِتَةِ النِّصَابِ
أَتَجْمَلُ يا فرزدقُ قَيْنَ لَيْلَى ... إِلَى كَعْبٍ وَرَابِيَتَىْ كِلَابِ
وَفِى غَطَفَانَ فَاجْتَنِبُوا حِمَاهُمْ ... لُيُوثُ الْحَرْبِ فِى أَجَمٍ وَغَابِ
أَلَمْ تَسْمَعْ بِخَيل بَنِى نُفَيْلٍ ... إِذَا رَكِبُوا وخيل بنى الحُبَاب
هُمُو قَتَلُوا بنى جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ ... بِأَبِّى بعد يوم قُرى الرَّوَابِى

وقال كذلك يهجوه :

كَذَبَ الفرزدقُ أَنْ يُجَارِىَ عَامِراً ... يوم الرِّهان بِمُقْرِفٍ مَبْهُورِ (٦)

---

(١) المقارى : جمع مقرى ، وهو مكان القرى أو أداته . حل : تغير . المربعات : السحب تمطر بالربيع والجملة حالية أى وقد حال أمر السحب فلم تمطر ، أى نحن نجود فى أيام الجدب .

(٢) يريد قابوس وحسان ابنى المنذر أسرتهما بنو يربوع فى يوم طخفة .

(٣) عزنا : اشتددنا . ذونجب : واد لمحارب وله يوم هو هذا .

(٤) نخيب القلب : جبان .

(٥) تميم : هم قوم جرير ، يقول إذا عدت تميم مكارمها الكثيرة التى لاتنتهى عند حد فإن مكارم قوم الفرزدق تنتهى عند إطعام الضيفان .

(٦) المقرف (بصيغة اسم الفاعل) من الخيل والانسان : ما كانت أمه عربية وأبوه غير عربى . المبهور : المقطوع النفس .

فأنَّى الفرزدقَ أن يَعيبَ فوارسا ... حَمـلُوا أباه على أَزَبَّ نَفُورِ (١)
ولقد جَهِلْتَ بِشَتْمِ قيْسٍ بعد ما ... ذَهَبُوا بريش جَناحِكَ المكسورِ (٢)
قيْسٌ (وَجَدُّ أبيك فى أَكْيَارِه) ... قوَّادُ كُلِّ كتيبةٍ جُمْهُورِ (٣)
لن تُدْرِكُوا غطفانَ لَوْ أُجْرِيتُمُ ... يا بْنَ القيُونِ وَلاَ بَنِى مَنْصُورِ (٤)
فَخَرُوا عليك بكلِّ سامٍ مُعْلَمٍ ... فافْخَرْ بِصاحِبِ كَلْبَتَيْنِ وَكِيرِ (٥)
كم أَنْجَبُوا بِخَليفةٍ وَخَليفةٍ ... وأميرِ صائِفَتَيْنِ وابْنِ أميرِ (٦)

وقال يهجو الأخطل :

إِنِّى جَعَلْتُ فَلَنْ أُعَاقِبَ تَغْلِباً ... للظَّالِمِينَ عُقُوبَةً ونَكَالاَ
قَبَحَ الإِلهُ وُجُوهَ تَغْلِبَ إِنَّهَا ... هَانَتْ عَلَىَّ مَرَاسِناً وَسِبَالاَ
قَبَحَ الإِلهُ وُجُوهَ تَغْلِبَ كُلَّما ... شَبَحَ الحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلاَلاَ (٧)
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بمحمدٍ ... وبِجِبْرَئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالاَ
المُعْرِسِينَ إذا انْتَشَوْا بِبَنَاتِهِمْ ... والدَّائِبِينَ إِجارَةً وَسُؤَالاَ (٨)
والتَّغْلِبِىُّ إذا تَنَحْنَحَ لِلقِرَى ... حَكَّ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالاَ
أَنَسِيتَ يَوْمَكَ بِالْجَزِيرَةِ بَعْدَ مَا ... كَانَتْ عَوَاقِبُهُ عَلَيْكَ وَبَالاَ

---

(١) الأزب منا ومن الابل : الكثير شعر الوجه.
(٢) جهل : حمق :
(٣) جد مرفوعة على الابتداء، وخبرها فى أكياره ، فهو يقول: قيس قواد الكتائب وجدك حداد بين أدوات صناعته، ويصح أن تجر كلمة جد وتكون الواو قبلها للقسم ويكون ذلك تهكما بالفا حد الايلام أن يحلف به وهو فى نظره ممتهن ساقط.
(٤) غطفان بن سعد بن قيس عيلان .
(٥) يقال فارس معلم بالكسر والفتح ، وهو على الكسر : الذى جعل نفسه علامة ليعرف بلاؤه فى القتال.
(٦) الصائفة : الكتيبة تغزو الروم لأنهم يغزون صيفاً لمكان البرد فى تلك البلاد .
(٧) الشبح : رفع اليدين بالدعاء . الاهلال : رفع الصوت .
(٨) أى هم بين سائل وأجير. وقد ذمهم أبلغ ذمّ حين ادعى أنهم يخالطون بناتهم فى حالة سكرهم مخالطة الأزواج .

وَلَوَ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أَنْسَابَهَا ... يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا
لَا تَطْلُبَنَّ خُؤُولَةً فِى تَغْلِبٍ ... فَالزِّنْجُ أَقْرَبُ مِنْهُمُ أَخْوَالَا
لَوْلَا الجِزَا قُسِمَ السَّوَادُ وَتَغْلِبُ ... فِى المُسْلِمِينَ فَكُنْتُمُ أَنْفَالَا

وأظهر ما فى هجائه التهكم والاستهزاء بخصمه ورميه بما يضحك منه الناس ، كقوله فى الراعى :

فغض الطرف إنك من نُمَيْرٍ ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقوله فى الفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مِرْبعا ... أبشر بطول سلامة يا مِرْبع

وقد غلب الأخطل برميه بالنصرانية ، والتزيد عليه بالإسلام والنبوّة والخلافة ، فقال :

إن الذى حرم المكارم تغلبا ... جعل الخلافة والنبوّة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا خزر تغلب من أب كأبينا

هـذه صورة من هجائه تجنبنا فيها المقابح وذكر السوءات ، والإفحاش فى قذف المحصنات ، وذكر العورات مما لايستطيع من به مُسْكة من حياء أن ينشده أو يعرضه على قارئ .

و إننا إذا حاولنا عقد صلة بين العصر الذى عاش فيه جرير وأقرانه ، و بين نوع الهجاء الذى تناولوه فى تشاتمهم وتسابّهم نجد أن لعربيتهم كلّ الأثر فى هذه المعانى التى تناولوها ، فالعربى ما زال يتمدح بالشجاعة والكرم ، ومراعاة الجوار ، وحفظ الذمام ، ويتشدّد فى حماية عرضه ، والغيرة على حريمه ، وهو الذى وأد البنات فى جاهليته خشية العار فى زعمه ، فلا شكّ أن تكون أضداد هذه الصفات معايب يلصقها أحدهم بمن أراد أن يذمه .

ولقد هجوا فى جاهليتهم ، فعيروا بالجبن والبخل وما إليهما ، ولكنهم لم يتسفلوا إلى قذف المحصنات ، واتهام الرجل بأمه ، ولم يلحوا فى ذكر العورات كما فعل هؤلاء . ونرى أن مرجع هذا الفرق بين العصرين إنما هو ما صاروا إليه فى العصر الأموى من

اختلاط الأنساب ، وما حام حول العفاف من شكّ ، فوجد الطاعن مجالاً للريبة ينفذ منه ، فكان منهم ما كان من الإفحاش الذى أشرنا إليه ، وقد جرأهم على ذلك ماعرفوا به من صراحة فى القول وجفاء فى الطبع .

شاعرية جرير

نشأ جرير فى بيت جلّ أهله شعراء قبله و بعده ، كان أبوه عطية شاعراً ، وكذلك جده الخطفى ، ثم كان أخوه عمرو ، وهو أكبر منه ، شاعرًا يقارضه ، ثم كان من بعده ابناه بلال ونوح ، ثم حجناء بن نوح ، وعَقِيل بن بلال ، ثم عِمارة بن عَقِيـــل كلهم شعراء . وعمارة هذا هو الذى أدرك أبا تمام ، ولقى المبرد صاحب الكامل .

قال ابن سلام الجمحى : لم يتصل الشعر فى ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير ، ولا فى ولد أحد من الإسلاميين ما اتصل فى ولد جرير .

من أجل ذلك كان مطبوعا على قول الشعر ، ومن أجل انطباعه عليه طال نفسه فيه ، وأجاد فى كلّ فنونه كان بحر الشعر كما قال عن نفسه (بحرت الشعر بحراً) ، وكذلك من آثار انطباعه أنه أتى بالجيد والمتوسط والردىء ، وقد شبهه أبوعمرو بن العلاء بالأعشى ، وقال العلاء بن جرير العنبرى : يجىء جرير سابقاً ومصلياً وسكيتاً ، كذلك من آثار انطباعه على الشعر أنه أجاد الغزل مع دينه وعفافه ، وعدم عشقه ، حتى لقد قال عن نفسه : ما عشقت قطّ ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكى على مافات من شبابها ، وقد قال عنه الفرزدق حين سمع من الأحوص بالمدينة غناء بقول جرير :

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى ... بعود بَشَامَةٍ سُـــقِىَ البَشَامُ
بِنَفْسِى مَنْ تَجَنُّبُهُ عَزِيزٌ ... علىّ ومَنْ زِيارَتُه لِمَامُ
ومَنْ أُمْسِى وأُصْبِـحُ لا أراه ... ويَطْرُقُنِى إذا هَجَعَ النِّيَامُ

ثم بقوله :

إنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا ... وَشَلاً بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِن عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لِي ... ماذا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

قال الفرزدق : لما سمع هذا وغيره يغنى به الأحوص من شعر جرير : ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره . ثم قام حنقاً .

وهذه الرقة التى اعترف له بها الفرزدق هى إحدى مظاهر شعره ، وهى أثر من آثار انطباعه ، لأن الشدّة لا تكون إلا نتيجة التكلف والتعمل .

أما إجادته لكلّ فنون الشعر ، فقدشهد له بها كلّ من تعرض للقول فيه ، فقد روى ابن سلام قال : لقيت أعرابيًا أعجبنى ظرفه وروايته ، فقلت له : أيهما عندكم أشعر ؟ (يعنى جريراً والفرزدق) ، فقال : بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومدح ، وهجاء ، ونسيب ، وفى كلها غلب جرير ، فقال فى الفخر :

إذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وقال فى المديح :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

وقال فى الهجاء :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا[1]

وقال فى النسيب :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِى فِى طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا

---

(١) لايدرك قوة الهجاء فى هذا البيت إلا من علم أن كعبا وكلابا ونميرا ثلاثة أبطن من عامر بن صعصعة من قيس . فجرير فضل كعبا وكلابا على نمير مع أنهما أخواه . ولم يسمع هذا البيت أحد من العرب يومئذ الاقال : لا يفلح النميرى بعد هذا أبداً .

قال ابن سلام : وبيت النسيب عندى :

فَلَمَّا الْتَقَى الْحَيَّانِ أُلْقِيَتِ الْعَصَا ... وَمَاتَ الْهَوَى لَمَّا أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهْ

وقد أبدى مثل هـذا الرأى ، واحتج بهـذه الأبيات أعرابى حضر طعام عبد الملك ابن مروان ، فأعجب الخليفة برأيه وكياسته ، ثم سأله عن الشعر ، فاحتجّ لفضل جرير بالأبيات السابقة ، وزاد عليها أن قال وأحسن بيت تشبيهاً قول جرير :

سَرَى نَحْوَهم ليلٌ كأن نجومه ... قَنَادِيلُ فيهنّ الذبَال المُفَتَّلُ

منزلته بين الشعراء :

لقد احتدم الجدال بين الناس فى شأن جرير والفرزدق والأخطل أيهم أفضل . وكان لكلّ حزب يؤيده ويتعصب له ، ولقد بلغ من المتخاصمين فى شأنهم أن تجالدوا بالسيوف ، وذلك كله لما علمت من رواج الأدب وسموّ شأنه فى نظر الناس لحماية الملوك من بنى أمية له وتشجيعهم عليه وإجزالهم المثوبة للمبرزين من رجاله ، وقد استفاضت كتب الأدب بالآراء فى هؤلاء الثلاثة ، ونستطيع أن نقسم هذه الأقوال قسمين :

فأما أولهما فهو شأن الشاعر جملة ، وهل يصحّ أن يقاس إلى قرنه ، أو هو مقصر عنه لا يعدّ من طبقته ، فبعض يجعل هؤلاء الثلاثة أقراناً تجوز بينهم المفاضلة ، وهؤلاء هم جمهور أهل الرأى فى الأدب . ويرى بعض أن الأخطل مقصر عن زميليه لا يجوز قرنه بهما ، وآخر يدخل مع الثلاثة راعى الإبل فيجعله قريعهم وندّهم .

يقول صاحب الأغانى ، وهو : جرير ، والفرزدق ، والأخطل المقدمون على شعراء الإسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعاً ، ومختلف فى أيهم المقدم ، ولم يبق من شعراء عصرهم إلا تعرّض لهم ، فافتضح وسقط ، وبقوا يتصاولون على أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق فى آخر أمرهما ، وقد أسنّ ونفد أكثر عمره ، وهو وإن كان له فضل وتقدم ، فليس نجره من نجار هذين فى شىء . ويقول محمد بن سلام والراعى معهم فى طبقتهم ، ولكنه آخرهم ، وقال بشار : لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه .

وأما شطر الموازنة الثانى ، فهو الأغراض التى تناولوها ، والأسلوب الذى جرى عليه كلّ منهم ، ونرى الآراء فى ذلك مختلطة غير منفصلة .

وإنا لذاكرون لك مزايا كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة ، ثم نعقبها بنصوص أقوال النقاد فيهم حتى تكون كالحجة لما نقول .

فأما جرير : فقد تناول جميع أغراض الشعر من مدح ورثاء وفخر وهجاء ونسيب ، ولم يقصر فى واحد منها ، وله فى كلّ منها البيت الرائع الذى تناقلته الألسن ، واشتهر عند الرواة ، ثم هو من ناحية الأسلوب ، لين العطف ، سهل المأخذ ، طويل النفس ، بعيد من الإغراب والتعقيد .

وقد امتاز جرير فى مدحه بعدم الأنفة فقد مدح بنى أمية وولاتهم كالحجاج ، ومدح القيسية أعداء تميم (قومه) جاهلية وإسلاما ، ومدح الموالى من العجم ، وسوّاهم بالعرب حتى لكانوا يحفظون شعره ، ويروونه ويجزلون عطاءه عليه ، فهو لم يفعل كالأخطل الذى أنف من مدح غير بنى أمية حتى إنه لم يمدح الحجاج إلا مرّة واحدة بأمر عبد الملك ، ولم يكن يخلط بالمدح غيره من الفخر والهجاء كما كان يفعل الفرزدق ، بل كان مدحه خالصاً للممدوح .

وأما الفرزدق فقد أجاد فى الفخر إجادة بالغة ، واعتدل فى غالب الأغراض كالمدح والهجاء ، وظهر تقصيره فى الرثاء والنسيب . أمّا لفظه ففخم صلب قوىّ الجرس بانت فيه المعاظلة ، وظهر الإغراب ظهورًا واضحاً ، حتى لقد قيل إنه أحيا فى شعره ثلث اللغة .

وأما الأخطل : فقد أجاد صفة الخمر ، واجتماع الندمان عليها ، وبالغ فى المدح والفخر ، وهو فيما عدا ذلك من غرض ولفظ معتدل غير ظاهر الإجادة ، ولا بين التقصير .

قال أبو عبيدة : يحتجّ من قدم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر ، وأسهلهم ألفاظاً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان ديناً عفيفاً . وقال العلاء بن جرير : إذا لم

يجئ الأخطل سابقاً فهو سكيت . والفرزدق لا يجيء سابقاً ولا سكيتاً ، وجرير يجيء سابقاً ومصلياً وسكيتاً .

قال هشام بن عبد الملك لشبة بن عقال ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير : ألا تخبرني عن هؤلاء الذين مزّقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائرهم في غير خير ولا برّ ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال : شبة . أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر ، فقال هشام : مافسرت لنا شيئا نحصله . فقال : ما عندي غير ماقلت ، فقال لخالدبن صفوان: صفهم لنا يا بن الأهتم ، فقال :

أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأشدّهم ميلاً، وأقلهم غزلاً ، وأحلاهم عللا ، الطامي إذا زخر ، والحامي إذا زأر ، والسامي إذا خطر : الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوّه ستراً ، الأغرّ الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، فجرير : وكلهم ذكيّ الفؤاد ، رفيع العماد ، واري الزناد .

وقد سأل عبد الملك أو الوليد ابنه جريراً الشاعر عن أشعر الناس ، فأجابه بقول كان منتهى الإنصاف لنفسه ، ولأقرانه من الشعراء ، ولم يسع سائله إلا أن أمن على قوله لموافقته للحقّ ، وجدير بالشاعر أن يكون صادق الحكم على الشعر فإنه إنما يعرف الفضل من الناس ذووه . قال عبد الملك أو الوليد لجرير : من أشعر الناس ؟ قال : ابن العشرين (يريد طرفة) . قال : فما رأيك في ابني أبي سلمى ؟ قال : شعرهما نيّر يا أمير المؤمنين . قال : فما تقول في امرئ القيس ؟ قال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين ، وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلاذله . قال : فما تقول في ذي الرمة ؟ قال : قدر من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على مالم يقدرعليه أحد . قال : فما تقول في الأخطل ؟ قال : ما أخرج ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات قال : فما تقول في الفرزدق ؟

قال : فى يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها .قال : فما أراك أبقيت لنفسك شيئاً . قال : بلى والله إنى لمدينة الشعر التى منها يخرج وإليها يعود ، نسبت فأطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنّيت ، وأرملت فأغزرت ، ورجزت فأبحرت ، فأنا قلب ضروب الشعر كلها ، وكلّ واحد منهم . قال نوعًا منها . قال صدقت.

شـــعره

قيل إن أوّل شعر قاله هو الذى أنشده يزيد بن معاوية ، وهو ولىّ عهد ، وكان شفيعه إليه يوم ولّى الخلافة ، وقد مرّ بك . وليس معقولا أن يكون هذا الشعر الجيد أوّل ما يقوله شاعر ، ولكن المقبول أن يقال : إنه أوّل شـــعر استجدى به ، وقصد الناس ، ولا بدّ أنه قبل ذلك قال فى باديته فى كلّ ماعرض له من أغراض .

ومن قوله قصيدته التى أوّلها :

أَقِلِّى اللَّوْمَ عَاذِلَ والعِتَابَا ... وَقُولِى إنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

قالها فى هجاء الراعى . وكان من حديثها : أن الراعى لما فضل الفرزدق على جرير فى قصيدته :

ياصاحبىَّ دنا الأصيلُ فَسِيرا ... غَلَبَ الفرزدقُ فى الهِجاءِ جَرِيرَا

عاتبه جرير ، وقال له : يكفيك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ، ولا تحتمل منى ولا منه ، وبينما هما واقفان لحق الراعى ابنه جَنْدَل ، فرفع كَرْمَانِيَّةً معه ، فضرب بها عجز بغلة أبيه ، ثم قال : لا أراك واقفاً على كلب من بنى كليب كأنك تخشى منه شرًّا ، أو ترجو خيراً ، وضرب الدابة ، فرمحت جريراً رمحة وقعت منها قلنسوته ، فمرّ الراعى ولم يعرج عليه ، فانصرف جرير مغضباً ، ثم أقبل على المنزل الذى كان يقيم فيه بالبصرة وقال لراويته : زد فى دهن سراجك الليلة ، وأعدّ لوحًا ودواة ، وجعل يملى عليه حتى بلغ قوله : فغض الطرف . . . فوثب حتى بلغ رأسه السقف ، وجعل يردّده لايزيد عليه ، ويقول: أخزيته والله . غصصته والله. وقدمت إخوته عليه ، والله لايفلح بعدها ، ولم يأت السحر حتى كان قد أكملها ثمانين بيتاً ، فلما أصبح وعرف أن الناس

قد جلسوا بالمِرْبد قال : يا غلام أسرج فأسرج له حصانا ، ثم قصد مجلس الراعى حتى إذا كان موقع السلام قال : يا غلام ، ولم يسلم ، ثم قال للراعى : أبعثك نسوتك تكسبهنّ المال بالعراق ؟ أما والذى نفس جرير بيده لترجعنّ إليهنّ بمير يسوءهنّ ولا يسرهنّ ، ثم اندفع فيها فنكس الفرزدق وراعى الإبل ، وأزم القوم حتى فرغ منها فسار ، فقال الراعى من فوره لأصحابه : ركابكم ركابكم ، فليس لنا ههنا مقام . قال الراعى : فسرنا إلى أهلنا سيراً ما ساره أحد ، فوجدت البيت قد سبقنا إليهم . وصار الرجل من بنى نمير إذا قيل له : من أنت ؟ يقول عامرىّ ، ويكنى عن نمير ، وقد شاعت هذه القصيدة حتى كان العرب يسمونها الفاضحة ، ويسميها جرير الدامغة لشدّة تأثيرها ، ويسمى قافيتها (الباء) المنصورة لأنه ما قال عليها قصيدة إلا انتصر بها ، والعجيب أن هذه القصيدة لم يرد منها فى ديوان جرير إلا نحو عشرين بيتاً ، ومطلعها :

أَقِلِّى اللَّوْمَ عَاذِلَ والْعِتَابَا ... وقُولِى إنْ أَصَبْتُ لقَدْ أصَابَا
أَجِدَّكَ لاَ تَذَكَّرُ عَهْدَ نَجْدٍ ... وحَيًّا طَالَمَا انتظروا الإيابا
بلى فَارْفُضْ دُمُوعَكَ غَيْرَ نَزر ... كَمَا عَيَّنْتَ بالسرب الطِّبَابَا(١)
وهاج البرقُ ليلة أذْرِعاتٍ ... هوًى ما تستطيع له غلابا
علوتَ عليك ذِرْوة خِنْدِفٍ ... ترى من دونها رُتَباً صِعَابا
لنا حَوْضُ النبىِّ وساقياه ... ومن وَرِث النُّبُوَّةَ والكتابا
ألسنا أكثر الثَّقَلَيْنِ حيًّا ... بِبطْنِ مِنًى وأكثرهم قِبَابَا

ومنها :

إذا غَضِبَتْ عليكَ بنُو تَميمٍ ... حَسِبتَ الناسَ كلَّهمُ غِضابا
فلاَ وأَبيكَ ما لاقيتُ حيًّا ... كَيَرْبُوعٍ إذا رَفَعُوا النِّقَابَا
فغُضَّ الطرْف إنَّكَ من نُمَيْر ... فلا كعباً بلغت ولا كِلابا

---

(١) التعيين : أن يصب فى الوعاء ماء فينظر من أين يسيل فيسد خلله . الطباب : الجلدة تضرب على أسفل المزادة . السرب : السيلان .

فلو وُضِعتْ فِقاحُ بنى نُمَيْرٍ   على خَبَثِ الحديدِ إذًا لذابا

ومنها :

فلو ولدَت فقيرةُ جروَ كلب   لسُبَّ بذلك الجروِ الكلابا
ولو وَطِئتْ نساء بنى نُمَير   على نبراك أخبثتِ الترابا
فلا صلّى الإله على نُمَيْر   ولا سُقِيتْ قبورُهم سحابا

ومنها :

أنا البازى المُطلُّ على نُميرٍ   أُتيحَ لها من الجوِّ انصبابا

ومنها :

إذا نزلَ السَّماء بأرْضِ قومٍ   رعيناه وإنْ كانوا غِضابا

وقال يمدح عبد الملك وقد أوفده الحجاج إليه مع ابنه محمد :

أتصْحُو أمْ فؤادُك غيرُ صاحِ   عَشيَّةَ همَّ صحبُك بالرَّواحِ
يقولُ العاذلاتُ علاكَ شيبٌ   أهذا الشَّيبُ يمنعُنى مراحى
يُكلّفنى فؤادى مِنْ هواه   ظعائنَ يجْتزعْن على رِماحِ
ظعائنُ لمْ يدنَّ معَ النَّصارى   ولا يدرِينَ ما سمكُ القراحِ
فبعضُ الماء ماء ربابِ مُزنٍ   وبعضُ الماءِ مِنْ سبخٍ مِلاحِ
سيكفيكَ العواذِلَ أرحبيٌّ   هجانُ اللَّونِ كالفرْدِ اللَّياحِ
يعزّ على الطَّريقِ بمنكبيه   كما ابترك الخليعُ على القداحِ
تعزَّتْ أمّ حزْرَةَ ثم قالت   رأيْتُ الواردِينَ ذوى امتناحِ
تُعلِّلُ وهى ساغبةٌ بنيها   بأنفاسٍ من الشَّبِمِ القراحِ
سأمْتاحُ البُحورَ فجنّبيني   أذاةَ اللَّوْمِ وانتظرِى امْتياحى
ثِقِى باللهِ ليْسَ لهُ شريكٌ   ومِنْ عندِ الخليفةِ بالنَّجاحِ
أغثْنى يا فداكَ أبى وأمّى   بِسيْبٍ منْكَ إنَّكَ ذو ارْتياحِ
فإنّى قدْ رأيْتُ علىَّ حقًّا   زِيارتِىَ الخليفةَ وامْتِداحى

سأشكر إن رددت إلىَّ ريشى وأنبتَّ القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فقال له الخليفة : أترى أم حزرة ترويها مائة من نعم كلب ؟ قال : إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله :

ومن قوله يمدح الحجاج ، وهى القصيدة التى استنشده إياها عبد الملك حين قدم عليه :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج فانظر بتوضح باكر الأحداج

ومنها فى وصف الحجاج :

من سد مطلع النفاق عليهم أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهاج
ماض على الغمرات يمضى همه والليل مختلف الطرائق داجى
منع الرشا وأراكم سبل الهدى واللص نكله عن الإدلاج
فاستوسقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجى فليس حين تناجى
يا رب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج (١)
إن العدو إذا رموك رميتهم بذرى عماية او بهضب سواج (٢)
ولقد كسرت سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج (٣)

وقال يهجو التيم :

ترى الأبطال قد كلموا وتيم صحيح الجلد من أثر الكلوم
من الأصلاب ينزل لؤم تيم وفى الأرحام يخلق والمشيم (٤)

---

(١) المراد بالبيعتين : بيعة الخليفة وبيعة الحجاج .
(٢) عماية : جبل . سواج : جبلان بالعالية .
(٣) المراد بمنع حقائب الحاج : صيانتها وحفظها من اعتداء اللصوص .
(٤) المشيم : جمع مشيمة وهى محل الجنين .

تَرى التَّيْمِيَّ يَزْحَفُ كالقَرَنْبَى ... إلى سَوْداءَ مِثْلِ قَفَا القَدُومِ

وقال يهجو الفرزدق :

إنَّ ابْنَ آكلةِ النُّخالةِ قدْ جَنَى ... حَـرْبًا عَلَيْهِ ثَقِيلَةَ الأَجْرامِ (١)
خُلقَ الفرَزْدَقُ سَوْءةً في مَالِكٍ ... ولِخَلْفِ ضَبَّةَ كانَ شَرَّ غُلامِ (٢)
مَهْلاً فرَزْدَقُ إنَّ قوْمَكَ فِيهِمُ ... خَوَرُ القُلوبِ وَخِفَّةُ الأَحْلامِ
بِئْسَ الفَوارِسُ يوْم نَعْفِ قشاوةٍ ... والخَيْلُ عَادِيَةٌ عَلَى بِسْطَامِ
لَوْ غيْرُكُمْ عَلِقَ الزُّبَيْرُ وَرَحْلَهُ ... أدَّى الجِـوار إلى بنى العوَّامِ (٣)
كَانَ العِنانُ على أبيك مُحرَّما ... والـكِيرُ كان عَلَيْهِ غَيْرَ حرام
عَمْدًا أعرِّفُ بالهوان مُجَاشِعًا ... إنَّ اللئامَ علىَّ غَيْرُ كِرَامِ

ومن قوله يتغزَّل وقد رقَّ جدًّا .

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُووِعْتُ مَابَانَا ... وَقَطَّعُوا منْ حِبالِ الْوَصْلِ أقْرانَا
حَىِّ المَنازِلَ إذْ لاَ نبْتغِى بدلاً ... بالدارِ دارًا وَلا الجيرانِ جِيرانَا
أحْبِبْ إلَىَّ بِذاكَ الجِزْعِ مَنْزِلَةً ... بالطَّلْحِ طَلْحًا وبالأعطان أعطانا (٤)
ياليت ذا القلبَ لاقَى مَنْ يُعلِّلهُ ... أوْ ساقياً فسقاه اليوم سُلْوانَا
ما كنتُ أوّلَ مُشتاقٍ أخى طرَبٍ ... هاجَتْ له غُدُواتُ الْبَيْنِ أحْزانا
يا أُمَّ عَمْرٍو جزاكِ اللهُ مغفرةً ... رُدِّى علىَّ فُؤادِى كالذى كانَا
أَلَسْتِ أحْسَنَ مَنْ يَمْشِى عَلَى قدَمٍ ... يَا أمْلَحَ النّاسِ كُلِّ الناسِ إنْسانَا

---

(١) يريد بابن آكلة النخالة البعيث الشاعر . الجرم : الجسد كله . يقال رماه بأجرامه أى رماه بجسده كله .

(٢) يريد بخلف ضبة مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

(٣) يريد الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب . أى لو كان الزبير حل فى أحد سواكم لأدى جواره أى لمنعه حتى يرجع إلى بنى العوام ويسلم .

(٤) الطلح : من شجر العضاه . وهو أعظم الشجر أو شجر الخمط أو ذوالشوك أوما عظم منه ، والأعطان مبارك الابل ، وقوله بالطلح طلحا : الباء فيه للبدل : أى وجدنا بدل طلح مواطننا الأولى طلحا مثله وكذلك قوله قبل : بالدار دارا وبالجيران جيرانا .

يَلْقَى غَرِيمُكُمُ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ ... بِالْبَذْلِ بُخْلاً وبالإحسانِ حِرْمَانَا
لَقَدْ كَتَمْتُ الْهَوَى حَتَّى تَهَيَّمَنِى ... لاَ أَسْتَطِيعُ لِهَذَا الحُبِّ كِتْمَانَا
لاَ بَارَكَ اللهُ فِى الدُّنْيَا إِذَا انْقَطَعَتْ ... أَسْبَابُ دُنْيَاكِ مِن أسبابِ دُنْيَانَا
مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِمَّا تَعْلَمِينَ لَكُمْ ... لِلْحَبْلِ صَرْمًا ولا للعهدِ نِسْيَانَا
أَبُدِّلَ اللَّيلُ لاَ تَسْرِى كَوَاكِبُهُ ... أَمْ طَالَ حَتَّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْرَانَا
إِنَّ العُيُونَ الَّتِى فِى طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلاَنَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حتى لاحَرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إِنْسَانَا
يا حَبَّذَا جَبَلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ ... وحَبَّذا سَاكِنُ الرَّيَّانِ مَنْ كَانَا
وَحَبَّذَا نَفَحَاتٌ مِنْ يَمَانِيَةٍ ... تَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِ الرَّيَّانِ أَحْيَانَا

ومن قوله يرثى الفرزدق ، وقد مات قبله بقليل :

لعمرى لقد أشجَى تَمِيماً وهدَّها ... على نَكَبَاتِ الدهرِ موتُ الفرزدق
عَشِيَّةَ راحُوا لِلْفِرَاقِ بِنَعْشِهِ ... إلى جَدَثٍ فى هُوَّةِ الأرضِ مُعْمَقِ
لقد غَادَرُوا فى اللحدِ من كان ينتمى ... إلى كل نَجْمٍ فى السَّماء مُحَلِّقِ
عماد تَمِيمٍ كلِّها ولسانُها ... وناطقُها البَذَّاخُ فى كل مَنْطِقِ
فمن لذوى الأرْحامِ بَعْدَ ابنِ غالبٍ ... لِجَارٍ وعَانٍ فى السلاسل مُوثَقِ (١)
ومَنْ لِيَتِيمٍ بعد موتِ ابن غالبٍ ... وأُمِّ عِيَالٍ ساغِبِينَ ودَرْدَقِ (٢)
ومَنْ يُطْلِقُ الأَسْرَى ومَنْ يَحْقِنُ الدِّمَا ... يَدَاهُ وَيَشْفِى صَدْرَ حَرَّانَ مُحْنَقِ
فَتًى عاشَ يَبْنِى المَجْدَ تسعين حِجَّةً ... وكان إلى الخيرات والمجدِ يَرْتَقِى

⁂

هذا وأخبار جرير مع قِرنيه الفرزدق والأخطل تملأ كتب الأدب ، وأهمّ ماورد

(١) العانى الأسير . موثق : مقيد .
(٢) ساغب : جوعان . دردق : أطفال .

منها تجده فى كتاب الأغانى فى تراجم هؤلاء الثلاثة وغيرهم ، وكذلك تجد أشعاره مع نقائضها من شعر الفرزدق مضبوطة فى كتاب النقائض المطبوع بألمانيا . أما ديوان جرير المطبوع فى المطبعة العلمية بمصر ، فيكاد يفقد فائدته لكثرة مابه من الخطأ والتحريف .

وقد مات جرير باليمامة سنة ١١٠ هـ ، فيكون قد عمر زهاء سبعين سنة .

الكميت بن زيد

نحن أمام شخصية عظيمة ، كان لها فى حياتها شأن ، واشتغل الناس بها حتى اهتزّت لها مجالس الولاة ، وعروش الخلفاء ، فرقا حيناً ، وطربا حيناً آخر .

يدلك على عظمة هذه الشخصية أن صاحبها كان له فى كلّ مظاهر الحياة مداخلة ، كان شاعراً ، وخطيباً ، وعالماً بمفاخر العرب ومثالبها ، وزاجراً للطير ، مهتديًا بالنجوم ، وعصبياً محتجاً لرأيه ، دامغ الحجة فى الدفاع عنه .

وللعصبية فى العصر الأموى قوّة لم تعرف بمثل شدّتها ، ولا تشعب اتجاهاتها فى غير هذا العصر . فقد كانت عصبيةٌ بين العدنانية والقحطانية ، ثم بين فرعى العدنانية من مضرية ورَبَعِيَّة . ثم تغلغلت فكانت بين الأمم ، فهى شعوبية وعربية ، وبين الأقطار فهى عراقية وشامية ، ثم بين المدن فهى كوفية وبصرية . هذا إلى انشعاب آخر فى الرأى بين شيعة وأمويين وخوارج وغيرهم ، بل لقد كان تعصب للشعر وقائليه ، فهؤلاء فرزدقيون ، وأولئك جريريون ، وهكذا . . .

ولقد كان الكميت من نباهة الشأن بحيث عدّ من ذوى العصبيات لأنه كما قلنا ذو رأى حرّ ، وشكيمة قوية ، وبيان ناصع ، فكان لا بدّ له أن يدلى بدلوه فى هذا البحر المضطرب الأمواج ، ولم يكفه أن يأخذ فى ناحية واحدة ، بل كان له رأى فى كلّ ما يدور حوله البحث ويحتدم الجدال .

فكان شيعيًا ، عصبيًا عدنانيًا ، يفضل الكوفة . ولقد كان لايضيق صدره بهذه العصبيات ، ولا تطغى عواطفه فيها على غيرهامن العواطف ، فقد ذكروا أن الكميت هذا كان صديقاً للطِرِمَّاح بينهما خلطة ومودّة وصفاء لم يكن بين اثنين . وكان الطِرِمّاح: خارجيا صُفْرِيًا ، قحطانيًا يتعصب للقحطانية ، وينتصر لأهل الشام على أهل العراق ، وقد قيل لهما : ففيم اتفقتما هذا الاتفاق مع سائر اختلاف الأهواء ؟ قالا : اتفقنا على بغض العامة .

ذلك هو الكميت يمثل بأجلى مظهر نشاط الفكر ، وحرّية الرأى فى عصره ، ثم هو فى حرّيته هذه على خلاف رأى الأمراء والخلفاء الذين عرفوا بالشدّة والغلظة فى نقمتهم على من يخالفهم ، ثم هو يسلم مع ذلك من مكرهم بشدّة مِحاله ، وعظيم ما يرجون من فائدة عنده إذا استمالوه إليهم ، فيبقى طول حياته مخوفاً ، مرجوًا ، ناجياً من شرّ أعدائه ، نائلاً جوائزهم حتى يموت بسبب من أسباب حرّية رأيه ، ولكن يكون موته غدرًا وغيلة أعجل فيه عن التدبير للخلاص .

ذلك أنه لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسرى أشار فى مدحه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه الجعفرية[1] ، وهو على المنبر . قال الكميت :

خرجْتَ لهمْ تمشى البَرَاحَ ولم تكن ... كَمَنْ حِصْنُهُ فيه الرِّتاجُ المُضَبَّبُ[2]

وما خالد يستطعم الماء فاغرا ... بعدْلك والداعى إلى الموت يَنْعَبُ[3]

وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتعصبوا لخالد ووضعوا ذُباب سيوفهم فى بطن الكميت ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

---

(١) أتباع أبى جعفر محمد بن على العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض. الرتاج : الباب العظيم، وهو الباب المغلق وفيه باب صغير . ومضبب: عليه ضبة . وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة .

(٣) فاغرا فاتحا فمه . العدل (بالكسر) النظير . ينعب : يرفع صوته كنعيب الغراب . والمعنى أن خالدا الذى استطعم الماء لايساويك فى مقام القتال حين يرفع المنادى إلى الحرب صوته .

[نسب الكميت] : ذكر الآمدىّ فى كتاب : « المؤتلف والمختلف » أن ثلاثة من بنى أسد بن خزيمة يسمون الكميت ، وهم : الكميت الأكبر بن ثَعْلَبة ابن نوفل بن فَضْلة بن الأشتر بن جَحْوان بن فَقْعَس ، والكميت بن معروف بن الكميت الأكبر ، والثالث هو : الكميت بن زيد الذى نحكى خبره فى هذه الترجمة ، وهو ابن زيد بن خُنيس بن مُجالد بن وُهَيْب بن عمرو بن سُبيع ، وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار . وهو كوفىّ نشأ بالكوفة ، وكانت ولادته بها سنة ستين من الهجرة ، وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . ثم كانت وفاته بها سنة ست وعشرين ومائة فى خلافة مروان بن محمد .

[بيئة الكميت] : هى الكوفة قريعة البصرة فى الأدب والنحو والأنساب ، كان بها من العرب جمهرة كبيرة تقسمتهم الأهواء السياسية ، وإن كان غالبهم شيعة علىّ التى دوّخت الولاة ، وأعيت سياستها على بنى أمية كلهم ، وكم زفر الحجاج وزياد قبله منهم ، وحنقاً عليهم ، واشتدّا فى معاملتهم .

تلك هى الكوفة منبر الشعر والخطابة ، ومدرسة اللغة ، ومجال المفاخرات والمناظرات والمنافرات والمماتنات ، ومثار العصبيات ، ومدرجة الفتن ، ومثابتها بعد تجوالها وتطوافها فى البلاد .

فيها نشأ الكميت ، فلم يكن بدعًا منه أن يكون شاعراً ، وخطيباً ، وراويًا للشعر ، وعالِمًا بلغات العرب ، ونسابة لهم ، يعرف بيوتهم ، ومفاخرهم ومثالبهم ، وزاجراً للطير ، ومهتديًا بالنجوم

لم يكن هذا بدعا فى الكميت ، وإنما العجيب أن يمتاز فى كلّ ذلك حتى يغلب حماداً فى الرواية ، وحتى لا يقاس به أحد من أهل زمانه فى الشعر ، وحتى يكون مفخرة بنى أسد فى كلّ شىء من شعر وخطابة وجدل .

ذكروا أنه اجتمع هو وحماد فى مسجد الكوفة ، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها ، فخالفه حماد فى شىء ونازعه ، فقال له الكميت : أتظنّ أنك أعلم منى بأيام العرب

وأشعارها ، قال حماد : وماهو إلا الظنّ ! ! هذا والله هو اليقين ، فغضب الكميت ، ثم قال : لكم شاعر بصير يقال له : عمرو بن فلان تروى ؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروى ؟ فقال حماد فى ذلك بعض القول . فجعل الكميت يذكر رجلا رجلا من صنف صنف ، ويسأل حماداً : هل يعرفه ؟ فإذا قال لا . أنشده من شعره جزءا جزءا حتى ضجر الحاضرون ، ثم قال له الكميت : فإنى سائلك عن شىء من الشعر ، فسأله عن قول الشاعر :

طَرَحُوا أصحابَهُمْ فى وَرْطة قَذْفَكَ المُقْلةَ شَطْرَ المعْتَرَكْ

فلم يعلم حماد تفسيره ، فسأله عن قول الآخر :

تُدَرِّيننَا بالقول حتى كأنما تُدَرِّين وِلْداناً تصيد الرّهادِنَا

فأفحم حماد ، ولم يأت بتفسيرها ، وسأل الكميت أن يفسرها ، فقال له : المُقْلَةُ حصاة يحملها القوم معهم إذا سافروا ، وتوضع فى الإناء ، ويصبّ عليها الماء حتى يغمرها ، فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشطر النصيب ، والمعترك الموضع الذى يختصمون فيه فى الماء فيلقونها هناك .

وقوله تدرييننا يعنى النساء ، أى تختلننا فرميننا ، والرهادن : طير بمكة كالعصافير . . .

كذلك لم يكن بدعاً أن يقول الكميت الشعر فى بيئة كلها شعراء ، وفى زمن كلّ أسبابه تحمل على قول الشعر ، ولكن البدع أن يكون الكميت شاعراً لايوزن به أهل زمانه ، فقد سئل مُعاذ الهرّاء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ؛ ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل . فقيل له : ياأبا محمد ، مارأيناك ذكرت الكميت ، قال ذلك أشعر الأوّلين والآخرين ، وفيه يقول أبوعِكْرمة الضّبّىّ : لولاشعرالكميت لم يكن للغة ترجمان ولا للبيان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبنى أسد منقبة غير الكميت لكفاهم حببهم إلى الناس وأبقى لهم ذكراً . وقيل : فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر : كان خطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتبا حسن الخط ، وكان نسابة ، وكان جدليا ، وهو أوّل من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك .

محنة الكميت

كان الكميت كما تعلم متشيعاً لآل علىّ ، حرّ الرأى فى تشيعه يجهر به ، ويناظر فيه فى المجالس العامة حتى قيل إنه أوّل من ناظر فى التشيع مجاهراً . وقد قال أغلب شعره فى آل البيت يمتدح أحياءهم ، ويرثى موتاهم ، وكانت محاسن قوله وكبار قصائده فيهم حتى عرفت له القصائد «الهاشميات» ، ومعلوم أن الشاعر الذى يقول فى تمجيد هذه الفئة إنما يؤذى بقوله خلفاء الأمويين ، وينبه الناس إلى اعتدائهم عليهم واغتصابهم لحقوقهم . فكان قول الكميت فى بنى هاشم قذى فى عيون هؤلاء الخلفاء ، وخَضْداً لشوكتهم ، وتأليبا للعامة عليهم ، ولكن الكميت مع ذلك كان فى الكوفة بموضع التجلة من ولاتها ، فكان خالد بن عبد الله القَسْرِىّ يدنى مجلسه ، ويجزل عطاءه ، ويصفيه المودّة .

وكان ابتداء محنة الكميت أن كان حكيم بن عياش الأعور الكلبى وَلِعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه وهو يجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعر منكم . قالوا : فأجب الرجل . قال : إن خالد بن عبد الله القسْرىّ محسن إلىّ ، فلا أقدر أن أردّ عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه من ذلك فحمى لعشيرته وقال : « مُذْهَبَته » .

* ألا حُيِّيتِ عنا يا مدينا *

فأحسن فيها ، وبلغ خالدا خبرها ، فقال : لا أبالى مالم يجز لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه قوله :

ومن عجب علىّ لعمر أمٍّ ... غذتك وغيرها تيا يمينا
تجاوزت المياه بلا دليل ... ولا علمٍ تعسّف مخطئينا
فإنك والتحوّل من معدّ ... كهيلة قبلنا والحالبينا
تخطت خيرهم حلبا ونسئا ... إلى الوالى الغادر هاربينا
كعنز السّوء تنطح عالفيها ... وترميها عِصِىُّ الذابحينا

فقال خالد : فعلها !! والله لأقتلنه ، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ودسهن مع نخاس إلى هشام ابن عبد الملك ، فاشتراهن جميعاً ، فلما أنس بهن ، واستنشدهن الشعر أنشدنه قصائد الكميت الهاشميات ، فقال : ويلكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدى . قال : وفى أى البلاد هو ؟ قلن : بالكوفة ، فكتب إلى خالد أن يبعث إليه برأس الكميت فحبسه خالد ، وقبل أن ينفذ فيه أمر الخليفة احتال الكميت للخلاص بأن أرسل إلى امرأته حُبَى ، وطلب منها أن تقيم مكانه ، وأن يهرب هو بثيابها ، فتم ذلك ، ثم لم يجد خيراً من الظهور وطلب العفو من الخليفة ، فاستطاع بسعى رجالات قريش بالشام أن يصل إلى مسلمة بن هشام ، فاستشفعه عند أبيه فشفّعه وقال له : اعقد له مجلساً نسمع فيه ما قاله فينا مدحا واعتذاراً ، فعقد له المجلس وحضره هشام نفسه .

الكميت فى مجلس العفو

قالوا : إن الكميت ارتجل فى هذا المجلس خطبة ما سمع بمثلها قطّ ، وامتدح بنى أمية بقصيدته الرائية التى ارتجلها ارتجالا حتى إنه لم يجمع منها إلا تلك الأبيات التى حفظها الناس فى هذا المجلس ، وقد سئل عنها الكميت فقال : ما أحفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله فى هذا المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنى كنت أتدَهْــدَى فى غمرة ، وأعوم فى بحر غَواية ، أخنى علىّ خَطلها ، واستنفرنى وَهَلها ، فتحيّرت فى الضلالة ، وتسكعت فى الجهالة ، مُهْرِعا عن الحقّ ، جائراً عن القصد . أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالاً . وهذا مقام العائذ ، مبصرِ الهدى ، ورافض العماية . فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحَوْبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجُرم » .

ثم أنشد قصيدته التى أولها :

* « قف بالديار وقوفَ زائرْ » *

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقو ف بها وأنكَ غيرُ صاغرْ
درجتْ عليها الغاديا تُ الرائحاتُ من الأعاصرْ(١)

وفيها يقول :

فالآن صرتُ إلى أميّـة والأمور إلى المصائر

فجعل هشام يغمز مَسْلَمة بقضيب فى يده ، ويقول : اسمعْ . اسمعْ .

وفيها يقول :

كم قال قائلُكمْ لعاً لَكَ عند عَثْرَتِهِ لعاثرْ
وغفرتمو لذوى الذنو ب من الأكابر والأصاغرْ
أبنى أميـة إنكم أهل الوسائل والأوامرْ
ثقـتى بكل ملمة وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخـلا فةِ كابراً من بعد كابر
بالتسـعة المتتابعيـن خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزا ل لشافعٍ منكم وواترِ(٢)

ثم قطع الإنشاد ، وأعاد خطبته ، فقال :

« إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته . ومناط المنتجعين من لا تحل حُبوتُه لإساءة المذنبين فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين .

فقال له هشام: ويلك يا كميت ! «من زيّن لك الغواية ودَلاّك فى العماية» . قال : « الذى أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما » .

---

(١) الأعاصر : جمع إعصار ، وهى الريح تثير السحاب ، أو التى فيها نار ، أو التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء . والأصل فى الجمع الأعاصير ولكنه خفف بحذف الياء كالمفاتح فى المفاتيح .
(٢) شافع وواتر : أى لمن يتتابع منكم فيكون شفعاً فى العدد (زوجا) أو وترا (فردا) .

قال له : فأنت القائل :

فيامُوقِداً ناراً لغيرك ضَوْءها　　　و ياحاطباً فى غَيْرِ حَبْلِك تَحْطِبُ(١)

قال : بل أنا القائل :

وجدْنا قريشاً قريشَ البِطَاح　　　على ما بنى الأوّلُ الأوّلُ

بهم صَلَحَ الناسُ بعد الفساد　　　وحِيصَ من الفتق ما رَعْبَلُوا(٢)

قال هشام : فأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليد　　　أو سليمانَ بعدُ أو كهشامِ

من يمت لايمت فقيداً ومَنْ يَحْـ　　　ـيَ فلا ذُو إلٍّ ولا ذو ذِمَامِ

ويلك يا كميت ! جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلاً ولا ذمة . قال : بل أنا القائل :

فالآن صرت إلى أميـــة والأمور إلى المصائر(٣)

يابن العـــقائل للعقا　　　ئل والجحاجحـــة الأخائر

من عبد شمس والأكا　　　بر من أميـــة فالأكابر

إن الخـــلافة والإلا　　　فَ برغم ذى حَسَدٍ وواغِرِ(٤)

دَلَفا من الشرف التليـــد إليك بالرِّفْـــد المُوافر(٥)

فَحَلَلْتَ معتـــلج البطا　　　ح وحَلّ غيرك بالظواهر(٦)

---

(١) الخطاب فى هذا الشعر لهشام بن عبد الملك . يريد أنه بتوليه الخلافة أفاد من حوله من بطانته واحتمل وحده إثمها .

(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . رعبل الثوب : مزقه .

(٣) قيل إنه إنما أراد صرت إلى أمية والأمور إلى مصائرها : أى أنه سيصير إلى بنى هاشم . وهذا طبعا فهم بالفحوى دل عليه المقام ، أما اللفظ فلا يدل إلا على أنه صار إلى بنى أمية وانتهى أمره إليهم .

(٤) الواغر : الحاقد . الإلاف : هو الإيلاف ، ومعناه فى القرآن العهد .

(٥) الضمير فى دلفا يعود إلى الخلافة والإلاف . ودلف : مشى فى تؤدة .

(٦) اعتلجت الأرض : طال نبتها . البطاح : جمع أبطح أو بطحاء وهما مسيل الماء فيه دقاق الحصى . الظواهر : أشراف الأرض ، أى ما ارتفع منها .

قال له : فأنت القائل :

فَقُلْ لبنى أميّة حيثُ حَلُّوا ... وإنْ خفت المُهنَّدَ والقطيعا[١]

أجاع الله من أشـــبعتموه ... وأشبعَ من بجَوْرِكمو أُجيعا

بمرضيِّ السياســـة هاشميٍّ ... يكون حيًّا لِأُمَّـــتِهِ ربيعا

قال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولى الكاذب . . . . قال : بماذا ؟
قال : بقولى الصادق :

أورثتْــه الحَصَانُ أمُّ هشام ... حســـباً ثاقباً ووجهاً نضيرا[٢]

وتعاطى به ابنُ عائشـــةَ البدْ ... رَ فأمسى له رقيباً نظيرا

وكساه أبو الخلائف مروا ... نُ سَـــنِيَّ المكارم المأثورا

لم تجهّمْ له البطاحُ ولكنْ ... وجــــدتْها له معَاناً ودُورا

وكان هشام متكئاً ، فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر . ثم قال : لقد رضيت عنك يا كميت ، فقبل يده وقال : يا أمـــير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد فى تشريفى فلا تجعل لخالد عليَّ إمارة . قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم وثلاثين ثوبا هشامية ، وكتب إلى خالد أن يخلى سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوبا ، ففعل .

مبلغ التشيع عند الكميت

بعد أن عرفت أن نشأة الكميت كانت بالكوفة تستطيع أن تقدر الأسباب التى حملته على أن يكون شيعيا ، فقد كانت الكوفة بيئة العلويين وأنصارهم ، وكانت ميادينها

---

(١) سبق شرح هذه الأبيات ص١٨٧ .

(٢) سبق شرح هذا الشعر ص ١٨٧ .

وأسواقها وأحياؤها مسارح للتمثيل بهؤلاء الأطهار من سلالة رسـول الله . كما كانت سجونها مُصبِح هؤلاء القوم ومُمساهم . بل ربما ولدت فيها ذراريّهم ، وأُرمست كهولهم وشيوخهم .

فهذه المناظر المؤلمة من العدوان الظاهر ، والتجنى الممقوت على هذه الفئة الطاهرة ، كانت دائما تُشعِر فى قلوب أهل الكوفة نار الحقد على بنى أمية كما تحمل على استشعار الرحمة لهؤلاء المنكوبين ، والعطف على قضيتهم التى لم تمكن الأقدار أنصارها من الظهور بها والفَلَج على خصومهم .

فإذا تشيع الكميت فبما تجمعت أمامه أسباب هـذا التشيع من شناعات رآها ، وحوادث سمع بها ، وذلّ ضارع رأى فيه هذه النفوس الزكية ، فلا شكّ أن كلّ ذلك يحمل نفساً أبيّة ، وقلباً زكيًا مثل نفس الكميت وقلبه على أن ينتصر لهؤلاء بما يستطيع نصرهم به من وسيلة .

ولم يكن لمثله وسيلة إلاوسيلة القول . وقد عرف وقعه فى النفوس وقيمته بين أهل زمانه ، وقلق الحكام فى عصره من اتخاذ هذا السلاح فى محاربتهم .

لذلك كان أوّل شعر قاله الكميت هو شعره فى آل البيت ، فقد ورد فى الأغانى عن محمد بن علىّ النوْفلىّ قال : سمعت أبى يقول : لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أوّل ما قال « الهاشميات » فسترها ، ثم أتى الفرزدق فقال له : يا أبا فِراس ، إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك . قال : فما حاجتك ؟ قال : نَفَثَ علىّ لسانى ، فقلت شعراً ، فأحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره ، وأنت أولى من ستره ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسنٌ وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدنى ، فأنشده :

* طربتُ وما شوقا إلى البِيض أطربُ *

قال : ففيم تطرب ؟ قال : « ولا لَعِباً منى وذو الشيب يلعبُ ؟ » . قال : بلى يابن أخى فالعب فإنك فى أوان اللعب ، فقال :

ولم يُلْهِنى دارٌ ولا رَسْمُ منزلٍ   ولم يتطرَّبْنِى بَنَانٌ مُخضَّبُ

فقال : ما يطربك يابن أخى ؟ فقال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عَشِيَّةً   أَمَرَّ سليم القَرْنِ أم مرَّ أَعْضَبُ(١)

فقال : أجل لا تتطير ، فقال :

ولـكن إلى أهل الفضائل والتُّقى   وخيرِ بنى حَوَّاء والخيرُ يُطْلَب

فقال : من هؤلاء ويحك ! ! قال :

إلى النَّفَر البِيضِ الذين بِحُبِّهِم   إلى اللهِ فيما نابنى أتقرَّبُ

قال : أرحنى ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رَهْطِ النبى فإننى   بهِمْ ولهمْ أرْضَى مراراً وأغْضَبُ

خفضتُ لهم منى جناحى مودةً   إلى كَنَفٍ عِطْفَاهُ أهلٌ ومَرْحَب

وَكنتُ لهم من هؤلاء وهؤلا   محبًا على أنِّى أذَمُّ وأُقْصَبُ(٢)

وأُرْمَى وأَرْمِى بالعداوة أهلَها   وإِنِّى لأُوذَى فيهمُ وأُؤَنَّبُ

فقال له الفرزدق : يابن أخى أذعْ ثم أذعْ ، فأنت والله أشعر من مضى ومن بقى .

ومازال الـكميت يقول الشعر فى آل البيت و يسمعهم إياه طلباً لرضا الله ، و إدخالا للسرور على نفوسهم ، فكانوا فى غالب أمرهم لا يملـكون إلا الدعاء له يرفع أحدهم يديه ، ويقول : «اللهم اغفر للـكميت ماقدّم وماأخّر ، وما أسرّ وماأعلن ، وأعطه حتى يرضى» .

ومما لاشكّ فيه أنه لم يكن يطمع فى دنيا يصيبها من هؤلاء القوم ، و إنما كان يطمع فى ثواب الله ، فقد دخل على أبى جعفر محمد بن علىّ ، فأنشـده قصيدته : « من لقلب مُتَيَّم مُسْتَهام » ، فقال : اللهمّ اغفر للـكميت . اللهمّ اغفر للـكميت . ودخل عليه يوما ، فأعطاه ألف دينار وكسوة ، فقال له الـكميت : والله ماأحببتكم للدنيا ،

---

(١) الأعضب : المكسور القرن .
(٢) أقصب : أعاب . ورواية الأغانى أغضب .

ولو أردتها لأتيت من هى فى أيديهم ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها ، ثم ردّ المال ، وقبل الثياب .

ولقد يتزعزع اعتقادك فى اعتقاد الكميت حين تراه مدح بنى أمية وعمالها ، ولكن قد كانت لهذا المدح ملابسات جعلته مقبولا لا مطعن فيه على رأى الرجل ، فبعضه تقية أقرّه عليها آل هاشم أنفسهم ، و بعضه كان حيلة صناعية لجأ إليها الشاعر للقضاء على منافسيه فى الشعر ، ولهـذا القول تفصيل نذكره .

فأما التقية فقد تمثلت فى مدحه لعمال الكوفة قبل محنته ، فقد كان يمدح خالد ابن عبد الله القَسْرِىّ ليغمض عينه عما يكون منه من التشيع لآل البيت . وما زال منتفعاً بهذا المدح مشبعاً به رغبته فى التشيع حتى حنق عليه خالد لأنه تعلق عليه بقول يهجوه به فى منافراته ومناقضاته لشعراء القحطانية ، فلم يتسع له عنده عذر ، فوشى به إلى الخليفة هشام على النحو الذى مرّ بك .

كما تمثلت تلك التقية فى مدحه لهشام الخليفة ورثائه لابنه معاوية حين وقع فى قبضته ، فلم يجد إلا ذلك المدح .

وهذه التقية قد أجازها له آل البيت ، فقد أرسل الكميت أخاه وَرْداً إلى أبى جعفر محمد بن علىّ يقول له : إن الكميت أرسلنى إليك وقد صنع بنفسه ما صنع . أفتأذن له أن يمدح بنى أمية ؟ قال : نعم هو فى حلّ فليقل ما شاء ، كما ذكروا أن الكميت نفسه دخل على أبى جعفر هذا ، فقال له : يا كميت أنت القائل :

فالآن صرت إلى أميّـــة والأمور إلى المصائر

قال : نعم ، قد قلت ولا والله ما أردت الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم . قال : أما إن قلت ذلك ، إن التقية لتحلّ .

وأما الحيلة الصناعية فقد أردنا بها تلك الوسائل التى يلجأ إليها الرجل فى صناعته ليكسب الفوز على خصـــمه ، ولقد كان من الكميت مكر حسن فى باب المناقضة بالشــعر . من ذلك أن شاعراً من أهل الشام يقال له : حكيم بن عياش الكلبى كان يهجو علىّ بن أبى طالب عليه السلام و بنى هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى

بنى أمية ، فانتدب له الكميت ، فهجاه وسبّه فأجابه ولج بينهما الهجاء ، فكان الكميت يظهر أن هجاءه إياه للعصبية التى بين عدنان وقحطان . قال المستهلّ بن الكميت قلت لأبى : يا أبت ! إنك هجوت الكلبى ، ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألاّ فخرت بعلىّ وبنى هاشم الذين تتولاهم . قال يا بنىّ ، أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء علىّ عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت عليًا له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت : إن نقضها علىّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته . فكان كما قال : أمسك الكلبى عن جوابه ، فغلب عليه وأفحم الكلبى .

⁂

فالرأى عندنا أن تشيع الكميت كان عقيدة ضمّ عليها أحناء ضلوعه ، واختلطت بدمه ولحمه ، وأما الذى كان منه من انحراف إلى أعدائهم فى بعض القول ، فهو حيلة يتخذها ليستعين بها على ردّ الكيد عنهم وعن نفسه .

شعر الكميت

لقد حكم مُعاذ الهرّاء بأن الكميت « أشعر الأوّلين والآخرين » ، وقال له الفرزدق : « أنت أشعر من مضى ومن بقى » ، ويخيل إلينا أن حكمهما لا مبالغة فيه ولا إسراف لأن الكميت قد تهيأت له أسباب تسوّغ قبول هذا الحكم ، ولا سيما فى عصر الكميت .

فلقد كان للعصبية المقام الأوّل بين الشعراء ، فمن كان نافذ القول فيها خبيراً بمداخلها ومخارجها كان له الغلب على معارضيه ، وراج شعره بين الناس بما يثير من دفائن وما يكشف من مستور ، والكميت له فى هذا المقام القدح المعلى والقدم الفارعة ، فقد كان عليماً بأيام العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، حافظاً لأنساب القبائل لا يماريه فى كلّ

ذلك بمار . حتى قيل : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت ، فمن صحح الكميت نسبه صحّ ، ومن طعن فيه وَهَن .

وهو الذى ردّ على الأعور الكلبي لما رمى امرأته بأهل الحبس ، فكانت قصيدته فيه ثلثمائة بيت لم يترك فيها حيًّا من أحياء اليمن إلا هجاهم .

وقد حار الناس فى أمر الكميت وعلمه بأنساب العرب ووقائعها ، ثم اهتدوا إلى أنه كانت له جدتان أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس فى الجاهلية . فإذا ما شكّ فى شعر أوخبر عرضه عليهما ، فتخبرانه عنه . قالوا : فمن هناك كان علمه .

كذلك تهيأ للكميت من أسباب النبوغ فى الشعر تلك الملكة الصناع التى كان يصدر عنها قوله على غرار واحد له طابعه الذى لا يشركه فيه أحد ، والشاعر إذا كان قوى الملكة صدر شعره نسيج وحده تمثل فيه نزعة قائله الذى لم يضطره ضعفه إلى التقليد ، ولم تحوجه حيرته إلى الاحتذاء .

و إنك لتتبين استقلال الكميت فى نزعته وصدوره عن محض ملكته فيما رواه صاحب الأغانى من أنّ الخليفة هشاما لما وقعت له رقعة فيها أبيات تشتمل على وشاية بخالد القسرى ، وهى :

تألّقَ برْقٌ عنـدنا وتقابلتْ ... أثافٍ لِقِدْرِ الحربِ أخشى اقتبالها (١)

فدونكَ قِدْرَ الحربِ وهى مُقِرّةٌ ... لكفّيْكَ واجعل دون قِدْرٍ جِعَالَها (٢)

ولن تنتهى أو يَبْلُغَ الأمرُ حَدَّه ... فنَلْها بِرِسْلٍ قبل ألاّ تنالها (٣)

---

(١) يقال اقتبلت الأمر إذا استأنفته . يريد بتقابل الأثافى للقدر الاستعداد للحرب وإنما جعل الحرب قدرا لأنها تضطرب بمن فيها كما تضطرب القدر عند الغليان .

(٢) الجعال : خرقة ينزل بها القدر . ومعنى مقرة لكفيك : أى خاضعة لهما يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق والتؤدة .

فتجشَّمَ منها ما جَشِمْتَ من التى ... بسور أهرت نحو حالك حالها[1]

تلاف أمور الناس قبل تفاقمٍ ... بعُقْدةِ حَزْمٍ لا تخافُ انحلالها

فما أبرم الأقوام يوما لحيلةٍ ... من الأمر إلاّ قلدوك احتيالها

وقد تخبر الحربُ العَوانُ بسِرِّها ... — وإن لم تبحْ — من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعرَ مَنْ تشبه هذه الأبيات ، فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت ابن زيد الأسدى .

فإجماع الرواة من ساعتهم على أن الشعر للكميت دليل على أن لشعره طابعاً لا يشتبه معه بشعر غيره ، وهذا الطابع هو دليل الاستقلال ، وآية الملكة المستغنية عن الاحتذاء والتقليد ، ثم إن هذا الإجماع بهذه السرعة دليل من جانب آخر على امتياز فن الكميت وأنه لعلوّه لا يختلط بغيره من منازع الشعراء الذين تتدانى ملكاتهم ، وتتقارب قواهم ، وتلتقى فى مشرب واحد مآخذهم. لذلك سهل على الرواة أن يميزوا شعره لتحليقه وحده فى سماء لا يتسامى إليها غيره من أهل العصر .

وقبل أن نحكم على شعر الكميت لا نرى بأساً من الاستئناس برأى أهل زمانه فيه من أمراء وخلفاء وشعراء ورواة .

فأما وجه هذا الاستئناس فهو أن القوم حين حكموا لم يصدروا فى الغالب إلا عن تأثر بجمال هذا الشعر ، وربما وقع بعضهم تحت هذا التأثير كارهاً فأعجب مضطراً وعدل عن حنقه على الشاعر إلى الرضا الذى تبعه تقريب المجلس و إغداق العطاء . وهل يمكن أن يكون هشام الخليفة ممالئاً حين يسمع شعر الكميت فيغمز ابنه مَسْلَمة بقضيب فى يده ، ويقول له : اسمع . اسمع . أو يكون الفرزدق وهو الشاعر المشهور بحقده على المجيدين من الشعراء ، مصانعاً حين يسمع أوّل شعره الذى جاء يستأذنه فى إذاعته ،

---

(١) جهم الرجل الأمر (كسمع) تكلفه على مشقة .

فيقول له : يابن أخى أذع . ثم أذع ، وهل تكون فاطمة بنت أبان بن الوليد (ممدوح الكميت) مسرفة حين التقت بريا ابنة الكميت فى طريق الحج ، فلما عرفتها خلعت لها خلخالين من الذهب ، فقالت لها : جزاكم الله خيراً يا آل أبان . قالت فاطمة : بل أنتم فجزاكم الله خيراً ، فإنا أعطيناكم ما يبيد ويفنى ، وأعطيتمونا من المجد والشرف مايبقى أبداً ولا يبيد : يتناشده الناس فى المحافل فيحيى ميت الذكر ويرفع بقية العقب .

لم يكن كلّ هؤلاء مسرفين فى حكمهم ولا مبالغين ، وإنما كانوا صادقين مدفوعين بتأثرهم من جمال هذا القول .

كذلك فى نوع العطاء صورة لرأى الممدوح فى الشعر الذى مدح به ، فهذا خالد القسرى لما سمع من الكميت قوله فيه :

لو قيل للمجد من حَلِيفُكَ ما   إنْ كان إلاّ إليك يَنْتَسِبُ
أنتَ أخوه وأنت صورتُه   والرأسُ منه وغيرُكَ الذَّنَبُ
أَحْرَزْتَ فَضْلَ النِّضال فى مَهَلٍ   فكلَّ يومٍ بِكَفِّكَ القَصَبُ(١)
لو أن كعباً وحاتماً نُشِرا   كانا جميعاً من بعض ماتَهَبُ
لاتخلف الوعدَ إنْ وعدتَ ولا   أنت عن المُعْتَفِين تحتجبُ(٢)
ما دونك اليوم من نوال ولا   خلفك للراغبين منقلبُ(٣)

أمر له بمائة ألف درهم .

وهذا مُخَلَّد بن يزيد بن المهلب أنشده الكميت :

قاد الجيوش لخمس عشرة حِجّة   وَلِدَاتُه عن ذاك فى أشغال
قعدتْ بهم هِمّاتُهم وسَمَتْ به   هِمَمُ الملوك وسَوْرَةُ الأبطال(٤)

---

(١) القصب : قصب السبق .
(٢) المعتفون : طالبو الجود .
(٣) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يرجى .
(٤) السورة : السطوة والشدة .

وكان قدام مُخَلَّد دراهم يقال لها الرويجة ، فقال للكميت : خذ وَقْرك منها ، قال الكميت البغلة بالباب وهى أجلد منى ، فقال : خذ وقرها ، فأخذ أربعة وعشرين ألف درهم .

حكمنا على شعر الكميت

أما حكمنا على شعر الكميت بعد ما قدمنا لك ، فهو أن الرجل كان مطبوعاً على قول الشعر . يدلك على ذلك طول نفسه فيه فهاشمياته طويلة ، (وسنفرد لها فصلاخاصًّا) وكذلك قصيدته التى ردّ بها على الأعور الكلبى بلغت ثلثمائة بيت ، وشعره كله بلغ خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً ، وهو مقدار كبير لم يبلغ مبلغه شاعر من أهل زمانه ، كما يدلك على هذا الانطباع قصيدته الرائية التى ارتجلها فى مجلس العفو عنه بين يدى هشام الخليفة .

كذلك كان سليم الملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر الذى لم يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضمّ إلى علمه الواسع بلغات العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، وكان زمنه يتطلب ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم حاجة نفوسهم لنهش الأعراض ، أو تعداد المناقب .

فاجتمعت بذلك للكميت أسباب الكمال فى شعره : رصانة لفظ ، وطول نفس ، وبعد إشارة .

ولقد كان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم فى جودة شعره حتى لقد تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه كخلف الأحمر كان يعدّ ذلك من معايبه ، ويدعى أن الكميت يسرق كلام الشعراء ، وما هى بسرقة ، ولكنها ما علمت من امتلائه بالحفظ وكثرة الرواية .

أما الأثر السياسى الذى أحدثه شعر الكميت ، فقد كان بعيد الغور حتى لقد اعتبر هذا الشعر من أقوى العوامل فى إحياء العصبية الممقوتة التى جنت على الدولة الأموية ، وبقيت آثارها إلى أوائل العصر العباسىّ حتى أماتها الفرس وقضوا عليها جملة .

وإنك لتدرك قوة هذا الشعر من قول صاحب الأغانى : «ولم تزل عصبيته للعدنانية، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته ، وبعد وفاته حتى ناقض دعبل وابن أبى عُيَيْنة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم عنها » ، ولقد كان ذلك فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة .

ويقول الجاحظ فى بيان المدى الذى بلغه شعر الكميت من التأثير فى سياسة الدولة: « مافتح للشيعة الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحىّ سواهمُ ... فإنّ ذوى القربى أحق وأَوْجَبُ
يقولون لم يورث ولولا تُراثه ... لقد شركتْ فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ(١)

هاشميات الكميت

هى ست قصائد كبار مجموعها نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات يبلغ مجموعها نحو عشرين بيتاً ، وطولى هذه القصائد بلغت مائة وأربعين بيتاً ، ومنها ثلاث أربت كلّ واحدة منها على المائة .

والوصف العام لهذه القصائد أنها تشتمل على تمجيد آل البيت ، ووصفهم بالطهر والجود والشجاعة ، وأنهم أليق الناس بإقامة العدل وضبط ميزانه ، كذلك فيها ذكر للموتى منهم متوّجين بالحديث عن سيرة رسول الله ووصف حياته وأعماله وغزواته ، ولكن بإيجاز يبعد القصيدة عن أن تعد من نوع القصص كذلك يذكر عليًا والحسن والحسين ومقاتلهم ، وفيها كثير من الاحتجاج لآل البيت واستحقاقهم الخلافة وتعريض وتصريح ببنى أمية واغتصابهم للأمر . هذا ما تدور عليه « الهاشميات » والأولى منها فى ترتيب الوضع فى النسخة المطبوعة بمصر ، مطلعها :

---

(١) بكيل وأرحب : حيان من همدان .

من لقلبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتَهام غَيْرَ ما صَبْوةٍ ولا أحْلام
طارقات ولا ادّكار غَوانٍ واضحات الخدود كالآرام (١)
بل هواى الذى أُجِنُّ وأُبْدِى لبنى هاشم فُرُوع الأنام (٢)
للقريبين من ندًى والبعيديـن من الجور فى عُرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النا س ومُرْسِى قواعد الإسلام (٣)
والحماة الكُفاة فى الحرب إن لُفْـ ـفَ ضِرام وَقُودُه بضِرام
والغيوث الذين إن محل النا س فمأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة للأمر إن طُرِّ ق يَتْناً بمُجْهَضٍ أو تمام (٤)

وبعد ذلك يقول فى وصف رسول الله :

أسرة الصادق الحديث أبى القا سم فرع القُدَامس القُدَّام (٥)
خير حىّ وميّت من بنى آ دم طُرًّا مأمومهم والإمام

وفيها يذكر الحسين ، فيقول :

وقتيل بالطَّفِّ غُودِرَ منه بين غَوغاء أُمَّةٍ وطَغام (٦)
تركبُ الطيرُ كالمجاسد منه مع هابٍ من التراب هُيام (٧)
وتُطِيلُ المُرَزَّآتُ المقاليـتُ عليه القعودَ بعد القيام (٨)

---

(١) طارقات : وصف لأحلام . والادكار : التذكر . غوان : جمع غانية ، وهى المرأة الجميلة .
(٢) أجن مضارع جن (كنصر) : أستر وأخفى ، ومثله أجن (كأكرم) . فروع : جمع فرع وهو أعلى الشىء .
(٣) مرسى قواعد الإسلام : من أرسى الشىء بمعنى ثبته وأقره .
(٤) طرّقت الحبلى : إذا خرج شىء من المولود وبقى شىء . اليتن : المولود الذى خرجت رجلاه قبل رأسه ويديه . المجهض : الذى ألقته أمه قبل تمامه .
(٥) القدامس : السيد . القدام : من يتقدم الناس لشرفه .
(٦) الطف : موضع قرب الكوفة .
(٧) المجاسد : الثياب المزعفرة . الهيام : الذى يتساقط من نفسه .
(٨) المقاليت : جمع مقلاة وهى المرأة لا يعيش لها ولد .

يتعرّفن وَجْــهَ حُرّ عليه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عُقْبةُ السَّرْدِ ظاهرًا والوَسام (١)

قتلَ الأدعياء إذ قتلوه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أكرمَ الشاربين صَوْبَ الغمام

والثانية مطلعها :

طربت وماشوقا إلى البيض أطرب ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب ؟

وقد مرّ بك هذا المطلع وما يليه . ومنها فى ذكر استحقاق آل البيت للخلافة :

وجدنا لكم فى آل حاميم آية ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ تأوّلها منّا تَقِيٌّ ومُعْرِب (٢)

وفى غيرها آيًا وآيًا تتابعتْ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لكم نَصَبٌ فيها لذى الشَّكّ مُنْصِبُ (٣)

بحقّكمُ أمستْ قريشٌ تقودنا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وبالفَذّ منها والرَّدِيفين نُرْكَبُ (٤)

والثالثة مطلعها :

أنّى ومن أين آبك الطرب ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ من حيث لا صبوة ولا رِيَبُ

لا من طلاب المحجّبات إذا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ألْـقى دون المَعاصِرِ الحُجُب

وفيها يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو مامرّ فى الأولى .

والرابعة وأوّلها :

ألا هل عَمٍ فى رأيه متأمــلُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وهل مدبرٌ بعدَ الإساءة مُقْبلُ

وهل أمة مستيقظون لرُشْـــدهم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فيكشف عنه النَّعْسَةَ المُتزمّل

فقدطال هذا النوم واستخرج الكرى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مساوئَهُمْ لو كان ذا الميلُ يُعْدَل

---

(١) العقبة : ضرب من الثياب موشى . السرد : الشرف والمروءة . الوسام (بالفتح) الحسن .

(٢) الآية هى قوله تعالى فى سورة الشورى « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » .

(٣) النصب بالتحريك : العلم المنصوب . منصب : متعب ، والآيات هى قوله تعالى فى الأحزاب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله تعالى فى الأنفال « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى » الآية .

(٤) يريد أن قريشا (يعنى بنى أمية) تحكم الناس باسم آل هاشم فهم يتخذونهم وسيلة إلى غرضهم كما تركب الدابة للوصول بها إلى الجهة ، المراد بركبها واحد أواثنان .

وعُطِّلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التي نَتَنَحّلُ
كلامُ النبيين الهداة كلامُنا ... وأفعالَ أهلِ الجاهلية نَفْعَلُ
رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونُقْتَل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جُنّةٌ مما نخاف ومَعْقِلِ
أرانا على حُبِّ الحياة وطولها ... يُجَدُّ بنا فى كلّ يوم ونَهْزِل

هذه هى صورة «الهاشميات» قربناها إليك بما نقلناه منها، وهى مطبوعة مشروحة. أما بقية شعره. فغير مجموع.

نقد الكلام فى عصر بنى أمية

النقد ميز الخبيث من الطيب، والزائف من الجائز، وهو فى الكلام معرفة صائبه من خاطئه، وتقدير حسن موقعه، أو سوء موضعه.

ولقد كان ذلك شغلَ العرب فى جاهليتهم وهم من عرفت عناية بالقول والتماساً لأبلغه وتلطفاً لحسن موقعه، وإن أحدهم ربما قال القول لا يبغى به إلا المباهاة بالفصاحة والمساماة فى حسن البيان، فلم يكن غرضهم من كلّ ما قالوا إرشاد السامع إلى ما جهل وإفهامه ما غمض، بل كان أكبر همهم الإدلال بشرف اللفظ والتنبيه على مكانه، وجدير بمن كانوا بهذه المثابة أن يكونوا قد بالغوا فى العناية بالكلام، فاختاروا لفظه نقيًا صافياً، وعمدوا إليه جزلا شريفاً. والتمسوا له الموقع اللائق والسياق المناسب. وهم أحرى إذا نظروا فى الكلام، أو استأذن على سمعهم شىء منه أن يدركوا بموازينهم المضبوطة، وملكاتهم السليمة حسن موقعه، أو نبوّ موضعه، لأنهم طالما أخذوا أنفسهم بذلك، ولم تعتد آذانهم إلا سماع الجيد.

ولعلّ هذا الغرام منهم بحسن الاتساق وجمال الوقع هو الذى جعل الشعر كثيراً

فيهم فإنه بوزنه واتحاد قافيته يساعد على التغنى ، ومن شأنه أن ينفى كل كلمة لا تقبل التوقيع ، ولا تدخل فى حظيرة الموسيقى .

وإن ملكة النقد عندهم هى التى تمثلت فى أسواقهم أيام الجاهلية ، فتنخلت قريش اللغات ، فخلص لها من بينها لغة جمعت ماتفرّق فى لغات العرب من مزايا ، ثم أرصد الشعراء لأنفسهم حكاما يستجيدون الرصين من قولهم ، ويبهرجون الباطل منه ليكون القائل دائمًا على ذكر من توخى المثل الأعلى والتماس الغاية المنشودة ، وليكون للملكات رقيب يحصى خطأها ، وينفى زَيفها ، فلا تتأثر به الأسماع ، ولقد كان الحكم فى شعرهم حينا ما ، النابغة الذبيانى ، فكان يعرض عليه الشعراء أقوالهم فيقضى فيها بالحكم الذى لا يرد ، وقد مرّ بك حديث حسان والخنساء حين أسمعا النابغة شعرهما ، وما كان له من رأى صائب .

استمرّ ذلك شأن العرب يحكمون للمجيد على المقصر ، ويتبعون الكلمة بالرأى فيها يساعدهم على ذلك ما كان لهم من حرية فى إبداء الرأى لا ينهنه لها غرب حتى كان أحدهم يشعر بأن ديناً فى عنقه أن يقول كلمته ، ويعلن للناس رأيه ليبرئ ذمته من أمانة لا يستطيع لها خيانة ، ومن عهد ما يرى فى الوفاء به من بدّ . وهذا هو الذى جعل الحطيئة حين دنت وفاته يجعل فى موضع وصيته أن يقول أبلغوا غطفان أن الشماخ أشعر العرب حيث يقول :

إذَا نبض الرَّامونَ فيها ترنَّمَتْ ... ترَنُّمَ ثَكْلَى أوجعَتْها الجنائز

وأبلغوا أهل ضابئ أنه كان شاعراً حيث يقول :

لكلّ جديدٍ لذةٌ غير أننى ... رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذِ

وأبلغوا أمرأ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيالَكَ من ليلٍ كأنَّ نُجُومَه ... بكل مُغَار الْفتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبلِ

وأبلغوا الأنصار أن صاحبهم (يعنى حسانًا) أشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ ... لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

ثم يختم هذه الأمانة التي يؤديها ، وكأنه يرجو نفعها في آخرته بقوله :

الشعرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ   إذا ارتقى فيه الذى لا يَعْلَمُهْ
زَلَّتْ به إلى الحَضِيضِ قدَمُه   يُرِيدُ أن يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

ولقد جاء الإسلام ، فنشر لهم بالقرآن ، وكلام النبي مطارف من القول جيدة النسج بديعة الصنع ، فأدركوا بهما كيف يكون حسن التأليف وتلاحم القول ، وكيف تقع الكلمة موقعاً لا يحسن فيه غيرها ، ولا يليق به سواها ، وكيف تكون للأسلوب روعة في مقام الزجر ، وتطريب في مقام البشرى ، وإبكاء في سياق الوعظ ، وتثبيط وإخزاء عند العتاب واللوم ، إلى غير ذلك مما لهما من جمال رائع كان هو هادى العرب إلى الإيمان وداعيتهم إلى الدّين .

عرف العرب بالقرآن مثلا في البلاغة أسمى من مثلهم ، ورأوا في كثرة معانيه ، واتساقها ذخيرة لم تمتلئ بمثلها أيديهم ، فصار للبلاغة عندهم مقياس فوق مقياسهم وحد لم يبلغوه في جاهليتهم . فلا غرو إذا أنتج هذا فيهم دقة حسّ ، وحسن تقدير ، والتماساً للكمال يجعلون فيه القرآن وكلام الرسول حجتهم ونموذجهم ، لذلك رأيناهم أقبلوا عليهما يكثرون من اقتباس ألفاظهما ويتأثرون بأساليبهما ، ويهتدون في معانيهم بهديهما تساعدهم على ذلك ملكات حصيفة توارثوها من عهد قريب عن آباء صدق لم تشبها هجنة ولم تعبها عجمة ، ولقد استمرّ العرب في مدة العصر الأموى محتفظين بالمقدرة على النقد وصدق الحكم لأن الملكة بقيت سليمة خصوصاً في الخاصة من ولاة الأمر وأمراء الكلام . بل لقد كان للنقد رواج عظيم تبع رواج الشعر والاهتمام به ، فكان كما ذكرنا في مواضع سابقة لكلّ شاعر رواة يتعصبون له ويفضلونه على غيره ، ولا يكون التفضيل إلا بعد محاسن الكلام والنيل من غيره بالتجريح والعيب ، كذلك كانت كثرة الشعراء ، وتهافت الناس على التكسب بالشعر من أسباب النظر في كلامهم لترتيب درجاتهم ، وتقديم المستحق للتقديم كذلك كان الشاعر نفسه يرسل القصيدة ، وقد عرف البيت الذى سيزحف له الممدوح إعجاباً وارتياحاً كما يعرف في الهجاء البيت

الذى سيفرى جلد المهجو ويدق عظمه . كما حدث أن جريراً هاجه راعى الإبل ، فانصرف وهو مغضب ، فما زال أرقا طول ليله يهدر هدير البعير ، ويقرض الشعر فى هجائه حتى وصل إلى قوله :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

فوثب حتى أصاب رأسه السقف وكبر ثم صاح أخزيته والله ، والله لايفلح بعدها ، فكان كما قال ، وارتحل راعى الابل على أثر سماعه لهذا القول منكسراً مخذولا ، فكان كلما مر بمكان وجد هذا الشعر قد سبقه إليه .

ولقد بلغ من قوة نقدهم وتمييزهم لطبقات الكلام أن كان مثل خلف الأحمر، وحماد الراوية يقولان على لسان كل شاعر مالا يستطيع الناس تمييزه من قوله لأن أحدهم كان قد سبق فعلم خصائص كل شاعر ودقائق الفروق بين قوله وأقوال غيره ، فإذا قال مثلا على لسان امرئ القيس لم تر إلا روح امرئ القيس مترددة فيما يقول ، ولشدة الحذق وتناهى المقدرة فى التقليد جاز ما وضعوه على ألسنة هؤلاء الشعراء ، ودخل على الناس كأنه كلامهم .

ولقد راج النقد فى هذا العصر رواج الشعر نفسه،فقد حفلت به مجالس الخلفاء والأمراء والولاة وحلقات الأدب فى المساجد الجامعة وأسواقه فى البصرة والكوفة ، وكان حديث الناس وموضوع سمرهم ، فما ذكروا شاعراً إلا أعقبوا ذكره بالرأى فيه .

لأجل ذلك ترى كتب الأدب قد امتلأت بالحكم على الشعراء والخلاف بين النقاد فى تفضيل شاعر على آخر ، وماذكرناه فى فصول سابقة من أن هذه الآراء كانت مثاراً للمخاصمات والتجالد بالسيوف يدلك أوضح دلالة على ما كان للنقد من رواج فى هذا العصر ، ولقد كان النقد عند العرب فى هذا العصر والذى قبله من أيام الجاهلية يشمل جهتى الكلام : عبارته ومعناه . فأما اللفظ فقد تناولوا فيه اللفظ من حيث السهولة والوعورة والاضطراب والانسجام والتناسب والتنافر ، ثم الصحة والخطأ واللحن والإصابة . فإذا كان شعراً تناولوا الوزن ومناسبته المعنى ، ونقدوا الشاعر فى التزامه

بحوراً خاصة لايتعداها ، وحكموا على القافية فى شدّة أسرها ، أوقلق موضعها إلى غير ذلك مما تعرفه من الأمورالتى تتعلق باللفظ مفرداً ومركباً، وقد قال أصحاب الأعشى: هو أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم فى فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحًا وهجاء . ولا يذهب عن بالنا ما كان يعاب على شعر النابغة الذبيانى من الإقواء ، وهو اختلاف حركات الروى ، وذلك لأنه لم يكن يعيد نظره فى شعره حتى يفطن إلى مثل هذه المآخذ ، فانتهز أهل المدينة فرصة حلوله بينهم فدسوا عليه مغنية تغنيه بقوله :

أمِنْ آلِ مَيَّةَ رَائحٌ أَوْ مُغْتَدِ ... عَجْلانَ ذا زادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ
زَعَمَ الْبَوارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَداً ... وَ بِذاكَ خَبَّرَنَا الْغُرابُ الأَسْوَدُ
سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقاطَهُ ... فَتَناوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَـــدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنانَهُ ... عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَّطافَةِ يُعْقَدِ

وأمروها إذا بلغت الروى أن تمده حتى يفطن له ، وقد فطن فأصلح شعره وقال : وردت يثرب وفى شعرى بعض العهدة ، وصدرت عنها وأنا أشعر الناس . كذلك نقدوا المعنى ، وفى حكاية الخنساء وحسان حين وفدا على النابغة مايدلّ على عنايتهم بالمعنى ، فقد عدت الخنساء على حسان أنه قلل جفانه فى قوله: لنا الجفنات الغرّ ، وجعل طعامه بالنهار فى قوله : يلمعن بالضحى . قالت له : لو قلت بالدجى لكان أكثر طراقاً ، ثم عابت عليه افتخاره بالأبناء فى قوله :

وَلَدْنا بَنِى الْعَنْقاءِ وابْنَىْ مُحَرِّقٍ ... فَأَكْرِمْ بِنا خَالاًوأَكْرِمْ بِنَا ابْنَما

وعادة العرب أن تفخر بالآباء ، وسيمرّ بك من ذلك كثير جرى على ألسنة الخلفاء والأدباء فى العصر الأموى .

❊

والذى نراه أن النقد كان نواة علوم البلاغة التى تكاملت فيما بعد فصارت علماً مستقلاً . ألست ترى أن موضوعهما واحد وهو الكلام و بيان وجوه حسنه وأسباب

نقصه ؟ فقد كانوا إذا أرادوا تعليل الحسن فى الكلام أشاروا إلى أزدواجه ، أو سجعه مثلا ، أو أنه اشتمل على تقسيم صادق أو اقتباس حسن ، كما نقدوا مطالع القصائد ، فاستحسنوا المطلع الجزل الدالّ على الغرض الملائم للموضوع ، واستهجنوا مادعا إلى التطير وحمل على الاستكراه ، ولم يكن مناسباً لمقام الكلام ، كما تناولوا الانتقال من التشبيب إلى الغرض ، فإذا رأوا الشاعر قد أحسن التخلص وتلطف فى المدخل حمدوا صنيعه ، وإن رأوه وثب من غير ربط ، وهجم من غير تلطف عابوه واتهموه ، كذلك نظروا إلى الختام ، وطالبوا فيه أن يكون حسناً ليكون مايعلق بالذهن من القول محموداً ، وليمحو بحسنه الباقى قبحاً سبقه إن كان ، وهكذا فكان من آثار ذلك أن رأينا علم البلاغة يتكوّن وفيه أبواب البديع من ازدواج وسجع وتقسيم إلى غيرها .

ونحن الآن وقد فقدنا قوّة النقد لفقد السليقة العربية ترانا لانستطيع الحكم على الكلام إلا إذا ترسمنا خطا علوم البلاغة وحكمناها فيما نعرض له من القول فيما ننقده ونميز طيبه من خبيثه ، لذلك لانرى لغير البارعين فى هذه العلوم الواقفين على أسرارها أن يتناولوا الأساليب العربية بالنقد ، فإن كلام غيرهم فى ذلك خلط وضلال يجب أن تصان عنه العربية .

❊

وسنورد عليك أمثلة مما وقع من النقد تدرك بها مدى هذه الملكة فى نفوس القوم.

١ — عابوا على امرىء القيس قوله :

أَغَرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِى ... وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِى يَفْعَلِ

فقالوا : إذا لم يغرها ذلك منه فما الذى يغرها ؟

وأخذوا عليه قوله :

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ ... وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ (١)

---

(١) الألهوب : شدة الجرى . الدرة : الاندفاع . الأخرج : الظليم . المهذب : السريع العدو من

فقالوا : لو وصف أخسّ حمار وأضعفه ما زاد على ذلك ، واستجادوا فى هذا المعنى قوله هو :

أَفَانِينَ جَرْيٍ غَيْرَ كَزٍّ ولاوانى ... عَلَى سَابِحٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ (١)

كما عدوا من غفلة كُثَيِّر قوله :

أَلَا لَيْتَنَا يا عَزُّ من غير ريبة ... بَعِيرَانِ نَرْعَى فى خَلَاءٍ وَنَعْزُبُ (٢)

كلانا به عُرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ ... على حسنها جَرْبَاءُ تُعْدِى وَأَجْرَبُ

إذَا مَا وَرَدْنَا مَنْهَلًا هَاجَ أَهْلُهُ ... إِلَيْنَا فَلَا نَنْفَكُّ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

حتى قالت له عزّة : لقد أردت لى الشقاء الطويل .

٢ — أراد جرير أن يذكر عفوه عن بنى غُدَانَةَ حين شفع فيهم عطية بن جعال ، فهجاهم أقبح هجاء حيث يقول :

أَبَنِي غُدَانَةَ إِنَّنِي حَرَّرْتُكُمْ ... وَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةَ بْنِ جِعَالِ

لَوْلَا عَطِيَّةُ لَاجْتَدَعْتُ أُنُوفَكُمْ ... مَا بَيْنَ أَلْأَمِ آنُفٍ وَسِبَالِ (٣)

فقال عطية لما سمع الشعر : ما أسرع ما رجع أخى فى عطيته ؟

٣ — أنشد عبد الملك قول نصيب :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ ... فَوَا حَزَنَا مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِى

فقال بعض الحاضرين: أساء القول . أيحزن لمن يهيم بها بعده ؟ قال عبد الملك: لو كنت قائلا فماذا تقول ؟ قال :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ ... أُوَكِّلْ بِدَعْدٍ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِى

أهذب بمعنى أسرع : والمعنى أن السوط يحمل هذا الفرس على شدة الجرى ولمس بطنه بساق الراكب يجعله يندفع فى جريه وإذا زجره راكبه كان منه ما يكون من الظليم (ولد النعامة) المسرع .

(١) الكز : المنقبض ، والمراد هنا تقارب الخطا فى الجرى .

(٢) من غير ريبة أن لا يكون منا ما يريب: أى يكون اجتماعهما لا إثم فيه .

(٣) آنف : جمع أنف . سبال (جمع سبلة) وهو الشعر على الشارب .

فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولا ، ثم قال الوجه أن يقال :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ فَلَا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِى خُلَّةٍ بَعْدِى

٤ — أنشد عبد الله بن جعفر قول الشاعر :

إِنَّ الصنيعةَ لا تكون صنيعةً حَتَّى تُصِيبَ بها طَرِيقَ المَصْنَعِ

فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس . أمطر المعروف مطراً فإن صادف موضعاً ، فذلك الذى قصدت له و إلا كنت أحق به .

٥ — أنشد الكُمَيْتُ نُصَيْباً ، فاستمع له ، فكان فيما أنشده :

وقد رأينا بها حُـورًا مُنَعَّمَةً بِيضاً تَكامَلَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ[(١)]

فثنى نُصَيْبٌ خنصره ، فقال له الكميت : ما تصنع ؟ قال : أُحْصِى خطأك تباعدت فى قولك تكامل الدَّلُّ والشَّنَبُ ، هلا قلت كما قال ذو الرُّمَّة :

لَمْيَاءُ فى شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِى اللِّثَاتِ وَفِى أَنْيَابِهَا شَنَبُ[(٢)]

قال أبو العباس المبرد : الذى عابه نصيب من قوله تكامل فيها الدل والشنب قبيح جدًّا، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشا كلها .

٦ — أنشد ذو الرُّمَّةِ بِلالاً يمدحه :

سَمِعْتُ : الناسُ يَنْتَجِعُونَ غَيْثاً فَقُلْتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعِى بِلالَا[(٣)]

تُنَاخِى عِنْدَ خَيْرِ فَتًى يَمَانٍ إِذَا النَّكْبَاءُ نَاوَحَتِ الشَّمَالَا[(٤)]

---

(١) الحور : جمع حوراء ، وهى الشديدة سواد العين . الدل : الدلال ، وهو ما يكون فى المحبوب من التجنى على الحب . الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

(٢) اللمى : سواد فى الشفة وكذلك الحوة واللعس .

(٣) الكلام على الحكاية أى سمعت هذه العبارة وهى : الناس ينتجعون غيثاً . صيدح . اسم ناقته .

(٤) يمان نسبة إلى اليمن يقال: هو يمنى ويمانىّ ويمان والنكباء :كل ريح انحرفت عن مهبها فوقعت بين مهبين، أو هى التى تقع بين الصبا والشمال وإذا وقعت الريح كذلك كان ذلك آية الشقاء وفيه الجدب فالجود فيه يدل على رسوخ صفة الكرم فى الكريم .

فلما سمع بلال «فقلت لصيدح» قال: ياغلام مر لها بقتٍّ ونوى.

٧ — قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج، فأنشدته:

إِذَا وَرَدَ الحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً   تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُقَامِ الَّذِي بِهَا   غُلَامٌ إِذَا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا

فقال لها: لا تقولى غلام، ولكن قولى همام.

٨ — عرضت امرأة لكُثَيِّر، فقالت أنت القائل:

فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى   يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُها(١)

بأطيب من أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِناً   وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نَارُها(٢)

أرأيت لو أن زنجية بخرت أردانها بمندل رطب أما كانت تطيب ألا قلت؟ كما قال أمرؤ القيس:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً   وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

دخل جرير على الوليد وابن الرِّقَاعِ العَامِلى عنده ينشده القصيدة التى يقول فيها:

غَلَبَ المَسَامِيحَ الوَلِيدُ سَمَاحَةً   وَكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلَاتِ وَسَادَهَا

فقال جرير: فحسدته على أبيات منها حتى إذا أنشد فى صفة الظبية:

* تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ *

فقلت فى نفسى: والله ما يقدر أن يقول أو يشبه، فلما قال: «قلم أصاب من الدواة مدادها» ما قدرت حسداً أن أقيم، فانصرفت.

٩ — كان الحسن يخطب فى دم، فأجابه ولىّ الدم: قد تركت ذلك لله ولوجوهكم، فقال الحسن: لا تقل هكذا، ولكن قل: لله ثم لوجوهكم وآجرك الله،

---

(١) الحزن: ماغلظ من الأرض. الجثجاث: نبات. العرار: بهار البر.

(٢) الاردان: جمع ردن (كقفل) وهو الكم. الموهن من أول الليل إلى نحو نصفه: المندل العود وأجوده.

ومرّ رجل بأبى بكر ومع الرجل ثوب ، فقال له أبو بكر: أتبيع الثوب ؟ فقال الرجل: لا. عافاك الله . فقال له أبو بكر :لقد علمتم لو كنتم تعلمون . قل لا . وعافاك الله . وسأل عمر رجلا عن شىء ، فقال :الله أعلم . قال عمر : لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله يعلم : إذا سئل أحدكم عن شىء لايعلمه ، فليقل لاعلم لى .

١٠ — أنشد ابن قيس الرقيات عبد الملك :

إنَّ الحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ ... أَوْجَعْنَنِى وَقَرَعْنَ مَرْوَتِيَهْ
وَجَبَبْنَنِى جَبَّ السَّنَامِ فَلَمْ ... يَتْرُكْنَ رِيشاً فى مَنَا كِبِيَهْ(١)

فقال له عبد الملك : أحسنت إلا أنك تخنثت فى قوافيك .

١١ — أنشد ذو الرّمّة عبد الملك :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ ... كَأَنَّهُ من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ(٢)

فقال عبد الملك : ما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وأمر باخراجه . وكان بعبد الملك رَمَش(٣) ، فلا تزال عينه تدمع ، فتوهم أنه يعرض به .

١٢ — عابوا على النابغة الذبيانى اقتضابه فى قوله :

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ الَّذِى يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ(٤)
عَلَىَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ ... لوالده لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ(٥)

لأنه انتقل فجأة من وصف الليل إلى ذكر الممدوح من غير تخلص .

١٣ — جاء جرير إلى سكينة بنت الحسين عليه السلام يستأذن عليها فلم تأذن له ، وخرجت جاريتها فقالت : تقول لك سيدتى أنت القائل :

---

(١) جبه : قطعه .

(٢) كلى : جمع كلية وكلوة وهى هنا من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة .

(٣) الرمش . تفتل فى شعر الأهداب وحمرة فى الجفون مع ماء يسيل .

(٤) تقاعس : طال .

(٥) العقارب هنا النمائم ، والمعنى لم تفسدها النميمة .

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وَلَيْسَ ذَا   وَقْتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِى بِسَــلَامِ

قال : نعم . قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها ، وأدنيت مجلسها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت عفيف وفيك ضعف ، فخذ هذين الألفى الدرهم فالحق بأهلك .

١٤ — بينا المهلب ذات يوم بفارس يقاتل الأزارقة إذ سمع بعسكره جلبة وصياحا ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : جماعة من العرب تحاكموا إليك فى شىء ، فأذن لهم ، فقالوا : إنا اختلفنا فى جرير والفرزدق ، فكلّ فريق منا يزعم أن صاحبه أشــعر من الآخر ، وقد رضينا بحكم الأمير ، فقال : كأنكم أردتم أن تعرضونى لهذين الكلبين فيمزقا جلدتى . لا أحكم بينهما ، ولـكنى أدلكم على من يهون عليــه أمرهما . عليكم بالأزارقة فإنهم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحقّ ، فلما كان الغد خرج عبيدة ابن هلال اليشكرى ، ودعا المبارزة فخرج إليه رجل من عسكر المهلب ، فقال له : يا عبيدة سألتك الله إلا أخبرتنى عن شىء أسألك عنه ، فقال : سل . قال : أوتخبرنى . قال : نعم . إن كنت أعلم . قال : أجرير أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبّحك الله أتركت القرآن واللغة وسألتنى عن الشعر . قال : إنا تشاجرنا فى ذلك ورضينا بك ، فقال : من الذى يقول :

وطَوَى الطِّرَادُ بُطُونَهُنَّ كأنَّها   طَىُّ التِّجَارِ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودَا(١)

قال : جرير . قال : هو أشعر الرجلين .

١٥ — وعابوا على الشَّمَّاخ بن ضِرَارٍ قوله فى عرابة الأَوْسِىّ يخاطب ناقته :

إذَا بلَّغْتِنِى وَحَمَلْتِ رَحْلِى   عَرَابَةَ فاشْرَقِى بِدَمِ الْوَتِينِ

قالوا : كان ينبغى أن ينظر لهـا مع استغنائه عنها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصارية التى نجت من أسرها بمكة على ناقة رسول الله : إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها ، فقال لهـا رسول الله لبئس ما جزيتها ، وقال : لا نذر فى معصية ، ولا نذر للإنسان فى غير ملكه .

---

(١) الطراد : حمل الفرسان بعضهم على بعض .

قالوا : ومما لم يعب فى هذا قول عبد الله بن رَوَاحة الأنصارىّ :

إذَا بَلَّغتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أربع بعد الحِسَاءِ
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرْجِعْ إلى أهلى ورائى

وذلك عند ما أقرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش مُؤْتَةَ فرحا منه بذلك .

وقد اتبع ذو الرُّمَّة الشَّمَّاخ ، فقال :

إذا ابنَ أبى موسى بلالاً بلغته فقام بفأس بين وَصْليك جازر

١٦ — ومن الأمثلة الجامعة للنقد ما رواه المبرّد : أن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ونُصَيْباً صاروا إلى كُثَيّر ، فأقبل على عمر ، فقال له : أحسنت فى كثير من شعرك ، ولكن أخبرنى عن قولك :

قالت لها أختها تعاتبها لَتُفْسِدِنَّ الطواف فى عمر
قومى تصدّى له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت فى خَفَرَ
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسْبَطَرَّتْ تشتدّ فى أثرى

والله لو قد قلت هذا فى هرّة أهلك ما عدا . أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك . أهكذا يقال للمرأة إنما توصف بالخفر ، وأنها مطلوبة ممتنعة . هلا قلت كما قال هذا ، وضرب بيده على كتف الأحوص :

أَدُورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفر بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدور
وما كنتُ زوّارًا ولكنّ ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لابدّ أن سَيَزُور
لقد منعتْ معروفَها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير

فامتلأ الأحوص سروراً ، ثم أقبل عليه ، فقال : يا أحوص خبرنى عن قولك :

فإن تَصِلِي أَصِلْكِ وإن تعودِى لهجرٍ بعد وَصْلِكِ لا أُبالى

أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ، هلا قلت كما قال هذا وضرب بيده على جنب نُصيب :

بزينب أَلمِمْ قبلَ أن يَظْعَنَ الرَّكْبُ   وقُلْ إنْ تَمَلِّينا فَمَا مَلَّكِ القلبُ

فانتفخ نُصَيبٌ ، ثم أقبل عليه ، فقال له : ولكن أخبرنى عن قولك يا أسود :

أهيم بدعدٍ ما حَيِيتُ فإن أَمُتْ   فواحَزَنَا من ذا يهيم بها بعدى

كأنك اغتممت ألَّا يُفْعل بها بعدك . فقال بعضهم لبعض : قوموا فقد استوت الفِرْقة.
(الفرقة : لعبة على خطوط واستواؤها انقضاؤها) .

الرواية والرواة

كانت الرواية لازمة العرب فى جاهليتهم لمكانهم من الأمية ، وحاجتهم إلى تناقل أخبارهم ، ولقد ساعدهم على ذلك قوّة ملكاتهم وتمام حوافظهم . ولقد أتوا فى ذلك بالمدهش من أمرهم ، فقد كان الرجل منهم يعرف سلسلة نسبه حتى ينتهى إلى نزار أو قحطان ، وأغرب منه أن يعرف بعضهم أنساب قبيلة أو أكثر فلا يخطئ فيها . كما ذكروا عن أبى بكر علمه بأنساب قريش وغيرها من قبائل العرب . ولما كان الشعر علم العرب ، وسجلّ تاريخهم ، وشاهد أيامهم كثرت روايتهم له حتى كان لكلّ شاعر راوية أو أكثر ، وكان الراوية من الشاعر بمثابة تلميذه الذى يتعلم عنه ويحتج لقوله . كان امرؤ القيس راوية أبو داؤد الإيادى، وزهير راوية أوس بن حجر، والأعشى راوية المسيب بن علس ، والحطيئة راوية زهير ، وابنه كعب من بعده .

ولما جاء الإسلام فشغل العرب عن كلّ شىء من سابق أمورهم فترت الرواية بفتور الشعر ، ثم رأوا أنهم محتاجون إليها لفهم القرآن ، وإدراك أسراره ، ولتعرّف أخبار آبائهم ، وإحياء ما درس من آدابهم ، فكانت للرواية سوق نافقة ، ونشأ من الرواة قوم وقفوا عملهم على الرحلة إلى البادية ، ومشافهة الأعراب ، ونقل كلامهم للاحتجاج به فى إثبات عادة عربية ، أو قاعدة نحوية ، وكان علم النحو أوّل ما بحث من علوم العربية .

ولم يكن الرواة يأخذون إلا عمن صحت عربيتهم كقيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيء ولم يأخذوا عن لخم ولا جذام لمجاورتهما أهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان لحلولهم بالشام ، ولا عن بكر لمجاورتهم الفرس ، ولا عن عبد القيس والأزد وعمان لمخالطتهم الهند والفرس بالبحرين ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا من أهل الحجاز لأنهم كانوا أسبق العرب إلى المخالطة ، فإن ألسنتهم كانت قد فسدت حين بدأ الرواة ينقلون اللغة .

وقد شجع الخلفاء الرواية وأدنوا الرواة ، وأثابوهم بالعطاء الجزل ، واستدعوهم من أقاصي البلاد لسؤالهم عن بيت شعر أو معنى كلمة . ولقد كان الأعراب بادئ الأمر يبوحون للرواة بما يطلبون غير طامعين في أجر على ذلك حتى رأوا ما تدر الرواية على أصحابها من خير ، فجعلوا يطلبون الأجر على إجاباتهم ، وبعضهم كان يقصد الحضر ، ويقيم فيه مسترزقاً بعلمه ، وما حفظه من كلام معرب . ولقد نشأ بجانب رواية الشعر وأخبار العرب ، رواية لحديث رسول الله ، وقراءات القرآن وتفسيره ، وفتاوى الصحابة فى أمور الدّين ، فكان لكلّ ذلك رواة ، وقد يستقلّ راوية بنوع من هذه أو يجمع بين أنواع منها ، وبقى للشعراء رواة كما كان لهم أيام الجاهلية ، فكان كثير راوية جميل ، ومربع راوية جرير ، والفرزدق ومحمد بن سهل راوية الكميت ، وذو الرّمّة راوية الراعى ، وفى أواخر العصر كان الراوى يروى لمن يستطيع الرواية لهم من شعراء الجاهلية والإسلام لا يختصّ بواحد دون آخر ، فكان حماد يروى كلّ ما وقف عليه من شعر العرب قديماً وحديثاً .

مبلغ الراوية من الصدق

إن الحافظة مهما قويت لا يكون لها من الضبط ما للتقيد بالكتابة ، فإن الراوية مهما تحرى الصدق وحرص عليه ، قد يعتريه النسيان ، ويدخل عليه الشكّ لاتفاق

القوافى ، وتقارب المعانى ، واتحاد الأوزان . بذلك حدث فى الشعر خطأ غير متعمد فى لفظه ونسبته ، فأدخلوا فى بعض القصائد ما ليس منها للتشابه الحادث بين قصيدتين فى الغرض والوزن والقافية كما حدث فى قصيدة ابن الحدّادية التى مطلعها :

سَقَى اللهُ أطلالا لِنُعْمٍ تَرَادَفَتْ   بِهِنَّ النَّوَى حتى حَلَلْنا المطاليا

وقصيدة المجنون التى مطلعها :

تذكَّرْتُ لَيْلَى والسنينَ الخواليا   وأيَّامَ لا أُعْدِى عَلَى الدَّهْرِ عَادِيَا

وكما حدث فى أبيات ابن الدُّمَيْنَة المشهورة ، وهى :

أُقضى نهارى بالحديث وبالمنى   ويجمعنى والهمّ بالليـــل جامع

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا   لىَ الليلُ شاقتنى إليك المضاجع

لقد ثبتتْ فى القلب منك محبة   كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثر ذلك حتى لقد نسبت القصيدة إلى عشرين أو أربعين شاعراً .

ومن أسباب اختلاف الرواية أن يكون بعض الرواة من غير قبيلة الشاعر ، فينطق بما يوافق لغته ، ويخالف لغة الشاعر . كما أنه قد يغير كلمة بكلمة لأنه يرى الثانية أليق وأوفق لغرضه كقول أبى ذؤيب الهذلى :

دعانى إليها القلبُ إنّى لِأَمْرِهِ   مُطِيعٌ فما أدرى أَرُشْدٌ طِلابُها

هكذا رواه أبو عمرو بن العلاء ، ورواه الأصمعى : « عصانى إليها القلب » .

والرّواة لا يأبون قبول مثل هذا مادام الذى يدلّ فى الكلام عربيًّا لا يطوع لسانه بغير الصواب . كذلك من أسباب اختلاف الرواية أن الشاعر نفســه ينسى كلمة من شعره ، فيضطرّ إلى تغييرها بما يوازنها ، ويكون بمعناها فى حين أن الأولى تكون قد سبقت إلى الناس ، فيصير إليهم الروايتان عن طريق الشاعر نفسه ، ولذا قال ذو الرُّمّة لعيسى بن عمر : اُكتب شعرى فإن الكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ لأن الأعرابىّ ينسى الكلمة قد سهر فى طلبها ليله فيضع موضعها كلمة فى وزنها ، ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلامًا بكلام .

ولم يقف الأمر عند هذه الأسباب ، بل لقد كان من بعضهم تعمد لنحل الشعر لغير قائله أو اختراعه ودسه على من لم يقله ، دعاهم إلى ذلك أنهم لم يحبوا أن يسألوا عن شيء فلا يجيبون .

قالوا إن حمادا قدم البصرة على بلال بن أبي بُرْدَة ، فقال له : ما أطرفتني شيئاً فعاد إليه فأنشده القصيدة التي تراها اليوم في شعر الحطيئة مديحاً لأبي موسى . فقال له بلال : ويحك ! ! يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروي للحطيئة ، ولكن دعها تذهب في الناس .

وكذلك رغبتهم في الزلفى إلى الرؤساء بإثبات مفاخر لآبائهم لم تكن لهم ، فقد ورد في الأغاني أن حماداً الراوية تقرب إلى خالد بن عبد الله القسري باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الحدّادية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء . قال على لسان قيس :

وَقَدْ حَلَلْنَا بِقَسْرِيٍّ أخي ثِقَةٍ … كالبَدْرِ يَجْلُو دُجَى الظَّلْماءِ وَالأُفُقَا
لا يَجْبُرُ النَّاسُ شيئاً هاضه أسدٌ … يومًا ولا يَرْتُقُونَ الدَّهْرَ ما فتقا
كَمْ مِنْ ثَناءٍ عَظِيمٍ قد تَدارَكَهُ … وقد تفاقَمَ فيه الأَمْرُ وانْخَرَقا

قال صاحب الأغاني نقلا عن أبي عمرو الشيباني : « إن حماداً أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله . قال : والتوليد فيها بين جدًّا » .

وقد اشتهر بهذا الكذب في الرواية حماد حتى قال فيه معاصره المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده حتى لا يصلح أبداً » ، وكذلك فعل خلف الأحمر ، فقد ذكر عن نفسه أنه كان ينظم الأشعار وينحلها غير أصحابها .

قال ابن سلام في أسباب دسّ الشعر ونحله غير قائله : « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وماذهب ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كان الرواة بعد فزادوا في الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم

زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال .

وقال أيضاً : إن ابن دؤاد بن مُتَمّم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقوم له البدوى فى الجلب والميرة ، فأتاه أبو عُبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه مُتَمّم وقاما له بحاجته وكفياه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه متمم جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله .

ولكن ذلك لا يجعل الشعر العربى بهذه المثابة التى ينظر إليه بها قوم يشكون فى كلّ ما ورد منه ، ولا يرضون أن يجعلوه حجة على عادة عربية ، أو معنى كلمة ، أو تحقيق لعربيتها فإن العمل برأيهم يكون هدماً للغة من أساسها ، وتضييعاً لهذا التراث العظيم لتهمة عرضت أوشك جرى . على أن العربية لم تخل من نقدة زيفوا هذا المفتعل المنحول ، ومازوه من الصحيح المروىّ عن أصحابه كما أن من اجترأ بالكذب على الشعراء عاد فاعترف بخطئه وهدى الناس إلى مواضع كذبه ، فإن خلفاً الأحمر تنسك فى آخر أيامه وندم على ما كان منه ، وخرج يوما إلى أهل الكوفة فاعترف لهم بما كان منه وعرّفهم الأشعار التى أدخلها فى أشعار الناس. على أن النحل والادعاء لم يصل إلى درجة خلق شعراء لم يكن لهم وجود ، وإنما كان زيادة فى أشعارهم وتتميما لما نقص منها ، فالقول بأن امرأ القيس لا وجود له غلوّ فى دعوى النحل والافتعال لم يقله أحد من السابقين ، وكان جديرًا بمثل خلف أن يعترف بنحو ذلك ، ولكن اعترافه إنما كان بالبيت أو البيتين أو القصيدة يدخلها على الشاعر ، وليست من قوله : فلنتق الله فى دعوانا ، ولا نترك للخيال حكمه فى أحكامنا .

حماد الراوية

هو ابن ميسرة ، أصله من الديلم من موالى بنى بكر بن وائل ، وقد نشأ بالكوفة . وكان أوّل أمره لصًّا يتشطر ، ويصحب الصعاليك ، فيقال : إنه نقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان من بينه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد واستحلاه ، فترك ما كان عليه وطلب الأدب من ذلك الحين ، فكان أعلم الناس بالشعر وأيام العرب ولغاتهم .

ولم يؤهله لهذا الفضل إلا تلك الحافظة النادرة التى وعت جميع ما وصل إليها من خبر وشعر ؛ وكان يحفظ ما يلقى عليه لساعته ، فقد قال الطرماح أنشدت حماداً قولى : « بان الخليط بسحرة فتبدّدوا » ، وهى ستون بيتاً ، فسكت ساعة ، ثم قال : أهذا الشعر لك !! ثم ردها عليه ، وزاد فيها عشرين بيتاً ، فدلّ بذلك على قوّة حفظه ومقدرته على الاختراع .

ولقد قال له الوليد بن يزيد يوما بما استحققت أن تدعى الراوية ؟ قال: بأن أروى لكلّ شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعترف بأنك لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديماً ولا محدثا إلا ميزت القديم من المحدث ، قال له : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكنى أنشدك على كلّ حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قال له الوليد : سأمتحنك ثم أمره بالإنشاد فأنشده حتى ضجر فوكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية ، واستحقّ أن يعطيه الوليد مائة ألف درهم ، وقد استقدمه هشام ابن عبد الملك ، ونحن نروى لك القصة كما وردت على لسان حماد نفسه فى كتاب : « نزهة الألبا ، فى طبقات الأدبا » لابن الأنبارى . قال حماد :

كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه هشام يجفونى لذلك ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت فى بيتى سنة لا أخرج إلا إلى من أثق به من إخوانى سرًا ، فلما لم أسمع أحداً يذكرنى أمنت ، فخرجت فصليت الجمعة فى الرصافة ، ثم جلست عند باب الفيل ، فإذا شرطيان يقولان : أجب الأمير يوسف بن عمر . ولم يدعانى آتى أهلى أودعهم ، فلما انتهيت إلى الأمير رمى إلىّ كتابا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروّع ولا متعتع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا مهريًا يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت الدنانير ونظرت ، فإذا جمل مرحول فركبته حتى انتهيت إلى باب هشام ، فدخلت فى دار قوراء مفروشة بالرخام ، وبين كلّ رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حمر من الخزّ ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، فسلمت عليه فردّ السلام واستدنانى فدنوت حتى قبلت رجله ، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قطّ ، ثم قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالى لم أدر قائله . قلت : وما هو ؟ قال :

وَدَعَوْا بالصَّبُوحِ يومًا فجاءَتْ ... قَيْنَةٌ فى يمينها إبْرِيقُ

فقلت : يقوله عدىّ بن زيد فى قصيدة له ؛ فقال أنشدنيها ، فأنشدته :

بَكَرَ العَاذِلُونَ فى وَضَحِ الصُّبْحِ ... يَقُولُونَ لِى ألا تَسْتَفِيقُ
ويَلُومُونَ فِيكِ يَابْنَةَ عَبْدِ اللهِ ... وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَدْرِى إِذْ أَكْثَرُوا الْعَذْلَ فيها ... أَعَدُوٌّ يلومُنى أَمْ صديقُ

إلى أنِ انتهيت إلى قوله : ودعوا بالصبوح فطرب ، وفى اليوم الثانى ، أفقت من النوم ، فإذا الجاريتان عند رأسى ، وإذا عشرة أعبد مع كلّ عبد بدرة ، فقال لى أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه الدنانير وهاتين الجاريتين ، فأخذت ذلك وعدت إلى أهلى .

كذلك استقدمه أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة إلى العباسيين ، فقال له : ما شـعر فيه أوتاد ؟ قال : من قائله ؟ قال : لا أدرى . قال : فمن الجاهليين أم الإسلاميين ؟ قال : لا أدرى . قال : حماد ، فأطرقت ساعة حتى خطر ببالى شـعر الأفوه الأودى :

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ ولا سَرَاةَ إذا جُهَّالُهُمْ سادُوا

فذكره له ، فسر أبو مسلم ووصله .

كذلك استقدمه فى الدولة العباسـية المنصور ، وكان حزيناً على موت أخيه أبى العباس ، وأراد أن يردّد فيه أبياتاً كان يعلم أن هفان بن همام قالها فى رثاء أبيه ، وقد غابت عن خاطر المنصور ، فرواها له حماد فبكى ، وقال : هكذا كان أخى رضى الله عنه ، وهذه هى الأبيات التى رواها حماد كما وردت فى الأغانى :

خَلِيلَىَّ عُوجَا إنَّهَا حَاجَةٌ لَنَا عَلَى قَبْرِ هَمَّامٍ سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ
عَلَى قَبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ ويُبْتَغَى جَداه إذا لم يَحْمَدِ الأَرضَ رَائِدُ
كَرِيمُ الثَّنَاءِ والشَّمَائِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُرَجَّى نفنف مُتَبَاعِدُ
إذا نَازَعَ القومُ الأحاديثَ لم يَكُنْ عَيِيًّا ولا ثِقْلاً على مَنْ يُقَاعِدُ
صَبُورٌ على العِلاَّتِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ خَمِيصاً وَآتِيهِ على الزَّادِ حَامِدُ
وَضَعْنَا الفتى كُلَّ الْفَتَى فى حَفِيرَةٍ بِحَرَّيْنِ قَدْ رَاحَتْ عَلَيْهِ العَوَائِدُ
صَرِيعاً كَنَصْلِ السَّيْفِ تَضْرِبُ حَوْلَهُ تَرَائِبَهُنَّ المُعْوِلاتُ الفَوَاقِدُ

وقد ظلّ حماد إلى أيام المهدى يقدم عليه وينشده ، ولعلّ ذلك فى ولاية عهده ، فقد مات حماد سنة ١٥٥ ، أو سنة ١٥٦ ، ولم يكن المهدى قد ولى الخلافة .

وحماد هو الذى جمع المعلقات ، وجمع أشعاراً كثر القبائل ، وأكثر شعراء بنى أمية ، وجعل شعر كلّ قبيلة أو شاعر فى كتاب ، فكان عنده كتاب لشعر قريش ، وآخر لشعر ثقيف ، ولـكن هذه الـكتب قد ضاعت .

أبو عمرو بن العلاء

قيل إن اسمه كنيته ، وقيل : إن اسمه زبان ، ويروى أن الفرزدق جاءه معتذراً عن هجاء بلغه عنه ، فقال له أبو عمرو :

هجوتَ زَبّانَ ثم جئت معتذرًا　　من هجو زَبّانَ لم تهجو ولم تدع

وسبب الاختلاف فى اسمه أنه كان لجلالة شأنه وهيبته فى النفوس لا يسأل عنه .

أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثى ، وأخذه عنه يونس بن حبيب البصرى ، والخليل بن أحمد ، وكان يونس يقول عنه : لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله فى كلّ شىء كان ينبغى أن يؤخذ بقول أبى عمرو كله فى العربيــة ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا النبى صلى الله عليه وسلم . كان أحد القراء السبعة ، وكان أعلم الناس بالعربية وأيام العرب ، وكانت الكتب التى نقلها عن العرب الفصحاء تملأ بيتاً له إلى السقف ، ثم إنه تقرأ فأخرجها كلها أو أحرقها ، فلما رجع إلى العمل فى الرواية لم يكن عنــده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية . قال الأصمعى : جلست إلى عمرو بن العلاء عشر حجج ، فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامى ، وقال أبو عمرو مرة : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت بأن آمر فتياننا بروايته (يعنى شعر جرير والفرزدق ونحوهما) .

ومن أخباره أنه قال : كنت هارباً من الحجاج بن يوســف ، وكان يشتبه علىّ «فرجة» أهو بالفتح أو بالضمّ ، فسمعت قائلا :

رُبّمَا تجزَعُ النفُوسُ مِنَ الْأَمْـــرِ　　لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلّ العِقَالِ

بفتح الفاء ، ثم قال : إنه قد مات الحجاج . قال : أبو عمرو ، فما أدرى بأيهما كنت أشدّ فرحًا بقول : فَرْجَة ، أم بقوله : مات الحجاج .

وكان يقول فى مقام الدلالة على قلة المروى لنا من كلام العرب : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير ، وكان يقول : (إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كبَقْل فى أصول رَقْل) ، وهذا يدلّ على كماله وفضله.

وروى عنه أنه قال : سمعت أعرابيًا يقول : فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها . قال : فقلت له : أتقول جاءته كتابى ؟ قال : أليس صحيفة نحمله على المعنى ، وقد جاء ذلك كثيراً فى لغتهم ، واللغوب : الأحمق .

وكان أبو عمرو متواضعاً مع كثير فضله ، كثير التسليم للعرب[1] ، متمسكاً بالآثار ، صادق الرواية ، يروى عنه أنه قال : ما زدت فى شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، وهو :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادثِ إلا الشيب والصلعا

وهـذا الاعتراف منه دليل تحرّجه وتحرّيه ، وبراءته من الكذب فى كلّ ما روى ، وهو كثير مستفيض .

وقد مات بالكوفة ، وسنه أربع وثمانون سنة ، وذلك سنة ١٥٤ هـ ، وذلك فى خلافة المنصور ، ورثاه محمد بن عبد الله المقفع بقوله :

رثينا أبا عمرو ولا حيّ مثله ... فلله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ... ذوى خلة ما فى السداد لها طَمع
فقد جرّ نفعاً فقدنا لك إننا ... أمنّا على كلّ الرزايا من الجزع

---

(١) أى الرضا عنهم والاعجاب بهم والتعصب لهم لا يرى أنهم يخطئون . وقد قيل عنه فى هـذا المقام « كان أبو عمرو أشد تسليما للعرب . وكان ابن أبى إسحق الحضرمى ، وعيسى بن عمر يطعنان عليهم وكان عيسى يقول : أساء النابغة فى قوله « فى أنيابها السم ناقع » يقول موضعها ناقعا .

الغنـــاء العـــربى

منشــــؤه

ليس من شك فى أن الغناء أثر من انفعال النفس يتولد من إحساسها بما يلذّ لها أو يؤلمها ، وإذ كان من انفعال النفس ، فهو جدير أن يصحبها منذ الخلقة ، وأن يسبق النطق إلى الوجود ، فالإنسان قد تأوّه وضحك قبل أن يعبر عن شجوه أو يدلّ على سروره ، وإنما نقيس حال الإنسان فى هذا بما نرى عليه الحيوان من طير ووحش ، فهو لا يتكلم ، وليس ذلك بمانعه أن يبدى عن شجوه أو سروره . فكذلك كان الإنسان . ودليلنا على أن التأوّه أو الضحك أسبق من الكلام عند الإنسان أننا نراهما إلى الآن صوتين مهملين من التهذيب غير متعدّدى المقاطع ، وذلك هو شأن اللغة عند الإنسان الأوّل .

ولكن الإنسان قد خلق للكمال، ما زال يتدرّج حتى استطاع أن يعبر عن شعوره باللفظ ، ثم ما زال يرتق حتى طابق بين هذا اللفظ و بين حركات نفسه فوزنه بها ، ووقعها عليه ، فكان من ذلك الشعر فى أبسط حالاته وهى بحر الرجز : وإنما اتفق للعربىّ وزن الرجز لأنه كما نعلم يقتبس لغته من محاكاة الطبيعة وتقليد أصواتها وحركاتها، وهو فى باديته يتخذ من الناقة حمولة وفرشاً ، فلما أكثر من ركوبها والتأثر بحركاتها تغنى بكلام على وزن الرجز ، وهو يتزن مع حركة الناقة فى سيرها ، وتعلم ذلك إذا ركبت ناقة ، وأنشدت وأنت عليها قول الشاعر :

شكَا إلىَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى   يا جَمَلى لَيْسَ إلىَّ الْمُشْتَكَى
الدِّرْهَمَانِ كلَّفَانِى مَا تَرَى   شَدَّ الْجَوَالِيقِ وَجَذْبًا بِالْبُرَى

* صَبْرٌ جميلٌ فكلانا مُبْتَلَى *

فإنك تجد تفاعيل هذا البحر تتسق مع خطو الناقة وحركاتها أماماً وخلفاً ، ومن أجل أن هذا البحر يوافق طبع الناقة فى حركتها كان به الحداء للإبل ، لأنها إذا سمعته حنّت إلى النغمة التى ألفتها ، وانطبعت عليها خطواتها

وقد تقدّم العرب بعد ذلك ، فوضعوا من الأوزان مااقتبسوه من حركات الحيوان أيضاً ، كبحر الخبب الذى يوافق سير الخيل مثل قول القائل :

إن الدنيا قد غرّتنا واستهوتنا واستلهتنا

فإن وزنه فَعْلُنْ فَعْلُنْ الخ ، وهو إذا أطلت ترجيعه تراه يوازن حركات الخيل فى سرعتها ثم ولّد العرب أوزاناً من أوزان حتى تمت لهم الستة عشر وزناً التى عليها شعرهم .

ونستطيع أن نستدلّ على أن الشعر إنما أحدث لخدمة الغناء أنك تجد فى كتب اللغة أن غنّى بمعنى قال شعراً كأن قول الشعر لم يقصد إلا للتغنى به ، حتى عبروا بالملزوم عن اللازم ، ومن أخبارهم: أن الأعشى إنما سمى صناجة العرب؛ لأنه كان يقول الشعر ويتغنى به .

الغناء فى الجاهلية والإسلام

لم يعرف من الغناء فى الجاهلية إلا أبسط أنواعه ، وهى النصب والسناد والهزج ، فالنصب: غناء الركبان ، والسناد: هو الغناء الثقيل الكثير النغمات، والهزج هوالخفيف النغمات الذى يرقص عليه الأعراب ، كذلك لم يكن لديهم من آلاته إلا الدف (هو أشكال : منها المستدير والمربع والكبير والصغير) والمزمار ، وقد كان هذا الغناء وهذه الأدوات منتشرين فى المدن العربية ، كيثرب ، ومكة ، والطائف ، وصنعاء ، ومأرب ، وغيرها من مدن بلاد العرب . أما فى الصحراء حيث البدو ، فلم يكن غناؤهم إلا ترنّما بالشعر ، وحُداء للإبل ، لا يستعملون لذلك أداة.

ولقد ذكروا أن أوّل من غنى فى العرب قينتان لمعاوية بن بكر ، يقال لهما : الجرادتان . ومن غنائهما :

أَلا يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ   لعلّ الله يُصْبِحُنَا غَمَامَا

وفى حديث الهجرة : أن أهل يثرب صبيتهم ونساءهم خرجوا بالدفوف يغنون :

طَلَعَ الْبَدْرُ علينا   من ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا   ما دَعَا لِلهِ دَاعْ
أَيُّهَا المَبْعُوثُ فينا   جِئْتَ بِالْأَمْرِ المُطَاعْ

فلما جاء الإسلام بالدعوة إلى الدّين ، واشتغل المسلمون بالفتح ، ولم يبق فى وقتهم متسع لشىء من رواية الشعر والتغنّى به فترت حركة الغناء تبعاً لفتور الشعر .

ولما جاءت الدولة الأموية كان للغناء فيها شأنان عظيمان ، فأما أوّلهما : فهو التجديد فيه بإحداث أنغام جديدة لم يكن العرب يعرفونها قبل ، وإنما اقتبسوها من الفرس والروم الذين عاشروهم وخالطوهم ، وأما ثانيهما : فهو ماجدّله من بيئة صالحة ينمو فيها ويترعرع ، وهى بلاد الحجاز ، ومدينتاه : مكة ، ويثرب ؛ ثم ما صادف من عناية بعض الخلفاء به عناية جعلت المغنين ينالون من عطفهم وعطائهم ، ويحضرون مجالسهم . بل لقد زاد بعض الخلفاء : فكان له أصوات أحدثها وغنى بها كما سنفصل ذلك فيما يلى :

التجديد فى الغناء

حدث التجديد فى الغناء فى عصر الأمويين ، ويَرْوون فى سبب ذلك أنه لما ضرب الأمويون مكة بالمنجنيق حين كان ابن الزبير متحصناً فيها فأصابها خلل ، أحضر ابن الزبير بنات من الفرس لإعادة بنائها، فكانوا يغنون بالفارسية ، فالتقط النغم منهم سعيد بن مسجح ، وهو مكىّ أسود مولى لبنى مخزوم ، وغنى بذلك النغم فى لفظ

عربى ، فأعجب به الناس ، فسافر إلى الشام ، ثم إلى فارس ، فأتقن فنّ الغناء ، وعنه أخذ من جاء بعده من مغنى مكة والمدينة ، وكان أوّل لحن عمله ابن مسجح هو :

أَلِمْ عَلَى طَلَلٍ عَفَا مُتَقَادِمِ بَيْنَ الذُّؤَيْبِ وَبَيْنَ غَيْبِ النَّاعِمِ
لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِى قَدْ عسا فِيهِ الْمَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ

ولقد كثر المغنون والمغنيات بالحجاز كثرة فائقة حتى كانوا يخرجون للحجّ قوافل كما قال أبو الفرَج الأصفهانى ، واجتمع منهم فى زمن واحد بالحجاز من الرجال والنساء : سَعيد ابن مِسْجَح ، وابن سُرَيْج ، والغرِيض ، وابن مُحْرِز ، وابن عائشة ، ومَعْبَد ، وطُوَيْس ، والدَّلَال ، وجَمِيلة ، وهيْت ، وبَرْدُ الفؤاد ، ونَئُوم الضُّحَى ، وعَزّة الميْلاء ، وحبَابة ، وسَلّامة القَسّ ، وبَلِيلة ، ولَذّة الْعَيْش .

وكان لأهل المدينة طريقة تخالف طريقة أهل مكة ، وكان بين الفريقين تنافس ، واحتجاج للمذهب كما كان الشأن بين الشعراء فى ذلك الوقت .

بيئة الغناء

أما البيئة التى نشأ فيها الغناء الحديث وترعرع ، فهى الحجاز عموما ، وأخصّ بلاده مكة والمدينة ، فقد كانت للغناء فيهما سوق نافقة ، وحركة دائبة ، ولم تسعد عواصم البلاد إلا بما خرجت هاتان المدينتان من بلابل هذا الفنّ ، وليس عجيباً أن يكون هذا شأن مدينة بها بيت الله ، وأخرى هى مُهاجَر نبيه ، وموضع قبره الشريف ، فقد تعمد خلفاء هذه الدولة أن يوقعوا أولاد المهاجرين والأنصار فى أسر الترف ، وأن يشغلوهم باللهو حتى لا ينهضوا لمناوأتهم ، فكان منهم أن أفاضوا عليهم من المال ، وضاعفوا لهم من العطاء ، فانضمّ هذا إلى ما حفلت به مكة والمدينة من سبى الروم والفرس من بنات الملوك والأشراف ، فقد حضرن وهنّ يحملن آثار مدنيتهم وما جملتهم به الطبيعة من جمال ودلال ، فاختلط ذلك بما ركب فى طبع أهل الحجاز من رقة

ودعابة ، فزخرت المدينتان باللهو ، وحفلتا بمجالس الغناء ، وتعمد الخلفاء أن يتهاونوا فى إقامة حدود الشرع حتى يمعن هؤلاء فى غيّهم ولهوهم ، فكان منهم ذلك الإمعان ، وانتهى الحال إلى أن كانت مكة والمدينة أكثر بلاد الإسلام مخنثين ، وأكثرها اجتراء على المنكرات ، واحتساء للخمر

ومن عناية أهل الحجاز بالغناء أن معبداً ، والغريض وابن سريج كتبوا إلى حنين ، وكان وحده بالعراق ، فقالوا له : نحن ثلاثة ، وأنت واحد . فاقدم إلينا ، فلما قدم أذنت السيدة سكينة للناس إذناً عامًّا ، فغصّت بهم الدار ، وازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوا حنيناً ، فسقط الرواق على من تحته ، ومات حنين تحت الردم .

عناية الخلفاء بالغناء

اقتضت سياسة معاوية أن يكون محتشماً وقوراً لئلا يتخذ أعداؤه من مظهره حجة عليه ، ومطعناً يضيفونه إلى مايشوّهون به سمعته عند الناس ؛ وكان هذا المظهر هو الذى يليق بمعاوية من جدّه ، واشتغاله بالأمر العظيم ، وهو توطيد الملك لنفسه ولأبنائه من بعده ، فلم يكن من شأنه أن يشجع الغناء ، ولكنه لم ير كذلك أن يضرب على أيدى المغنين والعابثين ؛ لأن خطته إنما كانت أن يشغل عن الخلافة كلّ طامع فيها وهكذا كان موقفه مع عبد الله بن جعفر ، فكان ينكر عليه بلسانه ، ولا يحاول أن يغير بيده مايراه منصرفاً إليه من الإقبال على الغناء والاستماع له .

فقد ذكروا أن عبد الله هذا قدم على معاوية الشام فأنزله بدار عياله . فغاظ ذلك زوجة معاوية فاختة ، ثم إنها سمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله ، فقالت لمعاوية : هلمّ فاسمع ما عند هذا الذى جعلته بين لحمك ودمك وأنزلته بدار حريمك ، فسمع معاوية شيئاً حرّكه وأطربه ، ثم قال : والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال تخرّ له ، وما أظنه إلا من تلقين الجنّ ، ثم انصرف ، فلما كان آخر الليل سمع قراءة عبد الله ،

وهو قائم يصلى ، فأنبه فاختة ، وقال لها : اسمعى مكان ما أسمعتنى ، هؤلاء قومى ملوك بالنهار ، ورهبان بالليل .

ومرّ وهو بالمدينة يزور قبر رسول الله بدار عبد الله هذا ، فسمع غناء على أوتار ، فقال : أستغفر الله ، فلما انصرف آخر الليل سمع قراءته فى الصلاة . فقال : خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، هكذا كان معاوية لا يسمع الغناء ، ولا يضرب على أيدى مغنيه وسامعيه ، و إذا أنكر شيئاً منه ، فإنما يفعل إرضاء للعامة حتى لا يتهموه بالرضاء عن ذلك .

أما يزيد ابنه ، فقد سمع الغناء وهو ولىّ عهد ، ولكنه شغل عنه أيام خلافته بخروج الحسين بن علىّ عليه وكذلك عمر بن عبد العزيز كان مولعاً به أيام شبابه ، وحين ولايته للمدينة ، وقد وضع أصواتاً وغنَّى بها ، وكان من أحسن الناس صوتاً ، فلما ولى الخلافة شغلته تقوى الله ، ورعاية الحقوق عن أمور الدنيا ، وكان هشام لا يسمع إلا من مغنٍّ محتشم يغنى بأبيات الحكمة . وكل ما لا يخدش الأدب . وكان سليمان غيوراً على النساء ، فطارد المغنين ، وأمر واليه على المدينة أن يخصيهم حتى يؤمن شرّهم ، وإغواؤهم للنساء .

أما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، فقد راجت سوق الغناء فى أيامهما ، واستدعى المغنون إلى دار الخلافة ، وبذل المال الكثير فى شراء القيان ، حتى يروى عن يزيد أنه قال : ما تقرّ عينى بما أوتيت من الخلافة حتى اشترى سلامة وحبابة ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

وألقت عصاها واستقرّ بها النّوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وأما الوليد بن يزيد فلم يكن طروباً فحسب ، بل كان له فى صناعة الغناء حذق ، حتى لقد عمل أصواتاً غنى بها ومشى بالدفّ وغناها الناس بعده .

ومما نسب إلى عمر بن عبد العزيز صنعته فى هذه الأبيات :

عَلِقَ الْقَلْبُ سُعَادَا عَادَتِ الْقَلْبَ فَعَادَا

كُلَّمَا عُوتِبَ فِيهَا أَوْ نُهِى عَنْهَا تَمَادَى
وَهُوَ مَشْغُوفٌ بِسُعْدَى قَدْ عَصَى فِيهَا وَزَادَا

ومما نسب إلى الوليد صنعته فى قوله هو :

وَصَفْرَاءَ فِى الْكَأْسِ كَالزَّعْفَرَانِ سَبَاهَا التُّجِيبِىُّ من عَسْقَلَانِ
تُرِيكَ الْقَذَاةَ وَعَرْضَ الإِنَاءِ سِتْرٌ لَهَا دُونَ سِتْرِ الْبَنَانِ

أثر الغناء فى الشعر

لقد كان للغناء أثر عظيم فى رواج الشعر فى هذا العصر ، فقد كان الذين يسمعونه قبل ذلك هم الخاصة من أهل الفهم ، فلما غنى به صار يسمعه العامة فيفهمونه و يروونه ، فيشيع على الألسنة ، ويكون ذلك أذيع لحكمته وأسير لمدحه وغزله ، ويشتهر من جراء ذلك الشاعر الذى تغنى المغنون بشعره .

ولقد حرص الشعراء على أن تذيع شهرتهم ، وتسير أشعارهم ، وتحلو بالتوقيع الذى يجرى على ألفاظها . فيزيدها رونقاً بل يحدث لها جمالاً لم يكن لها ، ويكسب معناها روعة ما كانت لتظهر قبل أن يتناول اللفظ بالإيقاع الحسن والتقسيم المحبب إلى النفس، وكان الشاعر يرجو من وراء ذلك أن يغنى خليفة بقوله فيسأل عنه فيكون ذلك وسيلة لدنوّه وا كتسابه رضاه .

وقد استفاد الشعر من حرص الشعراء على أن يكون لشعرهم رواج عند المغنين ، فإن كلّ شاعر توخى ترقيق لفظه وتسهيله ليدخل فى التقسيم ويقبل التوقيع ، كذلك عمد إلى المعنى ، فجلاه أحسن تجلية ، وبلغ به غاية الدلّ واللين فى الغزل ، ومنتهى الصلابة والاستمساك فى الحماسة ، وذروة الزهو والإعجاب فى الفخر .

وفى القصة التالية : ما يدلك على أن الشعراء كانوا يتسابقون إلى حيازة هذا الشرف بأن يكون لشعرهم قبول عندالمغنين ، فيتناولونه بالتلحين والإيقاع ، ثم يشيعونه بالغناء به.

ذكروا أن نُصَيْباً وكُثَيِّراً والأحْوص خرجوا غِبَّ مطر إلى العقيق ، فانتهوا إلى مكان به رجال ونساء ، فسألهم النساء أن ينزلوا بهنّ فنزلوا ، ثم أدخلوا إلى امرأة جميلة برزة ، فرحبت بهم ، فإذا بكراسى مصفوفة ، فجلس كلٌّ واحد منهم على كرسى ، ثم أقبلت جارية جميلة ، فقالت لها مولاتها : خذى من قول النُّصَيب :

أَلاَ هَلْ مِنَ الْبَيْنِ الْمُفَرِّقِ مِنْ بُدّ   وَهَلْ مِثْلُ أَيَّامِى بِمُنْقَطِعِ السَّعْدِ
تَمَنَّيْتُ أَيَّامِى أُولٰئِكَ وَالْمُـــنَى   عَلَى عَهْدِ عَادٍ مَا تُعِيـــدُ وَمَا تُبْدِى

فغنته ، ثم قالت لها : خذى فى قوله :

أَرِقَ الْمُحِبُّ وَعَادَهُ سُهُدُهْ   لِطَوَارِقِ الْهَمِّ الَّتِى تَرِدُهْ
وَذَكَرْتُ مَنْ رَقَّتْ لَهُ كَبِدِى   وَأَبَى فَلَيْسَ تَرِقُّ لِى كَبِدُهْ
لاَ قَوْمُـــهُ قَوْمِى . وَلاَ بَلَدِى   فَنَكُونَ حِيناً جِـيرَةً بَلَدُهْ

فقال نصيب : فكدت أطير من السرور ، ثم قالت لها : خذى فى قول النصيب :

فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ تَمَتَّعْتُ طُولَهُ   وَهَلْ طَائِفٌ مِنْ نَائِمٍ بِمُمَتَّعِ

قال نصيب فجاءنى والله شىء حيرنى وأذهلنى طربًا لحسن الغناء وسروراً باختيارها الغناء فى شعرى ، وما سمعت فيه من حسن النغمة وجودتها و إحكامها ، ثم قالت : خذى أيضاً فى قوله :

أَيُّهَا الرَّكْبُ إِنِّى لَسْتُ تَابِعَكُمْ   حَتَّى تُلِمُّوا وَأَنْتُمْ بِى مُلِمُّونَا

قال نصيب : فوالله لقد زهوت زهواً حتى خيل إلىَّ أنى من قريش ، وأن الخلافة لى ، ثم قالت : حسبك يا بنية ، فوثب الأحوص وكثير ، وأسرعا بالخروج حسداً لنصيب ، وما ناله من شرف التغنى بشعره .

ويروى أن الأحوص حسد مَعْبَدًا مرّة على اختصاصه بسماع مغنية (هى عقيلة) ، فقال شعراً أساء معبداً ، فخلف ألا يكلمه ، ولايتغنى فى شعر فشقّ ذلك على الأحوص ، فلما طالت هجرته إياه ، رحل نجيباً له ، وجعل طلاء فى مِذْرع (زق) ، وجعله فى حقيبة رحله ، وأعدّ دنانير ، ومضى نحو معبد فأناخ ببابه ، ومعبد جالس بفنائه ، فنزل إليه

الأحوص فكلمه فلم يكلمه معبد ، فقال : يا أبا عباد أتهجرني ؟ فخرجت إليه امرأته وقالت أتهجو أبا محمد والله لتكلمنه فكلمه ، ثم احتمله الأحوص ، فأدخله البيت وقال : والله لا أريم هذا البيت حتى آكل الشواء وأشرب الطلاء وأسمع الغناء فقال له معبد : قد أخزى الله الأبعد ! ! هذا الشواء أكلته والغناء سمعته فأنى لك بالطلاء ؟ قال : قم إلى ذلك المذرع ففيه طلاء ، ومعه دنانير فأصلح بها ما تريد من أمرنا ففعل ، فانصرف الأحوص مع العصر وهو يتمايل نشوة .

مشهورو المغنين والمغنيات

١ — سعيد بن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح مولى بني مخزوم كان أسود ، وهو أول من غنى الغناء المتقن بمكة ، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد أحضر عمالا من الفرس لما مالت جوانب الكعبة على أثر ضربها بالمنجنيق في حصارها أيام معاوية ، فكان يسمع منهم غناء بالفارسية ، فما زال حتى نقله إلى العربية بعد النظر فيه والزيادة عليه والحذف منه

وقيل في سبب اهتدائه إلى الغناء الجديد : أنه سمع البنائين من الفرس الذين أحضرهم معاوية لبناء الدور المسماة بالرقط بمكة ، فيكون اهتداؤه إلى إدخال الغناء الفارسي في العربية على هذه الرواية أسبق منه على الرواية الأولى ، والمعقول أنه استفاد من الحادثتين ، ولم يتم له النقل أو الشهرة به إلا على أيام عبد الملك .

ومن أوائل صنعته ما غنى به في الأبيات الآتية من شعر الأحوص :

أَسَلَامُ إنكِ قد مَلَكْتِ فأَسْجِحِي قد يملك الحُرُّ الكريمُ فيُسْجِحُ
مُـــنِّى على عَانٍ أطَلْتِ عَناءَهُ في الغُلِّ عِنْدَكِ وَالْعُنَاةُ تُسَرَّحُ

إنى لأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ أنَّهُ سِيَّانِ عِنْدَكِ من يَغُشُّ وَيَنْصَحُ
وإذا شَكَوْتُ إلى سَلَامَةَ حُبَّها قَالَتْ أجِدٌّ مِنْكَ ذَا أَمْ تَمْزَحُ

وقد علم ابن سُرَيْج ، وعاش حتى لقيه معبد ، وأخذ عنه فى أيام عبد الملك .

ومن أخباره : أن عامل عبد الملك على مكة كتب إليه أن رجلا أسود يقال له : سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش ، وأنفقوا عليه أموالهم ، فكتب إليه عبد الملك أن اقبض ماله وسيره إلىّ ، فلما انتهى سعيد إلى دمشق قصد إلى مسجدها ، فسأل عن أخصّ الناس بأمير المؤمنين ، فقيل له هذا النفر من قريش ، فسلم عليهم وقال : هل فيكم من يضيف رجلاً غريباً ، فنظر بعضهم إلى بعض ، وكانوا على موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال لها «برق الأفق» ، فتثاقلوا إلا فتى منهم تذمّم ، فقال له : أنا مضيفك ، وقال لأصحابه : انطلقوا أنتم وأنا مع ضيفى ، فقالوا : لا ، بل تجىء أنت وضيفك ، فصاروا جميعاً إلى المغنية ، فلما رأى سعيد جمالها تمثل هذا البيت :

فقلت أشمسٌ أم مصابيح بِيعَةٍ بَدَتْ لَكَ خَلْفَ السَّجْفِ أم أنتَ حَالِمُ

فغضبت الجارية من أن يضرب بها هذا الأسود الأمثال ، ثم غنت فقال لها : أحسنت فزاد غضبها ، ثم غنت فقال : أخطأت ، ثم اندفع يغنى ، فوثبت الجارية ، فقالت لمولاها : هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح ، فلما عرف مكانه أبى البقاء ، وخرج مع مضيفه ، وقد تعلق به كلّ أن يكون عنده فأبى ، ثم إن مضيفه تلطف فى أن يسمعه عبد الملك بأن دخل عليه ، وأمره أن يحدو من وراء شرف القصر فحدا :

إنَّكَ يا مُعَاذُ يا ابْنَ الفُضَّلِ إن زُلْزِلَ الأقوامُ لم تُزَلْزَلِ
عَنْ دِينِ مُوسَى والْكِتَابِ المُنْزَلِ تقيم أصداغ القرون المُيَّلِ
* للحقّ حتى يَنْتَمُوا للأَعْدَلِ *

فقال عبد الملك للقرشى : من هذا ؟ فقال : حجازى قدم علىّ قال : أحضره ، فلما حضر . قال له عبد الملك : غنّ غناء الركبان . فغنى له ، ثم قال : هل تغنى الغناء المتقن ففنى ، فاهتزّ عبد الملك طرباً وقال له : من أنت ؟ قال : أنا المظلوم المقبوض ماله المسير

عن وطنه سعيد بن مسجح ، فتبسم عبد الملك وقال : وضح عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم وأمنه ووصله ، وكتب إلى عامله أن يرد إليه ماله ، ولا يتعرض له بسوء .

٢ — سَائِبُ خَاثِر

هو أبو جعفر سائب خاثر بن يسار من أهل المدينة كان مولى لبنى ليث من فىء الفرس ، واشتراه عبد الله بن جعفر فأعتقه ، وقيل : بل كان على ولائه لبنى ليث ، ولكن انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولزمه ، وعرف به ، و بلغ من اختصاصه به أن آلى سائب ألا يغنى أحداً سوى عبدالله إلا أن يكون خليفة أو ولىّ عهد أو ابن خليفة ، فكان على ذلك إلى أن قتل يوم الحرّة أيام يزيد بن معاوية .

و يقال فى سبب تعلمه الغناء : إن إماء صناجات كنّ لعبد الله بن عامر ، وكان يظهرهنّ كلّ يوم جمعة يلعبن أمام الناس و يسمعنهم . فأخذ عنهنّ ؛ وقيل أيضاً فى سبب ذلك : أن رجلا فارسياً اسمه نشيط قدم المدينة فغنى بالفارسية ، فأعجب به عبد الله ابن جعفر ، فقال له سائب : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى بالعربية ، ثم غدا على عبد الله ، وقد عمل لحناً فى هذه الأبيات :

لِمَنِ الدِّيَارُ رُسُومُهَا قَفْرُ ... لَعِبَتْ بِهَا الأَرْوَاحُ والقَطْرُ
وخَلاَ لَهَا من بَعْدِ سَاكِنِهَا ... حِجَجٌ مَضَيْنَ ثَمَانٍ أو عَشْرُ
والزَّعْفَرَانُ على تَرَائِبِهَا ... شَرِقٌ به اللَّبَّاتُ والنَّحْرُ (١)

وقيل : إنه أوّل من غنى على العود من أهل المدينة ، وقد أخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة المَيْلاء وغيرهم .

---

(١) الترائب : عظام الصدر ، أو مايلى الترقوتين أومابين الترقوتين والثديين ، أو موضع القلادة . وهذا المعنى لازم لما قبله وهو المراد فى البيت .

وقد سمع معاوية غناءه مرّات : فلما سمعه قدم عليه بالشام عبد الله بن جعفر فى الحديث الذى مرّ بك آنفا ، وسمعه ليلة وقد أشرف على منزل ابنه يزيد ، فسمع صوتاً فأعجبه ، ومازال حتى تعب من الوقوف ، فدعا بكرسىّ وجلس عليه ، فاستمع بقية ليلته. فلما أصبح غدا على يزيد ، فقال له : يا بنى ! من كان جليسك البارحة ؟ فحاول يزيد الكتمان ، فقال له : أفصح ، فإنه لم يخف علىّ من أمرك شىء ، فقال : هوسائب خاثر، فقال : أكثر له يابنىّ من برّك وصلتك ، فما رأيت بمجالسته بأساً ، وقدم معاوية المدينة فى بعض ما كان يقدم له ، فأمر حاجبه بالإذن للناس فخرج ورجع ، فقال له : ما بالباب أحد ؟ قال معاوية : وأين الناس ؟ قال : عند عبد الله بن جعفر ، فتوجه إليه معاوية ، فلما جلس قال : بعض القرشيين لسائب خاثر : مطرفى هذا لك إن اندفعت تغنى ، فقام بين السماطين ، وغنّى :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى   وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

فأصغى إليه معاوية حتى سكت .

وقد قتل سائب يوم الحرّة . وذلك أن جند الشام لما حاصروا المدينة سنة ٦٣ ﻫ فى خلافة يزيد بن معاوية ، وكان أهلها قد خلعوا طاعته فأرسل إليهم جيشاً عدّته اثنا عشر ألفاً وعليه مسلم بن عقبة ، استباحوا المدينة ثلاثة أيام ، وكان فيمن قتل سائب الذى كان جليس يزيد فى ولاية عهده ، ولذلك استرجع يزيد لما قرأ اسمه بين القتلى ، وقال : قبح الله أهل الشام، أو بلغ القتل إلى سائب خاثر وطبقته ؟ .

٣ — عبد الله بن سريج

هو أبو يحيى عبد الله بن سريج من أهل مكة . قيل : كان مولى لبنى نوفل بن عبد مناف ، وقيل يشرك هو وسعيد بن مسجح فى ولاء بنى ليث . قال أبو الفرج الأصبهانى فى صفته : إنه كان آدم الوجه أحمر ظاهر الدم سناطاً فى عينيه ، قيل بلغ خمسا وثمانين سنة ، ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك .

وقد أخذ الغناء عن ابن مسجح ، وكان أوّل ماشتهر بالغناء فى ختان ابن مولاه .

قال ابن سريج لأم الغلام : خفضى عليك بعض المغرم والكلفة ، فوالله لألهينّ نساءك حتى لايدرين ماجئت به .

وكان ابن سريج رجلا عاقلاً أديباً يعاشر الناس بما يشتهون فلا يغنيهم بما مدح به أعداؤهم، ولا بما فيه عارعليهم أوغضاضة منهم، وقد بلغ الوليد بن عبد الملك أدبه وظرفه وحلاوة حديثه وجودة اختياره ، فكتب إلى عامله بمكة أن يشخصه إليه ، فلما صار إلى مجلس الوليد بن عبد الملك قال له : هات ما عندك ، فغناه فى شعر الأحوص :

إِمَامٌ أَتَاهُ الْمُلْكُ عَفْوًا وَلَمْ يُثِبْ عَلَى مُلْكِهِ مَالاً حَرَامًا ولا دَمًا

تَخَيَّرَهُ رَبُّ الْعِبَادِ لِخَلْقِهِ وَلِيًا وكان الله بالناس أَعْلَمَا

يَنَالُ الْغِنَى والعِزَّ مَنْ نَالَ وُدَّهُ وَيَرْهَبُ خَوْفًا عَاجِلاً مَنْ تَشَأَّمَا(١)

ومازال يغنيه حتى أشار الوليد إلى الخدم أن غطوه بالخلع ففعلوا ، ثم قال الوليد : يامولى بنى نوفل ، لقد أوتيت أمراً جليلاً . قال ابن سريج وأنت يا أمير المؤمنين لقدآتاك الله ملكاً عظيماً ، وشرفاً عالياً ، وعزّاً، بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك ولايفعل إن شاء الله ، فأدام الله لك ما ولاك ، وحفظك فيما استرعاك ، فإنك أهل لما أعطاك ، ولا ينزعه عنك إذ رآك له موضعاً . فقال له الوليد : وخطيب أيضا . قال : عنك نطقت ، وبلسانك تكلمت ، و بعزّك بينت .

وكان الوليد قد أمر بإحضار الأحوص ، وعدىّ بن الرقاع ، فجرت ملاحاة بين عدىّ ، وابن سريج ، وعلم بها الوليد فأحضره مجلسه وأرخى دونه ستراً ، ثم أمره إذا فرغ عدىّ والأحوص أن يندفع فى الغناء ، فلما سمع عدىّ الغناء استأذن فى الكلام ، فقال مثل هذا عند أمير المؤمنين ، ويبعث إلى ابن سريج يتخطى به رقاب قريش ،

---

(١) تشأم: أخذ فى جهة شماله . والمراد به كونه حائدا عن الطريق السوىّ . وقد كنى القرآن عن أهل الخير بأصحاب الميمنة وعن أهل الشر بأهل المشأمة . والمراد أنه يرهب من عاداه ولم يكن من شيعته .

والعرب من تهامة إلى الشام ترفعه أرض ، وتخفضه أخرى ليسمع غناءه . قال : ويحك يا عديّ . هذا هو ابن سريج ، فقال : لولا أنه فى مجلس أمير المؤمنين لقلت طائفة من الجنّ يغنون ، ثم أمره الوليد بالظهور ، فلما رآه عديّ قال : حق لهذا أن يحمل .

ومن أخباره : أن عطاء بن رباح لقيه بذى طوى ، وعليه ثياب مصبغة ، وبيده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ، ويجذبها كلما تخلفت ، فقال له عطاء : يا فتان ، ألا تكفّ عما أنت فيه ؟ قال ابن سريج : وما على الناس من تلوين ثيابى ولعبى بجرادتى . قال عطاء : تغنيهم بأغانيك الخبيثة ، فقال له : بحقّ من اتبعته من أصحاب رسول الله وبحقّ رسول الله إلا سمعت منى ، فإن أنكرت أمرتنى بالإمساك عما أنا فيه ، فأقسم بالله وبحقّ هذه البنية إن أمرتنى بالإمساك لأفعلن ، فأطمع ذلك عطاء فى ابن سريج ، وقال له : قل ، فاندفع يغنى بشعر جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادرُوا وشلا بعينك ما يزالُ معينا
غيضن من عبراتهنّ وقلن لى ماذَا لقيتَ منَ الهوى ولقينا

فلما سمعه عطاء اضطرب اضطرابًا شديداً ، وداخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من الحرام ، فكلّ من يأتيه يسأله عن حلال أو حرام أو خبر لا يخبره إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب ، ولم يعاود ابن سريج بعدها ولا تعرّض له .

وروى أيضاً : أن عُمر بن أبى ربيعة حجّ فى عام ومعه ابن سريج ، فلما رموا بالجمرات تقدما الحاج إلى كثيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة ، وطريق الشام ، وطريق العراق ، وهو كثيب شامخ منفرد عن الكثبان ، فصارا إليه وأكلا وشربا ، ثم أخذ ابن سريج الدفّ فنقره ، وجعل يغنى وهما ينظران إلى الحاج ، فلما أمسيا رفع ابن سريج صوته ، وتغنى بشعر ابن أبى ربيعة ، فسمعه الركبان ، فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت ، أما تتقى الله قد حبست الناس عن مناسكهم فيسكت

قليلا حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن وقف عليه رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكثيب ، ثم نادى : يا صاحب الصوت ، أيسهل عليك أن تردّد شيئاً مما سمعتُه منك ؟ فقال : نعم ونَعْمَةَ[1] عين ، فأيها تريد ؟ فاقترح صوتاً غناه ، ثم آخر ، ثم قال له ابن سريج ، هل بقيت لك حاجة ؟ قال تنزل لأخاطبك ، فنزل إليه ، فإذا هو يزيد بن عبد الملك فأعطاه حلته وخاتمه ، وقال : خذهما ولا تخدع عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار ، فعاد بهما ابن سريج وأعطاهما ابن أبي ربيعة ، وقال له : هما بك أشبه ، فعوّضه عنهما ثلثمائة دينار .

٤ — معبـــد

هو معبد بن وهب من أهالي المدينة . قيل : هو مولى بن قطر ، أو مولى العاص ابن وابصة المخزومي ، أو مولى معاوية بن أبي سفيان .

كان يرعى غنماً لمواليه أو يتصرّف لهم في التجارة ، وكان يختلف مع ذلك إلى نشيط الفارسي ، وسائب خاثر حتى حذق الغناء وسمع الألحان ، فأجاد واعترف له بالتقدّم على أهل عصره . وحدث عن نفسه قال : صنعت ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلىء ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر متكىء أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم ، ويحكى عن نفسه : أنه كان يأتي صخرة بالحرّة ملقاة بالليل فيستند إليها ، فيسمع صوتا يجرى في مسامعه فيقوم من النوم فيحكيه . قال : فهذا مبدأ غنائي .

---

(١) تضمّ على أنها مبتدأ خبره تقديره لك ، وتنصب على إضمار فعل : أي أفعل ذلك إنعاماً لعينك أي إكراماً ، وفي لفظ « نعـمة » لغات هي نعم عين ، ونعمة عين ونعام ونعيم بفتحهنّ ونعام ونعمى ونعم ونعمة بضمهنّ ، ونعمة ونعام بكسرهما .

والذى نفهمه فى تعليل ذلك أن رغبته فى الغناء ملكت عليه مشاعره حتى كان يختلس الأوقات للتخرّج على نشيط وسائب ، وكان إذا نام أوهدأ اشتغل عقله الباطن بالغناء ، وتمثلت له النغم ، وقوى شعوره بها ، فكأنه يسمعها ، وكأن ملقياً يلقيها عليه .

وقيل له : كيف تصنع إذا أردت أن تصوغ الغناء ؟ فقال : أرتحل قعودى وأوقع بالقضيب على رحلى ، وأترنم عليه حتى يستوى الصوت .

وقد قدم ابن سريج المدينة فأسمعوه غناء معبد وهو غلام ، فقال : إن عاش هذا كان مغنى بلاده ، وقد صدق ظنّ ابن سريج ، فإن معبداً لم يلبث أن اشتهر فى الحجاز كله ، ووصلت شهرته إلى الشام ، فاستقدمه الوليد بن يزيد ، وعقد له المجالس ، وتبذل فى محضره تبذلا كبيراً ، وكان نصيبه منه فى القدمة التى قدمها عليه أوّلا خمسة عشر ألف دينار .

وفى آخر حياته أصيب بالفالج ، وارتعش و بطل ، فكان إذا غنى ضحك الناس منه وهزئوا به . وقيل : مات فى عسكر الوليد بن يزيد ، فتولى أمر إخراجه إلى المقبرة ، وخرجت سلامة القس (جارية يزيد) ، وأخذت بعمود السرير ، وهى تبكى ، وتقول :

قَدْ لعَمْرِى بِتُّ لَيْلِى   كَأَخِى الدَّاءِ الْوَجِيعِ
وَنَجِىُّ الْهَمِّ مِنِّى   بَاتَ أَدْنَى مِنْ ضَجِيعِى
كُلَّما أَبْصَرْتُ رَبْعاً   خَالِياً فَاضَتْ دُمُوعِى
قَدْ خَلا مِنْ سَيِّدٍ كا   نَ لَنَا غَيْرَ مُضِيعِ
لاَ تَلُمْنَا إنْ خَشَعْنَا   أَوْ هَمَمْنَا بِخُشُوعِ

وكان قد علمها هذا الصوت فندبته به ومشى الوليد والغمر أخوه فى جنازته حتى أخرج من دار أخيه .

ومن أخباره أن الوليد اشتاق إليه ، فوجه إليه البريد إلى المدينة فأحضره ، فلما

قدم أمر الوليد ببركة ملئت ماء ورد ، وخلطه بالمسك والزعفران ، وأجلس معبدا ناحية منها وبينه وبين الوليد ستر ، ثم قال غنّ :

لَهفِى عَلى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمانُ لَهُمْ ... فَمَا أَصابَهُمُ إلاَّ بِمَا شاءُوا
مَا زَالَ يَعْدُو عَلَيْهِمْ رَيْبُ دَهْرِهِمُ ... حَتَّى تَفَانَوْا وَرَيْبُ الدَّهْرِ عَدَّاءُ
أَبْكَى فِرَاقُهُمُ عَيْنِى وَأَرَّقَها ... إنَّ التَّفرُّقَ لِلأَحْبابِ بَكَّاءُ

فقذف الوليد بنفسه فى البركة ، ثم أتى بأثواب غير التى عليه ، وقال : غننى :

يَا رَبْعُ مَالَكَ لاَ تُجِيبُ مُتَيَّماً ... قَدْ عَاجَ نَحْوَكَ زَائِراً وَمُسَلِّمَا
جَادَتْكَ كُلُّ سَحَابَةٍ هَطَّالَةٍ ... حَتَّى تُرَى عَنْ زَهْرِهِ مُتَبَسِّمَا
لو كنت تدرى من دَعاكَ أجبتَه ... وبكيتَ مِنْ حَرَقٍ عليه إذًا دما

ثم فعل الوليد فعله فى الصوت الأول ، ثم غنى :

عَجِبَتْ لَمَّا رَأَتْنِى ... أَنْدُبُ الرَّبْعَ الْمُحِيلاَ
وَاقِفاً فى الدَّارِ أَبْكِى ... لاَ أَرَى إلاَّ الطُّلُولاَ
كَيْفَ تَبْكِى لِأُنَاسٍ ... لاَ يَمَلُّونَ الذَّمِيلاَ
كُلَّمَا قُلْتُ اطْمَأَنَّتْ ... دَارُهُمْ جَدُّوا الرَّحِيلاَ

ففعل كذلك ، ثم قال يا معبد ، أكتم عنا ما رأيت ووصله بما ذكرنا .

حدث معبد عن نفسه قال : غنيت فأعجبنى غنائى ، وأعجب الناس وذهب لى صيت وذكر ، فقلت لآتين مكة ، فلأسمعن من المغنين بها ولأغنينهم ولأتعرفن إليهم ، فلما صرت فى مجلسهم جعلت أعجب بغنائهم ، وأظهر لهم ذلك ويعجبهم منى حتى أقمنا أياما ، فأخذت من غنائهم ولا يدرون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج : فديتك أمسك على صوتك :

قُلْ لِهِنْدٍ وَتِرْبِهَا ... قَبْلَ شَحْطِ النَّوَى غَدَا

إِنْ تَجُودِى فَطَالَمَا بِتُّ لَيْـلِى مُسَهَّدَا
أَنْتِ فِى وُدٍّ بَيْنِنَا خَـيْرُ مَا عِنْدَنَا يَدَا
حِينَ تُدْلِى مُضَفَّرًا حَالِكَ اللَّوْنِ أَسْوَدَا

فلما سمعه صاح وصاحوا ، ثم قلت له : أمسك على صوت كذا ، ثم صوت كذا ، فلما رأوا ذلك منى صاحوا حتى علت أصواتهم ، وهرفوا بى وقالوا : والله لأنت أحسن بأداء أصواتنا منا ، ثم غنيت لهم من أصواتى ، فوثبوا إلىّ ، وقالوا : من أنت ؟ قلت : معبد فقبلوا رأسي ، وأقمت بينهم شهراً آخذ منهم ، ويأخذون منى ، ثم انصرفت إلى المدينة .

وحدث معبد أيضاً قال : بينا أنا يوما فى بعض حمامات الشام إذ دخل رجل له هيئة ومعه غلمان ، واشتغل به صاحب الحمام عن سائر الناس ، فقلت : لئن لم أطلع هذا الرجل على بعض ما عندى لأكونن بمزجر الكلب فترنمت ، فالتفت إلىّ واحتفى بى ، ثم سألنى المضىّ إلى منزله ، فأجبته ودعانى إلى الغناء فاجتهدت فيه ، وجعلت أخرج من حسن إلى أحسن ، وهو لا يرتاح ، ولا يحفل لما يرى منى ، فلما طال عليه أمرى قال : يا غلام شيخنا شيخنا ، فجاء شيخ ، فأخذ عوداً ، ثم اندفع يغنى :

سَـلُّورْ فِى القِدْرْ وَيْلِى عَلُوهْ جَاءَ القِطُّ أَكَلُهْ وَيْلِى عَلُوهْ

(السلور : نوع من السمك)

فجعل صاحب الدار يصفق ويضرب برجله طربًا وسروراً ، ثم غناه :

وَتَرْمِينِى حَبِيبَةُ بِالدَّرَاقِنْ وَتَحْسَبُنِى حَبِيبَةُ لَا أَرَاهَا

(الدراقن : الخوخ بلغة الشام ، فكاد الرجل يخرج من جلده طربًا ، قال معبد ، فانسللت منهم ، ولم يعلموا بى ، فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ، ولا شيخا أجهل .

٥ — عزة الميـــــلاء

كانت مولاة للأنصار ومسكنها المدينة ، وسميت الميلاء لتمايلها فى مشيتها .

وقد كانت من أجمل النساء وجهاً ، وأحسنهن جسماً ، وكانت عفيفة . قال عنها طويس « هى سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع وخلق فاضل و إسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير ، وهى من أهله ، وتنهى عن الشرّ وهى تجانبه ، فناهيك بها ! ما كان أنبلها وأنبل مجلسها ، إذا جلست جلوساً عامًّا ، فكأن الطير على رءوس الناس ، فمن تكلم أو تحرك نقر رأسه » .

ويقول معبد عنها : « كانت من أحسن النساء صوتاً بعود مطبوعة على الغناء لا يعييها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه » ، وكانت رائعةُ أستاذتُها فى الغناء القديم ، فلما قدم نشيط المدينة ، ونشأ بها سائب خاثر أخذت عنهما الغناء المتقنَ ، فهى أوّل من فتن أهل المدينة بالغناء ، وحرّض رجالهم ونساءهم عليه ، وكان عبد الله بن جعفر ، وابن أبى عتيق ، وعمر بن أبى ربيعة يغشونها فى منزلها فتغنيهم . وقد غنت يوما عمر فى بعض أشعاره ، فشقّ ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قيل له : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . قال : إنى سمعت مالم أملك معه نفسى وعقلى ، وكان حسان ابن ثابت معجباً بها ، وكان يقدمها على سائر قيان المدينة ، وسمعها تغنى فى قوله :

أُنْظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جِلِّقَ هَلْ   تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ

فجعل يبكى ويقول : أرانى بها سميعاً بصيراً ، (وكان قد كفّ بصره) ، وعنها أخذ ابن محرز المكى الذى طارت له فى الغناء شهرة عجيبة ، والذى يقال فى وصف غنائه : كأن ابن محرز خلق من كلّ قلب فهو يغنى كلّ إنسان بما يشتهى ؛ وقد كان ابن محرز

هذا يقيم بالمدينة ثلاثة أشهر يتعلم فيها الضرب عن عزّة ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة مثلها . ثم يشخص إلى فارس يتعلم ألحان الفرس ، ويأخذ غناءهم ثلاثة أشهر أيضاً ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم . فمزج بعض ذلك ببعضه ، وألّف الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب وأتى بما لم يسمع مثله .

ومن أخبار عزّة : أن النعمان بن بشير الأنصارى قدم المدينة فى أيام يزيد ابن معاوية ، فقال : والله لقد أخفقت أذناى من الغناء ، فأسمعونى ، فقيل له : لو توجهت إلى عزّة ، فإنها من قد عرفت . قال : إى وربّ البيت إنها لممن يزيد النفس طيباً ، والعقل شحذاً ، ابعثوا إليها عن رسالتى ، فإن أبت صرنا إليها ، فاعتلت فصار إليها فى خواصّ أصحابه ، فأكرمتهم واعتذرت ، فقبل النعمان العذر وغنته :

أَجَـدَّ بِعَمْرَةَ غُنْيَانُهَا فَتَهْجُرَ أَمْ شَأْنُنَا شَانُهَا
وعَمْرَةُ من سَرَوَاتِ النّسا ءِ تَنْفَحُ بالمسك أَرْدَانُهَا

فأشير إليها أنها أمه فسكتت ، فقال : فوالله ما ذكرت إلا كرمًا وطيباً لا تغنينى سائر اليوم غيره .

قيل : قدم عبد الله بن جعفر على معاوية وافداً ، فدخل عليه إنسان ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : هذا ابن جعفر يشرب ويسمع الغناء ويحرّك رأسه عليه ، فجاء معاوية متغيراً حتى دخل على عبد الله ، وعزّة الميلاء بين يديه كالشمس الطالعة فى كداء البيت يضىء بها البيت تغنيه على عودها :

تَبَلَتْ فُؤَادَكَ فى الظَّلَامِ خَرِيدَةٌ تَشْـفِى الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ

وفى يده عسّ ، فقال : ما هـذا يا أبا جعفر ؟ قال : أقسمت عليك يا أمير المؤمنين لتشربنّ منه فشرب ، فإذا عسل مجدوح بمسك وكافور ، فقال : هذا طيب ، فما هذا الغناء ؟ قال : هذا شعر حسان بن ثابت . قال : فهل تغنى بغير هذا ؟ قال : نعم بالشعر الذى يأتيك به الأعرابى الجافى الأدفر ، القبيح المنظر ، فيشافهك به فتعطيه عليه ، وآخذه أنا فأختار محاسنه ورقيق كلامه ، فأعطيه هذه ، الحسنة الوجه ، اللينة الملمس ، الطيبة

الريح ، فترتله بهـذا الصوت الحسن . قال : فما تحريكك رأسك ؟ قال : أريحية أجدها إذا سمعت الغناء ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو لقيت لأبليت . قال معاوية : قبح الله قوماً عرضونى لك ، ثم خرج و بعث إليه بصلة .

⁂

هذا ما مكنتنا منه معونة العلىّ القدير من القول فى أبواب منهاج الأدب العربى وتاريخه لطلاب السنة الثانية بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية ، ونرجو أن يكون النفع بعملنا هذا كفاء الجهد ، والإخلاص فى إظهاره ، بريئاً من تهمة الجمود . والعكوف على القديم البالى ، محصناً من مغالاة التجديد الذى يضيع معـه الحقّ ، وتُطْمس معالمه .

ولا ندعى لهذا العمل كمالاً ، بل إننا نستعين الله أن يمكننا من إعادة النظر فيه فى فراغ من الوقت والبال لنتدارك نقصاً ، ونتجنب سقطاً ، والحمد لله والصلاة على رسوله وآله أوّلاً وآخراً ؟

٣ من ذى القعدة سنة ١٣٥١
٢٧ من فبراير سنة ١٩٣٢

المؤلف

محمود مصطفى

⁂

ونحن نحمد الله تعالى إذ أجاب دعاءنا ، فتمكنا عند إعادة طبع الكتاب من النظر فيه ، وتكميل نقصه على قدر الاستطاعة ، والله الهادى لأقوم سبيل ؟

ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ هـ
يوليـو سنة ١٩٣٧ م

محمود مصطفى

تمّ الجزء الأوّل ، ويليه الجزء الثانى

وأوّله

العصر العباسى

تنبيـــه

على القارئ للكتاب أن يعجل بتصحيح أغلاطه حسب البيان الآتى ليقرأه بعد ذلك وهو مطمئن غير شاكّ فى عبارة من عباراته

الصفحة	السطر	الخطـــأ	صـــوابه
٧	١١	عِمِيَّة	عِمِّيَّة
١٧	١٥	والذ كرُ	والذ كرِ
٣٢	١٧	نفوسهما	نفوسهم
٣٣	٢	ثم يصل	ثم لم يصل
٤٣	١٤	الحلفاء	الخلفاء
٤٤	٥	السامة	السامية
٤٦	١٥	يلو	يتلو
٤٨	١١	بعذ	بعد
٥٧	١٤	و غب	ورغب
٥٩	٢٢	ثنان	اثنان
٥٩	٢٤	الحريك	التحريك
٦٩	٩	الناس فى	الناس إليه فى
٧٠	٨	تدارت	تدابرت
٧٢	٣	الفاجر بن الفاجر	الفاجر ابن الفاجر
		الفاجر بن الكافر	الفاجر ابن الكافر

الصفحة	السطر	الخطـــأ	صـــوابه
٧٨	٣	العجة	المجمة
٨٣	٩	شَعبة	شُعبة
٨٦	٨	أى	إى
٩١	١٢	ويُودَى	ويودِى
١٠٤	١٠	أَرِيهمُ	أُرِيهمُ
١٠٦	١٦	وذلك على	وذلك بعد وفوده على
١٠٧	١٩	لوافى	الوافى
١٠٩	١١	من حلو	بعد حلو
١١٢	١٠	بالْأَدْوية	بالَأُدْوية
١٢٠	١٤	وزيد ابن رفاعة	وزيد بن رفاعة
١٢٦	٢٣	أما	إما
١٢٦	٢٥	صبهاء	صهباء
١٣٠	٢	مِنْ	مَنْ
١٤٦	١٧	الجوارى	الجوازى
١٥٢	٢٠	أورى	أروى
١٥٣	١٤	صره	صدره
١٥٩	٧	الرشدين	الراشدين
١٧٠	٢٣	لا يَفْتِيَنَّ	لا يُفتِيَنَّ
١٧٢	٢	الخطر	الخط
١٧٢	٩	يعْمِر	يعْمَر

الصحفة	السطر	الخطـــــــأ	صـــــــوابه
١٨٣	١٦	الغداة أو العشى	الغداة والعشى
١٨٧	٣	حيًا	حيًا
١٨٨	١٥	كتب بن مالك	كعب بن مالك
١٩٢	٢٢	مولى بن عباس	مولى ابن عباس
١٩٣	٦	وتساوموا	وتساموا
٢٠١	٧	وليس	أو ليس
٢١٤	١	الشّد	الشَّد
٢١٦	٢٢	شبهة	شهبة
٢٢٥	٣	نجربة	تجربة
٢٢٥	١٩	آمين	أمين
٢٢٨	١٨	سياسية	سياسة
٢٣٦	١	بن زيدون	ابن زيدون
٢٤٠	١٧	مخزم	مخرم
٢٤٩	٦	لم تثنى	لاتثنى
٢٥٠	٢٠	(تبادلة)	(تبادله)
٢٥٣	١٢	ينتطرون	ينتظرون
٢٥٩	٢	بينهما	بينها
٢٦٨	١٧	سمّوا	سُمُوًّا
٢٧٢	١٠	ترفيق	ترقيق
٢٨٣	١٢	بالنقص	بالنقض

صـــوابه	الخطـــأ	السطر	الصفحة
أُميّة	أمية	٧	٢٨٩
تهاجوا	يهاجوا	١٣	٢٨٩
كلّ	كلْ	١	٢٩١
طربتُ وكنتُ	طربتَ وكنتَ	٦	٢٩٤
الذرو من	الذرو مں	٢٢	٢٩٦
وسيِّدنا	وسيَّدنا	١	٣٠٥
الفرنتى	الفزتنى	٢٤	٣١١
هو السابق	هذا السابق	٢٠	٣١٢
أنهم ذوو الأولية	أنهم ذو الأولية	٢٤	٣١٢
عُمارة	عِمارة	٧	٣١٨
وهم : جرير	وهو : جرير	١٧	٣٢٠
غيرَكم	غيرُكم	٧	٣٢٧
الذلفاء	الزلفاء	٣	٣٤٦
المُرَزّآت	المُرَازّآت	١٥	٣٤٧
نُمَيْرِ	نُمَيْرَ	٤	٣٥٢
أمِنَ آل	أمِنْ آل	٧	٣٥٣
يُعْقَدُ	يُعْقَدِ	١٠	٣٥٣
أى لا يكون	أن لا يكون	٢٢	٣٥٥
على المحب	على الحب	١٨	٣٥٦
آية الشتاء	آية الشقاء	٢٢	٣٥٦

الصفحة	السطر	الخطــــــأ	الصـــــواب
٣٥٨	١١	يا ابن الفاعلة	يا بن الفاعلة
٣٦٢	١٥	جرير ، والفرزدق	جرير الفرزدق ،
٣٦٣	١٧	يدلّ	بدلّ
٣٦٥	٣	ما يقوم	ما يقدم
٣٧٣	٢٠	بنات	بناة
٣٧٤	٨	والدّلاَل	وَالدّلاَل
٣٧٧	٥	الإناَء	الإناء
٣٧٩	١٤	أنه	إنه
٣٨٠	٢	أَجدٌ	أَجِدٌ
٣٨١	١٠	غامر	عامر

فهرس

[تمت]